



لصوير أحمد ياسين

عسالمبلاإسسلام؟



لطويا أحمد باسين

إصدارات سطور الجديدة

رئيس مجلس الإدارة؛ د. فاطمة نصر

المستشار الفني: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com

عــالمبلا

تأليف، جـرايهـام إى. فـولر ترجمة ، أحمد جمال أبو الليل

لصوير أدمه ياسين

> هذه هي الترجية الكاملة لكتاب A World Without Islam Graham E. Fuller : الثواف دار نشر : Back Bay Books, 2010



ـ الكتاب: عالم بلا إسلام؟

- تأليف: جرايهام إى، فوار

ترجمة: أحمد جمال أبو الليل

– غلاف: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com

- المراجعة اللغوية: عمر حسن الشناوي omar_shenawy@yahoo.com

الطبعة ج ٢٠١٢

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٢١٢٤٣

الترقيم الدولي: 03-03-977-978

جميع حقرق التأليف محفرظة للمؤلف

٨ و٣٢ تقسيم الشيشيني بحوار الكويري الدائري

كورنيش المعادى ت: ٢٥٢٤٠٠٠/ ٩٩٥٢٦٢٥٢

e.mail address:sutour@linh.net

الموقع الإلكتروني

www.sutour2.com

صفحة فيس بوك

www.sutouralgadida.com



بياناتالفهرست

جرايهام إي، قوار

عالم بلا إسلام؟

ترجمة: أحمد جمال أبو الليل

ط ١٠- (القاهرة: مكتب سطور للنشر ٢٠١٣)

مکتب سطور، ۲۰۱۲

ص: سم ۷۱ /۲۱

تدمك: ۳- ۱۹۲۰ ۷۷۹ ۸۷۹

١- عالم بلا إسلام؟

أ - جمال ، أحمد (مترجم)

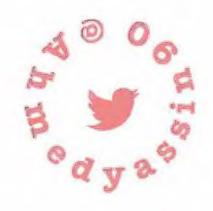
ب- العنوان: ٨ و٢٢ تقسيم الشيشيني بجوار الكوبري الدائري

كورنيش المعادي ت: ۲۰۲۲-۲۰۰۲ م۲۲۲۲۹۴

e.mail address:sutour@linh.net

الموقع الإلكتروني

www.sutour2.com



تصوير أحمد باهبن تويتر @Ahmedyassin90



ماذا لو أطلقنا العنان لخيالنا "لعالم بلا إسلام "؟ يبدو الأمر شبه مستحيل، إذ تسبطر مشاهد الإسلام والإحالات إليه على عناوين الأخبار، وبرامج الفضائيات، وشاشات الكمبيوتر، وحلقات الجدل السياسي، كذلك، تجد أنفسنا في غمار مصطلحات كالجهاد، والفتوى، والمدرسة، وطالبان، والوهابية، والملالي، والشهيد، والمجاهدين، والراديكاليين الإسلاميين، ومن الجلي أن الإسلامين محتل موقع الصدارة في الصراح الأمريكي ضد الإرهاب وكذا الضلوع في العديد من الصروب التي شنت رفق شعار "الحرب الشاملة ضد الإرهاب".

وحقيقة الأمر، فإن الإسلام يقدم طرحا ومحكا تحليليا جاهزا ويسيرا لجمهرة من القضايا بالشرق الأوسط، يمكن من خلاله تلمس الحقيقة في عالم اليوم المأزوم، وبالإحالة إلى الإسلام، يمكننا أن نخلص إلى كون الصراع يدور بين قطبين: "المعتقدات الغربية"، و"العالم الإسلامي". ووفقا لبعض " المحافظين الجدد "، فإن "الإسلام الفاشستي"، في واقع الأمر، يمثل في الوقت الراهن العدو اللبود في حاضر تلوح في أفاقه نذر حرب كونية رابعة، أو "حرب ممتدة الأجل" – صراع أيديولوجي هائل يرتكز على الدين ويغفل العديد من العوامل الأخرى التي أسهمت بجلاء في تأجيع الصراع ما بين الشرق والغرب وفاقمت من مظاهر المواجهة بينهما.

وفي هذا الكتاب، سيناقش الطرح من الجهة المعاكسة، أو بالأحرى من وجهة

نظر مفايرة، قلو لم يكن هناك إسلام، وأو لم يبعث النبى محمد في صحراء العرب، وأو لم يمتد الإسلام ليشمل أجزاء شاسعة من الشرق الأوسط وآسيا وإفريقيا ... أكان للعلاقة بين الغرب والشرق الأوسط أن تتخذ نهجا مغايرا ومنحى مختلفا عما نشهده اليوم؟! كلا، فالرأى عندى أن الأمر لم يكن ليختلف كثيرا عما نشهد حاليا.

ويما أن هذا الطرح يبدو للوهلة الأولى مخالفا للحدس الصائب أو البداهة، يمكننا تقديم إشارات وشواهد جلية تثبت وجود قلاقل وثورات جيوبوليتيكية غائرة تضرب بأطنابها في علاقات الشرق الأوسط بالغرب، إذ بتتبع جذورها نلقاها ضارية في التاريخ لما قبل انبعاث الإسلام ذاته، بل يتعدى الأمر ذلك ليسبق ظهور المسيحية أيضا، وقد أسهمت كوكية من العوامل المتباينة الأخرى بقوة في نشأة العلاقات بين الشرق والغرب على امتداد ردح طويل من الزمان لعل أهمها، المصالح الاقتصادية والجيوبوليتيكية، وصراعات القوى والنفوذ فيما بين المالك الإقليمية،

فضلا عن الصراعات الإثنية والنزعات القومية، بل تعدى الأمر ذلك ليصل إلى صراعات مستعرة في نطاق المعسكر المسيحى ذاته – وتعطى الشواهد السابقة جميعها إشارات بالغة الدلالة على ائتنافس المحموم بين الشرق والغرب، والمواجهات فيما بين الطرفين والتي تكد تكون واهية الصلة " بالإسلام "، إن لم تكن منبتة عنه تماما.

ويسبر الأغوار شيئا فشيئا، في تتبعنا العلاقة بين الغرب والشرق الأوسط ومجريات أحداثها عبر الزمن، نجدها تبوح بأسرار وتفسيرات بديبة دامغة لجذور الصراعات التي يشهدها عالم اليوم، وإلتي غالبا ما نعزوها، بقدر بالغ من التبسيط، إلى "الإسلام". وفي هذا الإطار، لا يتطلب الأمر دراية عميقة أو معرفة نقيقة بالشرق الأوسط لإدراك كون العلاقات الحالية التي تربط الغرب – ويخاصة الولايات المتحدة الأمريكية – بالشرق الأوسط، على قدر من الانحراف ينذر بالخطر. فماذا يجرى الآن على الساحة؟ وما السبب في كون الشرق الأوسط على هيئته الطالية وطريقته تلك؟ وماذا عن الغرب ... وماذا عن طبيعة وضعه ونهجه الحاليين؟ أم يكن ممكنا بلا إسلام، أن نجتنب الكثير من الصراعات القائمة حاليا والتي لم تكن لتنشأ بالأساس؟ ألم يكن من المكن أن ينعم الشرق الأوسط بقدر أكبر من السلام؟ وعلام كانت ستبدو طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب، ألم تكن لتختلف عما نشهده الآن؟ فبدون الإسلام، ألم يكن من المؤكد أن يشهد النظام العالى منحي نشهده الآن؟ فبدون الإسلام، ألم يكن من المؤكد أن يشهد النظام العالى منحي اقروجها مغايرا لما هو عليه اليوم، أم ماذا؟ ... يهدف الكتاب الذي بين يدي القارئ الآن إلى تقديم بعض الطروحات والإجابات البديلة عن هذه الأسئة.

لم يبد الغرب، ويخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، اهتماما جادا أو مستداما بالشرق الأوسط حتى الخمسين سنة الأخيرة، فنحن نركن إلى الجهل بتاريخ التدخل الغربي في المنطقة على امتداد قرون عديدة، بله على امتداد ألفية بأسرها، كما يبدو اهتمامنا سطحيا بانتقادات الشرق الأوسط للسياسات الغربية الخاصة بالنفط والأموال والتدخلات السياسية والانقلابات المياركة من قبل الغرب المؤيد

والداعم لها، وكذا الدعم الغربي لدكتاتوريي الشرق الموالين له، والدعم الأمريكي غير المشروط وغير المحدود لإسرائيل فيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية، والذي بجد جنوره في سحق الأوروبيين اليهود وإبادتهم والتنكيل بهم، لا في " الإسلام " أر ما يرتبط به. كذلك، فقد عملت القوي الأوروبية على تصدير صراعاتها المحلية وخلافاتها البينية وتوجيهها نحو حربين كونيتين جرت رحاهما، في جانب، على أراض شرق أوسطية، كما كانت الحال فيما ارتبط بالحرب الباردة التي أعقبتهما. ويبرز ذلك بجلاء وجود العديد من العوامل السببية المتفاعلة التي تنظوي، وفق أدنى تقدير، على قوة تفسيرية القلاقل الراهنة تماثل ما قد ينطوي عليه " الإسلام "، إن لم تفقه في ذلك.

ولا ينطوى ما سبق على ضرب من ' اللوم الموجه للغرب "كما قد يسرع بعض القراء إلى الاستنتاج، إذ أنصر في هذا الصدد إلى الزعم بوجود عوامل جيوبوليتيكية عميقة الأثر أسهمت في خلق وإذكاء مناح عديدة للمواجهة والصدام فيما بين الشرق والغرب، سبقت نشأة الإسلام ذاته، واستمرت بالتواري معه وفي ظلاله ... مناح قد تكون متضمنة وكامنة في الحقائق والمتميات الإقليمية والإطار الجيوبوليتيكي لأي من البلدان المنضوية تحت لواء هذه المنطقة أو تلك، بغض النظر عن قضية " الدين " وما قد تمثله.

على أنه يكون من الحماقة، بطبيعة الحال، افتراض غياب أى إسهام للإسلام في مبغ الصراع بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي والمواجهة بينهما. إذ يمثل الإسلام حضارة ناجزة وعميقة الغور كان لها أثر عظيم فيما يخص الشرق الأرسط وما عداه، ببد أنه، ووفق اصطلاحات العلاقة فيما بين الشرق والغرب، أجدني مدفوعا إلى القول بأن الإسلام كان بالأساس أقرب إلى كونه إشارة إلى صنوف وضروب مغايرة أشد عمقا وأبعد أثرا للتناقس والمواجهات التي تجرى فيما بين المسكرين.

ويحدوني الأمل أن يفضى الطرح المقدم بين دفتى الكتاب إلى أن يعيد القارئ التفكير فيما يخص طبيعة الصراع بين الشرق والغرب، والكيفية التى ينظر بها الأمريكيون، بصفة خاصة، إلى سياساتهم المفارجية، على أن عملية اختبار الذات تلك تكون عسيرة على القوى العظمى والتى تعانى صنفا من العزلة وقصر النظر ومحدولية الأفق، إذ تتطلب حيازة درجات عالية من القوة والسلطة التمتع بالمنعة والثقة واليقين، وكذا القدرة على تجاهل المواقف التى تجدها البلدان ، لأقل شأنا خطيرة ومهددة لها، ومن ثم لا يمكن معها ارتكاب أبة أخطاء. فالسياسة الدولية أشبه ما تكون بشريعة الغاب، إذ يكون على الحيوانات الأصغر والأضعف أن نتمتع بدرجات عالية من حسن التصرف، ورهافة الحس، ورشاقة وقع الخطى لضمان بدرجات عالية من حسن التصرف، ورهافة الحس، ورشاقة وقع الخطى لضمان استمرارية وجودها بمنئى عن الأخطار ... أما الحيوانات الأكبر والأقوى، كالأفيال، فليست بحاجة إلى التنبه الدائم العوامل المحيطة، إذ يمكنها التصرف كيفما تشاء، فليست بحاجة إلى التنبه الدائم العوامل المحيطة، إذ يمكنها التصرف كيفما تشاء، وعلى الآخرين إفساح الطريق أمامها.

كذلك، ينجم عن امتلاك النقوة والسلطة قدر من الكبر والغطرسة يكون منبعه الاعتقاد واليقين بامتلاك زمام الأمور، والإيمان بأننا أصحاب المستولية والقيادة، والثقة بالقدرة على الإقتاع والترغيب أو الترهيب بيسر ... أو هكذا يتراسى لنا الأمر. وتصديقا لما سبق، جاءت إجابة أحد كبار المسئولين خلال حكم الرئيس بوش عن سؤال بشأن ما يحيط الحروب بالشرق الأوسط من تداعيات، إذ ذكر بثقة بالغة : "نحن نخلق حقائقنا بأيدينا "، ولعل مجريات الأحداث خلال العقد المنصرم أبانت بجلاء، والأسف، صدق مقولته تلك،

وتكمن المشكلة في المنظور الذي يتم توظيفه من قبلنا، إذ تركن واشنطن، ريما كما ركن العديد من القوي العظمى في الماضى، إلى توظيف ما أنصو إلى نعته بنظرية "الحبل بلا دنس " فيما يخص الكوارث الخارجية، إذ يعنى ذلك إيماننا بأن وجودنا وتدخلنا في تلك الكوارث ما هو إلا امتداد لقيامنا بمهامنا وإدارة شنوننا الخاصة، وسعينا إلى جعل العالم أكثر عدلا وأفضل حالا، لنفاجئ دوما بسيل

متراكم من التحديات العفوية الصادمة التي لابد وأن نقوم حيالها يما يلزم. كذلك، فلا يوجد أدنى اعتبار لاحتمالية أن تكون سياسات الولايات المتحدة ذاتها قد أسهمت، على أدنى تقدير، في ذلك الدفق من الوقائع المتواترة والتي تقضي إحداها إلى الأخرى، ويمثل ذلك مفارقة وتناقضا كبيرين: إذ كيف الأمريكا أن تفتخر وتتباهى بكونها القوة العظمى الأوحد، بما لها مما يربق على سبعمائة قاعدة عسكرية خارج حدودها، ويما للبنتاغون من ثقل ومكانة وهيمنة دولية، هذا من جانب... ومن جانب أخر تتناسى وتتفافل عن قوتها وثقل هيبتها وعظم دورها، إن سلبا أو إيجاباء باعتبارها القوة المهيمنة الوحيدة التي ترسم مسار الأحداث العالمية؟ إذ لا يقتصن الأثر السلبي لتلك المخادعة على صانعي السياسات فحسب، بل يتعداه إلى مراكز "مستجمعات الأفكار" think tanks التي تعج يها واشتطن. ففيما قد يكون، على خلاف ذلك، عادة تحليلاً متميزاً للوضع الخارجي، يكون محور كل دراسة، على نحو ثابت، البلد "الآخر"، أو ثقافة "الآخر"، أو النوايا السيئة اللاعبين "الأخرين"، ويكون أثر رؤى الولايات المتحدة الأمريكية وأنشطتها غائبا عن تلك المعادلات، ومن الصحوبة بمكان تعيين تطيلات جادة ضمن الإصدارات الاعتبادية أو مخرجات "مستجمعات الأفكار"، تحدد دور الولايات المتحدة ذاتها في خلق مشكلات أو أزمات راهنة، من خلال سياسات الاستبعاد والإقصاء أو تخويل السلطات، على أننا لا نتحدث هنا عن "إلقاء اللهم"، وإنما نبرز الحقيقة الدامغة والمنطقية والتي مفادها أن ما تقوم به القوة العظمى الأوحد في العالم من أفعال وتصرفات له مردود عظيم ومستتبعات هائلة بشأن ما ينجلي من مخرجات السياسة الدولية تباعا، وهو الأمر الذي يحتاج إلى الدراسة والتحليل،

كذلك، ينطوى الأمر على مفارقة إضافية: كيف لدولة كالولايات المتحدة الأمريكية، تفصح عن مخزون هائل ودفق عميم من "الوطنية" ووجود دائم في شتى المواقف، أن تغض الطرف عن وجود معان اللقومية" و"الوطنية" في بلدان أخرى؟ لم يحالف التوفيق واشنطن إبان الحرب الباردة في إدراك الدوافع والمشاعر الخاصة

يبول "عدم الانحياز"، إذ قامت واشنطن بتجاهل، بل وبكبت الطموحات الوطنية اتلك الدول، والتي اعتبرتها غير ملائمة، من وجهة نظرها، مما دفع، في النهاية، بأعداد كبيرة منها إلى الانحياز إلى الاتحاد السوڤييتي والتعاطف معه !! ولقد كان هذا ضربا من "العمى الاستراتيجي" الذي ذهب إلى اعتبار مصالح البلدان الأخرى وتفضيلاتها أمرا بحاجة إلى التطويق أو العزل، والثابت أننا قد تجاهلنا النزعات النومية وقضايا الهوية في الشرق الأوسط وغضضننا الطرف عنها، وقمنا بتجميعها برمتها في سلة "الإسلام"،

فحين نكره عدوا أجنبيا ولا نسيغه، نتحو إلى العط من قدره وتشويه سمعته بالفاظ حادة للغاية، ويبدو أن أحد المظاهر غير المستحبة للديمقراطية هو أنها نتطلب اعتبار العدو شيطانا مريدا، إذا ما أريد للأمة والرأى العام أن يتآزرا معا بما يكفي لبذل كل غال رنفيس فيما عساه أن يكون من حروب، ويكون المطلوب أن يتم تبسيط الرسالة التي تسوغ أو تبرر خوضنا لحرب ما أو ضلوعنا بمواجهة ما تبسيطا لا تتجاوز صيغته كلمة أو كلمتين.

وفي عالم اليوم، فإن "الإسلام" هو تلك الكلمة من وجهة النظر الأمريكية، هو القاسم المشترك والسبب الرئيسي للكثير من المشكلات التي تواجهنا في العالم الإسلامي، ففيما مضي، خضنا غمار معارك شتى ضد "القوضويين"، و النازيين"، و الفاشست'، و الشيوعيين"، واليوم ... فإنه "الإسلام الراديكالي"، ذلك المصطلح الذي يطلق لنعت ظاهرة معقدة ومتشعبة نتخذ أشكالا وأوزانا عدة وتتطلب قاعدة عريضة من الاستجابات وردود الأفعال المتباينة. ولم يبدأ المصطلح بعد يمثل توصيفا دقيقا وناجعا لصنوف المشكلات التي تواجهنا في التعامل مع العالم الإسلامي، وحتى في التحليلات المسمة بدرجات عالية من التبسيط، نواجه أحيانا بأصوات تذهب إلى أن المشكلة لا تكمن في "الإسلام الراديكالي"، وإنما تجد جنورها في "الإسلام الراديكالي"، وإنما تجد خورها في "الإسلام" بحد ذاته ... وتطفو على السطح أسئلة على شاكلة : لماذا "هم" يكرهون "هم" يبغضوننا؟ لماذا "هم" يتسمون بالعنف والوحشية؟ لماذا "هم" يكرهون

الديمة راطية؟ لماذا "هم" يرفضون القيم الأمريكية؟ لماذا "هم" يتخرطون في العمليات الإرهابية وحروب العصابات؟ لماذا "هم" يعارضون السياسات الأمريكية؟ لماذا "هم" يرفضون التصورات والخطط الأمريكية "الصائبة" لمستقبلهم؟ ... هنا يتم طرح "الإسلام" كإجابة جاهزة عن تلك الأسئلة.

وحقيقة الأمر، لا يوجد ما يمكن نعته "بالعائم الإسلامي" ككتلة متجانسة، بل ترجد عوالم إسلامية شتى، أو بلدان إسلامية عديدة وصنوف متباينة من المسلمين. بيد أنه من الأهمية بمكان أن نذكر أنه خلال الهجمات العدائية للغرب وفرضه للحصيار على العائم الإسلامي، أكان ذلك حقيقة أو مجازا، فإن بلدان العائم الإسلامي قد شرعت بالفعل بالاتحاد والتقارب على نحو غير مسبوق على امتداد العقود المنصرمة. وفي المواقع، فقد أدت السياسات المتبعة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، أكثر من غيرها من العوامل، إلى إعادة إحياء وبعث مفهوم "الأمة" ذلت الفريكية، أكثر من غيرها من العوامل، إلى إعادة إحياء وبعث مفهوم "الأمة" ذلت الفريكية، أكثر من غيرها من العوامل، إلى إعادة إحياء وبعث مفهوم "الأمة" ذلت

فالتاريخ لم ببدأ في الحادي عشرمن أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١ ، إذ يعود تعاطينا مع الشرق الأوسط إلى أبعد من ذلك بكثير، وفي حين كان الاعتداء الذي جرت أحداثه ورقائعه في ذلك اليوم اعتداء وحشيا وحدثا غاية في التطرف، إلا أنه كان ثمرة، أو بالأحرى بلوغ الغاية لأرتال من الأحداث امتدت أسنوات طوال سبقته فإذا ما أردنا أن نرجع بداية التاريخ إلى الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، والذي أمسينا بمقتضاه فجأة الفصيل الأوحد الذي يحق له التظلم، وصرنا كذلك مخولين بموجبه أن ننشر العدل في ربوع الأرض، ... فحينها سنستمر في اقتراف ما ألفنا فيما مضي، وما ينجم عن ذلك من عواقب وخيمة وكارثية بادية للجميع.

وبطبيعة الحال، يكون من الحماقة -نوعا- الحديث عن "عالم بلا إسلام"، إذ لا يمكننا إعادة كتابة التاريخ، كما لا يمكننا الحدس بما قد يكون عساه كأئنا ما إذا لم تقع وقائع تاريخية بعيتها. وبعبارة أخرى، فحالما يشرع المرء في دخول معترك

الجدل النظرى المتمحور حول السؤال: "ماذا لو؟!"، قلا سبيل حينها إلى تجنب المد الجارف من سيل التوقعات والتكهنات اللانهائية. فالمشاهد، أنه قد سودت كتب عديدة شائقة تنارات، على وجه التحديد، تلك التكهنات الخاصة بـ "ماذا لو؟!": ماذا لو لم تحدث وقائع الحادي عشر من أيلول/سبتمبر؟! ماذا لو لم يتم اغتيال الأرشدوق قرديثاند في سارلييفو في عام ١٩١٤؟! ماذا لو لم يتم إعادة لينين إلى روسيا بواسطة الألمان في عربة قطار مغلقة عشية اندلاع الثورة البلشفية، وماذا لو لم تقم تلك الثورة بالأساس؟! وماذا لو انتصرت الولايات الإحدى عشرة المنفصلة عن الولايات المتحدة الأمريكية، في الحرب الأهلية؟! ... هل كان للعالم أن يضحى مغايرا تماما لما هو عليه اليوم، أم أنه كان سيخلص مما سبق بلا أدنى تغيير عبر الأجل الطويل؟!

تستعصى الأسئلة المطروحة آنفا -وتلك التي على شاكلتها- على الإجابة، بيد أن الغرض من وراء ذلك التطبيق يكمن في توظيف الخيال والقدرة على الإبداع لإسقاط الضوء على التاريخ وفق منظور مغاير، ومن وجهة نظر وزاوية مختلفة، وذلك لإتاحة الفرصة لملامح وعوامل جديدة للانبثاق آمام ناظرينا، تلك التي لم يتم الالتفات إليها سابقا ... فقد لا تتجاوز احتمالية أن يقع حدث بذاته وفق الطريقة التي جرت بها وقائعه نسبة الـ ١٥٪، وهو الأمر الذي يقضى بأن النسبة المكملة التي جرت بها وقائعه نسبة الـ ١٥٪، وهو الأمر الذي يقضى بأن النسبة المكملة (٩٤٪) ترتبط بحدث أو أحداث أخرى لم يقدر لها أن تتصدر المشهد أو يتم تركيز الضوء عليها، وهذا لا ينفي وجودها في حينه، كما لا ينفي احتمالية استمرار بقائها تحت السطح حتى الآن بما لها من تأثير ملموس، إن لم يكن حاسما، على ما قد عساه يبزغ من أحداث في المستقبل، ويحضرني في هذا الصدد مهامي كنائب رئيس مجلس الاستخبارات القومية بوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في ثمانينيات القرن العشرين، حيث كنت مسئولا عن التوقعات الاستراتيجية في أن شمانينيات القرن العشرين، حيث كنت مسئولا عن التوقعات الاستراتيجية في أنه الطويل، وعادة ما كنا نلجأ إلى توظيف إحدى التطبيقات التي تستدعي إعمال المقل وشحذ الفكر ضمن العديد من تلك التطبيقات التي عادة ما تنبر

البصيرة على المستوى التحليلى: إذ كان يتم افتراض حدوث أمر مستقبلى هام، رغما عن تشككنا في مدى إمكانية حدوثه، ليتبع ذلك وضع سيناريو مفصل بوضح كيفية الحدوث. هب أن الملكة العربية السعودية قد شهدت اندلاع ثورة إسلامية راديكالية —كيف كان لتلك الثورة أن تحدث ضمن إطار عدة سيناريوهات بعينها؟ وهب أن الحزب الشيوعى الصينى قد انهار—كيف كان لهذا الانهيار أن يقع، وما الذى كان يمكن أن يكون عليه مسار تلك الواقعة يوما بيوم؟! وما القوى الخقية، التى يهمل الانتفات إليها وبتبع مسيرتها، والتى قد تشق طريقها إلى صدارة السلاسل من الغرض من وراء تلك التطبيقات في إضفاء ما عساه يمنح ثلك السلاسل من الأحداث شكلا ومضمونا، إذ يسود الاعتقاد بأنها غير محتملة (مستبعدة الحدوث) كما لا يتم الانتفات إليها بالتفكير بشأتها، كذلك يعمل ما سبق على شحذ "قرون الاستشعار" التحليلية لترصد شواهد ودلائل وقوع أمثال تلك الأحداث التى قد تؤدى إلى إمكانية حدوث ما لم يتم توقعه. ويمثل ذلك تطبيقات في الإبداع والتخيل السياسي والاجتماعي، وتكون تلك التطبيقات واحدة من الأساليب العديدة التى يتم انتهاجها.

وفى الإطار ذاته، يتناول الكتاب الأحداث المهامة فى تاريخ الشرق الأوسط ويسعى لتحديد القوى التى شاركت فى صنعه ولم يكن لها علاقة مباشرة أو قريبة بالإسلام، وكذا إبراز الأحداث التي كان يمكن أن تجرى وقائعها فى غياب الإسلام - كثقرب ما يكون مما قد حدث بالفعل. ويلقي الكتاب الضوء على الأحداث من زاوية مغايرة تماما، مبرزا ملامح قد تكون أغفلت من قبل أو لم يكن قد تم الالتفات إليها. وحتى إن لم توافق كاتب السطور الرأى حول بعض الافتراضات أو التفسيرات المقدمة، فلن تنظر، فى الغالب، إلى أحداث العالم الإسلامي ووقائعه وفق المنظور ذاته المتبنى من قبل، إذ ستصبح العوامل الأخرى فجأة أكثر عمقا وأبعد غورا داعية إيانا لإدراجها ضمن تحليلاتنا الخاصة برؤية جديدة.

وحتما سيقدم العديد من القراء مسالك وأفاقا بديلة عن تلك التي قمت

باختيارها - وهو أمر جيد، إذ أدرك أننى أيضا قد قمت باختيار بدائل في تحليلي هذا. وصدقا، فقد كان بوسعى أن أسوق بعض الحجج لما أوردته من مناقشات بالكتاب، ولم يكن ذلك هو الهدف أو المحك، بل كان المراد إعادة التفكير في الافتراضات السطحية شديدة التبسيط بأن الإسلام هو جوهر كينونة الشرق الأوسط - باعتباره مصدر المشكلة وحلها في الوقت ذاته. كما كان الهدف توجيه الاهتمام وإيلاء العناية بأنماط أعمق وأكثر دقة من المشكلات والقضايا الراهنة التي تجعل الشرق الأوسط ما هو عليه بالفعل في مواجهة الغرب،

وتبقى لمحة أردت أن أجعلها جلية: إذ لا ينصرف الغرض من كتابة سطور الكتاب –ألبتة – إلى تجاهل دور الإسلام أو التهوين من شأنه، فالإسلام كان له كبير أثر في العالم بأسره باعتباره أحد أعظم الحضارات وأقواها في التاريخ وأمضاها أثرا، فلم توجد حضارة قط سادت وطبقت الآفاق كما قدر للإسلام أن يذيع، وإنني أحمل في نفسي أسمى للعائي وأجل التقدير لحضارة الإسلام، وفنونه، وعلومه، وفلسفته، وثقافته، وكذلك الحال تجاه المسلمين كإخوة في البشرية ... فبدون الإسلام وحضارته لكاد العالم يكون موضعا مقفرا جدبا.

كذلك، فلا يسعنى إلا الاعتراف بما للإسلام من فضل فى خلق صدرح متين الأركان هو "العالم الإسلامى" الذى ينتظم بين جنباته وينضوى تحت ألوبته أعداك غفيرة من البشر بشتى اختلافاتهم، وكذا العديد من البلدان، والثقافات، والمناخات، لم يكن لها لتأتلف فى غياب الإسلام، وهر أمر بالغ الأهمية فيما يتعلق بشعوب ذلك الإقليم. بيد أن محور اهتمام الكتاب –تحديدا – هو السؤال عما كان يمكن أن تكون عليه حال العلاقات بين الغرب والشرق الأوسط إن لم تلح راية الإسلام فى الأفق. ولا يعنينى فى هذا المقام دراسة أوجه الاختلاف التى كان يمكن أن تسم "العالم الإسلامى" إن لم يكن ثمة إسلام، كما لا أناقش هذا ما الذى كان سيخسره الغرب فى غياب الحضارة الإسلامية، بل يكمن الهدف فى تتبع المسار المتجدد العلاقات بين الشرق والغرب. وبالنظر إلى مدى ما آلت إليه تلك العلاقات والتى تدهورت

للغاية، فالرأى عندى أن الإسلام لم يكن قط العامل الرئيسي، بل ولم يكن العامل الثانوي، المسبب لتلك الظاهرة. فإذا ما أردنا التعرف إلى العامل أو العوامل المسببة مسار لزاما علينا توجيه البحث عبر أقنية بديلة. وحالما ولينا وجوهنا تلقاء اتجاه مغاير، راعنا العدد الضخم والثنوع الشاسع للقوى البديلة المؤثرة بالفعل في علاقات الشرق والغرب.

كذلك، أود أن أؤكد على بعض النقاط الإضافية في هذا الصدد. أولا، توجد لدى الغرب نزعة لاعتبار الإسلام غريبا أو دخيلا أو بعيدا عن الرؤى والتوجهات الغربية، وهذا، فإنني أسعى لأن أنزل الإسلام منزلته في سياق الشرائع الأخرى، ويخاصة اليهودية والنصرانية، ولدرجة مذهلة للغاية، ينبع الإسلام من تقاليد عريقة وضاربة بجنورها للفكر الديني للشرق الأوسط، بما في هذا الفكر من هرطقات متعددة، ويأتي الإسلام كجزء حيوى ولبنة تكاملية في إطار البنيان الديني الشامل، إذ يجد مكانه المناسب، بيسر وتلقائية، ضمن قوى عديدة سبقت ظهوره.

وترتبط النقطة الثانية بالعلاقة ما بين الدين والسلطة والنولة، إذ أرى أن الارتباط الوثيق بين الدين والدولة على امتداد تاريخ الغرب في أغلب مراحله كان له من التأثير في النصرانية والتاريخ المسيحي ما يفوق تأثيره في الإسلام والعالم الإسلامي، وتصبح قضية الهرطقة على قدر بالغ من الأهمية في هذا الصدد، إذ أنظر إلى الهرطقة الآراء الدينية غير المقبولة من السلطات بما تمثله، على وجه العموم، كمحرك وقاطرة للمعارضة السياسية للنولة على المستوى الجمعي. لذا، فصين نقوم بدراسة قضايا الخلاف الديني، إلى أي مدى يمكننا أن نعتبر أنفسنا فحين نقوم بدراسة قضايا الخلاف الديني، إلى أي مدى يمكننا أن نعتبر أنفسنا نتحدث، في الحقيقة، عن العلاقات وموازين القوي؟

كذلك، فإننى أسعى إلى أن أوضح كيف سلك الإسلام في نشأته دروبا تتطابق -أو تكاد- وتلك التي سلكتها النصرانية، وإن لم يكن في المناحي كلها. وتشير الملاحظة السابقة إلى أن معظم الأديان تسلك مسارات بعينها حين يرتبط الأمر بإثبات أصالة النصوص المقدسة، والحفاظ على الاستقامة المعتقدية، والتعامل مع محاولات تحريف العقيدة وتشويهها، وما شابه ذلك، فلا يختلف الإسلام هنا كثيرا، بل يجىء متسقا مع المسار العام للتطور الدينى، ويشير ذلك، بدوره، إلى أن الدين، بحد ذاته، لا يخلق التمايزات والاختلافات بقدر ما يخلقها توظيف الدولة له، كما يشير إلى أن التجمعات الدينية المتمايزة ترتكز دعائمها، في الجانب الأكبر منها، على التنافس الدنيوى/العلمانى، وفي أقل القليل على الاعتبارات الدينية.

ويولى الكتاب عناية فائقة للاحتقانات والمواجهات ما بين المسيحية الأرثوذكسية الشرقية والمسيحية الرومانية الكاثوليكية/الغربية. فلو لم يزح الإسلام الحكم المسيحى على امتداد أغلب ربوع الشرق الأوسط، لكان الأرجح أن يظل الإقليم برمته تحت هيمنة المسيحية الأرثوذكسية الشرقية. ولقد تراوحت العلاقة فيما بين الأرثوذكسية والكاثوليكية بين التشكك المتبادل فيما بينهما إلى العداء الساقر على امتداد ما يقارب ألفى عام، رغما عن الكثير من التقاليد الأصيلة المشتركة فيما بينهما. لذا، يوجد ما يبرر بقوة وجلاء الزعم بأن المسيحية الأرثوذكسية كان يمكن أن تكون اليوم نقطة الانطلاق الدينية والأيديولوجية لاستجلاء مظالم الشرق الأوسط وبلورتها تجاه الغرب - يمكن للمرء أن يعاين التطور التاريخي للأرثوذكسية الشرق الأرثوذكسية الشرقية في مركز ثقلها الراهن، موسكو.

ويمضى المشهد ليفضى إلى دراسة الحروب الصليبية وتحليلها: هل كانت حدثًا دينيا أم ظاهرة جيوبوليتيكية؟ وبينما تشيع النظرة إلى تلك الحروب باعتبارها صراعا ما بين النصرانية والإسلام، إلا أنها كانت، في حقيقة الأمر، صراعا سياسيا ثلاثي الأطراف انتظم المسيحية الشرقية، والمسيحية الغربية، والإسلام،

ولقد خصصت فصلا من الكتاب لتناول حركة الإصلاح المسيحي التي تكشف عن نظائر مدهشة فيما بين منطق الأحداث وطبيعتها في أوروبا المسيحية وبين بروغ "الأصولية الإسلامية" لاحقاء والتي نشأت وفق ملابسات متباينة، وفي كلتا

المالتين، يبدو جليا كيف طغى الأثر السياسي وهيمن على القضايا الدينية. وهذا أيضا، فقد مثل الدين محركا لإعطاء الزخم وقوة الدفع المطلوبة، وتلحظ في هذا الصدد، كيف أدى فقدان الدولة أو الكنيسة للهيمنة على الاعتبارات الدينية إلى تشأة موجات متعاظمة من الراديكالية في كل من المسيحية والإسلام.

كذلك نعاين بعض الأشباه والنظائر المذهلة في القضايا الضلافية بين الأرثوذكسية والكاثوليكية من جهة، وبين النصرانية والإسلام من جهة أخرى وتنضمن تلك القضايا، المظالم التاريخية، ووجهات النظر المتباينة حول دور الكنيسة والدين في المجتمع، وطمس القيم الخاصة والعامة وتشويهها، والعلاقة فيما بين الدولة من جهة، والكنيسة/المسجد من جهة أخرى، والجدل الدائر حول طبيعة العلمانية" وإدراجها ضمن فعاليات لعالم المعاصر. وتعلق صراعات القوى، وكذا الأحقاد والضغائن، فوق الاعتبارات والقضايا الدينية وتهمشها ... تلك الاعتبارات التي غالبا ما تبدو في حد ذاتها -وبالمقارنة- غير ذات بال.

ثم يلج الكتاب ليختبر ما ذهب إليه العالم السياسى "صموبيل هانتنجتون" في إشارته إلى "الحدود الدموية للإسلام"، والتي ساقها في مقالته وكتابه ذائعى الصيت "صراع الحضارات". فعن أي شئ تتحدث بالفعل هنا؟ أتناول بالبحث والدراسة عناصر العلاقات الباهرة فيما بين الإسلام من جهة وأربع من الحضارات العظمى، والتي كان الإسلام وبيق الصلة بها عبر أجال ممتدة، وهي : أوروبا الغربية، وروسيا الأورثوذكسية، والهند الهندوسية، والصين الكونفوشيوسية. وفي كل من تك العلاقات على حدة، توصل الإسلام والحضارة المعنية إلى أوضاع توافقية ثات طبيعة متشعبة ومتجددة، كذلك فقد تم التلاقح فيما بين تلك الحضارات، وتبرز تلك الحضارات صورة أكثر دقة عن الكيفية التي أدار بها المسلمون بالفعل تعاملاتهم مع الحضارات والأديان الأخرى ... بأكثر مما يتم تصويره في سيناريوهات المواجهة شديدة التبسيط ذات الطابم المخاتل.

وقد بخلص بعض قارئي الكتاب إلى حقيقة كونه يسلط الضوء على نحو أكبر على مظالم المسلمين ومعاناتهم من ممارسات الغرب أكثر من إشارته إلى المظالم والمعاناة التي قد تكون لدى الأشرين بفعل ممارسات الإسلام بحقهم، وثلك هي الحال بالقعل، ففي البدء، فإن معاناة المسلمين ومظالمهم وتصوراتهم يشأن الغرب تكاد تكون مجهرلة في الغرب ذاته. ولقد كان بإمكاني أن أسود من الصفحات ما أنسطه لتناول الاعتداءات نلتي مارسها المسلمون بحق النصباري والهندوس واليهويد في حقبة أو أخرى من التاريخ، على أن ألافاً `خرين قد أدلوا بدلوهم بالفعل في هذا المضمار، وكما أن كالألديه ما يسرده من روايات تمزق نياط القلب، عما ارتكب المسلمون بحقه، فعلى الجانب الآخر، يوجد ادى المسلمين أحاديث وروايات مفزعة عما ارتكب بحقهم لا تقل في جسامتها ووطأة وقعها عما يرويه الأخرون. ولايرمي الكتاب إلى محاولة عقد مقارنات أو موازنات بين ما أريق من دماء كلا الطرفين، كما لا يهدف إلى تقديم كشف حساب في هذا الصدد، بل يهدف إلى محاولة طرح تلك الأحداث ومناقشتها، خاصة على هدى من "خطوط التماس" الحضارية، حيث يتماس الإسلام مم غيره من الحضارات العظمي، وللمرة الثانية، نجد الدور الممارس من قبل "الإسبلام" عادة ما يكون أقل أهمية وأدنى أثرا من المواجهات الإثنية، التي قد يتم تضخيمها وتأجيجها عير التباينات العقائدية لكلا الطرفين.

ويتناول الجزء الأخير من الكتاب بعضا من الطموحات والتطلعات الراهنة للعالم الإسلامي، بدءا من إلقاء نظرة على تاريخ صبراع المسلمين ونضائهم ضد النفوذ الكولونيالي، ونلحظ، في هذا الخصوص، أن تطور كفاح الشرق الأوسط ضد الإمبريالية الغربية يعد أمرا حديثا نسبيا، كما نلحظ كيف أن التفكير المناهض للإمبريالية يظل سمة غالبة لمنهج الشرق الأوسط ورؤيته لعالم اليوم، ولقد تراءت لي بعض أوجه النطابق بين العديد من حضارات اليوم جما فيها الصين- بخصوص التجربة المناهضة للإمبريالية والخطاب المصاحب لها، لأخلص إلى تقرير التشابه الجلى المشترك بين أفكار المسلمين والحضارات الأسيوية فيما يخص التدخل

الإميريالي للغرب في شئون الأخرين،

كذلك، فقد قمت باستجلاء أكثر الموضوعات المعاصرة إلحاحا – الجهاد، المقاومة، الحرب، الإرهاب، تلكم هي القضايا التي تسيطر على الفكر الإعلامي وتشغل باله، وتواجه القاعدة الشعبية العريضة على نحو دوري وحيوى، إذ تعد مصدرا للاهتمام المشروع الكثيف والمتنامي، فضلا عن كونها مادة للمتاجرة بالمخاوف، وتهويل الأمور وتضخيمها، وكذا إيراد البيانات المغلوطة. إذا، هل يعد ما سبق – بالأساس – قضايا دينية أم جيوبوليتيكية؟ وأخيرا، أرجع في القصل الختامي لبعض السياسات المحددة محل الاهتمام والعناية حيث أقدم نقاطا صريحة موجزة عن ضرورة تغيير السياسات والرؤى تغييرا جنريا إذا ما أردنا أن خرج من شراك ذلك المستنقع الآسن الذي كان وبالا على الجميع.

ويصورة أو بأخرى، فإن الكتاب معنى بالمضارات الأخرى المتاخمة الإسلام (حضارات الجوار) — الحضارة البيزنطية، روسيا، المسيحية الغربية، الهند، الممين، — بقدر ما هو معنى بالإسلام ذاته. ويرتكز تحليلى فى هذا المصوص على الكيفية التى اتسق فيها الإسلام بيسر وسلاسة، وبطرق شتى، مع الطموحات الثقافية والافتراضات الحضارية والتوجه العالمي لتلك الحضارات العظمى. ولا ريب فى وجود شكوك ومخاوف أشبه ما تكون بكونها شاملة وعامة من قبل المجتمعات الإسلامية إزاء العالم الغربى اليوم، وتشاركها فى ذلك، وعلى نطاق واسع، كثير من الحضارات الأخرى لدول العالم النامى، وإن لم يكن بينها اتفاق دائم حول العناصيل البينية. ويعبارة أخرى، فإن المعديد من القيم والرؤى السياسية التى تعزى إلى العالم الإسلامي اليوم، والتي تؤرق الغرب، توجد كذلك في عالم بلا إسلام".

والكتاب نو صبغة نقاشية جدالية، وليس سردا لأحداث بذاتها، وقد سعيت من خلاله لإلقاء الضوء على اتجاهات وقوى بعينها غالبا ما يتم تجاهلها أو طمسها في

الكتابات التاريخية الأكثر تقليدية. ومن خلال قاطرة الجدال الافتراضى، يحدونى الأمل فى أن أكون قد قدمت طرحا جديدا ونهجا مغايرا بشأن الكيفية التى جرت بموجبها الأحداث وتطورت فى إقليم الشرق الأوسط، وكذا بشأن الأسباب التى أدت إلى ذلك، فيما يتجاوز تأثير العوامل المرتبطة بالإسلام ذابه، وفي الختام، أرجو أن يقوم القارئ بالتفكير في "الإسلام" والنظر إليه باعتباره مكونا متشعبا وأساسيا من مكونات الخبرة الإنسانية والسياسية والدينية التي تنتظم البشرية، فإذا ما كانت ثمة "مشكلة" لدينا حول الإسلام، تكون المشكلة نابعة منا وتمسنا كذلك.

ولقد تكررت إحالاتي وإشاراتي إلى "الإسلام" بين دفتي الكتاب، بما فيها هذا التقديم، بيد أنه، وبلا أدنى شك، لا يوجد "إسلام" واحد، بل أكثر من "إسلام"، أو بعبارة أخرى، يوجد "إسلام واحد، وطرائق عديدة يفهم بمقتضاها المسلمون "الإسلام" ويحبون تعاليمه ... وتتباين تلك الطرائق على نحو كبير بين بلد وأخر، وفئة عمرية وأخرى، وقضية وأخرى، وشخص وأخر. وحقيقة الأمر، قإن الإسلام هو التصور الذي يتبتاه المسلمون بشأنه، فضلا عما يرغبون فيه من إطار ينتظمه وكغيرهم من معتقدى الملل الأخرى، يختلف المسلمون في تصوراتهم ورؤاهم فيما يخص "الإسلام"،

قإذا ما قام المرء بإلصاق صفة "العمومية" بتلك الظاهرة الهائلة والديناميكية ... الإسلام ... فكانما يقوم بتحنيطها كما يقوم أحدهم بوضع فراشة ما فى صندوق لحفظ الفراشات بغرض الرجوع إليها ودراستها كعينة على امتداد الزمن، ويالفعل، فهناك الآلاف من الفراشات هنا وهناك، ولا ينى الفراش، كنوع، أن يتكاثر وتظهر منه صنوف أخرى جديدة فى الوقت ذاته الذي نحاول خلاله أن نحصر شتاته، ويا لها من مفارقة، فإن أكثر المهووسين والمتشددين فى الإسلام، من جهة، وأعداءهم الغربيين الأكثر تعصبا، من جهة أخرى، هم من يسعى لقولية الإسلام وتجسيده على هيئة ظاهرة جامدة متيبسة أحادية الملمع، فينبغى لنا إما أن نروج لتلك الظاهرة أو نعمل على طمس ملامحها وتشويهها.

وختاماً، أرجو أن يصل القارئ إلى الإيمان بأن الأزمة الراهنة في العلاقات ما بين الشرق والغرب، أو ما بين "الغرب" و الإسلام" لا يريطها بالدين إلا رابط يسير غير ذي بال، في حين تجد جذورها وينبع زخمها من الصدام السياسي والثقافي، وكذا تعارض المسالح والتشاحن والتنافس المحموم، ولا يخفى ما لهذه النتيجة من أهمية بالفة، إذ إنها وثيقة المسلة بالنهج الذي سنعتمده لمجابهة أزمة التصادم الراهنة بين الغرب والإسلام، فهل نحن، بالفعل، ماضون بانجاه موجات خطيرة من الصدام الحضاري المحموم، بانجاه حرب "مائة عام" جديدة أو حرب كونية رابعة، كما توقع اليعض؟ فهذا الطرح الصارخ من الصراع الوجودي يروق بالفعل لجماعة صغيرة من المسلمين والنصاري واليهود، على أننا إذا خاصنا إلى أن الدين ليس العامل الحاسم والأساسي في المشاحنات الحالية، تكون الفرصة مهيأة لبحث تلك الشاكل، بل والتوصل إلى حلول ناجعة لها أيا ما كانت درجة تشابكها وحدة وطأتها، وباعتماد ذلك المنهج، نأمل أن نكون ماضين باتجاه إرساء قاعدة متينة الأركان للعقائد "الإيراهيمية" الثلاث: اليهودية والنصرانية والإسلام، والتي تأتلف بنكش مما تختلف وتتحاور بأكثر مما تتناؤر.

والمؤسف أن الدين إذا ما تم ربطه بالاعتبارات السياسية، فإنه ينزع إلى أن يفقد جوهره وتطمس روحه – وتغيب ملامحه الروحانية. ففي غير موضع من أرجاء المعمورة، يتم الزج بالدين، وعلى نحو منتظم، في العديد من الصراعات الدموية التي تتمحور حول النزاع على امتلاك السيادة، والنزاعات الحدودية، وإحكام القبضة المسياسية، وإملاء إرادة سياسية بعينها، والحفاظ على هوية المجتمع، وينسحب ما سبق على الكثير من العقائد، كالنصرانية والإسلام واليهودية والبوذية والهندوسية والشنتو، ... وكثير غيرها.

وفى الغرب، فإننا نحيا فى زمن ينحو فيه التفكير العقلاتى العلمانى، وبقوة، إلى نبذ ظاهرة الدين باعتباره عنصرا مهجورا تجاوزته الأيام ... ذلك العنصر الذي يعطل ويعيق النسق والتراتب الاجتماعي في أحسن الأحوال، ويعد مصدرا

للكراهية والشنآن والحروب والصراعات العنيفة في أسوبها. وقد أفزعت "الصحوة الدينية" العديد من الغربيين حين بدا الدين أكثر مضاء وأشد خطرا على نحو لم يعهد من قبل، وهو أمر له نصبيب من الحقيقة، وإن كان جوهر القضية ليس ما يمثله الدين من خطر في حد ذاته، وإنما "التفكير النوغماطيقي". فالأهوال والمأسى التي شهدها القرن العشرون لا ترتبط أو تجد جنورها في أي ملمح ديني أو أي عامل عقائدي : حربان كونيتان، فرانكو، موسوليني، هنار، لينين، ستالين، ماو تسي تونج، بول بوت، رواندا – مصرع منات الملايين من البشر ... ارتبط ذلك كله بأنظمة علمانية بل وملحدة اعتنقت أفكارا دوغماطيقية قامت بتنفيذها بصرامة ورحشية دونما أدني اعتبار لقداحة العاقبة.

وأخيرا، فأنا لم أكتب عن الدين، مطلقا، باعتباره كيانا ينتظم إيمان المرء، وإنما تناوات 'الدين' باعتباره قاطرة للعديد من أوجه الطموح البشرى كالسياسة فضلا عن أمور أخرى لعل أبرزها المخاوف والدوافع والتحيزات والتطلعات، ولا أرعم —ألبتة— أن الدين تضيق أفاقه لتمسى ماهيته محصورة في تلك الأمور فحسب. بيد أننا حين نطالع آلام القرن الحادي والعشرين وعذاباته تتبدى تباعاً، يصير حتما علينا أن نتحلى بقدر من الواقعية بشأن جسامة مسئولية تبعات القضايا وثقلها والتي يتعين أن ينهض بها الدين، فيكاد جل ما نخاله تضايا دينية" ألا تربطه أدنى صلة بما تعارفنا على نعته بــ الدين"، والذي طالما تم الزج به أن بومباي أو كولومبو. فـ الدين " يتم التحدث عنه بشتى الألسن ويتم توظيفه ليحظى بقبول مشارب عديدة، الصالح منها والطالح. إذا، وانطلاقا من ذلك كله، ليحظى بقبول مشارب عديدة، الصالح منها والطالح. إذا، وانطلاقا من ذلك كله، دعونا نجيل الفكر ونوجه الأبصار صوب 'عالم بلا إسلام'. ودعونا نسأل عن أوجه الختلافه فيما يخص علاقاتنا بالشرق الأوسط، وعن العوامل الأخرى المؤثرة في ذلك السياق.

الجزع الأول هرطقاتوقوى سلطوية



نصوبر احمد باسبن نويئر فيئر (Ahmedyassin90)

الإسلام والملل الإبراهيمية

حتى بدايات القرن السابع الميلادي، لم تكن شمس الإسلام قد لاحت بعد في الأفق إلى أن تنزل الوحى الإلهى على النبى محمد لنشره في الأفاق، على أنه لا يستقيم النظر إلى نشأة الإسلام وانطلاق شرارته الأولى كلحظة فارقة، أو بالأحرى كنقطة تحول في تاريخ الشرق الأوسط، فمن المنظور السياسي، يمكننا اعتبار تلك النشأة حدا فاصلا بين عهدين، أما من للنظور الديني والحضاري، قمن السهولة بمكان اعتبارها امتدادا لمسيرة الفكر التوحيدي وتطوره بالشرق الأوسط، واليوم، فإننا نشهد استخدام مصطلح "لللل الإبراهيمية" بكثافة وهو ما يظهر وعيا وإدراكا بذلك التراث التوحيدي ثلاثي الأبعاد والمرتبط بنبي الله إبراهيم لينتظم كلاً من اليهوبية والنصرائية والإسلام ... وما بينها من وثاقة صلة ولصوق عرى، بغض الطرف عن التباينات السياسية التي نشأت بين معتنقيها على امتداد الزمن.

وهذا تماماً ما رمنا إيراده: فقد قامت السياسة والصراع على السلطة بالإيحاء بجسامة التباينات العقدية وذلك توخيا لمارب سياسية بعينها، بدلا من أن تؤكد على التراث البينى المشترك. وهنا تطغى اعتبارات السياسة: إذ نجد أن مظاهر التوبر الجيوبوليتيكي المرمن في الشرق الأوسط والتي سبقت ظهور الإسلام ما زالت قائمة. ويبدو من غير المقبول النظر إلى الإسلام كعنصر دخيل على التراث الديني بالإقليم، إذ استوعب واستحث وتفاعل مع الكثير من المشارب والحضارات الراسخة به.

وتجلى خريطة الشرق الأوسط الدينية في حقبة ما قبل الإسلام عالماً تسوده النصرانية متمثلة في الأرثوذكسية الشرقية، إلى جانب نصيب بسيط تقتطعه الزرادشتية التوحيدية ببلاد فارس (في ظل حكم الإمبراطورية الساسانية)، ونزر يسير من تجمعات يهودية في قطاعات حضرية معدودة، مع هيمنة بوذية وهندوسية



على شبه القارة الهندية. أما أورويا، فكانت فى جزء منها مسيحية، وفى الجزء الأخر وثنية اذا، يعد الإسلام وإفدا لاحقا على ذلك الملل جميعا، بل وخاتم الأديان تاريخياً، التى استطاعت بسط هيمنتها على دعائم الدولة وأركانها. ولقد عوض الانتشار السريع للإسلام عن مجيئه المتأخر. ليحظى بوضع سيادى مهيمن على أراض جد شاسعة خضعت فى السابق للسيطرة المسيحية والزرادشتية فى الشرق الأوسط، فإن لم يكن ثمة إسلام، لكان الأرجع أن تظل الأرثوذكسية الشرقية الملة السائدة فى الشرق الأوسط إلى الآن، باستثناء إيران التى غالبا ما كانت ستبقى معتنقة للزرادشتية.

رقيما كان التوسع الإسلامي وغزره للكثير من البلدان ذا أثر سياسي كبير كما هو شأن أي غزو، لم يكن للإسلام، من المنظور الثيولوجي أثر ملموس في رعايا تلك البلدان في العقود الأولى، فلقد انبثق الإسلام، في واقع الأمر، من أجواء المناخ

الديني السائد في الشرق الأوسط حينذاك على نحو عفوى، أما المدهش بحق: كيف استطاع الإسلام التوافق والاتساق بيسر مع البيئة الدينية القائمة؟

كذلك، فلم تكن نشأة الإسلام حدثًا غير ذي بال وقع في صحراء نائية تضربها العزلة ... ولم يكن الإسلام نبتة حضارية شاذة منبتة الصلة ومبتورة الجنور عن الحضيارة الغربية. لقد نبعت أفكار الدين الإسلامي مباشرة من مناخ حضياري متوسطى وشرق أوسطى أرحب شهد سجالا وتبادلا كثيفا للأفكار الدينية، وحوارا وتلاقحا فكريا خصبا. ولعله لا يوجد ضمن أقاليم العالم ما شهد العديد من الملل والطوائف الدينية تذرع أرجاءه يقدر ما شبهد إقليم الشبرق الأوسط، ويانتشار الإسبلام، ألفينا تكرار تداول المواضيع والاهتمامات التي كانت جزءا من التطور المبكر لليهودية والنصرانية. فبعد معاينة مسيرة النضال والكفاح الديني والعقدي النصرانية على امتداد القرون السنة الأولى لنشأتها، (وهو ما سنتناوله لاحقا)، فإن تعرفنا إلى الإسلام لا يثير كثير دهشة ... فالمعتقدات والقضايا الجدلية التي تمخض عنها الإسلام لتجد جذورها في جدالات جد مألوفة : ما طبيعة الإله الواحد؟ هل كانت الملة اليهودية مرسلة إلى اليهود خاصة، كشعب الله المختار رأصفيائه، أم للبشرية بأسرها؟ هل المسيح، بحق، ولد الله، أم بشر موحى إليه من قبل الله؟... سنتناول من فورنا، بالتحليل، الطبيعة الأسرة للكثير من تلك الجدالات مشيرين إلى أنه قد كتب لبعض المعتقدات الدينية الذيوع بدعم من السلطة السياسية، قيما تم النظر إلى البعض الآخر ذي الدعم السياسي الأدني باعتباره تجديفا وهرطقة،

وفضلا عما سبق، سنرى إلى أى مدى كانت تلك الصراعات المذهبية والعقائدية ترتبط بسياسات الإمبراطوريات العظمى، فالسلطة تجتذب الدين ... والدين يجتذب السلطة، وتأتى الاعتبارات اللاهوتية لاحقا. كذلك، فإن القوى الراسخة للحضارة والتقاليد والتاريخ والمعتقدات على قدر هائل من القوة والفاعلية ... إذ لديها من عظيم القوة ما يمكنها من توجيه ما يستجد من أحداث صوب

الأقنية الراسخة ... إذا فقد كان الإسلام، في حداثته وكذا في وهجه وألقه المضاري المذهل، شرة محيطه الأرحب،

شبهالجزيرةالعربية

لم تكن شبه الجزيرة العربية موضعا يعانى العزلة، بل تفاعل مع موجات التيار الفكرى الهائلة السائدة أنذاك. ولقد كانت اليمن، إلى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة، مهذا لواحدة من أقدم حضارات الشرق الأوسط، بل ربما الموطن الأصلى الشعوب السامية جميعا، لقد ارتحلت القبائل السامية في وقت جد مبكر من اليمن باتجاه بلاد الرافدين حيث بسطت هيمنتها على المملكة السومرية قبل ميلاد السيد المسيح وأحالتها حضارة سامية. كذلك، كانت هناك حركة تجارة رائجة التوابل والمنسوجات امتدت لتشمل سواحل البحر الأحمر ومصر، وكذلك البحر المنوسط ويث كانت هناك علاقات ذات طابع دورى مع الفينيقيين منذ أقدم العصور. فقد رعم أن ملكة سبأ أقامت في اليمن وربطتها علاقات مع مملكة أكسوم المسيحية في الحبشة. وقد كان للنصاري واليهود مجتمعات ممتدة في اليمن، كذلك، كان للفرس وجود بها في حقية من الزمن.

وفى الشمال، وعلى امتداد ساحل البحر الأهمر وعلى مقربة منه، نقع مكة، إحدى أهم المدن بشبه الجزيرة، والتي يرجع تاريخ نشأتها إلى أكثر من أربعين قرناً. وفي التاريخ القديم، لم يرد ذكر «مكة، إلا لماماً إلى أن بعث النبي محمد. وقد أصبحت مكة مركزا تجاريا هاما على امتداد البحر الأحمر وطريق التجارة مع سوريا. ولقد عاشت مجتمعات اليهود الكبيرة في غير مدينة من مدن الحجاز، ويخاصة يثرب. وإلى الشمال، تقع الأراضي المسيحية من الإمبراطورية البيزنطية، وما تضمه من مراكز هائلة في الأراضي التي تعرف اليوم بسوريا والأردن.

لقد احتضنت شبه الجزيرة العربية مختلف دياناتها التقليدية والمتمحورة حول الهة محلية أو قبلية تماثل تلك المعروفة للشعوب السامية الأخرى، بمن فيهم اليهود

الأوائل. أما عبادة على الآلهة، فقد تركز معظم طقوسها حول "الكعبة" في مكة، والتي كانت موئلا لنحو ثلاثمائة وستين تمثالا للآلهة، من بينها تماثيل السيد المسيح والعذراء مريم، وقد منحت مزارات العبادة تلك مكة سطوة وحظوة اقتصادية فضلا عن قوة سياسية كبيرة. وبذا، أل لمكة أن تحكم قبضتها وتبسط سيادتها على تجمع قبلي عظيم بهدف الإشراف على السياسات القبلية البينية المعقدة بشبه الجزيرة، وكذا تحجيم الحروب والصراعات القبلية للمؤقة للأواصر والمفتنة الحمة الوشائج. وكذا تحجيم الدروب والصراعات القبلية للمؤقة للأواصر والمفتنة الحمة الوشائج. وكنتيجة لذلك، أبرمت مكة معاهدة تعاون مع بيزنطة لتيسير انسياب حركة التجارة خلال ريوع الإقليم. ولقد كان رضاء مكة وازدهارها سببا مباشرا فيما استجد من توتر سياسي واجتماعي بها، حيث تداعت أركان البنيان القبلي القديم وهباكله، وكذا علاقات التكافل والدعم فيما بين نوى القربي والأرهام، وذلك بضعل نمو اقتصاد سوقي مزدهر ... إذا، فقد كانت القيم الاجتماعية القديمة تتحر إلى المغيب لتفسي المجال لقيم جديدة لتحل محلها وتملأ فراغ غروبها.

تلك كانت طبيعة المنطقة من المنظور الجيوبوليتيكي والثيولوجي، إلى أن جاء عام ١٠٠ من ميلاد السيد المسيح ليشهد إره صات الوحي الإلهي للتاجر المكي محمد، والذي كان أنذاك في مقتبل العمر ... ذلك الوحي الذي أضاف فصلا جديدا إلى فصول الفكر التوحيدي. ولقد تيتم محمد منذ الصغر فكفله أحد أعمامه والذي جعله يرعي له أنشطة تجارته، وعندما بلغ محمد الأربعين، وفي أثناء بعض من خلواته التأملية بفار في مكة، هبط الملاك جبريل إليه وأمره أن يقرأ كلمات بذاتها أرسلت إليه من لدن الله، ثم أمره أن يعظ بأن الرب واحد وأن ينشر رسالته إلى القبائل الإقليمية، وإلى المجتمع الضال بمكة بما فيه من وثنية وما هو عليه من تعدد للآلهة. ولقد واصل محمد المسير لنشر تلك الرسالة وللتنديد بالهرم الاجتماعي الصارم وغير المنصف، وكذا التنديد بملامح عدم التوحيد في محيط الكعبة، وهي رمز سيادة سطوة مكة وأهمية تجارتها.

ولعل الأمم هو كون محمد قد أوضع مبكرا أنه امتداد لمن سبقه من أنبياء الله

كأنبياء العهد القديم"، بل إنه يتبع نهج من سبقهم من أنبياء كأدم أبى البشر (وأول نبى في الإسلام)، وإبراهيم. ويشير "القرآن"، وهو السفر الحاوى لجميع ما أوحى إلى محمد، إلى أن هؤلاء الأنبياء هم "أول المسلمين"، ويلح محمد، كذلك، في أنه نبى الله ورسوله، ويقرر طبيعته البشرية، ووفقا لمن يحيا في شبه الجزيرة العربية وتخومها، قإن رسالة محمد ليست جديدة بالكلية عما قد عهدوا سالفاً، بل هي إقرار وتوكيد على وحدانية الله، في صيغة جديدة، ولقد قدم محمد طرحا جديدا واضحا خالياً من النظريات المبهمة والملغزة والتي تتضارب فيما بينها حول طبيعة المسيح ... تلك النظريات التي أحدثت صدعا في بنيان الأوساط اللاهوتية على امتداد أراضي المملكة المسيحية الشرقية طيلة سنة قرون. كذلك، فقد شدد على حاجة البشرية إلى أن تثوب إلى تعاليم الله الداعية إلى إرساء جماعة أخلاقية.

إن ما يتطلبه اعتناق الإسلام جد بسيط: فعلى من يرغب فى ذلك أن ينطق بالشهادة وهو موقن ومؤمن بها ... وصيغة تلك الشهادة: أشهد أن لا إله إلا الله وتشهد أن محمدا رسول الله، ويتحتم على كل مسلم أن يلتزم بأركان الإسلام الخمسة، وهى: إقرار الشهادة، والصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة، وصيام شهر رمضان، وتأدية مناسك الحج لمن استطاع إلى ذلك سبيلا، وإيتاء الزكاة.

ويستازم الإيمان إقرار توحيد الألوهية والربوبية، والإيمان بأنبياء الله ورسله أجمعين بمن فيهم، موسى وعيسى ومحمد، والإيمان بالملائكة، والإيمان بكتب الله ورسالاته جميعها، بما فيها التوراة والإنجيل والقرآن، والإيمان باليوم الآخر (يوم القيامة)، والإيمان بالقدر، خيره وشره، ولقد أدت دعائم الدين الجديد وأركانه إلى سهولة التعرف إلى الدين الجديد والإيمان به.

ولقد ارتأى محمد، كأول مبشر بالدين الجديد ... ذلك الدين الذي يعنى اسمه الانقياد الأوامر الخالق، الحاجة إلى توضيح الرسالة التوحيدية وتعميق أثرها، ونبذ الأفكار المغلوطة والعقائد الفاسدة التي تسللت إلى التأويل البشري لكل من التوراة

والإنجيل، على أن روح الوحى كانت واحدة للرسالات جميعا.

وينكر علماء الإسلام أى ارتباط سببى يتعلق بنشأة الإسلام ما لم يكن إلهيا أو مقدسا، أو بعبارة أخرى، فإن هؤلاء العلماء لا يقرون أية مصادر أو تأثيرات محتملة، إن خارجية أو إقايمية أو غير إلهية، في طبيعة الوحى المرسل إلى النبى محمد، ويبدو هذا متسقا مع إطار التزامهم العقدى. بيد أن البيئة التى نشأ بها محمد والمناخ الذي أحاط تطوره كان لهما، بطبيعة الحال، أثر على تكوينه العقلى وسمات شخصيته وطرائق تفكيره. كذلك، من الجائز أن يكونا قد أثرا في استعداده لتلقى الرسالة والكيفية التى أدرك بموجبها الوحى واتبع تعاليمه هو ومريدوه وأتباعه. لذا، فإن الحق مقرر لمن يريد أن يتناول بالبحث والدراسة المؤثرات الخارجية المحتملة والممكنة فيما يخص الوحى المرسل ومعايشته وتأريله، وذلك بالتوازي مع تجارب الوحى المرسل إلى الأنبياء الأخرين عبر التاريخ.

ففى شبه الجزيرة العربية فى تلك الآونة، كانت معظم التعاليم الجديدة التى اشتمل عليها القرآن مفاهيم مقبولة ومألوفة، بدءا من الاعتقاد اليهودى المنكر لأن يكون عيسى بن مريم هو المسيح ، والذى ينظر إليه على أنه مجرد مقوم لما طرأ على الوعى الإيماني من انحراف. كذلك، فقد كانت الهرطقات المسيحية التى انتشرت على امتداد الشرق الأوسط بشأن جميع الملامع المحتملة لطبيعة المسيح مألوفة رسائدة. ويحق، فقد كانت السمة التوحيدية الصارمة التى تصبغ القرآن أقرب، من نواح عديدة، إلى آراء نصارى الشرق الأوسط الأوائل عنها إلى المفاهيم اللاهوتية بالغة الجمود الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية فى السنوات اللاحقة، وقد كان المفهوم التوحيدى، بما له من تنويعات، هو السمة السائدة التى تغلغات فى أوصال حضارات الإقليم بأسرها.

إن النبى محمداً لينفرد عمن عداه من أنبياء بتسليط التاريخ للضبوء على شتى جوانب حياته. إذ يحفل القرآن وما سجله صحابته من أقواله وأفعاله (الحديث)

بإشارات وبيانات عن حياته بجوانبها المتعددة. ولكن تبقى الإشكالية ذائها التى واجهت معظم الملل السابقة، ومنها النصرائية: إلى أى مدى يمكن الركون إلى دقة وأمانة ما سطره مجايلو النبى بشأن سيرته، وما يخص أفعاله وأقواله؟ إذ تواتر نقل تلك الأفعال والأقوال على نحو شفاهى، ولم يتم جمعها أو تحليلها أو تقييمها منهجيا في شكل كتابى إلا بعد انقضاء ما يزيد عن قرن كامل من وفاة النبى محمد. وتتشابه تلك المهمة، بما اكتنفته من إشكالية، مع نظيرتها "المسيحية" الخاصة بجمع كل ما سطر عن حياة المسيح بغية تعيين أى الأناجيل يمكن الورتوق بها والارتكان لمصداقية ما تحويه ... وما يزال هذا الطرح حاقلا بالجدل وتضارب الرؤى ويعوزه الحسم للقضاء على ما يثيره من بلبلة وحيرة.

وفى حين لا تحيط "الحديث" هائة القداسة التى تحيط "القرآن"، كون الأخير وحيا مبشرا من لدن الله، إلا أن "الحديث" يعد مصدرا بالغ الأهمية للتشريع الإسلامي بما يحويه من نصوص تتناول قضايا محددة وواضحة نشأت خلال مسيرة تطور الجماعة الإسلامية في بواكير تكوينها، كذلك،، يقدم "الحديث" دليلا هاما على كيفية إدراك النبي ذاته لما أوحى إليه وألية تطبيقه في شتى المواقف، ولعل أوجه الشبه تتضح حين النظر إلى سؤال النصاري اليوم. "ماذا عسى المسيح فاعلا في هذا الموقف أو ذاك؟!"،

إلا أن جماعات قليلة من المسلمين تذهب إلى أنه يتعين، لما القرآن من قداسة، اعتباره المصدر الوحيد افهم الإسلام، نظرا الطبيعة المتشعبة لنصوص الحديث في شتى تناولاته، والذي تتباين درجات قوته ومصداقيته من حيث تطابق لفظه والإجماع بشأنه، وكذلك تبني السلطات لأحاديث بعينها، دون غيرها، التحقيق مأرب ما أو تسويغ فعل مزمع، ومن المثير ملاحظة ملمح الشبه والتوازي بين ذلك، وبين قاعدة الاحتكام "الكتاب فحسب" Sola Scriptura، والتي تبنتها حركات الإصلاح الديني المسيحي التي نبذت أرتالا من التاريخ الكنسي وما لحقه من زيادات وحواش، ورفضت الخضوع لأحكام المجالس الكنسية وغيرها، لما حداها من أمل

ورغبة في تأسيس فهم ديني سليم يرتكن إلى تعاليم الإنجيل فحسب،

إن العراقيل التي صادفها تطبيق الدين الجديد ونشر تعاليمه العقدية والسياسية مجتمعيا كانت مثبطة للهمم، خاصة إزاء المعارضة والصدام المسلح المبكر من النحبة "المكنة" التي استشعرت تهديد الرسالة المحمدية لنفوذها وسطوتها وترواتها الطائلة، ولقد ارتحل النبي محمد وأنباعه إلى يثرب (والتي سميت ب "المدينة"، قيما بعد)، حيث أسس نواة للجتمع الإسلامي الأول، ودُعي إلى الوساطة بين القبائل المتناحرة بها بغية إرساء مناخ من السلام والتعايش الأمن، وهو ما عرف بـ "ميثاق المدينة" أو "منحيفة المدينة"، ووفقا لهذا الصلح، فإن حقوق ومسئوليات شتى القبائل والجماعات الدينية بـ المدينة ، وطبيعة التعامل فيما بينها، كاليهود والنصاري والمسلمين، قد دونت في وثيقة صلح وتسوية، إلا أنه، وبالتزامن مع ذلك الصلح، فقد ظلت جماعات المسلمين لسنوات طوال مهددة سياسيا وحربيا من قبل القوى العدائية بمكة والمتربصة بها الدوائر في عدائها السافر للإسلام ... إلى أن كفت مكة عن المعارضية وكتب النبي محمد، في عام ٦٢٠، أن يفتحها ويدخلها منتصرا بون إراقة للاماء. وقد أشار القرآن، في بعض أياته، إلى جانب من ملامح ذلك السجال المتد من المواجهات والتوترات وذلك التاريخ الحافل بالعداء والتناجر والنكث بالعهود، في نضال المسلمين للاتصاد بوجه العدو الساعي إلى تدمير الجماعة الإسلامية الناشئة. وتتشابه تلك الآيات ودلالاتها، إلى حد بعيد، مع أونة بعينها جاهد فيها اليهود لمجابهة اعتداءات القبائل المناهضمة للسامية وإجهاضها، حيث دعا "العهد القديم" إلى استئصال شافة كل أعداء اليهود بلا أدني رحمة أو هوادة ... أولئك الذين وقفوا كحجر عثرة في وجه تأسيس الدولة في "إسرائيل"، فلم تكن التسوية السلمية والمهادئة، إذا، طابعا يسم تلك الآونة القلقة والمأزومة في كلا للمسكرين،

لقد كان الإشكالية مدى القدرة على الارتكان إلى مصداقية نصوص الحديث العكاسات سياسية كبيرة حين نما الإسلام وامتدت رقعته وانخرط في إرساء دعائم

الدولة الإسلامية. وكما بالنسبة للكنيسة المسيحية، فإلى أى مدى ستتمكن المسلطات الدينية والعلمانية المسلمة من النجاح في سعيها، على نحو ارتجاعي، لتأويل رسالة الإسلام؟ فعلى نقيض النصرانية، تجنب الإسلام لحسن الحظ الخوض في الجدل بشأن الطبيعة المقدسة للنبي محمد من عدمها، والتي لم يزعم أحد قط، بمن فيهم النبي ذاته، أنها سمة تميزه. كذلك، فلم يشهد الإسلام سوى بعض الهرطقات الضئيلة والانقسامات حول أسس تأويل النصوص المقدسة وركائزها، مقارنة بالنصرانية، ولعل السبب في ذلك يرجع، في جانب منه، إلى اعتبارات رؤيته الثيولوجية ذات التوجه الهادئ المتسامح، إلا أنه، وإلى اليوم، تظل للأسئلة بشأن مشاكل تفسير القرآن و"الحديث" النبوى أهمية كبيرة، خاصة في ظل التطور الدائب الإسلام.

وبانتشاره واتساع رقعته، صادف الإسلام لغات وثقافات مغايرة ... كما واجه امتدادات جغرافية وتجارب تاريخية جديدة. وكغيره من الأديان، واءم الإسلام ذاته للاتساق ومقتضيات المحيط المحلى كيما يسهل تقبله واعتناق مبادئه. بيد أن الإصلاحيين المتأخرين قد نظروا إلى بعض من المواصات والإضافات إلى الدين باعتبارها تشذ عن روحه كونها بدعة تستوجب الاستئصال للعودة إلى منابع الدين كهيئته الأولى، فإلى هذه الأسس، سيرتكن بنيان حركات التجديد الإسلامي والأصواية الدينية. وبالمثل، فقد كانت الإضافات إلى الملة النصرانية سببا اظهور المصلحين الأوائل من أمثال "مارتن لوثر".

إن الخلافات ما بين الملل ومعتنقيها نادراً ما ترتكن إلى تباينات ثيولوجية بعينها، وإنما إلى ما تنطوى عليه من مناح سياسية واجتماعية. فهلم ندلف إلى لب بعض من التباينات الثيولوجية القائمة، بحق، ضمن إطار العلاقة ثلاثية الأبعاد بين اليهودية والنصرانية والإسلام، فإلى أى مدى أثرت تلك التباينات، بحق، في البعد السياسي بالشرق الأوسط في التاريخ القديم والأوسط؟ إذا ما أنعمنا النظر، ألفينا تكرارا لنقاشات جدلية بعينها بشأن مقهوم التوحيد وكنهه راجت في ذلك الإقليم

وعمت ثقافته. كما نلحظ أن الإسلام بدلا عن أن يحدث تحولا ثيولوجيا بالإقليم قد خلص إلى أن تبنى نهجاً وسطياً توافقياً بين اليهودية والنصرانية، مؤكدا على القاسم الثيولوجي المشترك فيما بين ثلاثتهم، أما النظريات الحديثة الرائجة، والتي تذهب إلى أن الإسلام يمثل قوة حضارية وثيولوجية مخالفة للاعتقاد اليهودي/ المسيحي بما لهذة القوة من طبيعة صدامية تدميرية، وأنها قد أرست أسس المشاعر المعادية للغرب والمناهضة له لاحقا ... فينطوي الإيمان بها على نزع الإسلام من سياقه الحضاري والتاريخي. إن الإسلام، ويحق، يمثل بعضا من أعمق النزعات الحضارية والفلسفية و لدينية في الشرق الأوسط، ويرسخ لها ... بما فيها مقاربته المنسمة بالحذر تجاه الغرب، على أن الإسلام لم يخلق تلك النزعات أو يؤسس لها، فإذا ما نحينا الإسلام حائيا – ألفيناها قائمة وسارية، إذا، فهام نرى كيف تنظر كل ملة حمن تلك الثلاث إلى الأخرى.

رؤية اليهودية للنصرانية وللإسلام

كان للانتقادات اليهودية للنصرانية تأثير جلى في بعض الهرطقات المسيحية اللاحقة، وفي الإسلام كذلك. بداية، فإن القضية الفريدة بالغة الحساسية في الشرق الأوسط برمته هي قضية "طبيعة المسيح" فائقة الأهمية. فعلى حين يؤمن النصارى بأن عيسى بن مريم هو المسيح الذي سيبعث ثانية رفقا لنبوءة "العهد القديم"، ينكر اليهود ذلك الاعتقاد. وتذهب آراء بعض المسيحيين إلى كون اليهود أسوأ الهراطقة على الإطلاق، ذلك لأنهم ينكرون بالفعل ما تنبأت به التوراة من مبعث المسيح، وينكر علماء اليهود وأحبارهم ذلك الطرح زاعمين أنه من الجلى أن عيسى بن مريم لم يكن ذلك "المسيح" الذي وردت نبوعته في "العهد القديم". فوفقا لمزاعمهم، ينبغي المسيح "الحق" أن تتوافر له بعض النبوءات، تحديدا، حتى يمكن القول، ويحق، إنه المسيح ذاته : إذ يجب أن يولد من النسل الذكوري للنبي داود (يتم الزعم بأن ليسي هو ولد الله)، كما يتعين عليه الالتزام بالشرعة التوراتية وإنفاذ تعاليمها (لم يقم عيسي بذلك، بل حرص على أن يغير تلك الشرعة). كذلك، يجب أن يجئ مولد

المسيح "الحق" مواكب لحقبة من الزمان يسود السلام ربوع الأرض خلالها حيث تنتفى الكراهية والاضطهاد وهو ما لم يحدث بالفعل، كذلك، ذهب "العهد القديم" إلى ضرورة تحقيق المسيح لذلك الوحى وتلك النبوعات من فوره، وليس عقب "مبعث جديد" أو "رجوع آخر"، ذلك المبعث الذي لا ذكر له مطلقا في "العهد القديم"، وفضلا عن ذلك، ينكر اليهود المفهوم القائل بأنه يمكن تخليص البشرية من خلال تضحيات المسيح وآلامه، بل ينكرون ذلك على أي من كان، فلا يأتى الخلاص، وفق أرائهم، إلا بالحياة الصالحة المستقيمة كما نص عليها الشرع اليهودي،

ويذهب اليهود، كذلك، إلى اتهام عيسى بن مريم وإلقاء اللوم عليه الفساده عقيدة التوحيد اليهودية، ونشر بذور الفرقة والشقاق ما بين اليهود وتأليب بعضهم على الآخر، وإضعاف شوكة اليهودية ... إلى الحد الذي ذهب معه موسى بن ميمون، الفيلسوف واللاهوتي اليهودي القروسطي في إسبانيا المسلمة إلى أن:

"أول من تبنى هذا النهج (إبادة العنصر اليهودي وطمس هوية الأمة اليهودية بأسرها لتضحى بلا أية معالم تذكر) هو عيسى "الناصري"، قاتله الله ... الذي أكره الناس على الإيمان بأنه نبى مرسل من لدن الرب لكشف الغموض وتجلية ما استفلق على فهم الناس للتوراة، كما جعلهم يؤمنون بأنه "المسيح" الذي تنبأ كل عراف بمجيئه. لقد عمد إلى تأويل التوراة وتعاليمها على نحر أدى إلى محقها وإبطالها تماما، وإلى إلغاء جميع ما احتوته من وصايا، وانتهاك ما بها من نواه ومحظورات. ولقد فطن حصفاء الأمة وحكماؤها، تغمدهم الرب برحمة منه، إلى تدابيره وخططه تلك قبل ذيوع أخباره بين شعوبنا، بتعيين العقوبة الملائمة بحقه".

إذا، ومن وجهة النظر اليهودية، تذهب تلك الجدالات إلى رفض الطرح المسيحي بأن اليهود ينكرون المسيح عن عمد كما جاءت به نبوءة "العهد القديم"، وتجلى تلك الانتقادات أنه من الواضح تماما لعلماء اليهود وأحبارهم أن عيسى ابن مريم لا تجتمع لديه الشروط اللازمة لأن يكون "المسيح" الموعود،

وياتى الإسلام كطرح وسطى، حيث يقر بأن عيسى بن مريم - عبد الله ورسوله، أيده الله بالمعجزات وخوارق العادات، وأنه ولد مريم العذراء ... مريم، التى تحمل السورة التاسعة عشرة من القرآن اسمها، والتى ذكرت به أكثر من أية أمرأة أخرى، بل أكثر مما ذكرها الإنجيل ذاته، كونها المرأة الأكثر تبجيلا وتوقيرا في الإسلام.

إلا أنه، ووفقا للإسلام، ليس عيسى بن مريم إلها بذاته، أو ولد للإله، بل بشرا نبيا موحى إليه من لدن ربه، ذلك أن الله واحد لا شريك له. ويعد إنكار كون عيسى بن مريم نبيا، من المنظور الإسلامى، انتهاكا للإيمان بالإسلام ذاته، فعلى سبيل المثال، يذهب المسلمون إلى اعتبار الأعمال الفنية المسيئة للمسيح عيسى بن مريم ضربا من الكفر والتجديف، ويرد ذكر عيسى بن مريم فى الإطار القرآنى بأته "كلمة الله"، و"روح الله"، وتنتفى تماما أية إشارات تحط من قدره فى القرآن. لذا، وفى "عالم بلا إسلام"، يظل النقد اليهودى الفظ لعيسى بن مريم قائما، كما تم التعبير عنه فى المائة اليهودية.

ويالمثل، بنكر اليهودية محمدا كنبى مرسل من لدن الله. ورغما عن ذلك، فإن العلاقة فيما بين الإسلام واليهودية لتلفت الأنظار وتسترعى الانتباه، فهى أوثق صلة، في روحها، من علاقة أى من هاتين الملتين بالنصرانية، فاليهودية والإسلام يشددان تماما على النهج التوحيدي المميز لهما، كما أن كليهما يعلن وحدانية الله مرات عديدة خلال شعائر الصلوات اليومية. كذلك فإن اليهود والعرب شعوب سامية اقتسمت، على امتداد أجال طوال، حيزا جغرافيا مشتركا، وجمعها تاريخ مشترك، كما أنها تتحدث لفتين شديدتي الشبه فيما بينهما، إن الإسلام واليهودية يلتزمان كلاهما بالشريعة المنتظمة لهما، حيث يتحقق الخلاص القردي عن طريق انباع كلاهما بالشريعة وتطبيق مقتضياتها عبر الحياة اليومية. كذلك، توجد بهما محاكم شرعية للقضاء واليت في شتى القضايا بموجب الشريعة، وتشدد اليهودية على عدم جواز تجسيد الإله أن تصويره، كما تذهب إلى أنه لا يوجد للإله قالب أو كيان

بشرى كذلك ينظر الإسلام النظرة ذاتها إلى عدم جواز خلع الصفات البشرية على الله مطلقا . ثذا ، فإن الفن المسيحى ، من وجهة نظرهما ، يعد صادما ، إن لم يكن تجديفا وكفرا ... ذلك الفن الذي لا يجد أدنى غضاضة في تصوير الإله على نحو صريح ومباشر وبأسلوب سافر مفصل لا تحده أية ضوابط ، وهو المشاهد أينما جال النظر في غزارة تصوير المسيح وفق تنويعات جمة من التراكيب والأوضاع .

إن اليهودية والإسلام ليشتركان في العديد مما ينظم طقوس الطعام، وذبح الصيوان، وتصريم أكل الخنزير، ومقتضيات النظافة والطهارة. ولقد تأثر اليهود الشرقيون (السفارديم) في ممارساتهم لشعائر دينهم بقرون طوال عايشوا خلالها المسلمين في حياتهم وطقوسهم اليومية. وفيما عاني اليهود كثيراً منه تاريخ دموى طويل، فقد عانوا كذلك في أوقات بعينها جاوروا خلالها المجتمعات الإسلامية، إلا أن علما هم وأحبارهم يكادون يجمعون على أن الحضارة والمجتمع اليهوديين قد تعايشا عبر القرون في ظل مناخ أكثر عدلا وأقل عنفا مع 'الإسلام" عما كانت عليه الحال مع 'النصرانية'. إن إقامة دولة 'إسرائيل' في عام ١٩٤٨، والتي أسست كوطن اليهود بعد تجريتهم القاسية والمريرة أثناء الهواوكوست في أورويا - وإن تضرر الفلسطينيون كثيرا جراء ذلك - قد مثلت عودة مؤسفة ومحزنة للعلاقات تضرر الفلسطينيون كثيرا جراء ذلك - قد مثلت عودة مؤسفة ومحزنة للعلاقات مع دولة جيوروليتيكية بالأساس تدور وقائعها حول القضايا الحدودية والعلاقات مع دولة إسرائيل المستحدثة في المنطقة.

رؤية الإسلام لليهودية والنصرانية

باعتباره خاتم الملل الإبراهيمية، يمكن للإسلام التعويل على تطور اليهودية والنصرانية والنظر إليهما بعين الاعتبار، ووفقا للقرآن، فقد اقترف اليهود العديد من الأخطاء الجسيمة حين تلقيهم للوحى، إذ اعتبر اليهود أنفسهم شعب الله المختار، مع النظر إلى الرب على أنه إله اليهود وإلى الرسالة الميهودية على أنها

حكر عليهم، وقد نفى القرآن ذلك الأمر بالكلية، فلا يوجد لله شعب مختار ... (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا)... القرآن/مريم الآية ٩٦ . ولقد كانت تلك رسالة القديس بولس أيضا في الخلاف مع اليهودية – إذ إن رسالة عيسي ابن مريم تقول بأن الإله ليس إلها لليهود فحسب، وإنما هو إله العالمين، لذا ينطوى الإسلام على نظرة مراجعة لليهودية، ويتطابق مع النصرانية في أن رسالة الله تشمل العالمين، وليست مقصورة على قصيل بعينه.

على أن الإسلام واليهودية يشتركان في نقدهما للنصرانية، إذ يرى كلاهما فكرة رجود "ولد" للإله بأنها ضرب من الكفر والتجديف بما يخالف مفهوم الإله الواحد الذي لا يلد ولا يمكن إلا أن يكون فردا في ذاته. إن مفهوم "الثالوث" هو ضرب من الشرك تحرمه الشريعتان، ووفقا للإسلام، فإن المسيح لم يصلب أو يمت، وإنما رفعه الله إليه، كذلك، فالمسيح، لا محمد، هو من سيهبط إلى الأرض يوم القيامة ليقتل المسيخ الدجال.

بيد أن للتطور التاريخى أثره فى تغيير الكيفية التى يدرك بها البشر ماهية الدين، ويساعد هذا الطرح فى تفسير التباينات فيما بين الملل. ويقر المسلمون بهذه الحقيقة، وإن بنهج نفعى بعض الشئ. ففى غير مرة، أخبرنى بعض المسلمين بـ"أن الملل الثلاث هى من لدن الله، وإن أرسل كل منها فى زمن مختلف على مسار تطور المتاريخ البشرى، وفى كل مرة، يتطور وعى الإنسان وإدراكه بوجود الله. فوفقا التاريخ البشرى، وفى كل مرة، يتطور وعى الإنسان وإدراكه بوجود الله. فوفقا للمصطلحات التقنية الحديثة، يمكننا النظر إلى اليهودية بأنها تشبه Word 2.0 ، لك التطبيق الحاسوبى الخاص بالكتابة، والذى عمل بكفاءة فى حيثه، بل يمكنه العمل إذا أردت. ثم جاءت النصرانية فيما بعد، وكأنها 5.0 Word نلك التطبيق الذى أضاف إلى خصائص سابقه ليجعله أكثر كفاءة وسرعة -أى بمدى تفهم رسالة الله وإدراكها، ويعد ذلك بستة قرون، جاء الإسلام، والذى يمكن تشبيهه برسالة الله وإدراكها، ويعد ذلك بستة قرون، جاء الإسلام، والذى يمكن تشبيهه بالله ورسالته، لذا، فإن كل تطبيق مقيول وصالح التطبيق، وإن أضيفت إليه بعض بالله ورسالته، لذا، فإن كل تطبيق مقيول وصالح التطبيق، وإن أضيفت إليه بعض

التطويرات عبر الزمن".

بيد أننا غير ملزمين بقبول التعريف السابق للتطور الديني، والذي طرحه بعض المسلمين، رغما عن أن التعريف والمفهوم ذاته قد تم تبنيه من قبل بعض علماء الدين، حتى وأو كانت المقارنة بتطبيقات الحاسوب جد مزعجة، وفي كتابها "تاريخ الرب"، أوردت كارين أرمسترونج - علامات فارقة في مسيرة التطور الدائب الإدراك البشرى المقدس" عبر الزمن.

ووفقا لتشبيه مسار التطور الدينى بتطبيقات الحاسوب المتتابعة، يقتح المسلمون المجال لسؤال منطقى تتبعى بعد من قبيل الهرطقة إسلاميا: ألا يمكن، إذا، أن يأتى وحى جديد، أو بلغة الحاسوب 9.0 Word بذهب المسلمون إلى أن النبى محمداً قد جاء بالدين الخاتم والوحى الكامل، إذ إن محمدا هو خاتم النبيين، فلا نبى بعده، ويضع الاعتقاد السابق الإسلام فى موقف محير ومريب، إذ ينطوى على كون الإسلام يتسم بالتسامح حين النظر إلى ما قبله من أديان، فيما تنتفى تلك الصفة حين استشراف المستقبل وانتفاء إمكانية مجئ أى دين بعد الرسالة المحمدية يرتكن إلى وحى جديد. ويعد هذا التصور مصدرا للتوثر ما بين الإسلام من جهة، وأفكار المعتقدات القاديانية والسيخية والبهائية من جهة آخرى، والتى تجد بعض جنورها فى التربة الإسلامية، وإن عملت على "تحديث" الإسلام كما جاء بعن حضر جابها. إذا، فقد أدان رجال الدين الإسلامى تلك الأفكار بشدة، وتعرض بتعاليم أصحابها. إذا، فقد أدان رجال الدين الإسلامى تلك الأفكار بشدة، وتعرض أتباعها للاضطهاد فى غير بلد مسلم.

رؤية اليهودية والنصرانية للإسلام

وأخيراً، نأتى لنظرة اليهودية والنصرانية وأراثهما بشأن الإسلام الوافد الجديد عليهما ... تلك النظرة المتسمة بعدم التلطف أو المترفق، فعلى خلاف قبول الإسلام واعترافه بكم كبير من نصوص كل من العهدين القديم والجديد، فإن كلتا الملتين تنكران محمدا كنبى لله ورسوله، كذلك، فليس مستغربا عدم اعترافهما

بفكرة كون الرسالة المحمدية ناسخة اسابقتيها أو معدلة ومكملة لهما، ولقد تناولت الأدبيات المسيحية، عبر العصور، محمدا بوصفه "مهرطقا" إلى الحد الذي صور فيه في الدرك الأسفل من النار في "الجحيم "Infemo لدانتي، (وارتباطا بهذا، تنظر الكنيسة الكاثوليكية، تاريخيا، إلى البروتستانتية على أنها هرطقة ورجس من عمل الشيطان، وكذلك الأمر في نظرة الأخيرة لها).

تأسيساً على كل ما سبق، فإن العلاقات فيما بين الملل الإبراهيمية الثلاث هى علاقات مركبة ولافتة للنظر: إذ تشترك ثلاثتها فى الكثير من المناحى، وتتعارض فى كثير أخر، بيد أن الإسلام قد مثل حلقة جديدة وقوية من حلقات امتداد النهج التوحيدى بالشرق الأوسط، ذلك أنه ولد من رحم اليهودية والنصرانية وتعايش معهما فى ذلك الإقليم، وفيما أرسى الإسلام، بحق، دعائم نظام سياسى جديد، فنحن لا نتحدث هنا عن دين لم نعهد تعاليمه من قبل، أو آلهة جديدة، أو رؤى أخلاقية مغايرة، فلو لم يكن ثمة إسلام، لكان العالم أقل ثراء حضارياً وثقافياً، بيد أن قاعدة التفكير الحضارى والثيولوجى بالإقليم لم تكن لتختلف كثيراً،

تنشأ الأديان، في معظمها، من ملل وعقائد سبقتها على مسرح الحياة، فقد نشأت البوذية من رحم العقيدة والحضارة والفلسفة الهندوسية، والتي لم تنظر إلى لاحقتها على أنها تجديف أو هرطقة، كذلك، فقد ولدت السيخية من مزيج جمع يعضا من الهندوسية والإسلام، ونبعت البهائية كمزيج من تعاليم النصرانية والإسلام، وقد تستحيل "الهرطقة" فعلاً إبداعياً للتفكير الديني ذي الطابع التطوري حيث تجاهد الأجيال الناشئة، جيلا تلو الآخر، لإعادة تأويل الإشارات والمفاهيم الخاصة بالأديان المتقدمة واستجلاء غوامضها، ويتم ذلك عادة تماشيا والمحيط الحضاري المعاصر.

ومن المفارقات المدهشة أن تكون التفصيلات الدقيقة والسمات الحضارية الخاصة لأي من تلك الملل هي تلك التي ينظر إليها أتباع كل ملة على أنها العامل

الأساسى والأكثر أهمية لهذه الملة أو تلك ... تلك التفصيلات التى يمكن أن تستنفر الأفعال العدائية بحق الآخرين، إذا، فعندما تؤدى النباينات الثيولوجية الطفيفة إلى تأجيج نيران الكراهية والعنف والتقاتل، فإن هذا لدليل دامغ على أن حقيقة الأمر تضمر بالفعل ما هو أبعد بكثير من مجرد خلافات ثيولوجية. ويشبه ما سبق انفجاراً خلافياً ينشئ بين زوجين بالمطبخ حول ما إذا كانت المكرونة قد ثم إنضاجها على نحو مبالغ فيه : وهنا، فإن الغضب هو غضب حقيقي، بيد أن من يرقب ما حدث لحظيا ليدرك أن الأمر ينطوي على ما هر أبعد من الخلاف على كون للمكرونة قد تم إنضاجها كما يجب أم لا.

لذا، ففيما يخص الشرق الأوسط ودياناته، فإن "الثيولوجيا" واعتباراتها ليست، في واقع الأمر منشأ الصراع ومصدره، إذ هناك عوامل أخرى على المحك: الهويات، المجتمعات، الدول، اعتبارات السياسة وعوامل السلطة والنفوذ، القوميات الإقليمية. ويمثل الدين شعارا متداولا كونه عنصرا هاما من ركائز الهوية، حيث تكون "الثيولوجيا" عاملا ثانويا، وحقيقة الأمر، فنادرا ما نكون نصاري، أو مسلمين، أو يهودا بمحض اختيارنا، إذ نولد منتمين لإحدى تلك الملل التي نرتضى عمق محيطها وثراء جماعتها، فالأمر ليس مفاضلة ما بين جدالات وطروحات ثيولوجية بديلة تعرض علينا. إن "الجماعة اليهودية" كانت قوة حضارية ضاربة على مر السنين، لا بسبب دقائق الطقوس الخاصة بها، إذ يمكن أن تتعدد تلك الطقوس في تنوعها، إذ تلك هي الحال بالفعل. إن "الهوية الحضارية" واللحمة الثيولوجية، أيا ما كانتا، هما ما يشدان أزر المجتمع إثنيا ودينيا، وينسحب ما سبق على ما كانتا، هما ما يشدان أز يدعم الدين إرساء أسس الجماعات وقواعدها، التي قد تنجرف نحو الخلاف بل وحتى التقاتل على امتلاك الموارد وإحلال النظام وإحراز تنجرف نحو الخلاف بل وحتى التقاتل على امتلاك الموارد وإحلال النظام وإحراز السؤدد والاستئثار بالزعامة.

وخلال العهد الحديث خطا العالم خطوات بسيطة، وإن كانت جادة، على درب المسالحة والوفاق الديني، بل وحتى على درب تقرير العناصر المشتركة فيما بين المال. فعلى سبيل المثال، فإن استخدامنا المطرد الفظة 'اليهودى-المسيحى' يعد حديث العهد نسبيا، إذ لم تكتسب هذه اللفظة ذيوعاً إلا مع إرهاصات مولد القرن العشرين، وكان الهدف من نحتها توكيد مشتركات عقدية بذاتها لطالما تم تجاهلها إبان فترات التمييز ضد اليهود على امتداد معظم تاريخ النصرانية —حتى ولو كانت التباينات فيما بين الملل الثلاث الإسلام واليهودية هى الأعمق فيما بين الملل الثلاث الإسلام واليهودية والنصرمين، بل الثلاثة السابقة، واليهودية وقد حاز قدرا من الذيوع والتداول ليدخل الإسلام ضمن دائرة المشترك فيما بينها، على أن الثيولوجيات لم تشهد تغيرات ذات بال على النقيض مما شهدته الرغبة البشرية فى تجاوز تلك التغيرات.

الدين/الدولة/السلطة/الهرطقة

يعد الدين قوة لا يستهان بها، إذ يتناول العديد من القضايا بالغة الأهمية مثل عمنى الحياة ومغزلها، الموت، الحرب، الجماعة، والسلوك الأخلاقي، كما يطبع الدين حالة الفرد النفسية وكذا سلوكه وتصرفاته وردود أفعاله، ونادرا ما يقتصر تأثير الدين في الفرد فحسب، بل يتعداه ليشمل جماعة كاملة ممن يؤمن به ويضرب يسهم في طقوسه التعبدية، كذلك، وفي الوقت ذاته، يساعد الدين في تحديد جماعة نوى النفكير المتقارب وتقوية شوكتها.

وتأسيساً على النفوذ بالغ الثقل للدين، هل لذا أن نعجب من أن مراكز الهيمنة وأساطين النفوذ يتعين عليها السعى نحو تطويع ما يمثله من قوة لخدمة أغراضها وتحقيق مأريها؟ يمثل هذا التساؤل محور اهتمام الكتاب: العلاقات والتشابكات فيما بين الدين والسلطة والدولة. وتسعى الدولة جاهدة إلى اعتماد الدين وتبنيه، وكذلك الهيمنة عليه بتسييسه وجعله "دين الدولة". وحالما تم ربطه وإلحاقه بالدولة، تمسى مبادؤه وعقائده موصولة بهيمنة الدولة ونفوذها، وقد يكون الدين، والحالة كتلك، هي اليهودية أو النصرائية أو الإسلام ... أيا ما كان، فعندها لا تكون

الخلافات العقدية شأنا تبولوجيا فحسب، وإنما يكون لها خبابا ومضامين سياسية خطيرة. ويرمى كل من يخالف أيديولوجية الدولة أو دينها المسيس بالهرطقة، بل قد تضحى تلك المخالفة رديفا لخيانة الوطن.

إذا ... فما الهرطقة في واقع الأمر؟ إن 'الهرطقة' لتستدعي إلى الذاكرة مشاهد محاكم التقتيش، وأدوات التعذيب، والاعتراف بالذنب، وطلب المغفرة، والشهداء، والحرق صلبا وهي المشاهد التي ارتبطت بالهرطقة على امتداد الزمن، بيد أنها قد نظر إليها، في غالب الأحوال، على أنها ظاهرة سيئة السمعة. وفي الحقيقة، فإنها موصولة بمنظومة ومسيرة إبداعية عبر تاريخ الأفكار وتطورها.

إن أصل كلمة "هرطقة" في اليونانية ينطوى على معنى خال من أي ارتباط سابي أو سوء نية لصيق بالكلمة. فالهرطقة تعنى "الاختبار" – أي القرار الواعي لاتباع مسار يعينه من مسارات الأفكار، أما في النصرانية، فقد بدأت الكلمة تشير إلى الانحراف عن التعاليم الأرثونكسية، حيث لا يقصد بالأرثونكسية، بالقطع، أكثر من "العقيدة الصائبة". ولكن، من ذا الذي يمكنه تعيين ما هو "صائب" أو ما هو "حق"؟ ذلكم جوهر المشكلة: إذ تعتمد طبيعة "الهرطقة ومداها على من ينظر إليها، ويكون تحديد ما يندرج تحت "العقيدة الصائبة" امتيازا للسلطة وحكرا عليها.

وقد وجدت "الهرطقة" منذ البديات الأولى لمعظم الملل والعقائد، حين اتهم كل من ناهض وانتقد الأعراف المجتمعية السائدة بشأن الآلهة وطبيعة الروح — واعتبر مسئولاً عن الكوارث التي حاقت بالمجتمع، وقد كان يتم نحر الضحايا على المذبح، وقذف العذاري في البراكين الحارقة رغبة في استرضاء الآلهة، إن المصاعب والأخطار التي واجهها أنبياء "العهد القديم" تسلط الضوء على ما أدت إليه معاصى اليهود وأخطاؤهم من معاناة لهم، وكيف سيوقع الرب جزاءات إضافية بجماعة اليهود لاستهزائهم بوصاياه، فقد ألقى النبي يونس بن متى في البحر، ويشر المسيح بقرب نهاية هذا العالم الأثيم.

إن جماعة "العقيدة الصائبة" أو الأرثوذكسية تنحو إلى أن تكون مشكلة خلافية كبيرة الملل الإبراهيمية الثلاث، بأكثر مما قد تكون اللهندوسية أو البوذية أو الطاوية أو الكونفوشيوسية. وقد يكون ذلك، في جانب منه راجعا، إلى كون الملل الإبراهيمية قد أوحى برسالاتها من قبل الله، بما يعنى وجودها الأزلى منذ بدء الخليقة وكونها سابقة للحظة الرحى برسالاتها إلى الأنبياء الداعين إلى اتباعها، إذا، قلا توجد ثمة تنازلات أو مواسات فيم بخص أمر المعتقد وشأن الملة.

ويحضرنى فى هذا السياق نقاش دارت وقائعه فى الهند منذ ما يربو على عقد مضى، حين كتت أقوم ببعض الأبحاث عما سنأكتبه فى كتاب لى محوره "الإسلام فى مواجهة الغرب"، ولقد أخبرنى العديد من العلماء والباحثين الهندوس بأن افتراضى معيب منذ البدء. فالمحك الحقيقى لا ينصرف إلى العلاقة ما بين الإسلام والغرب على الإطلاق، بل إلى ما بين الهندوسية، كمعتقد تعددى الآلهة، وما بين غيره من الأديان التوحيدية فى الغرب – اليهودية والنصرانية والإسلام تحديدا. فطبقا لوجهة النظر الهندوسية، تكون الملل التوحيدية فى التزامها بعبادة إله واحد أضيق أفقا وأقل تسامحا عما عداها من عقائد وملل.

ومن الأمور المألوفة ادينا في هذا الصدد حسن استخدام الدين أو سوء توظيفه من قبل الدول وجماعات النفوذ في الحرب والسياسة وغيرهما من الصراعات الناشئة لتحقيق مآرب بعينها، وذلك على امتداد التاريخ، على أنه يكون، بطبيعة الحال، من التبسيط والسذاجة بمكان اختزال ظاهرة "الدين" برمتها فيما لا يعدو كونه ذريعة أو ستارا للنفوذ والصراع، ومع ذلك، فإن استغلال الدين لمآرب دنيوية أو علمائية يكاد يكون عاملا ثابتا في التاريخ السياسي والاجتماعي، لذا، تجد المؤسسات والهيئات الدينية نفسها تمضى أوقاتاً طويلة في محاولاتها لجماية "العقيدة الصائبة"، إذ، ووفق هذا المنطق، تجئ الأرثوذكسية كم مثل للحق عند تعريف الأفكار التي تؤثر في السلطة والنفوذ والتحكم فيها.

إذا، فدعوبًا لا تنحى باللائمة على الدين، إذ تسود الأرثوذكسية مناحى النشاط الإنساني كافة، بما فيها التاريخ والفلسفة وحتى العلوم، وتوجد "الأرتوذكسية" أينما حلت الثقة الدوغماطيقية محل النزعة للتشكك (عدم الركون إلى صحة الأمور كلها) والميل إلى طرح الأسحالة والنقاش الجدلي، وحين تدعم السلطة من تلك الثقلة وتساندها، وفي هذا الخصوص، يمكن أن نستدعي إلى ذاكرتنا كيف تم دعم الأرثوذكسية الشيرعية وتعضيدها بشدة في الاتحاد السوڤييتي الماركسي الملحد، عير طيف ممتد من الحقول والمناشط الثقافية كالتاريخ والفنون والعلوم، وقد واجه المُهرطقون الأيديولوجيون في الكثير من مجالات النشاط قدرهم المحتوم، عادة، برصناصة أطلقت على مؤخرة روسهم في زنازين سجون وكالة الاستخيارات الروسية. إذا، فقد تزاوجت الأرثوذكسية والأيديولوجية لتعزيز رفاه حكم الحزب الشيوعي والحفاظ عليه. كذلك، تتفاوت الأحزاب السياسية، وبخاصة تلك المؤدلجة، صعوداً وهبوطاً في قدرتها على إيضاح المعتقدات التي تجتذب المريدين وتنظم صفوفهم، وتسعى الأحرّاب لفرض الإجماع الأيديولوجي على أعضائها. إذ إنه، في ظل غياب أي شكل من أشكال الإجماع، تتقوض أركان الحزب برسته. وتختلف صبراعات الأهراب السياسية للحفاظ على النقاء الأيديولوجي، على نحو طفيف -عند تحكم النولة بالعقيدة الدينية عدا أن تلك التنظيمات الدينية تكون مرجعتها للقرة الكبرى" – الإله.

وتقع "الهرطقة" عند نقطة التقاء الإيمان والسلطة وتماسهما، فحين يتم مأسسة الأدبان، فإنها تواجه مشكلة "امتلاك" المعتقد والتحكم به، فالإيمان لا يعنى شيئا ألبتة لو كان الكل حرا في الإيمان بما يرتئيه ويرغب فيه، أو حرا في إيداع ضرب من الإيمان يخلقه خصيصا لمقتضيات أحواله، ولقد كان الاهتداء إلى "الله" في النصوص المقدسة الأساس المنطقي الذي انبنت عليه حركة الإصلاح البروتستانتي- وهو الحدث الذي أدى إلى تمزيق النصرانية ليحيلها شظايا مبعثرة من الجماعات الدينية الصغيرة، كذلك، فإن السلفية الأصولية أو "الفكر الوهابي" تعد تورية لدعوتها الفرد لتفسير "المقدس" وتأويله مباشرة، دون أي وسيط بين المفرد وبين ربه.

إذاً، فالسلطة هي الشرك النهائي والمفسد الأكبر، إذ كلما كان الدين ألصق بنفوذ الدولة وسلطتها، كان انحساره وخروجه من دائرة "الثقافة" و"الروح"، واقترابه من دائرة "السياسة" ونطاقها مع مضامين مباشرة لنفوذ الدولة وسلطتها، وعندها لا يمكن للدولة أن تكون حيادية تجاه "الثيولوجيا"، وحين تكون معتقدات الدولة الرسمية مهددة، فإن سلطة الدولة ذائها تكون مهددة كذلك - وهو الأمر الذي لا تتقبله الدولة أو ترتضيه.

ويبدو الأمر تبادلاً للأدوار والخدمات، إذ يكون المعتقد الثيولوجي في خدمة مصالح الدولة التي توظف، بدورها، رجال دين يمنحون "بركاتهم" الثيولوجية لتأويلات الدولة لتبرير مصالحها التي تخدمها ... وهلم جرا، ويستمر الإسلام والنصرائية، بما لهما من ارتباط طويل بمختلف سلطات الدول ونقوذها على مدار الزمن، في مواجهة ذلك التحدي إلى اليوم، بل إن الكنيسة والدولة في المسيحية، في حقيقة الأمر، كانتا أكثر ترابطا على امتداد معظم التاريخ المسيحي، بأكثر مما كانت عليه الحال في الإسلام، حيث لم يسارس علماء الدين، في الأعم، دورا في سياسة الدولة - إلى أن حدث ذلك في جمهورية إيران الإسلامية في عالمنا المعاصر، وبالمقابل، فإن اليهودية والتي تفتقر إلى أنوات خاصة بسلطة الدولة، على امتداد أزمان طوال، تمكنها تجنب ذلك المسار، رغما عن أنها أصبحت موصولة بسياسات دولة إسرائيل ونفوذها، لذلك المسار، رغما عن أنها أصبحت موصولة بسياسات دولة إسرائيل ونفوذها، لذلك قلم تعد اليهودية، كذلك، مستثناه كما كانت في السابق.

وفى المقابل، فحين يصبح الدين مستقلا عن الدولة، تفقد الأخيرة بالفعل نصيباً كبيراً من حماية الأرثوذكسية الدينية. بيد أن الأمر لن يكون سلسا للغاية حتى ولو كانت تلك هي الحال. إذ يمكن للمعتقدات الدينية الشخصية أن تمارس أثرا كبيرا في الدولة إذا كان لبعض الآراء والمعتقدات أثر في صورة الأفراد

الذهنية عن الدولة، وهكذا، فليعض التنظيمات الإنجيلية في الولايات المتحدة أثر مباشر في رؤية الشعب لحكومته، كذلك يمكن التنظيمات الأصولية الإسلامية، وفقا لوجهة نظرها تجاه الدولة، أن تكون مصدرا مباشرا لتهديد شرعية أعتى الأنظمة السلطوية العلمائية.

ولا يقصد من ذلك كله تبنى الانطباع بأن الدين لا يتعدى كونه واجهة غائمة لصراع السلطة، على أنه يمكن أن يكون كذلك، بيد أنه يجب ألا تحط القدرة على تطويع الدين لمآرب سياسية وتجارية من شأن القوة الروحية العظيمة للإيمان في تشكيل الحياة الشخصية للفرد، وكذا فلسفته وسلوكه، وبالتالي سلوك المجتمع ككل.

إن التسامح ذاته يمكن أن يكون خادعا. فالهندوسية قد عمدت، على نحو كبير، الى تجنب معظم المشاكل الخلافية الخاصة بالسلطة وبالعقيدة الصائبة – الأرثوذكسية، ويحق، فإن مفهومى "الأرثوذكسية" و"الهرطقة" لا وجود لهما، تقريبا، في الهندوسية، إذ تستوعب جميع الأفكار الدينية في بوتقتها، حيث تمثل كل فكرة إلهاما جزئيا، وشذرات من عناصر الحقيقة الشاسعة كمكونات من "حقيقة المقدس" -... تلك الحقيقة الهائلة العصية على الوصف أو التشبيه، وغير المدركة، بالكلية، على وجه الحقيقة. بيد أن أيا من عناصر "الهندوسية" المتسامحة متعددة الآلهة لا تستدعى الظن بأن الدولة الغالب عليها "العقيدة الهندوسية"، - أو أن أتباع تستدعى الظن بأن الدولة الغالب عليها "العقيدة الهندوسية"، - أو أن أتباع "الهندوسية" ومريديها – ليس بإمكانها اتباع سياسة التمييز بجميع أشكاله، وكذا الاضطهاد والعنف الوحشى بوجه أخرين ينتمون إلى عقائد وملل أخرى، ولقد شهد العالم مؤخراً اللجوء إلى استخدام العنف من قبل قادة هندوس مسلحين من أنصار القومية الهندوسية – ضد المسلمين والسيخ والجماعات المسيحية.

ويرتبط ما سبق كثيرا بالاعتبارات السياسية والقومية، فيما يكون ارتباطه بالعقيدة الدينية في ذاتها ضعيفا واهيا، فالهندوسية يمكن أن تتحول إلى قومية دينية ضيقة وغير متسامحة إذا ارتبط الأمر بالصراع ضد الدخلاء أو غير المنتمين إليها، وهو الأمر بالغ الشبه بما تقوم به الأصولية الإسلامية حين تنشط "كقومية إسلامية" ضد "الغارات" الغربية، وحتى البوذية، رغما عن كونها، فلسفي، دعوة سلام عالمية، إلا أنها حين ترتبط ببعض الصراعات الإثنية كتلك التي تخاض مع "السينهال" بسريلانكا ضد "التاميل" الهندوس، فسرعان ما تتخلى عن اعتباراتها الأخلاقية الداعية إلى السلام العالمي، حتى من قبل الرهبان البوذيين، حين يرتبط الأمر بالقتال على شرف الجماعة السينهالية البوذية، إذاً، تبدو "الثيولوجيا" غير الأمر بالقتال على شرف الجماعة السينهالية البوذية، إذاً، تبدو "الثيولوجيا" غير الأمر بالقتال على شرف الجماعة السينهالية البوذية، إذاً، تبدو "الثيولوجيا" غير

التسامح / الضم / الاستيعاد

يبدو أنه يمكننا تقسيم العالم، من وجهة النظر السيكولوجية، إلى معسكرين – أو بالأحرى عقليتين متمايزتين. فهناك من يسعى نحو ثقافة الاستبعاد، نحو إقامة سياج أو حدود بينه وبين الآخرين، من يرغب في اعتبار معتقداته وما يؤمن به فريدا بمنأى عما يعتقده الآخرون أو يؤمنون به، من يرى صواب رأيه ووجهته وخطأ رأى الآخرين ووجهتهم. وعلى الجانب الآخر، هناك أولئك الذين يهدفون إلى البحث عن قواسم مشتركة ونقاط اتفاق تنتظم ما يؤمنون به هم والآخرين، من يسعون إلى استجلاء دوائر الاتفاق والتطابق ومساحات التقاطع مع الآخرين ورؤاهم، وينسحب هذا حتى ما بين المؤمنين بالملة ذاتها أو المعتقد نفسه، فكما ذهب رجل حكيم في تصوير ما سبق: "لقد رسموا مربعا وتركوني بخارجه، فرسمت دائرة وضمنتهم يها"،

رلكن، ما العامل السيكونوجى الذاتى الذى يدفع بعض معتنقى ديانة ما بعيدا للبحث عن أوجه الخلاف وترسيخ فكرة الاستبعاد وتكريسها، وذلك الذى يدفع أخرين نصو التلاحم وترسيخ مبدأ الاستقطاب؟ تبرز هذه الثنائية كثيرا في المناقشات التى تجرى بالغرب حول قضية العلاقة مع الإسلام. فعندما أحاضر عن

أوجه الشبه ونقاط الاشتراك فيما بين المل الإبراهيمية، أواجه في بعض الأحايين ياعتراضات وإنكار، وأذكر، على سبيل المثال، أن "الله" — عند المسلمين هو الإله ذاته مثل Dios عند الإسبيان، و Dieu عند الفرنسيين، و Bog لدى الروس، و ITanri عند الأتراك. ويذهب نصارى العرب إلى الإشارة إلى إلههم بكلمة "الله". إذا، فتلك كلها كلمات متباينة الغات مختلفة تشير إلى المفهوم ذاته — الإله الواحد. بيد أن بعض المسيحيين الغربيين سيعترض قائلا: "الله" ليس ربى، فربى قد جاء بعيسى كولده الأوحد ... عيسى هو شفيعى وخلاص البشرية، وهو ليس الرب في "الإسلام" ". كذلك، سيعترض بعض اليهود بالقول بأن "الإله لدى النصارى ليس ربى لأنه وفقا لهم قد جاء بولد، وهو مفهوم تتكره اليهودية وتستهجنه. كذلك، فوفقا للعهد القديم، فإن عيسى لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يكون هو المسيح الذى يعتبره المسيحيون كذلك". ويذهب بعض محدودي الأفق من المسلمين إلى اعتبار يعتبره المسيحيون كذلك". ويذهب بعض محدودي الأفق من المسلمين إلى اعتبار اليهود والنصارى مشركين وغير مؤمنين، خلافا لصفتهم الواردة بالقرآن بأنهم اليهود والنصارى مشركين وغير مؤمنين، خلافا لصفتهم الواردة بالقرآن بأنهم اليهود والنصارى مشركين وغير مؤمنين، خلافا لصفتهم الواردة بالقرآن بأنهم اليهود والنصارى مشركين وغير مؤمنين، خلافا لصفتهم الواردة بالقرآن بأنهم اليهود والنصارى مشركين وغير مؤمنين، خلافا لصفتهم الواردة بالقرآن بأنهم الهالكتاب".

ولعل أولئك الذين يستشعرون خطرا يتهدد حضارتهم أو جماعتهم سينحون نحو إقامة حدود قاطعة وسيعتمدون نهجا استبعاديا في محاولاتهم لحماية إرثهم الحضاري المهدد، وفي ثلك الحالة، فإننا نتحدث بالقعل عن عناصر علم النفس الذاتي والاجتماعي ملامحه، ولبس عن "الثيولوجيا" مطلقاً.

إذا، فقد رأينا كيف أن "الإسلام" يتوافق تماما وينسجم مع تطور الفكر الدينى بصفة عامة، بحيث يمكن اعتباره نقطة تتوسط القطبين اليهودى والمسيحى، فالإسلام لم يأت كصدمة دينية للإقليم، وإنما جاء ليتوافق مع المصالح الجيوبوليتيكية القوى به كما فعلت المسيحية أنفا، اذا، فسيتناول سردنا، فى معظمه، تفاعل بلدان الإقليم مع تلك الملل، حيث تهيمن أهداف الدولة وتفوذها على أى دور استقلالي لهذه الملة أو تلك، وتمهد الحقيقة السابقة المناخ اطرح جدلى رئيسي تناوله الكتاب بالبحث، يذهب إلى أن تاريخ العلاقات فيما بين الشرق

الأوسط والغرب، يدور في أغلبه، ويحق، حول الروابط الجيوبوليتيكية وترتيباتها فيما يخص الممالك والدول، ولا يكاد يرتبط بالشان الديني إلا قليلا، وذلك بغض الطرف عن الشعارات المرفوعة والحماسة الأيديولوجية المعتمدة شعبيا لنصرة هذه الدولة أو تلك. فإذا نحينا الإسلام جانبا عن تلك المعادلة، لألفينا حالة الشقاق واللدد ذاتها ما بين الغرب من جهة، والشرق الأوسط من جهة أخرى.



السلطة - الهرطقة - وتطور المسيحية

كان القرن الرابع الميلادى حاسماً للمسيحية : فقد قامت خلاله الإمبراطورية الرومانية/البيزنطية باعتماد المسيحية كبين لها، وبذا أضحت العقيدة خاضعة الدولة على نصر مباشر، وسنشير هنا إلى تأثير السياسة المباشر في الثيولوجيا، فقد أصبح النين والهرطقة أهم السبل في الصراعات السياسية داخل الإمبراطورية النية/البيزنطية، فضلا عن كونهما الشعار وبؤرة التقاء شتى المن والأقاليم والجماعات والبطاركة نوى الطموح، كذلك، فقد أرسيت قواعد تأجيج الصراع الإقليمي في الشرق الأوسط – حتى في كنف المسيحية، إذ سيدخل الإقليم في النهاية صراعا ثلاثي الأبعاد بين ربها والقسطنطينية والإسلام، وسنقوم الآن بملاحظة كيف أثرت السلطة والهرطقة في الاعتبارات الجيوبوليتيكية بالإقليم حتى قبل نشأة الإسلام، بما فيها العداء المتنامي بين الشرق والغرب، أي بين القسطنطينية وروما، وسرعان ما سيتبني الإسلام ذلك الحذر والتشكل الجيوبوليتيكية بالإقليم حتى قبل نشأة الإسلام، بما سيتبني الإسلام ذلك الحذر والتشكل الجيوبوليتيكية بالإقليم الغرب،

ولقد نشأت قضية "الهرطقة" مباشرة بعد رفع المسيح، وذلك عندم دبت بنور الشقاق والانقسام بين أتباعه حول كيفية تفسير الأحداث المرتبطة بحياته ودعوته وانتقاله، وهو ما أدى إلى تمهيد الطريق لنشأة هرطقات لاحقة، وبمرور الوقت، أضحت النولة والقوى السياسية المتصارعة مدفوعة بشدة لإرساء تعريف للثيولوجيا وألهرطقة، وكيفية إدارتهما والتعامل بشأنهما لما لهما من تأثير مباشر في سياسات هذه الدولة أو تلك. وكان من يقوم بالترويج لهذا المبدأ الثدولوجي أو ذاك يلقى الاهتمام ذاته الذي يلقاء المبدأ الذي يروج له،

ومنذ البداية، فقد تم الزج بالسياسة اعتبارا من قرار التخلص من المسيح، فلقد اعتبرت معظم القيادات والمرجعيات الدينية بأررشليم المسيح نبيا مزعوما ودعيا مهرطقا ونادت بقتله، وفي النهاية، رضخت الدولة السلطات المحلية في الإمبراطورية الرومانية للطاب زعماء الجماعة اليهودية الداعية إلى قتله، وبالنسبة

لروما، كان هذا قرارا سياسيا، لا قرارا تيواوجيا، بل يمكن للمرء أن يذهب إلى أنه بالنسبة لقادة المجلس الأعلى اليهودي ذاته، فقد كان ذلك عملا سياسيا المتطمى من المسيح لما متله من تهديد اسلطات اليهود ونفوذهم في المجتمع.

ولقد كانت نواة نشأة الهرطقة وإرهاصانها موجودة منذ البداية. فعلى أى نحو سيكون الرابط، إن وجد، بين اليهودية والدين الجديد؟ بطبيعة الحال، فإن جميع أتباع المسيح الأوائل، تقريبا، كانوا من اليهود الذين اعتبروا أنفسهم نصارى يهود، ولكن، إذا كانت المسيحية، حقا، فصيلا من اليهودية، أكان متوجبا على الوثنيين الراغبين في اعتناق المسيحية قبول اليهودية قبيل الدخول في الدين الجديد؟ يرى أغلب اللاهوتيين المسيحيين، اليوم، أن القديس بولس، وليس المسيح، هو من أسس المسيحية بحق كدين جديد مميز ومستقل بعض الشئ عن اليهودية، فبعد وفاة بولس، لم يعد لزاما على من يرغب في اعتناق المسيحية أن يكون يهوبيا، كذلك، فقد

كان بولس أول من دشن قاعدة ثيولوجية مفادها كون الدين والإيمان به المكون الأساسى للفلاص وليس النزام المرء طيلة حياته بمقتضيات الشريعة اليهودية. وقد أدى التوجه الجديد للكنيسة بقيادة بولس إلى أعظم الانشقاقات صدعا في تاريخ اليهودية. وقد جاءت المسيحية، كدين جديد، لنزعم كونها دينا عالميا شاملا، متاحا للكافة ومشرعة أبوابه للجميع، حيث تنتفى التمايزات القائمة على الجذور الإثنية أو الدينية، قلن يكون هناك بعد اليوم "شعب مختار"، لأنه أضحى بمقدور أي من كان أن يصير "مختارا" باختيار المسيحية دينا له، وبذا، أصبح الإيمان، وليس "القانون" أو الشريعة، طريقا ومعبرا للخلاص النشود.

لذا، فمنذ البواكير، انبثقت الكثير من الأراء المتباينة حول المسيح، إذ سعت الجماعة المسيحية الأولى لاستجلاء معالم حياته ومظاهر دعوته وتعاليمه، ولعل القضية الخلافية الأكثر إثارة للجدل ضمن القضيايا الأولى هي التساؤل بشأن طبيعة وماهية المسيح عيسى بن مريم، تلك الخلافات الجدلية التي كأن لها، حتما، أثر في الإسلام.

- * هل كان المسيح بشراً، أم إلهاً، أم كليهما؟
- * هل حملت به العذراء ووضعته، بحق، من وجهة النظر البيولوچية، أم كان وجوده سابقا لميلاده؟ وطالما كان وجوده سرمديا، هل وجد على الدوام مواكبا لوجود "الرب"؟
 - * هَلَ الْمُسْيِحِ مِسَاقِ لِلْرِبِ، أَمْ هُو "الرَّبِ"؟
- * هل وجد "الرب" أولا، ثم قام بخلق المسيح؟ فإذا كان الأمر كذلك، ألا يجعل ذلك "المسيع" في "مرتبة ثانية" بعد "الرب"؟
- * هل الإله/ الرب واحد، أم كيان ثنائي يضم المسيح و الرب ؟ أم ثالوث يجمعهما والروح القدس؟

* إذا كان المسيح بشرا وإلها في أن واحد، ما الطبيعة الأكثر أهمية: العنصر البشرى أم الكيان الإلهي؟ وهل يمكن، بحق، أن يتنزل إلى الأرض ليحيا كبشر ويموت مصلوبا؟

* ماذا حدث للمسيح بعد أن قضى وقام ثانية من بين الأموات؟ هل له وجود مستقل أم اتحد مع "الرب"؟ أم كان له على الدوام وجود مستقل؟

تلك الأسئلة وكثير أخر قد كدرت صفو الكنيسة ثم الإمبراطورية الرومانية لاحقا، وحرضت على موجات من العصيان، وأوجدت نحلاً جديدة، وأشعلت شرارة الصراع المدنى والعسكرى، وشردمت السلطة الدنيوية، وظلت تلك الأسئلة بلا اتفاق أو إجماع بشائها، كما أدت، وما تزال، إلى شق الصف واللحمة المسيحية.

ولم يكن للمسيحية، خلال ثلاثة القرون الأولى، أدنى وضع قانونى أو رسمى إذ كانت ما تزال "حركة" أو "تنظيماً" تم رفضه واضطهاد عناصره، على نحو متواتر، من قبل الدولة فى الإمبراطورية الرومانية. كذلك، فقد رفض المسيحيون المداهنة أو التزلف أو تقديم فروض الولاء فى حدها الأدنى الدين الرسمى (أو دين الدولة) فى روما - وهو ولاء نو صبغة مرنة غير مقيدة تنطوى على انحناءة احترام وإجلال بسيطة للرموز القليلة للنفوذ الإمبراطورى، حتى وإن شرع المرء حينها فى القيام بطقسه التعبدى. على أنه قد تم اعتبار رفض الإقرار بدين الدولة فى حدوده الدنيا مع قيام المرء بممارسة شعائر دينه - اعتراضاً ورفضاً للدولة ذاتها ... ومظهرا من مظاهر الثورة والعصيان،

وفي تلك الآونة، كانت وجهات النظر المتعارضة بشأن طبيعة المسيح تحيا جنبا إلى جنب لفترات زمنية ممتدة إلى أن شرعت الكنيسة في رفض الكثير من وجهات النظر المتعارضة في محاولة منها الاستنصالها وخلق إجماع ما حول رؤية صائبة (أرثوذكسية) واحدة. ولقد عجل التبني الرسمي النهائي للمسيحية من قبل القوة الإمبراطورية الرومانية في القسطنطينية – تعضيد الإجماع حول العقيدة المسيحية،

وذلك من خلال قوى مستحدثة تم اعتمادها -

ومن وجهة نظر الدولة، قإن الثيولوجيا وما يرتبط بها تظل على قدر كبير من الأهمية من أن تقرك في أيدي علماء اللاهوت. فالقرارات ذات الطابع الثيولوجي يجب ألا يتم حصيرها بأن تقتصر على نتائج الأعمال ومخرجات الأنشطة المبهمة لعلماء اللاهوت الجالسين بوقار ومهابة وإجلال في مجامعهم، بل تمتد لتشمل كوكبة من مرجعيات متنافسة -المؤمنون، علماء اللاهوت على تباين مشاربهم، الساسة، وأخيراً، الإمبراطور- تتنافس جميعها لتحديد رسالة المسيحية الحقة بما يتماشى ومصالحها الذاتية. وتهدف تلك المرجعيات جميعها إلى تحقيق هدف واحد شديد الأهمية، ألا وهو التوكيد على هيمنة الكنيسة والدولة على الاعتبارات العقدية. إذ إن القيام بتحدي هيمنتها على تأوبل تلك الاعتبارات هو تحد لقوة الكنيسة وسطوة الدولة ذاتهما. وفي غمار الحماسة للشبوبة للدين الجديد، تم تناول قضية طبيعة المسيح بالجدل والنقاش في الأوساط العامة بين الجماعات اليهودية وغير اليهودية على امتداد العالم القديم - تحديداً في الأناضول بتركيا، واليونان، ومصر، وقد تدووات بعض الروايات عن الجدالات والنقاشات الشعبية التي جرت أحداثها داخل حوانيت الحلاقة والحانات في القسطنطينية بشأن طبيعة المسيح وماهيته، ولقد كان اليهود الهيلينيستيون، والممثلون لقسم كبير من الجماعة اليهودية، في بؤرة تلك الجدالات... بيد أن القضايا المرتبطة بطبيعة المسيح لن تنوى أو تختفي، بل ستطفو إلى السطح مرارا وتكرارا في مرطقات لاحقة، حتى في ظل نشأة الإسلام ذاته.

وبتبنى الإمبراطورية الرومانية البيزنطية رسميا للمسيحية، شرعت الدولة في إحكام قبضتها على جميع الاتجاهات التأويلية والمدارس الفكرية الموجودة بالإمبراطورية بغية إرساء قدر من الأرثوذكسية وتحديد "الأراء والعقائد الصائبة"، كذلك، فقد تم التوفيق فيما بين المتحزبين ذوى الأراء المتباينة ووجهات النظر المختلفة، وإلا فقد تم مصادرة أرائهم أو قمع أفكارهم، لذلك، ليس مستغربا أن أثرت قوة بعض الرسميين ونفوذهم ذوى الأراء المخالفة، على نحو بالغ، في

حسابات النولة حين اتخاذها القرار، كذلك، فكيف للنولة القيام بتحديد سيل الأفكار والآراء الدينية العارم في المحيط الشعبي منذ عهد المسيح، وكيف لها أن تنظمها وتصنفها وتوفق فيما بينها؟ كانت الخطوة الأولى على هذا الدرب السيل العارم للأفكار والآراء الدينية في الدعوة إلى عقد عدة مجامع مسكونية لتحديد الصبغة الرسمية للعقيدة الدينية وإرسائها، فعندما دعا الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول (الكبير) إلى عقد مجمع نيقية في عام ٢٢٥ لتشكيل التعاليم الأساسية للمسيحية وصياغتها في قانون الإيمان المسيحي، ظن المجمع أنه أرسى الكلمة الفصل فيما يتعق بقضية "الإيمان المسيحي" على مر العصور،

ولكن لم تكن تلك هي الحقيقة، فقد استوجب الأمر عقد مجامع أخرى، كما استلزم إحدث المزيد من التغييرات، وكان من أوائل مهام الكنيسة الرسمية تقرير النصوص التي يمكن اعتبارها، بحق، "كتابا مقدسا". فمن بين العديد من الكتابات عن المسيح وحوارييه والحركة المسيحية الأولى، أي منها سيتم تكريسه واعتباره مقدسا كجوهر العقيدة المسيحية ولبها؟ وأية نسخ من أية كتب سيتم اعتمادها، حيث ينتشر منها العبيد؟ وقد كان لاعتماد كتاب ورفض أخر مستتبعات مباشرة تمخض عنها رابحون وهاسرون، فقد اعترف ببعض الكتب واعتبرت أصيلة، فيما رفض البعض الآخر باعتباره دخيلاء ولقد تباينت معايير الاعتراف بأصالة الكتب تباينا كبيرا، فبعض الكتب اعتبرت مدونة في وقت لاحق للمسيح بمدى كبير بما يجعلها تفتقر إلى المرجعية والمصداقية لتناول حياته. كذلك، حظيت بعض الكتب بقبول واسع بين جماعات بذاتها، على هين انتفى ذلك عن البعض الآخر. وكانت بعض الروايات قد اعتبرت غير موثوق بصحتها إذ لا يستقيم الركون إلى مرجعيتها، فيما عُدَّت أخرى بمنأى عن التعاليم القياسية للكثيسة إلى الحد الذي اعتبرت معه تجديفا وفرطقة صريحين، كذلك، فقد اعتبرت بعض الكتب مشتملة على قيمة تاريخية فيما يخص توثيق الحركة المسيحية الأولى، على أنه لم يعتد بها "ککتاب مقدس".

فما الكتاب المقدس، إذا؟ إنه الكتاب الحاوي لنصوص تم تبنيها من قبل مرجعيات معتمدة وموثوقة والاعتراف بكونها "أصيلة"، ومن ثم اعتمادها، واعتبارها "مقدسة" لاحقا، وتتحدد أصالة "المقدس" من خلال تحكيم تقوم به أطراف معنية. ونتيجة اذلك، رفضت الكثير من النصوص المسيحية الهامة من قبل المرجعيات المعنية وفقا لمعايير التحكيم، بيد أن تلك النصوص الأصيلة، وإو أنه قد رفض اعتمادها، إلا أنها تحوى وثائق ونصوصاً على درجة عالية من الأهمية لفهم المسيحية وإدراكها ... أعمال عظيمة كأنجيل متى، و"مخطوطات البحر الميت" وملفق أعمال الرسل" وأعمال أخراً،

ولم تكن النصوص وحدها الطرف الخاسر، بل وجدت أيضا أبنية من الأفكار والمعتقدات منيت بالخسارة، حيث تم استبعاد جماعات بأسرها كانت تؤمن بهذه الأفكار والمعتقدات، وفقا لما حكمت به سلطات الكنيسة ومرجعياتها بموجب مرسوم الدولة في هذا الشان، فالأفكار القديمة والمتبناه لا تقاوم بعناد لا يلين. ويبقى السؤال: فيما يخص المجامع المسكونية التي تم عقدها، من ذا الذي ستتم توجيه الدعوة إليه؟ ومن ذا الذي سيتم الاستماع إليه؟ وكيف ستجرى عملية اتخاذ القرار؟ القد كان زعماء الكنيسة والجماعات المختلفة الذين لم يتم اعتبار أرائهم مطالبين بالتبرؤ من وجهات نظرهم، وإلا عدوا هراطقة مجدفين.

لقد أضحت قوة الدولة وسطوتها تطرد فيما يخص مسيرة تأصيل الدين ونشره وتطبيقه، ورغما عن اتسام التحول إلى اعتناق المسيحية عن طريق التيشير باليسر والسلاسة، إلا أنه غالبا ما كان يتم دعمها عن طريق سيطرة الدولة على المعابد والمؤسسات ودور العبادة الوثنية القديمة في حقية ما قبل المسيحية، وحظر الممارسات والطقوس التي كانت تقام بها، وفي السنوات اللاحقة، لم تكن مسيرة التحول في بعض الحالات سلسة على الإطلاق. فإذا أخذنا مثالا يوضح ذلك كغرو "الساكسون" وتحويلهم إلى اعتناق المسيحية على يد "شارلمان" خلال حرب الثلاثين عاما التي اشتعلت بدءا من عام ٧٢٧، والمتسمة بأقصى درجات الوحشية والعنق،

لوجدنا أن التحول إلى اعتناق المسيحية كن، بالأساس، تسويغا أيديولوجيا لتمديد رقعة إمبراطوريته الفرنجية الكارولنجية، وقد حكم على أولئك "الساكسون" الذين استمروا في ممارسة طقوسهم التعبدية لآلهتهم التقليدية بعقوية الإعدام، ولقد كانت تلك الحملات العسكرية من العنف بما جعل الأساقفة الفرنجة يخافون من العواقب طويلة الأجل لذلك التحول الدموى عن الملة بحد السيف.

لقد أدى دعم الدولة وتأبيدها، بشقية القسرى والطوعي (الإقناعي) إلى تيسير النهج التبشيري، فاستحسان الظهور بمظهر الولاء للعقيدة الرسمية للنولة جعل التحول إلى النصرائية أمرا حصيفا وسهلا، ولقد التجأت الدولة لاستخدام طرائق شتى للحط من قدر الوثنية واستنصال شأفتها، إذ عمدت، في كثير من الأحيان، إلى جعل ألهة الوثنيين كما لو كانت شياطين يعبدها المرء وإن أدت إلى إلحاق الضرر به. وفي أحيان أخرى، ذهبت الكنيسة إلى صيغة توافقية مع الممارسات الوثنية بقبولها لبعض من آلهة الوثنيين واعتبارهم "قديسين" من فورهم، بما يضمن أن يكون وجودهم في البيئة المسيحية الجديدة مستساغاً، وإن تكن قد خبت أهميتها. كذلك، كان غالباً ما يتم إعادة تنظيم دور العبادة المقدسة للوثنيين وتحويلها إلى دور للقديسين الذين سلفت الإشارة إليهم، وكانت هذه الممارسات عادة ما تتم في نطاق القبائل الهمجية في أوروبا، وفي الآونة الحديثة في قيام الكنيسة الرومانية بالتبشير حيث تحول بعض السكان المطيين في إفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى اعتناق المسيحية. ولقد صادف الإسلام المشكلة ذاتها تقريبا أثناء انتشاره في أربعة أركان المعورة، في مواجهته للعقائد والملل السابقة و'القديسين'، والتي تم الحفاظ عليها ، كحد أدني، في مظهر إسلامي، بواسطة المتحولين الجدد إلى اعتناق الإسلام.

ولقد مثل الافتتان بمريم العثراء توسعا آخر لنطاق المقدس" والذي امتد ليشمل رموزا متزايدة في الهيكل الكنسي. ولقد بدأ الافتتان الرسمي بمريم العذراء بعد نصو أربعة قرون من رفع المسيح، رغما عن المعارضة الشديدة

لتجسيدها. ولم يبدأ تبجيل العذراء وتوقيرها كرمز في الكنيسة الشرقية إلا بحلول القرن السادس الميلادي، وبعد ذلك بزمن في الكنيسة الغربية، (وقد ذهبت كارين أرمسترونج إلى أن تبنى تجسيد مريم العذراء في الهيكل الكنسى" كان استعاضة ولدت في اللاوعي عن تحريم تجسيد الإلهات في كثير من الديانات الشرقية الأولى، وكذا بموجب المظهر التوحيدي الأبوى بالغ الصرامة والمميز لليهودية، وفي ظل المسيحية البروتستانتية لاحقا)، أما كتاب ميرلين سترون النظام الأمومي، في الغالب، والتي عبدت الإلهات، إلى النظام الأبوى الذي عمد الله الإبراهيمية المنتون الذي تبنته الملل الإبراهيمية الثلاث.

وقد كانت القسطنطينية، وليس روما، المسدولة عن غالبية تلك القرارات الثيولوجية والعقدية. ورغما عن كونها عاصمة الإمبراطورية الرومانية، إلا أنه فى الوقت الذى أقرت فيه شرعية المسيحية، كانت روما تعانى أوقاتا عصيبة، بوصفها موضعا ملتهبا يضطرب تحت وطأة الغزوات الهمجية وتواترها واستيطانها لها. وتزامنا مع ذلك، فقد تم اختيار القسطنطينية، كمديئة استحدثت، عاصمة بديلة للإمبراطورية الرومانية لما لها من هيمنة وسطوة ... تلك العاصمة التى أضحت مقرا دائما لكرسى الإمبراطور الروماني. وقد كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية، بيزنطة، هى التى اتخذت قرار تبنى المسيحية كدين رسمى لها، كذلك، فقد المنطلعت هذه الإمبراطورية مترامية الأطراف بجميع مقتضيات الدولة كإمبراطورية ولقد كانت القسطنطينية هى من اضطلع بمعظم المهام الأولى لتحديد الأرتوزكسية، وتعيين مجمل الكتب المعترف بها، والبت فى تلك التى تعد تجديفا وهرطقة. كما كانت بيزنطة هى من نشر المسيحية على امتداد معظم بلدان الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط شمالا حتى دول البلقان، وفي معظم بلدان الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط شمالا حتى دول البلقان، وفي معظم الأراضي السلاقية.

وخلال سنى أوجها، غزت الإمبراطورية الأراضى المكونة لمعظم شمال إفريقيا، ومصدر، وسوريا، ومعظم أراضى ما يعرف الآن بالعراق وأسيا الصغرى (الأناضول). وكانت الزرادشتية، في أرض فارس، هي المنافس الأوحد للمسيحية في ذلك الإقليم، وذلك حتى نشأة الإسلام فيما بعد.

فسيفساءات هرطقية

انبثقت كوكبة مدهشة من الأفكار المسيحية تباعا في شرقى المتوسط، والتي نعت معظمها، لاحقا، بكونه هرطقات تجديفية، وتكمن أهمية تلك الهرطقات في إخبارها لنا إخبارا مستقيضا عن الديناميات المؤثرة في سياسات القوى داخل الإمبراطورية البيزنطية. كذلك، فهي تفصح بقوة عن العقلية الدينية وتقافتها أنذاك – إلى حد تمهيدها الطريق لكثير من الآراء العقدية في الإسلام، ويرشدنا إدراك ديناميات الهرطقة، مرة تلو الأخرى، كيف أن الدين كان يمثل قاطرة، وليس سببا، للضلافات والانقسامات والمواجهات البينية على اهتمامات ومنافسات تنزع إلى أن تكون دنيوية الطابع، لا أن تكون دينية النزعة، أفليست الطريقة المثلى، إذا، لاستنهاض طموح المرء ودفعه للأمام أن يُخلّع عليه إهاب ديني ومسحة إلهية؟!

لقد كانت إحدى أكثر الهرطقات تبكيرا في النشأة وأطولها امتدادا عبر الزمن المرقيونية، غوفقا لجورج روبرت ميد، الباحث في الشئون المسيحية، كان مرقيون (١١٠-١٠٠) أحد مالكي السفن الموسرين في سنوب، على ساحل البحر الأسود – ضمن الأراضي التركية الآن، وقد اقتفى مرقيون خطى أبيه في أن يصبح أسقفا السنوب، كذلك، فقد كان يخصص، على الدوام، جانبا كبيرا من أمواله الخاصة الكنيسة، وقام بزيارة روما كشخصية شهيرة للترويج لرؤيته، وذلك حوالي عام ١٤٠ – قبل أن تخلع الإمبراطورية الشرعية على الكنيسة بما يقارب ١٦٠ عاما، وحتى في تلك الآونة، كانت الكنيسة تتخذ موقفا عدائيا من رسالة مرقيون، وقامت بتشليحه وحرمانه من شركة الكنيسة في عام ١٤٤، كما عمدت إلى رد جميع

الأموال التي سبق له وأن تبرع لها بها،

وكان خطأ مرقيون من وجهة نظر الكنيسة أنه أضحى أكثر "بولسية" من القديس بولس ذاته. فقد ذهب بولس، بالطبع، إلى أن المسيح قد بشر برؤية دينية جديدة تماما ومختلفة عن اليهودية ... بينما أعلن مرقيون، بصفته أسقفا مكرسا بالكنيسة في القرن الثاني الميلادي، وكزعيم شهير في أسيا الصغرى، أن العهد القديم برمته يتعارض مع العقيدة المسيحية. كذلك، فقد قام بعرض بيانات محكمة ودقيقة عن خصائص "إله" اليهود وسماته كما وردت في العهد القديم وموازاتها بخصائص "الرب" وسماته الذي بشر به المسيح. وقد خلص مرقيون إلى أن سمات إله" اليهود من حسد وغضب وعنف وانتقام تتعارض تماما مع "إله" الحب والمغفرة والتسامح الذي بشر به المسيح، وبذا، فإن "إله" اليهود ليس هو الإله "الحق" ... والسيم الرب وفقا المسيحية، ولكن "معبود" أقل شأد من "الرب" الذي بشر به المسيح ... ذلك الرب الذي فاقت قدرته، وعظمته قدرة "إله" اليهود ومعبودهم، بل بلغ الأمر بمرقيون أن أنكر معظم الحواريين كونهم، من وجهة نظره، شهوداً لا يعتد الأمر بمرقيون أن أنكر معظم الحواريين كونهم، من وجهة نظره، شهوداً لا يعتد المسيح وأدرك كنهها، وخلص مرقيون إلى أنه من غير المجدى ولا الضروري محاولة المسيح وأدرك كنهها، وخلص مرقيون إلى أنه من غير المجدى ولا الضروري محاولة السيح وأدرك كنهها، وخلص مرقيون إلى أنه من غير المجدى ولا الضروري محاولة النوفيق ما بين اليهودية والمسيحية.

ورغما عن اعتبار مرقيون مهرطقا، إلا أن جماعته كانت على قدر من القوة. وقد قام مرقيون بتأسيس العديد من الكنائس التي نافست روما لقرون، وذلك في إيطاليا، ومصر، وفلسطين، وجزيرة العرب، وسوريا، وآسيا الصغرى، وبلاد فارس. كذلك، فقد عُدّت الكنيسة المرقيونية الثانية من حيث النفوذ والسلطان والأهمية ضمن الجماعات المسيحية الأولى، فلم تسبقها سوى الكنيسة الرسمية ذاتها.

وقد ظلت عناصر رسالة مرقبون ودعوته باقية إلى الآن، في هيئة جماعات ومنظمات تقوم على نشر أفكاره ورؤاه والترويج لها، ويكمن العمر الممتد كسمة

أساسية ومميزة للفكر المرقيوني في المآزق الثيراوجي الهام الذي طرحه: كيف يمكن التوفيق بين العصبية القبلية اليهودية ضبيقة الأفق، وكذا العنف الذي يصبغ لعهد القديم، فضلا عن 'الرب' ذي السمات الغاضبة والاستبدادية والمتقلبة – وبين 'الرب' في العهد الجديد، فضلا عن رسالة المسيح وتعاليمه المنطوية على الحب والتسامح؟

اذا، يبقى السؤال: هل ثمة استمرارية وتواصل فيما بين اليهودية والمسيحية، أم أن الأمر ينطوى على انقسام عميق بعيد الشقة بينهما؟ قإذا كانت الاستمرارية والتواصل، فالمسيحبة، إذا، هى هرطقة جلية من وجهة النظر اليهودية، أما إذا كانت الهوة عميقة بينهما، فلا يمكن، إذا، النظر إلى المسيحية على أنها "هرطقة يهودية"، وإنما على أنها كيان مستقل للإيمان حيث تكون الصلة بين العهد القديم وبين تعاليم المسيح موضعا السؤال. ولا تنى تلك الأسئلة تكرر نفسها. كذلك، فهى تمثل نسخة مبكرة من جدال ما زال قائما إلى الأن يذهب إلى رقض وإنكار مفهوم وجود "إله واحد" للملل الإبراهيمية الثلاث، مشيرا إلى تباين الآلهة. بيد أن المرقيونية، وعلى أية حال، قد برزت كتحد سافر وكبير بوجه سلطة الدولة المسيحية المرقيونية، وعلى أية حال، قد برزت كتحد سافر وكبير بوجه سلطة الدولة المسيحية الموقود في سرنطة،

بعد أن خلعت الإمبراطورية صفة الشرعية على المسيحية في عام ٢١٣، كانت الموطقة الكبرى والمتدة أثرا، والتي تلت المرقيونية في الظهور ... هي الأريوسية، التي تأتى طبيعة المسيح وماهيته في القلب منها، ولقد كان "أريوس" (٢٥٠–٢٣٦) لاهوتيا مرموقا ولد في ليبيا ونال تعليمه في أنطاكية (تركيا اليوم) حيث تشبع بالكثير من الأفكار التي ستلازمه لاحقا، ثم انتقل للعيش والتدريس في الإسكندرية بمصر ... وهي أحد أهم وأكبر المراكز والبطريركيات المنافسة في العهود المسيحية الأولى، وقد بشر أريوس بأن المسيح قد تم خلقه من قبل "الرب"، كما حدث بالنسبة للروح القدس، وأنهما معا خاضعان للرب، الذي هو "الرب الحق"، والخالق الأوحد، وبذا، فارب نامسيح نشاة وبداية، بينما لا ينطبق ذلك على "الرب"، فالرب ذاتي

الوجود، فيما لا يكون " لابن" كذلك، والذي لا يمكن أن يكون ربا بذاته. لذا، يصبح للسيح كيانا أقل دوجة.

وقد أضعف هذا الإيمان والمعتقد بشدة من الموقف الأرثوذكسى والذاهب إلى أن مفهوم الأب والابن والروح القدس، ثلاثتهم كأرياب، كان موجودا على الدوام، وسيظل كذلك بوصفهم أكفاء وأندادا. على أن المعتقد الآريوسى قد تم شجبه باعتباره هرطقة وفقا للإيمان المسيحى الذي خلص إليه مجمع "نيقية" في عام ٢٣٥ . بيد أن الحركة الآريوسية كان لها نفوذ وقوة حتى أنها نالت تعاطف خليفة الإمبراطور قسطنطين الكبير. كذلك، فقد أضحت الآريوسية متجذرة بين القبائل الجرمانية في أوروبا، وكذا في الشرق الأوسط، وبخاصة الإسكندرية، حيث كانت الفرصة مهيأة لقبول مثل هذا التفكير بشأن المسيح ككيان يأتي لاحقا الرب، وليس كفؤا له، وقد أضحت العقيدة الأريوسية محركا دفع بالإسكندرية للتطلع إلى الارتياح إلى مفهوم "الثالوث" المركب واعتبار المسيح على قدم المساواة مع الرب، وبعبارة موجزة، كان هناك تعاطف دائم مع عناصر التوحيد الخالص التي لا ترضى بديلا عن "الإله الواحد"، وهو جوهر العقيدة اليهودية، وكذا جوهر الإسلام ترضى بديلا عن "الإله الواحد"، وهو جوهر العقيدة اليهودية، وكذا جوهر الإسلام ترضى بديلا عن "الإله الواحد"، وهو جوهر العقيدة اليهودية، وكذا جوهر الإسلام التي لاحقا، كذلك فهذا ما تؤمن به "الكنيسة التوحيدية" في عصرنا الحالي.

ورغماً عن الإعلان رسميا بأنها هرطقات ملعونة، إلا أن بعضا من تلك الهرطقات قد نجح بالفعل في التحرر وإرساء دعائم ثابتة لكياناتها. وفي حقيقة الأمر، فإن الجدل الدائر حول ماهية المسيح وطبيعته الحق ظل جدلا دائرا لم يحظ، ولن يحظى بأي إجماع مسيحى بشأنه.

وفيما أنكرت "الآريوسية" أن يكون المسيح على قدم المساواة مع "الرب" ككفؤ له، فإن عقيدة "الطبيعة الواحدة" قد ذهبت إلى الاتجاه المقابل مؤمنة بمتلاك المسيح لبعض السمات البشرية على أن ماهيته وطبيعته هي "قدسية ربانية" بالأساس، وهو ما يخالف تعاليم الكنيسة بأن المسيح ذو طبيعتين كاملتين، إحداهما بشرية والأخرى ريأنية. وقد أعلن مجمع "خلقيدونية" الرابع في عام ١٥١ أن تعاليم عقيدة الطبيعة الواحدة" تعد هرطقة وتجديفا، وهو حدث نو شأن ونقطة فارقة أدت إلى أول تمزق جدى ودائم في نسيج الكنيسة – وكذا الاستقلال والانفصال النهائي لما يطلق عليها اليوم الكنائس الأرثوذكسية الشرقية أو كنائس "الطبيعة الواحدة"، وقد تم احتضان وجهات نظر أصحاب "الطبيعة الواحدة" بقوة في سوريا، والمشرق، ومصر ... وهي المراكز التي قاومت سطوة القسطنطينية ونفوذها، كذلك فقد تم احتضان وجهات النظر تلك في كل من أرمينيا والحبشة.

وقد أدت التنويعات بشأن طبيعة المسيح وماهيته إلى خلق هرطقات أخرى كالإيبيونية، تلك الطائفة اليهودية/المسيحية، والتي انبثقت في القرن الأول الميلادي، وأبرزت الانتشار واسع المدى لليهودية. وتذهب الإيبيونية إلى اعتبار المسيح نييا لا إلها بالتعارض مع رؤية القديس بولس (وبالتوازي التام مع رؤية الإسلام للمسيح).

أما الأوطاخية، فقد ذهبت إلى أنه فيما امتلك المسيح بعض العناصر ذات الطبيعة البشرية، إلا أن السيادة كانت للعناصر الربانية، ولذا، فإن معظم الخلافات والجدل الدائر بشان ذلك الأمر يرتبط بالعذراء مريم: هل كانت مريم أم المسيح كرب؟ أم أنها كانت أما له في هيئته البشرية فحسب؟

وقد أدت الارتباطات والمصالح الجيوبوليتيكية إلى إذكاء النار في الخلافات الثيولوجية بشأن طبيعة المسيح وماهيته، وقد ارتبطت الأوطاخية بشدة بسعى الإسكندرية في عام ٣٣٤ للتوكيد على مركزها كثاني أكثر المدن المسيحية أهمية بعد القسطنطينية، وهو مركز سعت إليه بشدة غريمتها أنطاكية، والتي روجت لرؤية أكثر أرثوذكسية بشأن طبيعة المسيح،

أما الدوسطية، فقد ذهبت إلى القول بأن جسد المسيح ما هو إلا وهم من المنظور المادي، وأنه بدا ولو أنه قد مات، بيد أنه كان، في الحقيقة، روحا محض لا

يصيبها البلى ولا يدركها الموب. ويرتبط هذا الاعتقاد بالمفهوم القائل بأن كل ما هو "مادى" في هذا الكون يعد شراء لذا فالرب رواده لا يمكن أن تكون لهما "طبيعة مادية". أما الإسلام، والمؤمن بكون المسيح ذا طبيعة بشرية مادية لا ربانية - فيشترك مع هذا التوجه بأن المسيح لم يمت على الصليب، وإنما شبه للناس ذلك، وأنه قد رقع إلى السماء بإرادة للله.

أما "البيلاجيوسية"، فقد جاء بها "بيلاجيوس"، وهو راهب مغمور من الجزر البريطانية، وقد أنكر "بيلاجيوس" تعاليم الكنيسة بشأن "الخطيئة الأولى" -- وهو اعتقاد بأن البشرية مثلبسة بالخطيئة نتيجة "للخطيئة الأولى" التي اقترفها كل من أدم وحواء، ولعل إشكالية إنكار مفهوم "الخطيئة الأولى" تكمن في نفي الحاجة إلى الخلاص المدرك فقط بواسطة الإيمان كما تذهب إليه الكنيسة، وفي عام ٢١٦، أعلن أن "البيلاجيوسية" هي هرطقة صريحة، وفي هذا السياق، فإن الإسلام، أيضا، ينكر مشروعية مفهوم "الخطيئة الأولى"، ويرفض مقولة "الطبيعة البشرية المتلبسة بالخطئ".

أما مذهب "وحدة المشيئة الإلهية"، فقد تم الالتجاء إليه، وإن لم يحالفه الترفيق، لإرساء صيغة توفيقية بين الكنائس المتنافسة في كل من الإسكندرية والقسطنطينية حول ما إذا كانت أفعال المسيح تمثل روحا ربانية واحدة، أم جماعا لكل من الإرادتين اليشرية والربانية. ورغما عن كونها قد بدت غامضة ومبهمة، إلا أن تلك العقيدة كان لها أساس سياسي محض في محاولتها لرأب الصدع بالكنيسة الشرقية، والذي أحدثته هرطقة أصحاب "الطبيعة الواحدة"، وفي النهاية، تم رفض هذه الصيغة التوفيقية، بما بعني أن السياسة قد برت الثيولوجيا وكان لها الغلبة،

إن التفاصيل المرتبطة بتلك الهرطقات تبدو مذهلة لما تكشف عنه من نطاق واسع المدى من التأويلات المعقدة والمفصلة لطبيعة المسيح وماهيته، ولقد انبثقت تلك الهرطقات جميعها قبل نشئة الإسلام، والذي يتعين، بدوره، أن ينظر إليه كجزء من

سياق الجدل بشأن التعليل اللاهوتي لطبيعة المسيح وماهيته.

كذلك، فلا يعد أي نقاش أو تناول لتلك الهرطقات مكتملا دون إيراد بعض الإلماحات والإشارات الحديثة إلى تلك الأمور الخلافية، فقد يكون للقوة والنفوذ لمتياز وحق تعيين ما يعد "مرطقة" وما لا يعد كذلك، بيد أن الهرطقة لا تعنى، بالضرورة وعلى الدوام، أمرا مستجدا على مسرح الأحداث. إن الجهد الرائع الذي الضطلع به اللاهوتي الألماني، فالتر باور، في نهايات القرن التاسع عشر لتحليل تطور العقيدة المسيحية في بداياتها، ليصل إلى استنتاج مفاده أن ما نذهب إلى اعتباره "هرطقة" في وقتنا الحاضر لا يعنو، في حقيقة الأمر إلا أن يكون الإدراك المسيحي المبكر لطبيعة المسيح وماهيته، وقد جادل باور بأن الكنيسة ذاتها هي التي قدمت تأويلات جديدة لللاهوت في القرون الأشيرة، وأسست "أرثوذكسيات قدمت تأويلات جديدة لللاهوت في القرون الأشيرة، وأسست "أرثوذكسيات مستحدثة"، وقامت في بعض الأحيان بتغييرات في المعتقد السيحي الأصيل، بل وحتى في النصوص المقدسة ذاتها. وكانت تلك التأويلات قد نشات استجابة للمقتضيات المؤسساتية والسياسية للستجدة للكنيسة للإفصاح عن كون التفهم المبكر ضربا من التجديف والهرطقة، وقد طرحت هذه الأفكار ووجهت النظر، في الفترة الأخيرة، عن طريق الباحث الفذ بارت أرمان، رئيس قسم الدراسات الدينية الفترة الأخيرة، عن طريق الباحث الفذ بارت أرمان، رئيس قسم الدراسات الدينية بجامعة أنورث كارولاينا" في تشابل هيل، وذلك في كتابه "مسيحيات مفقورة".

ويحق، فما زلنا نجد مرونة كبيرة في التأويلات الثيولوجية لبغض الأفرع الصغيرة من الملل الإبراهيمية. فعلى سبيل المثل، فإن عقيدة "لوحى المستمر" لكلمة الله هي ما يميز منحى كل من "الكويكرذ"، وكنيسة "يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة" (المارمون)، و"الخمسينية" و"المسيحية الكاريزمية"، بالإضافة إلى البهائية. فوفقا لهذه العقائد، فإن الوحى المرسل من لدن الله لم ينقطع أبدا، بل هو متاح للأجيال المتعاقبة لتلقى كلمة الله على المستوى الفردى أو الجماعي، وتحظى تلك الأفكار برواج وقبول على مر ،الأيام، فالبهائية، ضمن عقائد أخرى، تعتنق مبدأ الوحى المتواتر"، بما فيه من تعاقب الأنبياء المرسلين من لدن الله على مر الأمن

لنشر كلمته، ويكون هذا "الوحى المتواتر" بحيث يتناسب مع البشرية في تطورها واتسام فهمها للرب بالعمق والنضج المتواصلين، لذا، تستلزم الأزمنة التاريخية المختلفة وحيا متمايزا عما سبقه في مسيرة الإنسانية وسعيها الحثيث نحو مزيد من الانضباط في إدراكها للمقدس.

ويندرج الإسلام ضمن الكثير من تلك الأنماط والاقترابات. فانهيار النولة الأموية – أول إمبراطوريات الخلافة –عام ٧٥٠ كان منشؤه ومرده إلى عاملين أساسيين، ضمن عوامل أخرى: فقد كان مركز نفوذ تلك النولة وقاعدته في "دمشق"، وقد ووجهت الدولة بالمعارضة من قبل "العباسيين"، الذين مثلوا مصالح بغداد والحضارة العراقية/الفارسية. كذلك، فقد مثل العباسيون مطالب فئات جديدة من غير العرب الذين اعتنقوا الإسلام وكانوا مستبعدين من التمتع بحقوق متساوية وبقوى متعادلة في ظل الدولة الأموية، لذا، فإن هذه الخلافات ترتكن في صعودها وانهيارها إلى اعتبارات سياسية وإقليمية، لا على اعتبارات دينية أو عقدية،

وإلى يومنا هذا، نشهد على الدوام استمرارا للدور الذى تمارسه السياسة وارتباطه بالدين. ففي معرض تعليقه على الانتخابات الإيرانية ومدى نزاهتها من عدمه، ذهب سيد على أمين، مفتى الشيعة في "صور" بجنوب لبنان في حزيران/يونيو من عام ٢٠٠٩، في خلافه مع زعيم جماعة "حزب الله" – إلى القول بأن تلك الحركة الشيعية اللبنانية تحاول أن تنهي المناقشات الدائرة حول "ولاية الفقيه" المعمول بها في إيران، لأن القيام بمعارضة تلك الأيديولوجيا أو تحديها سيضعف من شوكة "حزب الله" ونقوذه في لبنان، وأردف قائلا: "هذا هو الدليل الدامغ والبرهان الساطع على أن مفهوم "ولاية الفقيه" ليس جزءا من المعتقد الديني، وإنما أيديولوجيا سياسية في لعبة صراعات القويي".

إن الجدل المحتدم والخلاف المستعر حول القضايا ذات الطابع الديني هو بالأساس جدل حول المصالح السياسية لهذه الدولة أو تلك، فحين نشأ الإسلام، لم

يكن البعد الديني أو التيولوجي هو ما يهم في إقليم النشاة، وإنما كان انتقال مقاليد النفوذ والسيطرة الإقليمية إلى غريم جديد من مؤسسات الدولة. إذا، فهي السياسة في الشرق الأوسط، فالصراعات بين الدول ومراكز النفوذ والخلافات الأيديولوجية والهرطقات المتباينة، يمكن أن تستمر في التفاعل والحراك لقرون عديدة قادمة.

بيد أن بيت القصيد في طرحنا الحالى هو التوتر المحتدم والمتسارع بين الإمبراطورية البيزنطية المسيحية من جهة، وبين الكنيسة الغربية من جهة أخرى، فكما سنرى في الفصل التالى ... فإن الإسلام، كقوة جيوبوليتيكية جديدة، لم يرث فقط كثيرا من مشاعر العداء ومناهضة الغرب داخل أراضي الإمبراطورية الشرقية في توراتها ضد القسطنطيئية، بل بعضا من الأراء المناهضة لروما التي نعت يمرور الزمن داخل الإمبراطورية البيزنطية ذاتها، وفيما تستقى بيزنطة هويتها وكينونتها من الاعتقاد بتخليدها للتراث والتقاليد الأصيلة للإمبراطورية الرومانية، إلا أنها قد نظرت، وعلى نحو متزايد، إلى الكنيسة الغربية باعتبارها غريماً وضصماً خيوبوليتيكياً ذا نفوذ يتهدد النفوذ والهوية البيزنطية كما يتهددها الإسلام ذاته. الذا، ففي "عالم بلا إسلام" كان يمكن الشرق الأوسط بيسر وسهولة تصعيد وتاثر العداء في صراعه مع الغرب.



نصوبر احمد باسبن نويئر فيئر (Ahmedyassin90)

بيزنطة وروما قطبا المسيحية المتعاديان

لو لم يظهر الإسلام ألبتة على مسرح التاريخ، فإن الدين الذي كان سيهيمن، بلا شك، على منطقة الشرق الأوسط هو المسيحية الشرقية الأرثونكسية، قلم يكن ثمة دين منافس له جدير بالثقة سدوى الإسلام، كذلك، كان القالب أن تنظر الكنيسة الأرثونكسية، والتي كانت لتحرز الغلبة والسيطرة حال غياب الإسلام، بارتياب وتشكك عميقين تجاه الفرب إلى يومنا هذا. ولو كانت الأرثونكسية الشرقية قد احتفظت بهيمنتها على امتداد البحر المتوسط وإقليم الشرق الأوسط، لكان الأرجح أن تكون اليوم حاملة لواء الفضب الشرقي المتراكم على امتداد قرون عديدة من المعاناة والصراعات مع الغرب، وسنشهد في قصول الكتاب القائمة هذا المتحى وهو يتصاعد مقدما الدليل على أن الشرق الأوسط، كن ثمة إسلام.

وقد دفعت تلك التباينات ما بين الإمبراطورية الشرقية (بيزنطة) والإمبراطورية الغربية الرومانية ... تباينات دينية وحضارية وثقافية وجيوبوليتيكية وتاريخية وفنية وسيكولوجية ... – بعض الباحثين من أمثال صموئيل هانتنجتون إلى أن يذهب إلى أن الأرثوذكسية الشرقية كواحدة من حضارات العالم المختلفة كانت ستصطدم بالغرب، وجد الإسلام أم لم يوجد. وفي الحقيقة، فإن العداء ما زال قائما، حتى وإن باتت الكنيسة الشرقية غير مسيطرة في المشرق الأوسط.

ووققا لمروثد الغربي، فنحن نتعامى عن وجود الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية التي غالبا ما تغيب عن أذهاننا ودائرة اهتمامنا كغربيين. إذ نشهد قليلا من تك الكنائس في المحيط الذي ينتظمنا، وغالبا ما يجانبنا الصواب في تقدير الأهمية الكبيرة التي تمتعت بها الكنيسة الشرقية، وما زالت، على امتداد تاريخ المسيحية والشرق الأوسط، قبداية، تعد تلك الكنيسة ممثلة لأقدم ديانة مسيحية وأكثرها

ارتباطاً بسكان إقليم الشرق الأوسط المحليين، بالمقارنة بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية، والتى نمت بمعزل عنها فيما يخص الطقوس الممارسة، والطابع الثيولوجي، والسياسات الحاكمة، وحتى المظهر الخارجي والتكوين، وكذلك بكون الكنيسة الكاثوليكية بعيدة عن أورشليم مقارنة بالكنيسة الشرقية، وبالإضافة إلى ما سبق، فإن الأرثوذكسية ما زئات قائمة في إقليم الشرق الأوسط ممثلة في جماعات من الأقليات الأرثوذكسية. وتتيه الكنيسة الشرقية وتفخر كونها أشبه ما تكون، شكلا وروحا، بالكنيسة الأولى، وبكونها قد نشأت على الأراضي ذاتها التي نشأت عليها، وكذلك فهي تحمل اعتقادا رأسخا بأنها قد تحاشت الفساد العقائدي والمؤسساتي الذي شهدته يصبغ الكنيسة اللاتينية الغربية.

إن الكنيسة الأرثوذكسية ما زال بداخلها جذور ضارية أطنابها من مشاعر العداء للغرب، والشئ الذي يسترعى الانتباء هو أن الكثير من تلك المشاعر لدى

الأرثوذكس الشرقيين تشبه، على نحو كبير، مشاعر بعض المسلمين حيال الغرب، وهو ما يشير إلى رؤى وشكوك ومعاناة مشتركة إزاء نوايا الغرب وتدخلاته وهيمنته. ولقد أشرنا آنفا إلى ما تتقاسمه بعض المذاهب المسيحية مع الإسلام: كيف تتشابه العديد من تلك المذاهب، والتي اعتبرتها السلطات الكنسية لاحقا هرطقات تجديفية، فيما يخص طبيعة المسيح مع المنظور الإسلامي لتلك الطبيعة. إن المعاناة المشتركة للكنيسة الشرقية والإسلام من النفوذ الغربي وسطوته تشير إلى أن خطوط الاحتكاك الحضارية ليس منشأها التباينات الثقافية فيما بين تلك الملل قحسب، وإنما تجد أصولها في طبيعة الغرب ذاته في مواجهاته التصادمية مع والاقتصادية المتباينة على جعل الاختلافات الثيولوجية السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتباينة على جعل الاختلافات الثيولوجية الطفيفة تستحيل ثورات وهرطقات تجسام. (ويصدق ما سبق على الانقسام السني/الشبعي داخل حدود الدين الإسلامي ذاته، إذ لا تعدو الخلافات الأولية بشأن الأحقية في خلافة النبي محمد أن يكون لها أي ملمح ديني أو عقائدي، ولكنها نمت بمرور الوقت لتصبح عداءات طائفية عميقة الغور).

وهنا يلح سؤال دائرى محير: هل الاختلافات الثيولوجية هي ما يشعل فتيل الصراعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويؤجج نيرانها، أم بالمقابل، يكون للتباينات السياسية والاجتماعية والاقتصادية القائمة واللموسة مردود على الأمور الدينية والمناحي الأيديولوجية؟ إنه بمجرد انبثاق صدع ثيولوجي طفيف فسرعان ما ترسخ أثاره في الشئون المجتمعية الخاصة بالكينونة والهوية، بل وفي الوجود المجتمعي ذاته، ويعبارة أخرى، قد يختلف الناس، على نحو منطقي مقبول، بشأن مسائل تيولوجية بسيطة ترتبط بطبيعة المسيح، ولكن ما الذي يدفعهم نحو التناحر والتقاتل بشأنها؟ من الجلى أن هناك عوامل أخرى هامة لها دور في هذا الصدد.

إننا بحاجة إلى أن نعود إلى الوراء ... إلى زمن الإسكندر الأكبر لنشهد المشهد الافتتاحي لتاريخ يربو على الألفي عام من الصراع الجيوبوليتيكي بين

الشرق والغرب. فقد بشن الإسكندر أول هجوم عسكرى شامل القوى الغربية باتجاه أسيا، وذلك في عام ٢٣٤ قبل ميلاد المسيح، حيث عبرت قواته اليونان لتصل إلى الأناضول المسيطر عليها من قبل فارس آنذاك، لتغزو الإمبراطورية الأخمينية ذات القوة والنفوذ في أرض الفرس. وقد منات تلك الأراضى جزءا فقط من إمبراطورية الإسكندر الأكبر، والتي امتدت لتشمل سوريا، ومصر، وأجزاء من العراق، لتصل إلى حدود شبه القارة الهندية، ومن وجهة النظر "الأسيوية"، فقد كان هذا غزوا حضاريا وثقافيا أجنبيا ترك تراثاً ضخماً من التفاعل المتبادل الثرى حضاريا والعدائي سياسيا، ولقد كانت فارس بالفعل في صراع حربي تراوح بين كر وفر مع اليونان امتد لعدة قرون، فمن الوجهة الأسيوية، كانت اليونان هي الغرب، فضلا عن كونها الغربم والعدو،

وقد حافظت الدولة 'السلوقية' -والتي خلفت إمبراطورية الإسكندر- على القوة العسكرية اليونانية، وكذا التخوم المرابطة عند حدود عالم يتقاسمه اللسانان السامى والفارسي حيث بدأ النفوذ اليوناني، أنذاك، في الانحسار، ولقد مثلت سوريا والأناضول خطى المواجهة الأمامية الرئيسيين عند التقاء تلك الحضارات المتنوعة التي تقاتلت فيما بينها على امتداد مئات السنين، وفي النهاية، فقد خلفت الإمبراطورية الرومانية إمبراطورية الإسكندر الهيلينيستية. وبحلول القرن الرابع الميلادي، كانت قد امتدت إلى القسطنطينية، بل إلى أبعد من ذلك ... القسطنطينية، ذلك الإمبراطورية الرومانية. الذا، ففي الوقت الذي شهد تأسيس الإمبراطورية الرومانية الشرقي الإمبراطورية الرومانية. اذا، تراث ضخم امتد لنحو سنة قرون من المواجهات والحروب فيما بين الشرق والغرب مدن القرة الرومانية/اليونانية، والإمبراطوريتين الفارسية أو السامية.

بيد أن الصراع في الإقليم لم يكن مقصورا على الصراع اليوناني ضد الحضارة الفارسية أو السامية، فالخصومة والعداء ما بين روما والقسطنطينية ذاتهما، داخل الإمبراطورية الرومانية، يعود تاريخها إلى القرن الثاني الميلادي، على أقل تقدير، حين نشأ التنافس والتشاحن فيما بين البطريركات المسيحية الخمس الأولى: روما، والقسطنطينية، والإسكندرية، وأورشليم، وأنطاكية. فواحدة تلو الأخرى، خضعت الإسكندرية وأورشليم وأنطاكية للحكم الإسلامي في القرن السابع الميلادي - مع احتفاظها بمر،كزها الدينية، وأكن مع فقدان نفوذها العلماني المحلى، وقد خلص الصراع إلى أن يكون ثنائيا ما بين روما والقسطنطينية، ويمرور الزمن، وبما أن التباينات فيما يخص الدين وما يرتبط به من طقوس وشعائر قد ازدادت اتساعا وفرقة فيما بينهما - فقد ظلت روما مصرة على تقوقها، فيما استشعرت القسطنطينية أنها كفؤ لروما وقد لها. وكان تأسيس روما للبابوية لتحل محل البطريركية في روما جهدا إضافيا لفرض امتيازاتها على البطريركات الأدنى شأنا في الراكز المسيحية الكبرى في الشرق. وللآن، فإن قضية التفوق تلك ما زالت قائمة،

إن الاختلاف في موازين القوى قد انعكس أيضا في تنامى التباينات الحضارية. فحين الحديث عن القسطنطينية، فنحن نتحدث، بالأساس، عن إقليم تغلب عليه سمات الحضارة اليونانية. وقد كانت القسطنطينية في القلب من العالم المتحدث باللسان اليوناني، فأدى هذا التباين الحضارى إلى المساعدة في إشعال فتيل الصراع والمواجهة بين المسيحية اليونانية والمسيحية اللاتينية — أي الشرق أوسطية والغربية، وحقيقة الأمر، فإن الجنور والأصول اليونانية للقسطنطينية تضرب بعيدا في أغوار التاريخ، فقد عرف ميناؤها في السابق من قبل اليونانيين باسم "بيزنطيون" في القرن السادس قبل ميلاد المسيح ... وبعد ما يقرب من تسعة قرون، وتحديدا في عام ٢٣٠ ميلادية، أعيد إنشاء المدينة بواسطة الإمبراطور الروماني قسطنطين المدينة عاصمة ثانية الروماني قسطنطين، فأطلق عليها اسمه، وقد رأى قسطنطين المدينة عاصمة ثانية أكثر أمانا الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف في وقت كانت روما تضطرب خلاله تحت وطأة موجات الحصار الهمجي المتعاقبة، ويذا، فقد انبثق جناحان مستقلان للإمبراطورية الرومانية، أحدهما إلى الشرق، والآخر إلى الغرب.

وفى تلك الآونة، فإن مجرد وجود "إمبراطورية رومانية غربية" ذات معنى قد أضحى أقرب إلى "الخرافة"، وذلك على نحو متزايد، إذ واصلت الحروب والأباطرة المتشاحنون، وكذا الهجمات الهمجية لمستمرة — تمزيق روما، وبالسقوط النهائى للإمبراطور الروماني في روما نتيجة الغزوات الجرمانية في عام ٢٧٦ م، تحطم الجناح الغربي للإمبراطورية الرومانية نهائيا، وبذا، فقد ورث الجناح الشرقي في القسطنطينية الإمبراطورية الرومانية بكامل هيئتها، بما لها من أراض شاسعة في البلقان والأناضول وشرقي المتوسط وشمال إفريقيا،

لقد نجم عن بزوغ القسطنطينية كمقر جديد الحكم في الإمبراطورية الرومانية تبعات حضارية جسام. فعلى خلاف الهيمنة المطلقة للسان اللاتيني السائد على امتداد الإمبراطورية الغربية، فإن البونانية كانت اللسان المثبترك واللغة السائدة في بلدان شرقي المترسط قاطية، وهو ما صيغ الإقليم بمدنه المختلفة بطابع حضاري يوناني. وكانت إحدى الأوراق الرابحة للقسطنطينية كون الإنجيل قد كتب باليونانية، وليس اللاتينية، إذ أن تقوى اللاتينية على الصمود كلفة إدارية وسمية للإمبراطورية الشرقية إلا لقرون قلائل لاحقة. وفي القسطنطينية، كانت الطبقة المتعلمة، بلا شك، تتبه فخرا الإلمها باللغة والثقافة اللاتينية، وكذا الاضطلاعها المستمر بمقاليد الصغبارة الرومانية ولوائها. بيد أن اللغات ذاتها كانت قد شرعت في تحديد تْقَافَاتِهَا وَحَضَارَاتِهَا وَاسْعَةَ لَلَّذِي : مَا تَبِقَى مِنْ الْإَمْبِرَاطُورِيَّةُ "اللاتينيَّة" غرياء والإمبراطورية "اليونانية" ذات النفوذ شرقاء وفي القرون اللاحقة، اصطبغ مصطلحا "لاتيني" و"يوناني" بمعان إضافية تحمل في طياتها معاني ازدرائية مشتركة : فإذا ما أطلقت لفظة "لاتيني" في القسطنطينية، أو لفظة 'يوناني' في روما، فيقصد بها الازدراء والاحتقار للمنعوث بأيهماء وقضلا عن ذلك، قلن يمكن لإمبراطور بعد ذلك أن يجمع بين حكم روما والقسطنطينية في أن واحد، ولقد تضاءلت روما حتى صار حجمها لا يذكر مقارنة بحجم عاصمة الإمبراطورية الشرقية، القسطنطينية. كذلك، فقد ترك البايا هناك ليعيش عزلة كان فيها لا يعدى إلا أن يكون رمزا فحسب... أو

سجيناً، بالفعل، للقوى المحيطة به لمنات من السنوات التالية.

وفي ظل غياب تام للإمبراطورية الغربية، ما، إذا، طبيعة تلك العاصمة الرومانية في القسطنطينية بمرور الزمن، نما لدى القسطنطينية شعور باضطلاعها بمهمة جليلة - العمل على الصفاظ على الإمبراطورية الرومانية في الشرق وديمومة بقالها، فقد أضحت القسطنطينية، وقتها، أخر معاقل الحضارة والروحانية المسيحية في وجه الغزاة الهمج الجدد، سواء في الغرب ضد القوطيين والفرنكيين والسيلتيين والعانيين والهون، أو في الشرق ضد السلاف الوثنيين والفرس الزرادشتين، ولاحقا مسلمي العرب والأتراك. إذا، فقد كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية تبلور هويتها الحضارية بالتمايز المتزايد أنذاك عن روما والغرب كمراكز للقوى والنفوذ.

حسربالأسمساء

المُسماء دلالات سيكولوجية بما تدل عليه من كينونة حاملها وهويته. فمن المكن أن تثار نقاشات جدلية بين اليونائيين عما يجب أن يطلق على القسطنطينية والكنيسة الشرقية من أسماء. ويوضح الصراع والخلاف الدائر حول اسم الإمبراطورية الشرقية ، بجلاء، التوتر القائم فيما بين الشرق والغرب.

فالقسطنطينية، دونما أدنى تردد، تواصل الإشارة إلى نفسها بأنها عاصمة الإمبراطورية الرومانية، رغما عن جنورها في عالم يتحدث اليونانية، إذا، فما الحد الفاصل الذي يمكننا أن نرصده لانتقال القسطنطينية من الإمبراطورية الشرقية الرومانية إلى الإمبراطورية اليونانية، أو البيزنطية كحقيقة قائمة؛ وواقع الأمر، فإن هذا التحول أو الانتقال الرسمي لم يحدث قط، (فالحقيقة، أن لفظة "بيزنطة" أو البيزنطية" قد نشأت في القرن السادس عشر فقط، حين نعت أحد المؤرخين الألمان الإمبراطورية الشرقية "بالبيزنطية"، وقد اعتبرت القسطنطينية نقسها، بلا تردد، الإمبراطورية الرومانية" حتى نهاية عهدها، ولم تتردد في تبني هذا الاسم حتى في

اللغة اليونانية.

ولقد انتشرت لفظة "الرومانية" بما لها من قوة كنعت للإمبراطورية الشرقية إلى أبعد من الناطقين باليونانية، فانتقلت لتتداول على ألسنة المسلمين الذين سادت حضارتهم إقليم الشرق الأوسط. فمن الملاحظ أن الإمبراطورية المسيحية الشرقية، وفقا للغات السائدة في ذلك الإقليم – العربية، والتركية، والفارسية – كانت تنعت بيولة "الروم" (روما)، الأمر الذي ظل قائما إلى اليوم. كذلك، فإن لفظة "الروم" ما زالت تطلق على كل ما يرتبط بالإمبراطورية الرومانية الشرقية، أو بالأناضول (أسيا الصغرى). والقرآن ذاته به سورة تسمى "الروم" تتناول مسيحيي بيرنطة أما الدولة التركية السلجوقية الأولى، ومقرها الأناضول، والتي خاضت حروبا أما الدولة التركية السلجوقية الأولى، ومقرها الأناضول في القرنين التاسع ممتدة ضد القسطنطينية في الصراع على أراض بالأناضول في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين – فقد انتحان لنفسها لقب "سلطنة الروم". (ولعشاق جلال الدين على البحر المتوسط باللغة العربية، أنذاك، "بحر الروم". (ولعشاق جلال الدين الرومي، الشاعر الصوقي الشهير، نود فقط أن نشير إلى أن الاسم "الرومي" هو صيغة النعت لمن يصيا في بلاد الروم، التي تشغل ما كان، ذات يوم، أرضا للإمبراطورية الشرقية في الأناضول).

إلا أن الغرب لم يكن ليتخلى عن 'اللقب'. فبالرغم من استخدامه الشائع والذى فشا في إقليم الشرق الأوسط للإشارة إلى الإمبراطورية الشرقية، لم يكن الغرب يريد نقل مقاليد الأمر ولوائه من الإمبراطورية الرومانية إلى القسطنطينية، حتى وإن كان جليا كون الإمبراطورية الشرقية ما زالت مزدهرة في الشرق، بعد سقوط الإمبراطورية الغربية في قبضة الهمج الأماد طوال، ولقد كان الغرب مصرا على الإشارة إلى الإمبراطورية الشرقية فقط بأنها "الإمبراطورية اليونانية" أو "إمبراطورية اليونانية" أو "إمبراطورية اليونانية" أو "بني أية لفظة موحية بإمبراطورية رومانية من قريب أو بعيد، إذ كان يرغب في الاستئثار بلفظة "الإمبراطورية الرومانية" لإطلاقها على الحكام والملوك الغربيين.

ويمكننا التعرف إلى الكيفية التى عاد بها الصراع على "ماهية الرومانية" أو على من تطلق اللفظة – إلى الظهور ثانية، ويقوة، ففى عام ٨٠٠، وفى ذكرى منولا السبيح، قام البابا ليو الثالث، خلال القداس الجليل بكنيسة بطرس بروما، بتتويج شارلمان – الحاكم والقائد الجرماني الهمجي، كإمبراطور الروم أو الرومان -Im شارلمان – الحاكم والقائد الجرماني الهمجي، كإمبراطور الروم أو الرومان الرغية في إعادة اللقب إلى ملكية الغرب، بانتزاعه من اليونانيين في القسطنطينية الذين اغتصبوه في حروب الأسماء تلك.

وعلى أية حال، فقد قرر شارلان، والذي كان أكثر الحكام قوة ونفوذا قي الغرب انذاك، عدم محاولة انتزاع لقب "الإمبراطور الروماني" أو "إمبراطور روما" لنفسه، ولكنه سعى لإتمام زواجه بالإمبراطورة "إيريني" في القسطنطينية كسبيل الي استعادة اللقب وتوحيد كلتا الإمبراطوريتين وإخضاعهما لنفوذه وهيمنته، بيد أنه قد أخفق في تحقيق ما كان يصبو إليه. ولم يمض زمن طويل حتى قررت عصبة من القبائل الجرمانية تبني لقب "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" ... ذلك اللقب الرنان الطنان، وإذكار حق استخدامه من قبل القسطنطينية والإمبراطورية الشرقية. وقد أدت إضافة لفظة "المقدسة" إلى ذلك اللقب المنتحل إلى تأجيع الصراع، إذ أشارت اللفظة إلى زعم تلك العصبة الجرمانية بحقها في احتكار القوة "الروحانية" للإمبراطورية لنفسها، بالرغم من أن تلك العصبة لم تكن حتى تسيطر "الروحانية" للإمبراطورية انفسها، بالرغم من أن تلك العصبة لم تكن حتى تسيطر على مدينة روما أو تملك زمام الأمور بها. (ومن ثم ورد هذا السؤال العبقري لطلبة على مدينة روما أو تملك زمام الأمور بها. (ومن ثم ورد هذا السؤال العبقري لطلبة المدارس ببريطانيا في مادة "التاريخ الأوروبي" للتعبير والكتابة : «الإمبراطورية الرومانية ولا مقدسة .. الم تكن إمبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة . ناقش !!»).

إن حروب الأسماء تلك قد حملت عب، الصراع الجيوبوليتيكى المستعر باستمرار على السلطة والشرعية، وحتى على "الروحانيات"، فالبابا، شبه المعزول بروما، قد تشبث باللقب وتمسك بالاعتقاد بكونه "رأسا المسيحية"، بارغم من كونه واحدا فقط ضمن خمسة أساقفة للكنيسة في القرن الرابع الميلادي، وبمرور القرن تلو الأخر، تتجدّر الهوة التي تفصل ما بين الشرق والغرب، وتتعمق الشقة، ففي القسطنطينية، أدى الشعور والانتماء لما هو يوناني إلى خلق نوع من "الهوية القومية" المرتكنة إلى اللغة والثقافة وتفاعلاتهما، خاصة على الصعيد الجماهيري (لشعبي).

لقد تحولت المشاعر وتجمدت اتستحيل أهواء وأغراضا. فيمرور الزمن، ذهب الغرب، والمسيطر عليه من قبل الهمج، إلى اعتبار القسطنطينية لا تعدو إلا أن تكون موضعا أو يؤرة لموروثات شرقية فاسدة وعقيمة قدر لها أن ننهض للدفاع عن ذاتها ضد تعديات "المسلمين الفاسقين" وتجاوزاتهم في "الأراضى المقدسة"، ولقد اعتمد هذا النهج الاستبعادي بالرغم من إنجازات القسطنطينية السياسية والعسكرية والثقافية المذهلة على مدار أكثر من ألف عام، حيث امتد ليشمل بلدان شمال إفريقيا، وشرقى المتوسط، وبول البلقان، والهلال الخصيب، بيد أن سلطان القسطنطينية ونفوذها لم يكن ليستمر للأبد. فبحلول عام 1807، سقط آخر ما تبقى من "الإمبراطورية اليونانية"، وبلا رجعة، في قبضة المسلمين الأتراك. بيد أنه، وخلافا للإمبراطورية الرومانية التي لم يستقر لها المقام طويلا، والتي تماسكت بالكاد إلى القرن الخامس الميلادي، فإن الإمبراطورية الرومانية الشرقية طال بها المقام لمدة ألف عام أخرى، لتقرع أبواب القرن الخامس عشر. وبالرغم من سقوط الإمبراطورية وانهيارها، إلا أن الكنيسة الشرقية كانت 'بعد ما تكون عن الفناء أو الإندثار، حتى في تلك الأونة. وتعد الكنيسة الشرقية كانت 'بعد ما تكون عن الفناء أو الإندثار، حتى في تلك الأونة. وتعد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، اليوم، ثاني أكبر المنافقة المسيحية بعد الكنيسة الكاثوليكية.

نشأة الكنائس القومية

فى معرض سردنا لإنجازات الإمبراطورية البيزنطية، لن يكتمل المشهد إذا ما أغظنا الحديث عن تأثيرها الحضباري المضخم في كل المناطق المحلية، والتي سيتم إنشاء كنائس أرثونكسية بها، على تحر مستدام. ولعل أهم تراث قد ميز الإمبراطورية الشرقية، وهو ما سنعرض له ضمن طيات هذا الكتاب، كان قيامها بإنشاء كنائس في كل من أوروبا الشرقية وإقليم الشرق الأوسط ... كنائس استمرت حتى يومنا هذا موصولة حضاريا وعاطفيا بجماعات إثنية ولغوية بذاتها، فما زالت عواقب تأسيس تلك الكنائس القومية تسملكنا حتى اليوم، كما في التاريخ الدموى الذي أعقب انهيار الاتحاد اليوغوسلافي خلال تسعينيات القرن العشرين، وما صاحبه من تحريض الصرب كأرثوذكس شرقيين ضد الكروات كروم كاثوليك.

ويعيداً عن حروب الأسماء وصراع الثيواوجيا، فإن يونانيى الشرق قد أمضوا قرينا في صراعهم الرئيسي مع روما بشأن الهيمنة الإقليمية، وخاصة في إثليم البلقان وأجزاء من الشرق الأوسط. فيمقتضى أحد القرارات الحضارية المطيرة في التاريخ، بعثت الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية بإرساليات تبشيرية صوب الجهات كلها لتنصير العالم الوثني، وإرساء كنائس محلية جديدة تعتمد لغة البلد المقامة به البلغارية، الصريبة، الروسية، المقدونية، القبطية، الألبانية، الأرمينية، الرومانية،...، وهكذا، على امتداد أراضي الإمبراطورية البيزنطية، بل فيما وراء نلك من أراض. وقد كانت تلك الكنائس الشرقية "القومية" أو "الإثنية"، بما تنطوى عليه من استخدام للغات المحلية في الطقوس التعبدية – على النقيض تماما من الموروث "فوق القومي" و"الشمولي" للكاثوليكية المرتكن أساسا إلى اللغة اللاتينية باعتمادها في كل ما يتعلق بالكتاب المقدس والشعائر الكنسية. كذلك، فسيكون لكل كنيسة من تلك الكنائس الأرثونكسية القومية علاقة مستقبلية ما بالإسلام في ظل تعايش متقلب ومتوتر. وعلى الجائب الأخر، فإن الكنيسة الغربية لم تعايش أو تخبر علاقة قوية بالإسلام، عدا في إسبانيا.

لم يكن لدى الكنيسة الأرثوذكسية أية ثية لتضمين العنصر الإثنى كركيزة من ركائزها، وإنما تم ذلك عفو الخاطر دونما أى تخطيط، ولقد تولد الرابط ما بين الدين والإثنية عندما أرسلت البعثات التبشيرية البيزنطية إلى الشعوب الوثنية،

خاصة في العالم السلاقي، اتعليمها عن طريق الوعظ وترجمة الإنجيل إلى لقاتها المحلية. وقد بدأ تحول السلافيين إلى المسيحية في القرن التاسع الميلادي بواسطة البعثة التبشيرية لسيريل وميثوديوس إلى دول البلقان، حيث قاما بوضع أول نظام لحروف الهجاء باللغات السلافية.

لقد كان لهذا العمل التبشيري مفزي ودلالات عميقة أكثر من مجرد قضية "الدين": ففي الصراع المحموم ما بين الكنيسة الشرقية من جهة، وروما من جهة أخرى، كانت استراتيجية الكنيسة الشرقية الهامة تحويل الوثنيين، على أختلاف بلدانهم، إلى اعتناق المسيحية الشرقية، وألا يجنحوا إلى الإيمان بالكاثرايكية الغربية. كذلك، فقد أصبحت ترجمة الإنجيل إلى اللغات العامية (الدارجة) لأوانك القابعين عند حدود الإمبراطورية – أداة هامة وعاملاً حاسماً في دفعهم نحو اعتناق المسيحية، فقد عمات الترجمة على نقل الإنجيل إليهم وفقا للغاتهم المستخدمة مع ضمان ولائهم الحضاري، خاصة وأن هذا الإنجيل المترجم كان السفر الأول الذي كتب بتلك اللفات، حيث لم تكتب بها أية نصوص من قبل -كالذي يطلق عليه الآن "السلافونية الكنسية القديمة"- لغة الطقوس والشعائر الدينية في العالم السلافي الأرثوذكسي. وكرد قعل، فقد جاهد القساوسة الكاثوليك الألمان في ذلك الإقليم بخية إنَّناء السلافيين عن تبني اللغة السلافية في الطقوس والشعائر الدينية، ولكن بلا طائل. (واللافت، أنه في الوقت ذاته لم يكن الإنجيل قيد تمت ترجمته كاملاء بصفة رئيسية، في الغرب، إلى اللغات العامية المطية، ولم يتم ذلك حتى نشأة حركة الإصلاح البروتستانتي بعد ذلك يخمسة قرون ... أما الكنيسة -الكاثوليكية، فقد أصرت على بقاء اللاتينية كلغة الطقوس الدينية الوحيدة، وذلك إلى القرن العشرين، رغما عن أن "العهد الجديد" قد كتب في الأصل باللغة اليونائية-

والملمح الثاني الملافت من صلامح المسيحية الشرقية كان الاستقلالية الكبيرة نسبيا، والممنوحة الكتائس الشرقية بالمقارنة بشرط الولاء التام والإذعان الكامل الروماء حتى فيما يرتبط بالششون الإدارية والتنظيمية الكنسية، وذلك في ظل الكاثوليكية. أما البابا، فقد أصر بالإضافة إلى ما سبق، على الاستئثار بنفوذ دنيوى فائق على نحولم يكن يتمتع به البطريرك البيزنطى. إن تاريخ أوروبا خلال العصور الوسطى يحفل بأمثال تلك الصراعات الهائلة من صراعات القوة والنفوذ ما بين البابا والأمراء "الدنيويين". وهذا يرشدنا إلى أنه، في حقيقة الأمر، ثمة إرث ثقيل من التدخلات الدينية في سياسات الغرب الدنيوية من قبل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بأكثر مما كان عليه الحال في الإسلام فيما ارتبط بالحكام المسلمين الدنيويين (وهو الوضع الذي ظل قائما إلى أن نشأت الدولة الثيوقراطية، وولاية الفقيه في إيران الحديثة).

وفى الوقت الذى استمر فيه التنافس بين الشرق والغرب فى أوروبا الشرقية، فإن الصرب، والبلغار، والرومانيين، والروس، بالإضافة إلى النصف الجنربي من الألبان كانوا قد تحولوا إلى اعتناق الأرثوذكسية، فى حين استمالت روما كلاً من البولنديين، والتشيك، والسلوفاك، والكروات، والسلوفينيين، والهنغاريين نحو اعتناق الكاثوليكية، وقد أدى هذا الاختيار البسيط لما يعتنق من عقيدة إلى وضع قالب بعينه للتوجه الحضاري والسياسي المستقبلي الشامل لهذه البلدان، والذي ما زال قائما إلى اليوم، إذا، فهناك حد فاصل بين الأرثوذكسية والكاثوليكية يتحدر من الشمال عند بحر البلطيق ليخترق يوغوسلافيا القديمة صوب بحر إيجه.

ويذا، ويلا أدنى نية للقيام بذلك، فقد قامت القسطنطينية بدمج كل من الدين والإثنية ضمن التقليد الأرثوذكسي ... وهو مزيج يتمتع بدرجة كبيرة من القوة والثقل. ويحق، فإن ثراء الكنائس الأرثوذكسية يكمن في تنوعها الحضاري والثقافي حتى وإن ظلت جزءا من جماعة أرثوذكسية قوية متسعة النطاق ومتحدة فيما بينها، فيما يخص كلاً من القيم الروحانية والمعتقد المتبع والطقوس الممارسة. وعلى النقيض تماما، فقد قاوم الإسلام بضراوة إنشاء أية حركات أو تجمعات إسلامية ذات طابع إثنى، كما رفض اعتماد أية لغات محلية كبديل عن العربية فيما اختص بالعبادة، بيد أن الإسلام لم يتبن مطلقا النموذج شديد المركزية الذي ثبنته روما ...

فروما لديها البابا، والإسلام لديه الخليفة، وهذا الأخير لم يكن ليستأثر مطلقاً بالسلطة الدينية المركزية كما استأثر بها البابا.

تجذر الصراع الشرقي-الفربي

استفحل الخلاف بين بيزنطة المسيحية وبين الغرب على امتداد عدة قرون لاحقة سبقت سقوط القسطنطينية في عام ١٤٥٣ . وقد ظلت الكنيسة الشرقية في رعب دائم مما شهدته باعتباره انتحالاً بابوباً للكثير من الصلاميات القضائية والتشريعية فيما بتعلق يجميع مناحى الكنيسة الغربية. فقد كان من الجلى أن ما يضمر هو افتراض البابا لضرورة تقبل الشرق لتلك الصلاحيات في استئثاره بها. ومن وجهة نظر القسطنطينية، لم يعد البابا إلا أن يكون 'بطريركا لروما'، فلا يحق له ادعاء امتلاك آية سلطات أو نفوذ شامل على الكنيسة الشرقية، ومن ثم لا يسمح له مطلقا بالقيام بذلك.

لذا، فقد قام الصراع على فرض الهيمنة والنفوذ وتحويل الشئون الدينية الهامشية إلى رموز المتشاحن والصراع. وفي عام ٧١٧، قام الإمبراطور البيزنطى اليو الشالث بحظر استخدام الأيقونات الدينية في الكنائس في الخلاف الشهير، والذي ذهبت فيه الكنيسة الشرقية إلى مناهضة جميع ما يتم تجسيده من رموز بشرية في الفن الديني (عاكسة بذلك، في أغلب الظن، وجهات نظر مشابهة في كل من اليهودية والإسلام). ولقد حاول البابا في روما بالفعل الإطاحة بـ ليو الثالث بشأن ذلك المنحى، بيد أنه لم يوفق فعمد إلى تجريد بطريرك الكنيسة الشرقية من حقوقه الكنيسة، الأمر الذي أدى، بدوره، إلى قيام الكنيسة الشرقية بتجريد البابا من حقوقه أيضا، وقد تم رأب هذا الصدع الجسيم لاحقا، إلا أنه كان دالا على وجود ضعائن وأحقاد فيما بين الفريقين مشيرا إلى إمكانية حدوث ما هو أسوأ في السنقبل.

وخلال القرن العاشر الميلادي، نشب صراع وخلاف جيوبوليتيكي حول الفريق

الذى سيكون له الغلبة فى تصويل بلغاريا، تلك النولة الفتية الناشئة، إلى اعتناق المسيحية ... فكان انتصار القسطنطيئية فى تصويلها إلى الأرثوذكسية ضربة قاصمة لروما.

وفي عام ١٠٥٤، بلغ الخلاف الثيولوجي والسياسي المستعر، والمتد لفترة طويلة، نقطة جائحية فارقة في تاريخ المسيحية: إذ انساقت روما والقسطنطينية إلى هاوية تبادل موجات الحرمان الكنسي اللامعقولة، والتي بدأ عندها "الصدع العظيم" في الكنيسة المسيحية. وكانت الذريعة التي سيقت في هذا الصدد هي الجدل الملغز غير المعقول حول ما "إذا كان الروح القدس ينبع مباشرة من الرب" كما هو رأى القسطنطينية، أم "أن الروح القدس ينبع من الرب وولده معا" وهو ما أصرت عليه روما. ومن المؤكد أن تلك القضية قد أضحت مثقلة بتراكمات من الصراعات والعداءات الجيوبوليتيكيه العميقة والمقدة عبر قرون عدة – كأشبه ما تكون بـ"حرب باردة" تدور رحاها بين الفريقين. وكان من المتعين تجسير الفجوة وتضميد الجراح، كذلك، فقد أنكرت الكنيسة الأرثونكسية مفهوم روما "الجديد" يشأن (الحبل بلا دنس لمريم العذراء)، فضلا عن رقضها للبدعة التي أنت بها روما والقائلة بوجود فكرة "الأعراف" – أي وجود موطن تطهر فيه نفوس الأبرار – وهي معتقدات تبنتها روما بعد مثات عدة من سنين تلت رفع المسيح.

إلا أن ذلك التجريد المتبادل للحق الكنسى من قبل الشرق والغرب لم يكن المعادل الشكوك المتبادلة والتى أقضت لاحقا إلى الصدام المسلح بين الفريقين المسيحيين خلال سنى الحملات الصليبية (والتي ستناقش في الفصل الخامس)، حيث نهب الصليبيون اللاتينيون (الكاثوليك) القادمون من أوروبا -- القسطنطينية ذاتها، وما استتبع ذلك من أثار باقية لا حصر لها وكان اكتمال المشهد في عام ١١٨٨ فيما عرف باسم "مذبحة اللاتينيين" في القسطنطينية. وقد كانت مشاعر العداء ضد الغرب ومناهضته تتملك الوعى الشعبي وشعوب الشرق التي استاعت بشدة من جماعة تجار البندقية (الكاثوليك) ذات النفوذ والسطوة، والتي أدارت

بالفعل اقتصاد القسطنطينية، وفي مظاهر الفوضى والشغب التي انبثقت كردة فعل ضد انتهاكات الكاثوليك، نشبت مذبحة هائلة راح ضحيتها ثمانون ألفا من اللاتينيين الذين جرى قتلهم في المدينة ... الأمر الذي أدى إلى دق أسفين جديد من الكراهية والصراع الدموى والضغينة المتبادلة فيما بين روما والقسطنطينية.

واليوم، وبعد ستة قرون من غزو الأتراك العثمانيين للقسطنطينية، وسقوط المدينة في أيديهم، فإن العالم الأرثوذكسي ما زال يندب خسارته الدرة العقد وواسطته ، والتي ما زالت تحيا في الذاكرة الجمعية له، تلك الفاجعة التي لا يقيم لها الغرب الأوروبي ما يناسبها من ثقل وجسامة وبالرغم من كون الأوروبيين يعتبرون سقوط المدينة في أيدي المسلمين خسارة كبيرة للمسيحية ، إلا أنهم لا يستغون كثيرا حملات صليبية جديدة ، كما لا يستشعرين حنينا يربطهم بالعاصمة البونانية القديمة للإمبراطورية الشرقية ، فمن وجهة نظر المسيحيين الغربيين ، لا تعدى القسطنطينية وإرثها إلا أن تكون كيانا أرثوذكسيا أصابه العطب وطاله ، افساد ، فأضحى كسقط المتاع ، أو كونها حدثا تاريخيا عابرا معيبا يتعين عدم الالتفات إليه إلا قليلا بيد أن ذلك الإرث المشئوم لن يطويه النسيان مطلقا في الشرق ، لأثره الجسيم في روسيا على وجه التحديد ، كما سنرى في فصل لاحق ، فمن ذا الذي يملك في الغرب وعيا بالمسيحية الشرقية أو استشعارا بقيمتها؟

إلا أن المسيحية الأرثوذكسية لم تكن لتنوى أو تغنى بسقوط الإمبراطورية الشرقية في أيدى الأتراك، بل لقد ظل البطريرك ذاته محتفظا بوجوده في اسطنبول المسلمة (حتى إلى اليوم)، حيث سمح له من قبل الأتراك بمواصلة ممارساته وسلطاته الدينية، لا الدنيوية، في نطاق بعض المناطق من العالم الأرثوذكسي، فحتى بعد انهيار الإمبراطورية الشرقية، ما زال في حلوق البيزنطيين غصة تجاه روما إلى الحد الذي ذهبوا معه إلى أفضلية الهزيمة على أيدى الأتراك المسلمين، لا على أيدى المستحيين اللاتينيين. كذلك، فلإدراكهم أن الكنيسة ستحيا وتدار تحت حكم المسلمين، كما بدا جليا في أراض مسيحية أخرى سقطت قديما في قبضة الهيمنة المسلمين، كما بدا جليا في أراض مسيحية أخرى سقطت قديما في قبضة الهيمنة

الإسلامية بما فيها الأراضى المقدسة، فإن الأرثوذكسية، إذاً، يكون مقدرا لها أن تحيا. وفي المقابل، فإن الغزو عن طريق روما يعنى تحويل الكنيسة لتصبح "لاتينية"، وهو أمر بغيض، كما يعنى نهاية الأرثوذكسية إلى الأبد، وهو بالطبع مصير أكثر مأساوية. لذا، فإن الخيار ما بين الضموع لسيطرة المسلمين من جهة أو لهيمنة المسيحيين اللاتينيين من جهة أخرى يبقى غير ذي موضوع لدى غالبية المؤمنين من المسحيين الأرثونكس.

مرايسا وأصسداء

فيما مضى، رأينا نطاقا واسعا من المشاهنات والعداءات والشكوك بتكشف لنا فى العلاقة ما بين العالمين المسيحيين الشرقى والغربى، وحتى ولو تزيأ الصراع، عادة، فى حلة خلاف ثيولوجى، إلا أنه، وفى حالات عديدة، قد انطوى على أمور دنيوية كصراع المتحولين إلى اعتناق المسيحية بشأن حيازة الأراضى وامتلاك القوة المؤسساتية، وفى النهاية، فإنه من الجلى أن الدين الرسمى للدولة، فضلا عن الضلافات الثيولوجية العقدية لم يكونا إلا أدوات تعمل على تلبية الاحتياجات الاجتماعية والسياسية، وحتى السيكولوجية، للدولة.

وقد أشار الباحث فاسيليوس ماكريدس، الباحث في الشئون البيزنطية بجامعة "ايرفورت" إلى "أن حركات المقاومة الشعبية ذات الطابع الديني السافر عادة ما يكون لها طابع أخر خفي. وبعبارة أخرى، تعكس تلك الحركات عدم الرضاء الجتماعيا واقتصاديا، في مواجهة السياسات التغريبية وهيمنتها ... وقد تتخذ مناهضة الغرب شكلا أو قالبا قوميا صارخا، والذي قد يكون بديلا عن الدين ذاته". وفي العصر الحديث، فإن القضايا على شاكلة العولة المقادة من قبل الغرب، داخل نطاق العالم الأرثوذكسي القديم، قادرة على خلق مخاوف مشابهة، كأصداء الصراعات الجيوروليتيكية المبكرة، والتي خضع فيها الشرق لهيمنة الغرب وقوة نفوزه.

وتنطبق هذه الملامح، على نحو دال، في انسحابها على الصدع ما بين العالم الإسلامي والغرب، وفق ما نشهده الآن. وحتى لو وجدت ديناميات التصارع الشرقي الغربي، والتوتر في علاقاتهما البينية – في نطاق المسيحية ذاتها، فيعكس ذلك تطابقا في أركان الخلاف والتوتر ما بين العالم الإسلامي والغرب، إذ تكون الهويات واليات النفوذ مهددة بأكثر مما يكون الدين كذلك، وعندها تؤدي قضايا الاعتزاز بالهوية إلى تعزيز الخلافات الجمعية، فكما عقب ماكريدس: "ما زال الكثير من المسيحيين الأرثوذكس على يقين بتقوقهم وتميزهم عن غيرهم، فضلاً عن إيمانهم أشد الإيمان برسالة الخلاص التي يبشرون بها على امتداد العالم بأسره". ويمكن أن نقول الشئ ذاته بالنسبة للمسلمين وإيمانهم بأن الإسلام، أيضا، قادر، إن عاجلا أو آجلا، على الإسهام في إنقاذ الغرب الذي يشبه سفينة بلاهاد تكاد تخرق في بحر لجي.

وفى حين تتعمق الفجوة وتترسخ الشقة بين غرب قوى متقدم من جهة، وشرق ضعيف تابع ومتأخر من جهة أخرى، يكون من الطبيعى أن يبحث الفريق الأضعف عن تفسير لتلك الظاهرة، وفي هذا الخصوص، فقد ذهب اتجاه ما إلى اعتبار الغرب مستولا عن كل إخفاقات العالم الإسلامى، وكذا العالم المسيحى الأرثوذكسى، وأضاف ماكريدس:

"في حالات بعينها، تمثل مناهضة الغرب وسيلة ملائمة لإعطاء حلول جاهزة ومخارج من العديد من مشكلات العالم الأرثوذكسي ... فألية الحد من المسئولية الذاتية والتخفيف من الشعور بالذنب بالعمل الدائم على عزو مصادر الشر الرئيسية إلى قوى خارجية (الغرب، في هذه الحالة) ... هي ظاهرة مألوفة ولصيقة بالشرق الأرثوذكسي، فضلا عن كونها ضربا لتحويل مشاعر التململ والاحتقان الاجتماعي نحو وجهة أخرى".

وفي المُتام، فقد لاحظ ماكريدس أن الجماعات السياسية المناهضة للغرب في

اليونان الصديثة وفي غير دولة من العالم الأرثوذكسي، كروسيا على سبيل المثال – تسعى نحو صيغة اتحادية (كونفدرالية) ما مع تركيا ترتكن في جانب منها إلى قوة الأجندة المناهضة للغرب، وسنرى لاحقا وجود مشاعر موالية للمسلمين والأتراك، ولو لم تكن جزءا من الاتجاء السائد للتفكير، وذلك في روسيا المعاصرة اليوم، وهو الأمر الذي يعكس بعضا من ردود الأفعال التاريخية تلك.

كذاك، نرى هنا الجنور المبكرة لظاهرة اشتراك كل من الإسلام والأرثوذكسية الشرقية في تبنى العديد من وجهات النظر بشأن المغرب، فلو لم يكن ثمة إسلام في الشرق الأرسط، كذلك فإذا كانت الأرثوذكسية الشرقية قد استمرت في إحكام قبضتها وفرض هيمنتها هناك، فهل من العسير أو غير المحتمل تخيل الأرثوذكسية وهي ما تزال تحمل بمفردها أواء المشاعر المعادية للغرب في إقليم الشرق الأوسط اليوم؟



الفصل الرابع

الإسلام والمسيحية الشرقية

تحت تأثير حماستها المتقدة بفعل الأفكار الاجتماعية والسياسية والدينية الجديدة التي أتى بها الإسلام، شرعت الجيوش العربية في التقدم حثيثا خارج شبه الجزيرة العربية، وياتجاء الشمال، وهنا نشهد لقاء أن مواجهة تقليدية فيما بين التالد والطريف، ولقد كانت سوريا، تلك المقاطعة البيزنطية الكبرى، الموضع الذي شهد أول مواجهة عسكرية بين المسيحية والإسلام، وبالنظر إلى اكتساح الجيوش العربية شمالا داخل الأراضى البيزنطية في المشرق، تتضح لنا بعض الملامع المذهلة.

أولاً، مدى المشاعر العدائية التي يضمرها الكثير من أهالي إقليم الهلال الخصيب ذى الأغلبية السامية تجاه محاولات الغرب السيطرة عليهم —ومن وجهة نظر تلك الأقاليم، فلا يقتصر "الغرب" على روما فحسب، بل يمتد ليشمل القسطنطينية "اليونانية" كذلك. وهنا، فنحن نتحدث عن بلدان ذات تاريخ وحضارة شرقية وسامية بالأساس—حيث ظلت طويلا جزءا من المنافسة الصراعية المحمومة بين مختلف الإمبراطوريات الفارسية من جهة، وبين اليونان من جهة أخرى، كذلك، فلا توجد هنا مشاعر ارتباح أو مودة تجاه "بيزنطة" أو "اليونانيين". إذا، فنحن نشهد هنا معاداة متجذرة للغرب —بمعنى مقاومة محاولات الغزو أو الهيمنة من قبل اليونان أو روما—حتى قبل أن يظهر الإسلام على مسرح الأحداث.

ثانيا، نشهد مرارا كيف مثل الدين وقود المقاومة واستنهاض الهمم ضد روما وبيزنطة. وقد احتضنت المدن المشرقية باستمرار ضروبا من الهرطقة بما يدل على

تجذر روح المقاومة بداخلها. فلم يكن الأمر أنها تتبع العقيدة التى تقول بأن المسيع في طبيعة واحدة، ومن ثم معارضتها للقسطنطينية، وإنما الواقع أنها كانت تخالف الفسطنطينية، ومن ثم استعدادها لاحتضان عقائد تعادى صيغة الحكم المركزى التسلطى، نذا، فقد كان الفتح الإسلامي لتلك المدن المشرقية الكبرى داخل الإمبراطورية البيزنطية ميسرا بفعل ما ترسخ من مشاعر العداء تجاه بيزنطة لاماد طوال.

وأخيراً، تبدى غزوات الجيوش الإسلامية، في جانب منها، كما لو أنها قد أحدثت تغيرات فيما يخص العالم الديني – أي تغيرات دينية، ولكن الحقيقة، إنها نزعت في ذلك الوقت نحو إحداث تغيير في كيفية هيمنة الدولة وسطوتها. وتمدنا أليات انتشار الإدارة والحكم العربيين برؤية ثاقبة تمكننا من إدراك عدم احتلال الدين للقلب من تلك الصراعات، وبالمقابل توضح تلك الآليات كيف كان الإسلام،

بالأساس، الرابة الأحدث على مسرح الأحداث ... تلك الرابة التي انضوت تحتها الصراعات الجيوبوليتيكية الراسخة بإقليم الشرق الأوسط والتي تم إذكاء نيرانها على الدوام، فلقد كانت "الجائزة الكبري" التمتع بثمار الحكم والسيطرة.

وبالطبع. فلا يستقيم استبعاد دور الإسلام نهائيا من ديناميات الصراع بين حكام إقليم الشرق الأوسط ومدنه ومقاطعاته. فالإسلام قد مثل، وعلى نحو فريد، روحا جديدة في الأفق. بيد أن إقليم الشرق الأوسط، في الواقع، كان مشهيئا لاستقبال قوة محفرة جديدة قادرة على دفع الحكام المحليين، وكذا المدن للنهوض والمقاومة ضد السلطة المركزية للقسطنطينية، إن الأيديولوجيا، أينما وجدت، غالبا ما يتم استخدامها وتطويعها لخدمة الأغراض الجيويوليتيكية المحلية، وبعبارة موجزة، نشهد هنا الدور الذي اضطلعت به المشاعر المناهضة لبيزنطة في تيسير الفتح الإسلامي للكثير من الأقاليم السامية.

سوريا وثقافة الشقاق

وتعد سوريا مثالا جيدا في هذا الصدد، إذ أوى الإقليم العديد من مشاعر عدم الارتياح المضمرة، على تنوعها، والتي تفجرت، بشكل دوري، على امتداد القرون المتعاقبة. وقد كانت الغزوات التي قامت بها جيوش الإسلام كالشرر الذي ساعد على تأجيح نيران المثورة ليس فقط ضد القسطنطينية، بل وضد روما أيضا. وتعطى شخصية سوريا المتسمة بإرث ممتد من المشاكسة والضلاف، والكامن في مناخها الجيوبوليتيكي، تفسيرا للمشاكل اللانهائية التي واجهت الإمبراطورية البيزنطية في محاولاتها للدفاع عن أراضي ذلك الإقليم ضد الغزوات الإسلامية الأولى.

فما الذي هيأ سوريا لمثل هذا الدور الثورى؟ تعد سوريا واحدة من أبرز نقاط الانتقاء الحضارى، حيث تتعانق الأيديولوجيا مع معطيات القوة والنفوذ لتضفى على "دمشق" دورا فاعلا في استجلاء سياسات إنليم الشرق الأوسط. وقد امتد نطاق

سوريا، قديما، ليشمل ما يعرف الآن يسوريا والأردن وفلسطين ولبنان وإسرائيل وغربي العراق ككيانات سياسية مستقلة. وعلى امتداد التاريخ، انضوى تحت لوائها العديد من أطياف القوى التي أضفت عليها طابعا فريدا وشخصية عنيدة. فاعتبارا من عام ٣١٢ قبل ميلاد المسيح، كانت سوريا قلب الإمبراطورية الهيلينستية السلوقية مترامية الأطراف، والتي خلفت أجزاء من إمبراطورية الإسكندر الأكبر، والتي امتد سلطانها من الأناضول وحتى شبه القارة الهندية على امتد.د أكثر من والتي امتد سلطانها من الأناضول وحتى شبه القارة الهندية على امتد.د أكثر من لتأثرها، على وجه الخصوص، بالحضارة الفارسية وحضارات الشرق، ومثلث كذلك النقطة المدودية، قاعدة الانطلاق التوسع اليوناني صوب المشرق ضد الحضارة الفارسية، والحضارات السامية بالإقليم.

وتعطى مدينة "الرها" في شمال سوريا مثالا واضحا على العداء الشديد الذي يضمره أهلها لهيمنة الغرب وسيطرته. وقد كانت 'الرها' حامية عسكرية يونانية للإمبراطورية الرومانية الشرقية، بيد أن اللغة اليونانية السائدة لحكام المدينة تم الاستعاضة عنها، على نحر تدريجي، باللغة السريانية، وهي لغة سامية قريبة الشبه بالأرامية، وبذا شرعت الثقافة السريانية في إضعاف مكانة اليونانية في المواقع التي انتشرت بها، ورغما عن وجودها ضمن نطاق الإمبراطورية الرومانية الشرقية، إلا أن ولاء 'الرها' وتعاطفها غالبا ما اتجه إلى الشرق، وتحديدا إلى إيران الفرثية الزرادشتية، لا إلى بيزنطة.

على أنه لا يمكن القول بأن 'الرها' كانت مناهضة للمسيحية، ومن ثم مناهضة لبيرنطة، بل لقد كانت 'الرها' أول ولاية مسيحية في العالم في ظل حكم 'أبجر الأسود'، والتي أسستها القبائل العربية والنبطية في عام ١٣٢ قبل ميلاد المسيح، ولقد كانت الإرساليات التبشيرية المسيحية ، والتي انطلقت من 'الرها' هي من نشر المسيحية النسطورية شرقا صوب بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين، حيث سيكون الكنيسة النسطورية مقرا بها، إذاً، فقد كان ذلك الإقليم تُحد أوائل التجمعات

المسيحية، بيد أن الكنيسة النسطورية الناطقة بالسريانية كانت شرقية النزعة من الوجهة الحضارية والثقافية بمعزل عن نفوذ الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية الناطقة باليونانية. وفي عام ١٠٤م، خطت الكنيسة النسطورية خطوة على طريق الاستقلال برفضها الانتساب أو التبعية اللاساقفة الغربيين". حيث انصرف المقصود "بالأساقفة الغربيين" ليس إلى روما، بل إلى السلطات البيزنطية ذاتها والتي اعتبرها النساطرة كقوة غربية، ولقد كانت تلك الخطوة النسطورية باتجاه الاستقلال الديني إشارة سياسية واضحة، وإن تزيّت بإهاب ديني.

على أن "الرها" لم ترتض احتضان هرطقة وحيدة، فعمدت لاحقا إلى اعتناق هرطقة أخرى توحيدية النزعة، ألا وهي عقيدة "الطبيعة الواحدة المسيح" ... تلك العقيدة التي انتشرت، على نحو سريع، في ربوغ سوريا في قرون لاحقة رغما عن العقيدة التي انتشرت، على نحو سريع، في ربوغ سوريا في قرون لاحقة رغما عن اعتراض القسطنطينية الشعيد، والتي أصرت على الإيمان بالطبيعتين المتمايزتين والمستقلتين للمسيح، وبذا، فقد أصبحت العقيدة الدينية اختبارا لمدى الولاء السياسي لمعتنقها، وقد عكست الطبيعة الهرطقية الراسخة للمسيحية السورية شخصيتها شعيدة الاستقلالية، فكما أوضح الباحث الألماني أرتور فوبوس: تقصمح المنابع الأولى الاستقلالية، وتصطبغ كل للمسيحية السورية عن روح وثابة ووعى ذاتي يتوق إلى الاستقلالية، وتصطبغ كل صفحة من صفحات التاريخ بتلك الروح وذلك التوق". وفي بعض كتابات أحد القادة من مسيحيي سوريا الأوائل، نجد "الكراهية لكل ما يحمل الصبغة أو الشعار اليوناني أو الروماني ... فالاستقلالية والحكم الذاتي هما سمنا التوجه السوري المبكر لمفهوم الكنيسة". وتأتي تلك الأحداث جميعا في سياق زمني يسبق الإسلام، والذي سيتبني بيسر ثقافة معاداة الغرب ومناهضته، بل والإمبراطورية البيزنطية ... تلك الثقافة بيسر ثقافة معاداة الغرب ومناهضته، بل والإمبراطورية البيزنطية ... تلك الثقافة المنتشرة في أغلب أرجاء إقليم الهلال الخصيب.

على أن الأمر لم يقتصر على "الرها"، فبالنظر إلى ما حدث في تدمر، وهي مدينة سورية شهيرة، نجد أنها أجبرت الإمبراطورية اليونانية بالفعل على الإذعان لها خلال ثورة كبرى جرت أحداثها في منتصف القرن الثالث المبلادي، قبل

الانقسام ما بين شرق وغرب، إذ كانت تدمر مصدر تهديد بإعادة صياغة هيكل القوة برمته في شرقى المتوسط، فقد ظلت تدمر،كمحور تجارى رئيسى في سوريا، نقطة التقاء الحركة التجارية فيما بين بلاد فارس، والهند، والصين، وروما. وقد تبنت تدمر السريانية كلغة لها، بما يعكس ثقافتها "السامية" المزدهرة وتأثرها بالحضارة الفارسية مثلما هو تأثرها بحضارة روما والحضارة اليونانية، وفي عام ١٢٠٨م، دشنت زنوبيا، ملكة تدمر الأسطورية، حملة عسكرية كبرى ضد الحكم الروماني، فمن كانت زنوبيا تلك؟ بيدو أنها انحدرت من سلالة ملكية من قرطاج (ترنس اليوم) — تلك المدينة التي انصهرت في بوتقتها مشاعر الكراهية والعداء لغريمتها المتوسطية الرئيسية، روما، والتي دمرتها قبل ذلك بعدة قرون.

وفي غضون سنرات قلائل، اجتاحت جيوش تدمر أراضي شاسعة، سوريا بكملها، ومصر، ونصف الأناضول. ويالفعل، فقد مثلت تلك "الإمبراطورية التدمرية" اسنوات قليلة – كامل الثلث الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، والتي قسمت إلى ثلاثة أقاليم متمايزة. وقد كان يمكن لتدمر أن تخلف الإمبراطورية الرومانية في الشرق، وهو الحدث الذي لو كتب له النجاح آنذاك، كان سيرسخ الحكم المسيحي السرياني/السامي في شرق المتوسط عوضا عن الحكم البيزنطي البوناني، أما الملكة الجميلة زنوبيا فقد هزمت على أيدى القوات الرومانية حيث أرسلت إلى روما مظلة بأصفاد ذهبية ليتم العفو عنها بعد ذلك وتصبح رمزاً رائداً من رموز المجتمع الروماني، على الرغم من سحق إمبراطوريتها منذ زمن بعيد، بيد أن روح الثورة المنتشرة في أجزاء كثيرة من الأراضي السورية ظلت فتية ومتأججة، في مواجهة المستراتيجية التي صبغت الخلاف داخل الإمبراطورية البيزنطية القيام بالدعم العسيحيين النساطرة وإعطائهم حق اللجوء إلى الأراضي الفارسية. وبذا، الطني للمسيحيين النساطرة وإعطائهم حق اللجوء إلى الأراضي الفارسية. وبذا، العيوبايتيكية للتضارية.

إن الخلاف السياسي والأيديولوجي والديني مع روما واليونان كان مضمرا في نزوع الثقافة الدينية السورية نحو رؤية أكثر توحيدية للمسيح -لأن يكون ذا طبيعة واحدة (إما إلهية تماما، أو بشرية تماما) - وكذا رفض معتقدات القسطنطينية المركبة القائلة بوجود الثالوث (الأب والابن والروح القدس ككيان واحد) - وسرعان ما انتشرت عقيدة "الطبيعة الواحدة" للمسيح على امتداد مناطق شاسعة : الأناضول، سوريا، المشرق، مصر - حيث حظيت بدعم جماهيري وشعبي كبير، واستمرت قائمة، بلا شك، إلى يومنا هذا،

أما التطور التاريخي لعقيدة "الطبيعة الواحدة" للمسيح فلم تكن أقل إثارة وقوة. فقد تم احتضان تلك العقيدة من قبل الإسكندرية ... تلك المدينة المصرية التي كانت إحدى أبرز المنافسات للاستئثار بالنفوذ الكنسي في شرقي المتوسط، كذلك، ققد ناصرت الإسكندرية، ويشدة، عقيدة الطبيعة الإلهية الواحدة للمسيح – تلك العقيدة البسيطة يسيرة المأخذ والتي كان لها رواج شعبي كبير في سوريا ومصر والأناضول. أما القسطنطينية، فقد تبرأت من تلك العقيدة خلال أعمال مجمع "أفسوس" الأول في عام ٤٣١ . بيد أن سياسات الكنيسة ورجالاتها قد سلكت درويا متباينة، فبعد ثمانية عشر عاما، وخلال انعقاد أعمال مجمع "أفسوس" الثاني، حدث تغيير وتعديل ثيولوجي انبني على قاعدة سياسية، فأصبحت عقيدة "الطبيعة الواحدة" للمسيح معترفا بها رسميا، كما أصبح هناك من يعتنقها. ومع كل تحول كبير في تبني العقائد المتباينة، تصعد رموز كنسية مؤثرة، وتسقط أخرى، بما كان من شأنه تأجيج الصراع. وخلال الاضطرابات السياسية التي أعقبت ذلك بأربعة أعوام، قامت الكنيسة بتغيير موقفها ثانية بشأن عقيدة "الطبيعة الواحدة" للمسبيح، وذلك خلال انعقاد أعمال مجمع "خلقيدونية" في عام ١٥٤، لتعلن أن تلك العقيدة هي من قبيل الهرطقة والتجديف، وبذاء فقد ظهر رايحون وخاسرون جدد، كذلك، فقد تم عزل بعض الأساقفة الرئيسيين ورموز الكنيسة من مناصبهم، وهو الأمر الذي أدى إلى انعكاسات وعواقب سلبية أثرت على قوة المدن وهيمنتها التي

كانت تحتضنهم. إلا أن القصة لم تنته بعد. فقى هذه المرة، ورغما عن الجهود الفائقة المبدولة لإعادة الصياغة الثيولوجية لإحداث نرع من التوافق والمواحمة فيما بين طرفى النزاع، إلا أن أعدادا كبيرة من معتنقى عقيدة 'الطبيعة الواحدة' للمسيح رفضوا بتاتا قبول سيطرة القسطنطينية وأحكامها. وفي النهاية، فقد قاموا بشق عصا الطاعة بوجه القسطنطينية، وعمدوا إلى إعادة تأسيس كنائسهم المستقلة، على تترعها، ليعرفوا بالأرثوذكس الشرقيين، بصفة رئيسية، في الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية.

وكما كانت توصيات مجمع "خلقيدونية" شديدة الوطأة على عقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح، فقد اتخذ المجمع أيضا قرارا صادما لروما إذ أعلن أن القسطنطينية هي "روما الجديدة"، ومساواتها بروما، وبالفعل، فقد كان القسطنطينية أن تكون "روما الوحيدة" في ظل انهيار البقية المتبقية من الإمبراطورية الرومانية في الغرب أمام هجمات الهمج، أما مفهوم "روما الجديدة" فلن يفقد صداه الرنان أبدا: فبعد ألف عام، ومع سقوط بيزنطة (الإمبراطورية الشرقية) ذاتها، ستنتحل موسكو لنفسها لقب "روما الثالثة"، بما يدل عليه من المتداد الإرث المتعاقب الهيمنة المسيحية.

ولقد كانت رموز المسيحية القوية -البابا، وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ومختلف الأساقفة والبطاركة على تعدد مصالحهم- لديها في جعبتها الكثير في تلك النقاشات والجدالات من مجرد الشئون الدينية. فعلى سبيل المثال، فإن الخلاف المعتقدي حول صبيعة المسيح وماهيته قد أرسى الأساس لتطلع البابا إلى السيطرة. فإذا كانت طبيعة المسيح إلهية فحسب، فكيف، إذاً، يزعم البابا كونه "الحبر أو الكاهن الأعظم"؟ فلا يمكن أن يكون شمة كاهن للمقدس ذاته - أما إذا كان المسيح ذا طبيعة بشرية، فمن الطبيعي أن يكون هناك سلسلة متعاقبة بدلية من القديس بطرس مرورا بأباء الكنيسة، وحتى البابا ككاهن للمسيح ذى الطبيعة البشرية.

وبالفعل، فنحن نشهد هنا صراعا هائلا على مقاليد الهيمنة والقوة تدور رحاه وفق مستويات ثلاثة الأول، صراع بين روما والقسطنطينية حول أيهما، بالفعل، يمثل الإمبراطورية الرومانية الحقيقية بما في ذلك أحقية قيادتها، الثاني، صراع يدور في الكنيسة الشرقية بشأن العقيدة في أرجاء الإمبراطورية الشرقية، وأخيرا، صراع القوى المسيحية الثورية والهرطقية في الشرق ضد الهيمنة السياسية القسطنطينية في المقاطعات الشرقية. كان هذا هو المشهد الذي واكب نشأة الإسلام في إقليم ممزق بفعل الصراعات السياسية، وما انطوى عليه الإقليم من شهيئ تاريخي وحضاري وسياسي للقادم الجديد ... ذلك القادم الذي سيضيف إلى، وأيضاً سيرث، المعادلة المركبة بالفعل لصراعات القوى والأيديولوجيا.

الإسلاميغزوأراضىبيزنطة

تكشف الطريقة التى توسع بها الإسلام بالفعل جليا عن لمنظومة المعقدة التحول الديثي والتغير الحضاري، فضلا عن إفصاحها عن طبيعة التعايش والمواحمة الدينية، اذا، فلا يعدو المصطلح السطحى المبسط "الصدرد الدموية للإسلام" والذي تبناه صموئيل مانتنجتون إلا أن يكون صورة تبسيطية غير كاشفة عن التداخلات السياسية والاجتماعية المتشابكة التي جرت بالفعل.

فعقب الانتفاضات البطولية المبكرة في "الرها" و"تدمر" ضد الهيمنة البيزنطية، كانت دمشق المحطة التالية. وهنا أيضا نشهد بواكير حركة الجماعات الدينية المعارضة في تسهيل غزو المسلمين المدينة في عام ١٣٥ – فعدت بذلك الأولى ضمن المدى الكبرى الواقعة تحت أيدى القوات العربية المسلمة.

ولقد وقعت دمشق بالفعل في أيدى الفرس قبل ذلك بعشرين ونيف عاما، بعون من اليهود ومسيحيى "الطبيعة الواحدة" المسيح ... والذين ضجوا من عسف بيزنطة وضرائبها. ويرغم أن المدينة قد آلت ثانية إلى بيزنطة، إلا أنه سرعان ما سقطت مرة أخرى، ولكن في أيدى المسلمين العرب في هذه الجولة. كذلك، فقد تم

تسهيل الغزر العربى، أيضا، من داخل المدينة بمساعدة المعارضة المتحثلة فى النساطرة ومسيحيى "الطبيعة الواحدة". على أن المعتقد الإسلامى بشأن الطبيعة البشرية للمسيح ورفضه الصارم لما عداها لم يكن ليمثل مفاجأة للسكان المسيحيين المنغمسين بالفعل فى جدالاتهم وهرطقاتهم بشأن طبيعة المسيح، وبذا فقد كان الإسلام حلقة جديدة فى سلسلة النقاشات المحتدمة، وقد كان ما يشغل البال ليس ثيراوجية الإسلام، بل نفوذه السياسى وطبيعة نظام الحكم ونوعيته المفروض من قبله.

وبعد جدال واسع، تم إقناع القادة العرب المستولين عن حصار دمشق بأن قبول استسلام المدينة سلميا يعد حصيفا من الوجهة الاستراتيجية إذا كان المراد تجنب المقاومة الشرسة من قبل مدن سورية أخرى أثناء تقدم العرب. لذا، وبعد مواجهات ممتدة فيما بين الجيوش العربية والبيزنطية، و فقت المدينة، في النهاية، وفي عام ١٣٤ على الاستسلام بعد أن وعد القائد المسلم خالد بن الوليد بما يلى:

"حين دخول المسلمين، سيكون الأهالي آمنين على أنفسهم، وممتلكاتهم، وبور العبادة، وأسوار المدينة، فلن يتم تدمير أي مما سبق. وسيكون هذا الوعد أمام الله ورسوله وأمام الخليفة والمسلمين الذين سيعاملونهم بالحسنى كإخوة طالما كانوا يدفعون الجزية".

أما أورشليم، فكانت التالية حيث سقطت في أيدى القوات العربية في عام ٦٣٨ . وقد وافقت المدينة على الاستسلام إذا ما تعهد الخليفة ذاته بسيادة الأمن بها، وقد دخل الخليفة عمر بن الخطاب بصحبة بطريركها، وأبرما معا اتفاقا يضمن أمن المدينة ويحفظ للمسيحيين حقهم في العبادة وممارسة طقوسهم الدينية. وقد أفادت المصادر العربية بأن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد أزال بقايا معبد الهيكل اليهودي للهجور، وأدى الصلاة هناك، وأمر لاحقا بيناء مسجد في الركن الجنوبي الغربي مما كان يشغله المعبد،

الهداية واعتناق الإسلام

إن التحول إلى اعتناق الإسلام في تلك الأقاليم كسوريا وغيرها من أقاليم خضعت في السابق لبيزنطة - ليكشف عن الكثير بشأن القوى السياسية والحضارية والتفاعل فيما بينها. وكما أشرنا أنفا، يكون من الحماقة أن ننصور، على نحو مبسط، وقوع مسيحيين مخلصين وأوفياء في أيدى قوات مسلمة مناهضة الغرب، وهي الرؤية الشائعة التي يروج لها الغرب، قلم يكن المسيحيون في تلك الأقاليم السامية بالضرورة سعداء أو أوفياء لبيزنطة، بل كانوا مهيئين لناهضة الغرب. أما النظريات المبسطة عن إسلام في مواجهة الغرب كثنائية، فتنهار هنا حين نواجه حقائق الأمور. فبالفعل لم يكن للإسلام إلا القليل من المواجهات مع القوة العسكرية الغربية أو البيزنطية، إذاً قلم يكن ثمة استعداد مسبق أو تهيؤ لمناهضة الغرب كما حدث داخل قطاعات كبيرة من الإمبراطورية البيزنطية. وفي سوريا، سرعان ما سقطت مدن كبيرة أخرى في أيدى المسلمين التراجع حدود الإمبراطورية، ولتبدأ سلسلة ممتدة الحلقات من التحول إلى اعتناق الإسلام في الإقليم.

ومرة أخرى، ترسم الصور الشائعة التي يروج لها الغرب للغزو الإسلامي التحول إلى اعتناق الإسلام يكونه قد جرى تحت حد السيف. أما حقيقة الأمر فجد مختلفة... إذ تشبه عمليات تحول إلى اعتناق أديان أخرى شائعة في معظم الحضارات والثقافات الديئية حين تتبدل الأحوال السياسية بها على نحو كبير. ففي العقود الأولى، تم المبادرة إلى إرساء السلطة السياسية الإسلامية عقب عمليات الغزو العسكرى مباشرة. ففي غضون ثلاثين عاما من وفاة النبي محمد، اكتسحت الجيوش العربية المسلمة أراضي شاسعة فبلغت على امتداد ساحل المتوسط الأراضي التي تشغلها تونس حاليا، وحدود القوقاز وشطر الاتاضول شمالا، وحدود باكستان العالية شرقا. ويذا، انهارت الأنظمة القديمة وتهاوت ليحل مطها حكم إسلامي يقوم عليه حكام مسلمون. بيد أن عملية التحول الفعلية إلى اعتناق

الدين الجديد، إن على الصحيد الفردى أو ذلك المجتمعي، قد تأخرت (العملية) طويلاً. ففي كتابه البارز "تاريخ المجتمعات الإسلامية"، أشار ايرا لابيدوس إلى أن الغزوات، إذا، كانت انتصارات حربية المسلمين على قوي منهكة عسكريا ... تلك الانتصارات التي عززت في العقود الأولى من حكم العرب نظرا الشعور أهالي الإقليم بالارتياح والرضا لتقبل النظام الجديد'. ولقد أدت عوامل الاسنياء الداخلي بالإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية النساطرة وأنصار "الطبيعة الواحدة' في سوريا، والمسيحصيون واليهود في إيران إلى تسهيل الإطاحة بهاتين الإمبراطوريتين، مدينة تلو الأخرى، خلال زحف المسلمين عليهما. ووفقا لميرلين شفارتز، أستاذ التاريخ الإسلامي الوسيط بجامعة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية، فإن معظم اليهود داخل الإمبراطورية البيزنطية كانت تتملكهم مشاعر الاستياء إزاء ما عاتوه من اضطهاد بها، لذا فقد رحبوا بالجيوش الإسلامية والتي سيتبدى أن حكمها قد عمل على تعزيز وازدهار، بل وإعادة بعث الحضارة والثقافة اليهودية.

ويالإضافة إلى ذلك، وخلافا لما هو متوقع، لم يكن تحول الشعوب المنهزمة إلى اعتناق الإسلام ، مطلقا، الهدف المباشر المنتصرين العرب، بل كان الهدف فرض الهيمنة وبسط السلطة، وهنا، وبالفعل فنحن نتحدث عن التغيير الدنيوى –تغيير الحكام بثكثر مما نتحدث عن الدين في ذاته على المستوى الاجتماعي، وكما يشير الابيدوس، "فإن المنتصرين العرب لم يكونوا يريدون تحول المنهزمين إلى اعتناق الإسلام بقدر ما كانوا يرغبون في خضوع غير المسلمين الهم، وفي البدء، كان أوائك العرب غير راضين بإسلام المنهزمين على الفور، لأن "المسلمين الجدد" سيعملون على تحجيم الكاسب الاقتصادية وامتيازات المنزلة الجديدة بالنسبة للعرب".

وبالفعل، كان ثمة حافز لحكام تلك الأقاليم من العرب ألا تمتد مزايا ومنافع أن يكون المرء مسلما للأهالي ككل، فالقوى العربية تمتلك من الامتيازات والمنافع ما لا تمتلكه الفئة المهزومة، حيث يتوجب على نلك الفئة دفع الجزية المفروضة على غير

المسلمين كبديل عن انخراطهم في الخدمة العسكرية، ومقابل تمتعهم بالعماية والأمن من قبل المسلمين، وكان على الأقليات في المجتمع الانصباع للحكم السياسي للمسلمين، والامتناع عن أية جهود من شأنها تحويل المسلمين إلى اعتناق المسيحية، وقد أشار المؤرخ الشهير "أرنوك توينبي" في مؤلفه الجلبل "دراسة الناريخ" إلى:

"أنه في المقام الأول يمكننا أن نسقط من الحسبان اتجاها — كان شائعا في المسيحية -المبالغة في تقدير مدى استخدام القوة وحدودها في نشر الإسلام، فمظاهر الالتزام بالدين المتطلبة من قبل خلفاء النبي محمد كانت مقصورة على أداء عدد محدود من الشعائر والطقوس غير المرهقة ... وفي الأقاليم المهزومة في الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية، لم تكن البدائل المطروحة "الإسلام أو الموت" - ... بل "الإسلام أو الجرية" - وهو طرح تم الإشادة بكونه تنويريا حين طبق بعد قرون عديدة في إنجلترا بواسطة الملكة إليزابث الأولى، والتي ثم يكن يعنيها أمر الدين كثيرا".

لم يكن العرب يريدون اقتسام القوة والسلطة في بداية الأمر، إذ حافظت الإدارة الإسلامية الجديدة على الوضع القائم دونما أدنى تغيير عما سبق إلا في شكل الحكم الجديد - وهو الاتجاه السائد والشائع لدى جميع الشعوب التي تحيا في أقاليم تتداول فيها السلطة في مستوياتها العليا سجالا من خلال غنائم الحروب، مع عدم تغيير شكل الحياة في المستويات الأدنى، بالضرورة، وفي حقيقة الأمر، لم يكن هناك الكثير من التحول إلى اعتناق الدين الجديد، فكما يقرر لابيدوس:

إن المبدأ الثانى من مبادئ الخليفة عمر بن الخطاب بشأن الاستيطان يذهب إلى ضرورة إعطاء الشعوب المهزومة حرياتها قدر الإمكان مع أدنى تدخل ممكن، ويعنى ذلك أن المسلمين العرب، ويخلاف ما هو شائع، ثم يحاولوا أن يجبروا أحدا على اعتناق الإسلام، وقد ضرب النبى محمد المثل والسابقة في سماحه لليهود والنصاري في شبه الجزيرة العربية بالبقاء على دياناتهم إذا ما دفعوا الجزية ...

قفى زمن القتوحات، كان براد الإسلام أن يكون دينا للعرب، كدليل على التمايز ووحدة الطائفة، ولم يكن لدى العرب حماسة شديدة تجاه التبشير بالدين الجديد، فلما أن كانت التحولات إلى اعتناقه، حدثت الارتباكات إذ خلقت مشاكل تتعلق بمنزلة من اعتنق الدين الجديد، كما أدت إلى المطالبة بالحق في الامتيازات المائية.

وتجدر الإشارة إلى أنه في ذلك الزمن المبكر، كان الفاتحون العرب الأوائل ما يزالون متمسكين يشدة بانتماءاتهم الإثنية حيث رأوا الإسلام "كدين عربي" وأنهم الفئة المختارة التي خصت بتلقيه، وتعكس تلك النظرة إدراك العرب للوحي المنزل على موسى بدين يكون لليهود دون سواهم، إذا، فقد كان ينظر للإسلام على أنه جائزة العرب الممنوحة لهم كونهم المفضلين. بيد أن ذلك الوضع للعرب المفضلين، والمكانة الأدنى مرتبة من حيث حقوق المواطنة حتى لغير العرب المتحولين إلى اعتناق الإسلام—هما ما أدى إلى اعتمال الضغينة بشدة في النفوس ... وقد أدت التوترات، في النهاية، إلى الإطاحة بالدولة الأموية ذات التوجه العربي على يد الدولة العباسية الأكثر تنوعا من الوجهة الإثنية، وذلك في عام ٥٠٠ . وبالطبع، فإن الدولة العباسية الأكثر تنوعا من الوجهة الإثنية، وذلك في عام ٥٠٠ . وبالطبع، فإن الوضع التفضيلي للعرب في الإسلام يخالف تماما ما أقره النبي في خطبة الموياع :

أيها الناس! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم،

إن تاريخ الإسلام يمثل تحولاً تدريجياً من المنظور الإثنى لعمليتى الغزو واعتناق الدين الجديد باتجاه النهج المثالي لعالمية الإسلام، إلا أن مشكلة إصرار العرب على فكرة كونهم متفوقين رغما من أخذها بالانحسار، إلا أنها لم تخفت تماما على المستوى الشعبي عند كثير من العرب. وقد نبعت تلك الفكرة من حقيقة

أن الإسلام قد ولد في شبه الجزيرة العربية، وأن القرآن، السفر الحاوى لكلمات الله، قد أنزل بلسان عربي، وأن النبي محمداً عربي، إلى جانب بلاغة اللغة العربية شديدة الثراء والتي لا نظير لها كما اشتمل عليها القرآن، والتفوق الذهل الذي أحرزته الفتوحات العربية ، لأولى، بيد أن الحكمة التي ينطوى عليها الحج كفريضة دينية إسلامية تكمن في جمع المسلمين من كل بقاع العالم، على اختلاف ألسنتهم وأعراقهم، في مكان واحد لعبادة ربهم. كذلك، فقد أسهمت وسائط الاتصال الحديثة في زيادة وعي المسلمين وإدراكهم للمساهمات الكبرى لغير المسلمين في شمولية الإثنية.

فكيف، إذاً، سارت عملية التحول نحو اعتناق الدين الجديد؟ تنطوى جميع عمليات اعتناق دين جديد على تعقيدات جمة، إذ تشتمل على اعتبارات ذاتية وأخرى دينية. وقد لاحظ لابيدوس ظاهرتين متمايزتين في هذا الفصوص، فقد كان التحول نحو اعتناق الإسلام من قبل الأرواحيين والمشركين في تاك البقاع الصحراوية يكمن في الإغراء الذي ولدته الرغبة في أن يصيروا جزءا من حضارة عظيمة وثرية حيث كان هناك الكثير من المغريات للانضمام إلى صفوف المسلمين، والسمت تلك العملية بالتمايز الشديد عن أولئك "الموحدين"، سواء في الحضر أو التجمعات الزراعية، والذين رأوا "الإسلام بديلا عن البيزنطية أو الساسانية كهوية سياسية، ويديلا عن المسيحية واليهودية والزرادشتية كانتماء ديني ... وقد انصهرت الصفوة القديمة، وكذا الطبقة الإدارية لكل من الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية في النظام الجديد".

وبدًا، فقد جرت تحولات غير مسبوقة على امتداد أراض شاسعة في أقل من قرن واحد، وكما قرر لابيدوس:

"لقد تحول العرب من عشائر بدوية وقبليات إلى جماعات "حضرية"، كذلك تم الاختلاط والمصاهرة مع غير العرب، كما شغل العرب مهاماً ومناصب مدنية، وخفتت حدة احتكارهم للإسلام، وبالتبعية، انضم غير العرب لصفوف الجند والخدمة بمصالح الدولة، وتحولوا إلى اعتناق الإسلام متبنين اللغة العربية، وطالبوا بنصيب لهم في الحكومات المتعاقبة بالإسبراطورية كأكفاء بعد أن كانوا، في السابق، مجرد رعايا لا يحق لهم المطالبة بذلك الامتياز".

كذلك، فقد أملت الأقليات المستاءة من الحكم البيزنطى والساسانى وغيرهما في أن يتحسن وضعها تحت الحكم الإسلامي، وقد أثبتت الأيام والتجارب في ظل الخلافة الإسلامية صحة تلك الأمال. وبلا شك، فإن الخوف من المنتصر قد يجبر البعض على اعتدق دينه ومعتقده، كذلك تكون الرغبة في المداهنة والتزلف لكسب رضا السلطات الجديدة بقية اجتناء ثمار ومنافع - دافعا لاعتناق الدين. أما الذين عاشوا كثيرا كأقليات، فقد بدأوا يلمسون فوائد جمة إن هم اعتنقوا دين الأغلبية وأصبحوا جزءا من الثقافة السائدة، للتمتع بالحماية، والإفادة من الحراك الاجتماعي الجديد، كذلك، يذهب البعض إلى الالتحاق بصفوف الجند ضمن حملات الغزي الإسلامي بدافع المغامرة واقتسام الغنائم والأسلاب.

بيد أن عملية التحول إلى اعتناق الإسلام تلك لم تكن بالسرعة التي تم تصويرها والترويج لها، فقد أظهر بحث لريتشارد بولييه، من جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة، عن معدلات اعتناق غير العرب للإسلام - بطئا في تلك العملية خلال القرن الأول الهجري. فقى ظل خلافة الدولة الأموية، لم تزد نسبة من تحول للإسلام من الشعوب المهزومة عن عشرة بالمائة، وبمقارنة تلك النسبة بنظيرتها في ظل خلافة الدولة الدولة الأموية، ثم الشعوب المهزومة عن عشرة بالمائة، وبمقارنة تلك النسبة بنظيرتها في ظل خلافة الدولة الدولة الدولة المائدة إلى مائة بالمائة تقريبا مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي.

كذلك، فلم تتحول جميع المجتمعات نحو اعتناق الإسلام، فقد أظهر وجود جماعات مسيحية كبيرة من طوائف شتى على امتداد الشرق الأوسط، بالإضافة إلى الجماعات اليهودية – أن "أهل الكتاب" كان لهم مطلق الحرية في اعتناق الدين

الجديد أو عدم اعتناقه بأن يظلوا يتعبدون كنصارى ويهود ويؤدون الجزية، ويذلك يعقون من الانخراط في صفوف العسكر ويتمتعون بحماية الدولة الإسلامية، وفي ظل خلافة الإمبراطورية العثمانية، بعد ذلك بألف عام، ظلت الغالبية العظمى من رعايا الدولة في البلقان على دينها المسيحى، ولم يحدث تغير ملحوظ في مجريات حياتها أو ممارساتها للطقوس التعبدية الخاصة بها.

إذا، وتحقيقا، كانت عملية التحول إلى اعتناق الإسلام تتسم بالتبرج، ولم تستتبع إحداث تغييرات كبرى أو فجائية في الحياة بإقليم الشرق الأوسط، حتى وإن شرعت حضارة إسلامية عالمية جديدة في الانبثاق وئيدا، لذا، كان الأثر الديني أقل درجة من أثر التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وقد شهدنا عناصر الاستمرارية في شخصية الشرق الأوسط السياسية والاجتماعية والجيوبوليتيكية مع الانتشار والهيمنة التدريجية للإسلام كدين جديد، وبذا، تبقى المقولة السطحية : "الإسلام في مواجهة الغرب" أو "الإسلام إزاء المسيحية" غير ذات معنى كونها فارغة من أي مضمون أو دلالة.

ولقد أسهم الإسلام في تغيير المناخ السياسي بالمنطقة، إلا أنه قد تأثر أيضا بذلك المناخ. فباشتمال الدولة العباسية على عناصر متزايدة من الإثنيات والثقافات واللغات من الأنداس غربا وحتى جنوب أسيا ووسطها شرقاً، فإنها أخذت مظهرا كورموبوليتانيا بتوظيفها لمهارات تلك الشعوب ومواهبها، ولقد ساعد رجال اللاهوت والقلسفة والمفكرون النساطرة والسريان في إرساء دعائم الثقافة بالدولة العباسية. كذلك، فقد كان للبطريرك النسطوري في كنف الإمبراطورية الإسلامية سلطة وتأثير كبير إبان الدولة العباسية، كذلك، فقد كانت ثمة عوامل نهضمة ثقافية وحضارية تختمر ... تلك النهضة التي أدت إلى احتلال الحضارة الإسلامية مكانة سامقة وشئوا بالغا على امتداد العالم بأسره في تلك الأونة، وخلال قرون أخرى لاحقة.

كذلك، فمن المشاهد هذا أيضًا عملية هامة من الدمج والانصهار حيث تشريت

الثقافة الإسلامية، وعلى نحو تدرجي، بالثقافات والتقاليد واللغات والفنون والتجارب وتاريخ الشعوب المتاخمة، بما جعل الإسلام جزءا من الإقليم وليس مجرد صنيعة عربية تم فرضها على المنطقة، أما انصهار الحضارة الإسلامية وتكاملها العميق مع أقدم أقاليم الحضارة في العالم فيشير، وفقا لعدة أوجه، إلى سلسلة متواصلة الحلقات من المخزون الحضارى وائتشابه الثقافي والتوجه المشترك، فلم يتحول الشرق الأوسط على يد الإسلام إلى كيان جديد كل الجدة، وإنما أضاف إلى رصيده، على نحو بديع، طبقة جديدة من الحضارة والثقافة المتمثلة في الإسلام، ليراكمها شمن فسيفساء عميقة الغور بالغة الثراء.

لذا، فإن أشكال اندماج الإسلام والحضارة الإسلامية مع تقاليد حضارية وثقافية أخرى تعد جزءا هاما من رؤيتنا وفهمنا للمقولة الذاهبة إلى تعانق مسيرة المعطيات الجيوبوليتيكية والمتغيرات الثقافية بالإقليم. فلو لم يكن ثمة إسلام، فإن أغلب تلك القوى والمعطيات كان لها أن تستمر وتبزغ، كما كانت الحال حين ظهر الإسلام وأضاف طبقة جديدة من الحضارة والثقافة إليها. كذلك، فإن الكثير من التوترات الجيوبوليتيكية قد ظلت سارية ولا شك أن الإسلام كان قادرا على توحيد نقك الأقاليم بنمط حضارى مشترك أثبت قابليته للاستمرار بجدارة حتى يومنا هذا، بغض الطرف عن التغيرات في الخريطة السياسية للإسلام.

كذلك، فقد رأينا كيف كانت الهرطقات المسيحية المتنوعة تعمل كمحركات أيديولوجية للمقاومة المحلية ضد هيمنة روما والقسطنطينية، فمن غير المستغرب، إذاً، أن نجد مشكلات الهرطقة ذاتها، وقد استمر وجودها في ظل الإسلام. فإذا أخذنا شمال إفريقيا كمثال، لوجدنا أنه بينما توغلت الجيوش العربية "السنية" بامتداد ساحل المتوسط بالشمال الإفريقي لترسى هيمنة عربية، رأى الأهالي، وأغلبهم من البرير بلغتهم وثقافتهم وتقاليدهم المتميزة – هذا المد للهيمنة العربية باعتباره تهديدا إثنيا وسياسيا بالأساس، وكنتيجة لذلك، فعندما تم تدشين أركان الحكم الإسلامي الجديد هناك، عمد البرير إلى اعتناق الفكر الشيعي وأفكار

الخوارج، وقد مثلت تلك المذاهب الإسلامية غير التقليدية ضربا من الاحتجاج ضد القوى العربية السنية التقليدية،

القبوة المستدامية

أن نشهد مدى توغل الفتح الإسلامى بفضل المهارات الحربية والاستراتيجية، فهذه حقيقة ... أما قدرة الإسلام على الاحتفاظ بقرة مستدامة وتغلغل داخل أقاليم شاسعة رثقافات متباينة وشعوب شتى إلى الآن، فتلك حقيقة أخرى تثير الإعجاب على أننا يمكننا أن نعزو ذلك إلى مجرد تفوق القدرة العسكرية الإسلامية عبر القرون. فلماذا لم تعد سوريا، على سبيل المثال، إلى اعتناق المسيحية، أو أى من ديانات أخرى سبقة، بعد أن ضعفت شوكة العرب لاحقا؟ ولماذا لم تعد إيران لاعتناق الرادشتية حين ضعفت الدرلة العباسية ثم انهارت على أيدى المغول؟ فإذا كان الإسلام قد أجبر تلك الشعوب المتنوعة على اعتناقه، أفلا يكون لنا أن نتوقع قيام تلك الشعوب، في مرحلة زمنية أو أخرى على امتداد الأربعة عشر قرنا التالية، قيام تلك الشعوب، في مرحلة زمنية أو أخرى على امتداد الأربعة عشر قرنا التالية، بالثورة ضد الحكم الإسلامي لاستعادة معتقداتهم وثقافاتهم؟

فحين قامت جيوش المغول في القرن الثالث عشر الميلادي بسحق القوة الإسلامية في أغلب بلدان المشرق، كيف تأتى للحضارة الإسلامية أن تنفض عن نفسها آثار تلك الهزيمة، وتبعث من جديد من الرمد كطائر الفينيق؟ هنا، فإن مرونة الإسلام كعقيدة وتقافة ونمط مجتمعي ونظام سياسي تبدو مذهلة، حتى في أدنى مستوياتها، إن ترابط المجتمعات الإسلامية وتلاحمها في وجه مختلف الظروف والحوادث إلى يومنا هذا، بما فيها، الكولونيالية الأوروبية والحروب الكونية فالحرب الباردة – تشير إلى وجود أرابط حضاري ينتظم عناصرها ويقيها من التحديات الخارجية، حتى حين تأخرت الحضارة الإسلامية عن مسيرة القوة والتقنية التي قادها الغرب في العمير المديث، لذا، فإن الإسلام قد ساعد في مساعد في تماسك الإقليم واتحاده في ظل ثقافة وحضارة راقية مشتركة، بيد أن المشاعر

والمراقف تجاه الغرب وروما وحتى القسطنطينية لها أصول موغلة وجذور ضاربة سبقت ظهور الإسلام واستمرت أثناءه.

إن رسالة الإسلام المباشرة قد خاطبت مشاعر الجماهير التي آمنت بها. كذلك، قإن بساطة الإسلام ووضوح عقيدته، بالمقارئة بالطبيعة المركبة للمسيحية وإلغازها وعسر استيعابها ذهنيا، وهو ما يتضبح من المجامع الكنسية اللانهائية ذات الصبغتين الدينية والسياسية – قد عملا بما فيه صالحه. إن سحر الإسلام كعقيدة وانتشاره السريع قد يكونا السبب في خوف القوى المسيحية منه، ومحاولاتها المبكرة وصمه بعكس ما هو عليه من روحانيات، وبينما نجد أن جميع الحكام بإمكانهم استخدام الغلظة والقسوة في إدارتهم أشئون ممالكهم ومعاملتهم لرعاياهم، فإننا نلفي الصيغة الإسلامية للحكم وقد بزت تلك المعتمدة من قبل سادت فيه تلك الصيغة بنجاح وسداد. ذلك أن السيف قد يكون له كلمته في البداية، ولكن تعن الحاجة إلى مهارات الحكم الجيد فيما بعد. انظر كيف انهار العديد من الإمبراطوريات العظمي.

فبتسيده السياسى والدينى في إقليم الشرق الأوسط، نجد الإسلام قد جاء اليتواءم مع المعتقدات والأفكار الدينية التي سبقته، ليمتلوا معا انصهارا النالد والطريف من الأفكار ووجهات النظر. وهناء لايستقيم الزعم بأن الإسلام قد جاء ليمثل قوة عدائية جديدة عمدت، على نحو مفاجئ، إلى تغيير الطبيعة الجيوبوليتيكية لإقليم الشرق الأوسط أو إرساء صنوف غير مسبوقة من مشاعر مناهضة الغرب. إن المشاهد أن الحضارات والتوجهات والأمور الجيوبوليتيكية التقليدية قد استمرت كما كانت عليه في السابق، إلا أنها قد تزيّت بإهاب إسلامي. قلو لم يكن ثمة أسلام، أكان الأنماط القديمة من المناهضة السامية الحضارة اليونانية والحضارة البيزنطية الرومانية أن تخفت وتتلاشي؟



نصوبر احمد باسبن نويئر فيئر (Ahmedyassin90)

الحروب الصليبية (١٠٩٥ - ١٢٧٢)

بقلوب تماؤها الصماسة المسيحية، وبرايات خفاقة وألوبة مشرعة في الفضاء مضى الصليبيون الغربيون صوب الشرق بموجب مرسوم البابا وأمره في القرن الثاني عشر الميلادي بتحرير الأراضي المقدسة وتخليصها من قبضة الكافرين (المسلمين) ... تمثل تلك المشاهد ومثيلاتها جزءا من أسطورة التاريخ الفربي، أفليس الإسلام ضد الغرب؟! بالنسبة الكثير من الأصوليين، مسيحيين ومسلمين، تؤرخ الحملات المليبية لبداية صراع الحضارات، بيد أنه إذا ما ألقينا نظرة أعمق وأشمل، لاتضع أن الأمر ينطوي على ملامع أكثر تعقيدا، فهل نحن نتحدث، بالفعل، عن صراع للحضارات - باعتباره طورا أخر من أطوار "الصراع الأزلى" بين الإسلام والغرب؟ أم أنه ربعا يكون هناك ما هو أكثر تعقيدا يجرى بالفعل؟

سيناقش هذا الفصل كيف كان الدين الخلفية المصورة والرواية الشائعة والمسورة والرواية الشائعة والمسوغ لما كان خطوة جيوبوليتيكية كيرى من قبل الغرب حين أرسل جيوشه صوب الشرق، فهل كان يمكن أن تكون ثمة حروب صليبية في الأراضي المقدسة ما لم يكن ثمة "إسلام"؟...

فلننظر بعمق إلى هيكل الأحداث والعلاقات، فلعل الإجابة تكون غير متوقعة.

إذاً، ما الحدث التاريخي شديد الصلة بالدين غير "الحروب الصليبية"؟ لقد لاحظ المؤرخون نموا عاما في "التقوي" في أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي، والذي سرعان ما وظفته الكنيسة لصالحها. ولقد انطوت "المغامرة" على بعد رؤيوي، إذ آمن الكثيرون بأن تأسيس دولة مسيحية في أورشليم ثانية قد يتواكب مع نهاية الزمان – وهي رؤية سائدة واعتقاد شائع. فلأول مرة في أوروبا، بزغ وعي جديد

بوجود "عالم مسيحى" قائم، حين شرع الواعظون في إخبار العامة بوجود "آخر" وتني في الشرق الأوسط – وهو طرح لم يكن شائعا في فترات التاريخ الأوروبي المبكرة المتسمة بالظلامية والعزلة الشديدة.

وقد شجعت الكنيسة الرجال على تسجيل أسمائهم "كجنوب الكنيسة" اللقتال النوسعة رقعة الأراضى المسيحية، وتسرد الروايات التاريخية الطقوس المهيبة والجليلة لمراسم تسجيل الأسماء، حيث كان كل مقاتل يقسم يمينا بأن يواصل المسيرة نحو أورشليم ليتلقى هناك صليبا من معثل البابا تقديرا لمكانته كجندى من جنود الكنيسة. وقد أعفى المسجلة أسماؤهم من التقاضى المدنى خلال فترة الخدمة تلك. كذلك، فقد شغلت اعتبارات يوم القيامة الكثيرين – وبخاصة كيف يمكن أن يحظى المرء بمغفرة ذنوبه ،.. يكمن ذلك في مجرد الانضمام والانخراط في مجريات الحروب الصليبية؟ فإذا ما انخرط المرء، هل ستقتصر الذنوب التي سيتم غفرانها

على تلك المقترفة قبل لعظة الرحيل للانشراط فى تلك الحروب، أم سيتم غفران جميع الذنوب اللاحقة إلى الأبد؟ وهل على المرء حقا أن يموت ليحظى بالمغفرة؟ كذلك، فيعد أن يتم إنقاذ أورشليم، هل سيظل الباب مشرعا لغفران الخطايا والذنوب، أم أنه سيغلق ثانية؟

تلك كانت أسئلة محيرة واجهت المتطوعين للانخراط في الحروب الصليبية، ريما كانت شبيهة للغاية بتلك الجدالات الدائرة اليوم بين بعض المسلمين الأصوليين عما يمكن أن يطلق عليه، وبحق، "الموت كشهيد". إن الشهادة، في واقع الأمر، تشير بالتحديد إلى التضحية بالنفس دفاعا عن الدين ونصرته، والعمل على نشر رسالته، ولكن، إذا قام أحدهم بعملية انتحارية ضد العدو "الأمر الذي يحرمه الإسلام" فهل بعد ذلك الموت الذي جره المرء على ذاته "شهادة حقة"؟

تداءالبابا ، ايريان ، الثاني

إن الجدل حول الطابع الدينى للحروب الصليبية لا يمكن استحضاره بأقضل من خطاب البابا ايربان الثانى للعامة فى مجمع "كليرمون" فى عام ١٠٩٥، إذ يعد وثيقة غربية مبكرة على درجة عالية من الأهمية تناشد المسيحيين للجهاد ضد الشرق المسلم (الكافر)، على أنه لا توجد سجلات دقيقة لما قاله ايربان تحديدا، وإنما شذرات لقادة شتى من الحضور، على ما بها من اختلافات وتباينات، ولكن المهم فى الأمر هو البلاغة الخطابية، إذ نشهد إرهاصات لما أطلق عليه لاحقا ممراع الحضارات" الذى طال كلاً من المسيحيين والمسلمين، وتدرك "نكهة" آراء البابا وتعليقاته من بعض الفقرات المنتقاة من واحد فقط من المراقبين العديدين، فولشر من شارتر، مقتبسا ومجليا مخاوف البابا من غزو المسلمين للغرب:

فكما سمع معظمكم، فقد هاجم الأتراك والعرب "البقاع المقدسة" وغزوا أراضى الإقليم ... حتى وصلوا غربا إلى شواطئ المتوسط والدردنيل ... كذلك فقد قتلوا وأسروا أعدادا كبيرة، ودمروا الكنائس وخريوا الإمبراطورية. فإذا ما تركوا ليواصلوا ما هم عليه بلا رادع، فإن خلصاء الرب سنتم مهاجمتهم على نحو كبير لا محالة. وفي هذا الخصوص، فأنا ألتمس، بل إن الرب ليطلب، منكم كجند المسيح ورسله نشر كلمتي هذه في كل مكان، وإقناع جميع البشر أياً من كانت رتبته أو مركزه، ... المشاة والفرسان، الفقراء والأغنياء، أن يدعموا هؤلاء المسيحيين على الفور، وأن يدمروا هذا الجنس الخبيث ويجلوهم عن ديار أصدقائنا وأراضيهم، لقد أبلغت الحاضر، وليبلغ الحاضر الغائب. فذلك أمر المسيح.

فما أشأمه من خزى، وما أذله من عار لو تمكن هذا الجنس الوضيع الحقير العابد للطاغوت - من هزيمة الشعب المؤمن بالله وصاحب المجد بكلمة المسيح،

قليهب أولئك الذين درجوا على السرقة لأمد طويل ليصبحوا الآن فرسانا ... وليهب أولئك الذين كانوا يقاتلون إخوانهم وذويهم ليقاتلوا بمجد وفخار أولئك الهمج.

ولعل السمة اللافتة في خطاب البابا، على اختلاف رواياته، هي اختفاء افظة "المسلمين" و"الإسلام" تماما، إذ كانت الإشارات إلى "وثني"، و"كافرين"، و"الأتراك"، و"العرب" الذين قمعوا إخواننا المسيحيين وعاتوا فسادا في الأراضي المقدسة". أما السلطات المسيحية فلم تشر إلى مؤلاء حتى بأنهم "مسلمون" - بما الكلمة من دلالة سلبية، إذاً، يتم النظر إلى العدو صراحة، ونعته وفقا لمصطلحات إثنية، أو بأنه كافر، أو بأنه مضطهد المسيحيين، فأي دين يعد، إذاً، من تلك الوجهة، ممارسة وثنية.

مذبحةاليهود

فى ندائه بمجمع "كليرمون" لحملة صليبية، أشار البابا ايربان الثانى، على نحو متواتر، إلى "الكافرين" بأنهم العدو، بيد أن هذا قد يتضمن المسلمين واليهود، وقد كانت معاداة السامية، بالقعل، ظاهرة مألوفة فى أوروبا، حيث اعتبر اليهود، بشكل عام، "قتلة المسيح"، ونتيجة لذلك، وحتى قبل أن يغادروا أوروبا فى مهمتهم،

طافت فرق الصليبيين أراضي واسعة من ألمانيا، ويخاصة وادى "الراين"، حيث خير اليهود ما بين التحول إلى اعتناق المسيحية أو الموت. ووفقا لهذا الشرط، تم قتل نحو اثنى عشر آلف يهودى، فضلا عن قيام عدد من الجماعات اليهودية بعمليات انتحار جماعية لقتل أنفسهم، وذلك على نطاق واسع.

ويذا، فقد أدى نداء البابا إلى تعظيم شأن العنف ورفعته في سبيل الأهداف السامية، كما رسم صورة للعطايا والنعم في الآخرة لقاء قتل جميع غير المسيحيين. كذلك، فمن المذهل أنه بينما لم يضمن البابا المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين في عداد الكافرين، على المستوى الشعبي، إلا أن الكثير من المسيحيين الأوروبيين كانوا ينظرون باقتناع إلى المسيحيين اليونانيين على أنهم كافرون أيضا، خاصة بعد "مذبحة اللاتينيين" التي اقترفت في القسطنطينية في عام ١١٨٧، بعد قرابة مائة عام من الحملة الصليبية الأولى.

وعلى أية حال، فإن الاستجابة الشعبية الواسعة لنداء البابا كان قوامها عدد قليل من الفرسان في مقابل حشود كبيرة من العامة الذين تطوعوا للقيام بالرحلة الشاقة، بما فيهم أعداد كبيرة يفتقرون إلى أية مهارات قتالية، ويجهلون المهام العسكرية الفعلية التى عليهم إنجازها. كذلك، فقد انضم إلى تلك الحشود أعداد ضخمة من النساء والأطفال. ولم تكن تلك الجماعات تعدو إلا أن تكون حشدا من الغوغاء عديمي المهارة، لا ينتظمهم رابط حاكم سوى أحلامهم الرؤيوية بالخلاص، ورغبتهم في الانعتاق من مأسى الحياة اليومية داخل أراضيهم ويلدانهم، ويالفعل، فقد كشفت أفعالهم وأبانت سلوكياتهم أثناء رحلتهم تلك عن طبائعهم وحقيقة شخصياتهم. فقد وجدت تلك "الحملة الشعبية" نفسها منخرطة في مواجهات مع مسيحيين أخرين حتى عند اجتيازهم أراضي مسيحية في البلقان. فعقب عقود مسيحيين أخرين حتى عند اجتيازهم أراضي مسيحية في البلقان. فعقب عقود الأرثونكس الشرقيون ينظر إليهم نظرة دونية ويوضعون في مرتبة أدني. ولقد فطن الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية إلى خطورة تلك الحركات الغوغائية منظلة الإمبراطور البيزنطى في القسطنطينية إلى خطورة تلك الحركات الغوغائية منظلة الإمبراطور البيزنطى في القسطنطينية إلى خطورة تلك الحركات الغوغائية منظلة

العقال، إذ بينما كانوا يتقدمون صوب المدينة، حرص الإمبراطور على جعلهم يسرعون خارج حدود المدينة تلقاء أجزاء الأناضول المسيطر عليها من قبل الأتراك، وما حدث بالفعل أن الكثير من تلك الحشود الشعبية لم تصل أبدا إلى أورشليم، إذ هلكوا جراء الأمراض والمشحقة الهائلة، أو أبيدوا على أيدى الأتراك في القسطنطينية.

أما أولئك الذين دخلوا بالفعل الأراضى المقدسة فكانوا، في غالبيتهم، جاهلين، متخبطين لا يهتدون، مفتقرين إلى وجهة سليمة، متضورين في بعض الأحيان، يأتون بأعمال عنف وحشى خلال غزو المدينة الشرقية بقتلهم لأغلب سكانها، وتدميرهم للمساجد ونهبهم للمدن، كذلك، فقد انخرطوا في العديد من الانتهاكات التي رصدت كأكلهم لحوم البشر على ما ذهب إليه الغربيون أنفسهم:

فقد كنب رادولف من "كاين"، وهو شاهد عيان على ما حدث في معرة النعمان في عام ١٠٩٨، : "في المعرة، قامت القوات بوضع الوثنيين البالغين على قدور تغلى، وقامت بوضع الأطفال في سفود والتهمتهم بعد شيهم".

أما المؤرخ ألبير من "ايكس"، فقد وضع المسلمين في مرتبة الكلاب، إذ كتب:
"لم تأنف قواتنا من أكل لحم الأتراك والعرب المسلمين أمواتا، فقد أكلت الكلاب من قيل".

لقد مثلت تلك الحملة الصليبية "الشعبية" أول مواجهة عسكرية بين الغرب الأوروبي والشرق الأوسط، عدا الأنداس في أقبصي الغرب، حيث امتد الحكم العربي لها طبلة ثمانية قرون. كذلك، فقد أرخت الحروب الصليبية لغزو الغرب الأوربي لإقليم الشرق الأوسط بما له من آثار قائمة حتى الآن.

أما في الحملات المتأخرة، فقد لبي نداء الذهاب إلى أورشليم فرسان أكثر دربة وحنكة. بيد أن تلك القوات العسكرية ذات الخبرة نفسها كانت مصدر تهديد لبيزنطة بقدر ما كانت كذلك للمسلمين : فقد كانت تصول وتجول في أرض بيزنطية،

ولكن بعيدا عن سبطرة بيزنطة. وسرعان ما تحققت مخاوف بيزنطة في الحملة الصليبية الرابعة،

فحين وطئت أقدام الحملة الأولى أراضى أورشليم في عام ١٠٩٩، فإن ذلك الغزو كان عملا وحشيا عنيفا، في تناقض صارخ مع الكيفية والسلوك الذي فتح بهما العرب المدينة قبل نحو خمسة قرون، فقى عام ١٦٧، ترد إلى الأذهان كيف بخل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بنفسه المدينة بعد حصار دام لعدة أشهر، وكيف حافظت القوى العربية على انضباطها العسكرى، وكيف لم تنهب المدينة أو تسلب، وذلك وفقا المعاهدة التي أبرمها الخليفة مع بطريرك أورشليم حين استلامها، وفيما يرتبط بالنصارى، فقد جاءت المعاهدة لتؤكد على:

أن تترك الكنائس والصوامع ودور العبادة كما هي، فلا تسلب، ولا يتم تدميرها، ولا تتعرض لأى انتقاص أو حط من قدرها، وكذلك الأمر بالنسبة للصليب والأموال، ولا يجبر النصارى على ترك دينهم وتغيير ملتهم، وألا يؤدى أحد منهم أيا من كان".

وقد أشارت المصادر اليهودية إلى أن الخليفة عمر بن الخطاب قد راعه ما آل إليه المعبد البهودي من دمار، إذ صارت أطلاله تؤوى ركاما من النفايات خلال العهد الروماني، فالموقع له قدسيته أيضا لدى المسلمين. ويذكر أن الخليفة ذاته، وبمعاونة رجاله، قد قام بتنظيف المكان بيديه، وقد سمح لليهود بممارسة عقيدتهم وطقوسهم الدينية في المدينة للمرة الأولى منذ أن طردهم الرومان منها قبل نحو خمسة قرون.

على أن دخول المحملة الصلببية الأولى أورشليم في عام ١٠٩٩ كان مضتلفا تماما. فقد حارب اليهود، الذين خشوا قدوم الحكم المسيحى، جنبا إلى جنب مع المسلمين دفاعا عن المدينة، ولكن بلا جدوى، فبعد حصار طويل ومكلف، دخل الصليبيون المدينة في الخامس عشر من تموز/يوليو، وقاموا، خلال أربع وعشرين

ساعة فقط، بقتل كل سكانها -الرجال، والنساء، والأطفال، والمسلمين، واليهود، ومعظم المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين- وكان عدد القتلى نحوا من ستين ألف فرد، بمن فيهم آلاف اليهود الذين لانوا والتجاوا إلى معبدهم، وآلاف أخر من المسلمين في المسجد الأقصى، وقد أشارت دائرة المعارف الكاثوليكية، في تقدير محكم لها، إلى أن "المسيحيين قد دخلوا أورشليم من كل الجهات، وذبحوا أهلها دونما أدنى اعتبار لأعمارهم، ودون تفرقة بين رجل أو امرأة".

وقد كتب فواشر من شارتر، وهو صليبي شارك في تلك الحملة "حقا، فإذا ما كان لك أن تشهد ما جرى، ارأيت أقدامنا وقد اصطبغت بلون دماء القتلي- واكن، من أبن أبدأ روايتي؟! فلم يترك ساكن من أهل المدينة إلا وقتل، حتى النساء والأطفال لم ينجوا من تلك المذابح".

وتوجد العديد من الروايات الأخرى حول العنف والوحشية المفرطة التى أنزلها الصليبيين بالمدن الإسلامية وأهلها في طريقهم إلى أورشليم. على أنه لمن السذاجة الاعتقاد بأن مظاهر الوحشية والدمار كانت حكرا على طرف واحد دون غيره، فالحروب على مر العصور تتسم بالوحشية. إذا، فلا يفهم من إيرادنا هنا لبعض من الروايات المنتقاة أن الصليبيين كانوا أشرارا، فيما كان المسلمون مجرد ضحايا أبرياء. ولكن القوى الأوروبية، أنذاك، كانت بالفيعل تجتاح القلب من الشرق الأوسط. وكانت تلك هي بداية تاريخ طويل من التحل الأوروبي المسلح في الشرق الأوسط لقرون عديدة لاحقة، إن العقلية الدموية للصليبيين أنفسهم نادرا ما يشار إليها في الأقاصيص الشعبية عن فروسية الصليبيين وشهامتهم. كذلك، يوجد تناقض صارخ بين المناحي الدينية والقانونية فيما بين الفتح الإسلامي لأررشليم في عام ١٩٩٠، والاجتياح المسيحي لها في عام ١٩٩٠، فالمسلمون، وفقا للعقيدة الإسلامية، مطالبون باحترام مكانة اليهود والمسيحيين داخل المجتمعات الإسلامية، وهر ما قاموا به، على نحو كبير (بالرغم من وجود حالات أخرى، بطبيعة الحال، لم يراع المسلمون فيها التقيد والالتزام بتعاليم دينهم)، ويالمقابل، قلم يكن المسيحيون

مطالبين، وفق عقيدتهم، باحترام مكانة اليهود والمسلمين داخل المجتمع المسيحى، وبالفعل لم يقوموا باحترامها. وأخيرا، فالغرب بحاجة إلى أن يفطن إلى الرؤية العكسية للمسلمين بشأن ما يروى عن تلك الحملات من جانب الصليبيين، إذ ما تزال رواياتهم ذات الوجه الآخر بشأن أحداث تلك الحملات تهيمن على الثقافة الإسلامية إلى اليوم.

الحملة الثانية

إذا كانت الحملة الصليبية الأولى تعرف "بالحملة الشعبية"، فإن ما ميز الحملة الثانية هو مشاركة العديد من الملوك الأوروبيين فيها، حيث سعت لمزيد من التوسع عما أحرزته الأولى. إلا أن النتائج عسكريا كانت مخيبة للأمال، إذ دحر الأتراك السلاجقة معظم الجيوش الملكية في آسيا الصغرى قبل أن يصلوا إلى الأراضي المقدسة. وكما كان الوضع في الحملة الأولى، فقد أدى التوغل للستمر لجموعات جديدة عديدة من القوات العسكرية الغربية داخل الأراضي البيزنطية إلى تزايد مخاوف بيزنطة وارتيابها في نوايا الصليبيين ، وقد عمد الإمبراطور، ثانية، إلى تعطيل دخول الغربيين إلى الأراضي البيزنطية، ثم قام يحشدهم وإخراجهم بأقصى سرعة عبر البوسفور وفي الطريق جنوبا عبر الأراضي ذات السيادة التركية. وقد عامت القوات المليبية القادمة من صقلية، في تلك الأونة، بسلب العديد من المدن قاميائية، وذلك في أثناء رحلتها صوب الشرق، مؤكدة بذلك مخاوف بيزنطة بشأن نواياهم الحقيقية.

وفى النهاية، فشل الصليبيون فى الاستيلاء على دمشق، باعتبارها هدفا رئيسيا ومحطا للأنظار، ولم يكن الحملة الثانية بذاتها شأن يذكر، ويذهب برئار من كليرفو إلى أن خطايا الصليبيين هى التى أدت إلى إخفاقاتهم، أما ثالثة الأثافى، فكانت حين وحد القائد المسلم صلاح الدين الأيوبى القوى المسلمة بالمنطقة فى عام ١١٨٠، وقام باستعادة أورشليم من أيدى الصليبيين،

الحملة الثائثة

لقد أدت استعادة المسلمين الصادمة لأورشليم إلى توحيد أوروبا في حملة صليبية ثالثة. وقد كانت استعادة صلاح الدين لها شبيهة جدا بأحداث سقوط المدينة في أيدي المسلمين في عام ١٣٧ بقيادة الخليفة عمر بن الخطاب، إذ لم يلحق أهالي أورشليم المنييين من المسيحيين إلا نزرا يسيرا من الضرر بعد دخول المسلمين المدينة، وهو الأمر ذاته حين فتح الخليفة لها، كذلك، فلم يتم المساس بالفالبية العظمي من كنائس المدينة، كما تمت مطالبة الصليبيين بدفع قدية للمسلمين. ومن الأمور التي ميزت الحملة الثالثة مشاركة الكثير من الرموز الملكية البارزة، كريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا، وفيليب الثاني ملك فرنسا أنذاك. وقد تحققت المخاوف والشكوك البيزنطية المستمرة، حين استولى ريتشارد، في طريقه إلى البلاد المقدسة، على قبرص وانتزعها من قبضة الإمبر طورية البيزنطية- كذلك، فقد تهاوت النزاهة المزعومة للأوروبيين، وكذا ما روج له من تعاطف ومشاعر إنسانية لديهم ... حين وعد ريتشارد، أثناء حصاره لعكا، جميع المراطنين المسلمين بإعطائهم الأمان إن هم استسلموا، إلا أنه قد عمد،حين سقطت المدينة واستسلم أهبها، إلى قتلهم جميعا. ويعد إخفاقه في استعادة أورشليم، أبرم ويتشارد اتفاقا مع صلاح الدين يقضي بتنظيم شروط ضمان انتظام قيام المسيحيين بالحج إلى المدينة،

الحملة الرابعة

كانت الشكوك الدائمة التي ساورت "اللاتين" و اليونان ، كل منهما تجاه الآخر، وذلك خلال الحملات الصليبية الثلاث الأولى لتبلغ الآن أوجها. فقد نجم عن الحملة الرابعة العديد من الأحداث التي اكتنفها العار، وما زالت تحيا في ذاكرة اليونانيين بما اصطبغت به من خزى وشنار، في تجاهل مهمة تحرير أورشليم وإعادتها إلى حظيرة المسيحية مرة أخرى تجاهلا تاما، قام الصليبيون في عم

17.8 بترجيه اهتمامهم بعيدا عن أورشليم، وبالمقابل قاموا بالهجوم على القسطنطيئية ذاتها لمدة أعوام عديدة تحت شعار الكنيسة الرومانية، وقاموا بسلب المدينة واحتلالها وتصريف الحكم بها، وكانت هذه، بحق، جائحة حضارية ... لحظة الافتراق السيكولوجي الأخير بين الشرق والغرب، وما انطوت عليه من أصداء لا حصر لها استمرت إلى يومنا هذا.

وحقيقة الأمر، فلم يوافق البايا "اينوسنت" الثالث أو يبارك مطلقا أي هجوم على القسطنطينية، على أن رجال الدين "اللاتينيين" القريبين من المشهد كانت تجاذبهم نوازع أخرى، مثل حب المال، والطمع في امتلاك السلطة، والرغبة في تجاهل رؤية البابا وتجاوزها، وهنا، فإن المؤرخ اليوناني المعاصر الشهير، سبيروس فريونيس، يصف هجوم الصليبيين على القسطنطينية، في السطور التالية :

"قام الجنود" اللاتينيون" بتعريض أعظم مدن أوروبا إلى موجات من النهب والسلب لا يمكن وصفها، فعلى مدار ثلاثة أيام، قاموا بالقتل والاغتصاب والنهب والتدمير، إلى الحد الذي كان سيجعل الوندال والقوطيين أنفسهم غير مصدقين ما جرى بالفعل، فقد أضحت القسطنطينية متحفا حقيقيا للفن القديم والفن البيرنظى، وسوها كبيرة لتروات طائلة، إلى الحد الذي جعل اللاتينيين مذهولين مما وجدوا من ثروات عميمة. ويالرغم من تقدير أهالى البندقية الفن الذي اكتشفوه ومحافظتهم عليه ما أمكنهم إلى ذلك سبيلا (فقد كانوا أنفسهم أشباه بيزنطيين)، فقد قام الفرنسيون وأخرون بالتدمير من غير تمييز، ليستريحوا مقتسمين أقداح الخمر، ومنتهكين لأعراض الراهبات، فضلا عن قتلهم لرجال الدين الأرثوذكس، ولقد نفس الصليبيون عن كراهيتهم لليونانيين، على نحو كبير، بانتهاك قدسية أكبر كنيسة في المسيحية، فلقد قاموا بتحطيم الحاجز الأيقوني الفضى الذي يفصل المذبح عن الجرء الأساسي للكنيسة، وتحطيم الأيقونات وإتلاف الكتب المقدسة في آيا صوفيا". كذلك، فقد أجلسوا على الكرسي البطريركي بغيا تؤدي أغاني رديئة في حين كانوا بحتسون الخمر في آنية الكنيسة المقدسة.

إن مشاعر العداء بين الشرق والغرب، والتي تواصلت حلقاتها عبر القرون، قد بلغت ذروتها في المذبحة المروعة التي صاحبت غزو القسطنطينية، فقد كان اليونانيون على يقين بأن الأتراك أنفسهم، إذا كان قد كتب لهم الاستيلاء على المدينة، فلن يكونوا بمثل وحشية أولئك المسيحيين اللاتينيين وعنفهم، لقد أدت هزيمة بيزنطة، والتي كانت بالفعل تشهد انحسارا وتراجعا، إلى التعجيل بالفساد السياسي الذي نجم عنه أن أضحى البيزنطيون، في النهاية، فريسة سهلة أمام الأتراك، إذا، فقد آدت الحملات الصليبية إلى انتصار "الإسلام" ... وهي نتيجة كانت، بالطبع، على النقيض تماما مم كانت النوايا معقودة عليه بادئ الأمر".

كان ألبابا اينوسنت الثالث يدرك تماما ما انطوت عليه تلك الهجمات اللاتينية على القسطنطينية من عواقب مستقبلية كارثية ... ذلك البابا الذى كان طموحه، فى الأجل الطويل، أن يعيد أواصر الوحدة واللحمة الكنسية ما بين الشرق والغرب، والرحت لوائه وقيادته. بيد أن نهب القسطنطينية قد أبطل أية إمكائية لإحداث مثل ذلك التقارب لفترة امتدت إلى نحو ألف عام، وهو مدى زمنى لم يكن ليدركه حينها، فكما كتب البابا نفسه:

"كيف يمكن إعادة الكنيسة اليونانية، التي ابتليت بمثل هذا الاضحهاد، إلى الوحدة مع الكنيسة اللاتينية أن تكريسها الكرسي الرسولي (البابوي)؟ إذ لم تشهد من اللاتينيين سبوي نموذج الخراب والدمار والأفحال الظلامية إلى الحد الذي تمقتهم معه بأكثر مما تمقت الكلاب. ذلك لانهم من يفترض أن يخدموا رسالة المسيح لا أن يخدموا مصالحهم الخاصة، هم من توجب عليهم إشهار سيوفهم بوجه الوثنيين، تقطر سيوفهم من دماء المسيحيين. إن اللاتينيين لم يحفظوا الدين، ولم يعبأوا بالاعتبارات العمرية وقروق النوع، إذ مارسوا الرذيلة والفاحشة على الملأ، يعبأوا بالاعتبارات العمرية وقروق النوع، إذ مارسوا الرذيلة والفاحشة على الملأ، ويمرأي ومسمع من العامة، تاركين العقائل، بل والراهبات نهشا ونهبا لبذاءة قواتهم الوحشية وقحشها، قبالنسبة لهم، لم يكن يكفيهم استنزاف ثروات الإمبراطورية وسرقة المشريف والوضيع ... بل كان عليهم بسط أيديهم على كنوز

وثروات الكنيسة بانتزاع النفائس الفضية من لذبح وتحطيمها إلى قطع لاقتسامها فيما بينهم، ناهيك عن انتهاك حرمة الكنيسة ومقسساتها واجتثاث الصلبان والتذكارات المقدسة".

بعد ذلك، عمد الصليبيون إلى تنصيب مطران في المدينة. وفي هذه الأثناء، وفض المواطنون مرشح الصليبيين لاعتلاء سدة الإمبراطورية وانفجر الغضب الشعبي ضد اللاتينيين، إلا أن ذلك لم يمنع أن يعتلي إمبراطور لاتيني العرش في القسطنطينية ليحكم الإمبراطورية لمدة سبعة وخمسين عاما، إلى أن سقطت المدينة في أيدى البيزنطيين في عام ١٢٦١ . ولم تنس الكنيسة الأرثونكسية أيا من تلك الأحداث أو تغفر لمرتكبيها فعلاتهم، كما رفضت الجهود المتعاقبة لإحلال تسوية أو تأسيس اتحاد ثيولوجي بواسطة البابا في أزمنة متفاوتة أعقبت نهب القسطنطينية. وقد صدرت أعلى الاعتراضات صوتا عن الرأى العام بالمدينة، الذي كان ليحط من قدر أي قس أرثونكسي لمجرد التفكير في التفاوض بشأن شروط محتملة الوحدة وفقا لإملاءات روما.

وبعد ذلك بنص ثمانية قرون، وتحديدا في عام ٢٠٠١، أعرب البابا يوحنا بولس الثانى للكنيسة الأرثوذكسية عن مشاعر أسفه خلال زيارته الأولى لأراض أرثوذكسية ... رومانية. وأخيرا، وفي عام ٢٠٠٤، تم قبول اعتذار البابا من قبل البطريرك المسكوني "بارتلميو الأول". وتشكل تلك المبادرات خطوات أولية هامة لتضميد جراح العلاقات الشائكة والمحتقنة فيما بين الشرق والغرب، والتي يعود تاريضها إلى قرابة الألفي عام. إن المواجبهات ما بين روما والقسطنطينية خلال الحروب الصليبية لتحتل أهمية لا تقل في المرتبة عن تلك التي تحتلها المواجهات فيما بين الإمبراطورية الشرقية من جهة، و"المسلمين" من جهة أخرى، بل غالبا ما تبرها، إذ تصدر عن رفاق مسيحيين كما تبدى ظواهر الأمور. إذاً، فقد أحدثت تلك الحروب الصليبية صدعا عميقا في العلاقات ما بين الكنيسة لشرقية والكنيسة الغربية، والذي ربما فاق مشاعر الغضب الذي تثرت بنوره، أنذاك، بين العالمين الغربية، والذي ربما فاق مشاعر الغضب الذي تثرت بنوره، أنذاك، بين العالمين

الغربى والإسلامى ... تأنك الظاهرتان اللتان لا يزال العالم يعانى إرثهما إلى اليوم.

نظرةفاحسة

كان اهتمامنا، إلى الآن، منصبا على المظهر الديني المعن الصراعات ما بين الغرب والشرق والعالم الإسلامي. دعونا، إذا، نتناول التفسيرات البديلة للأحداث ذاتها والتي لا تنطوى على بعد ديني، تشير الحقائق التاريخية إلى وجود قوى هامة أخرى، كالنزعة إلى يسط النفوذ والهيمنة الغربية بالخارج، والتأثير القوى التطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في أوروبا، فلو لم يكن ثمة "إسلام" - كونه الأساس المنطقي والمبرد الظاهري المغامرة الصليبية برمتها - أكان يمكن الشكل ما من الحملات الصليبية الغربية ضد الشرق آن ترى النور؟

لماذا تكون بعض الدواقع الدينية المعلنة للقوات الصليبية الغربية، في جانب منها، موضعا للشك والارتياب؟ أولا: فإن الزمن الذي شنت فيه تلك المملات يبدو غريبا وان أورشليم قد سقطت في أيدي قوات المسلمين في عام ١٦٨، بينما استحثت الحملات الصليبية الخطى استجابة اسقوط المدينة وكردة فعل بعد وقوع الحدث بخمسمائة عام، ولم تكن تلك المرة الأولى التي تفقد فيها المسيحية أورشليم بسقوطها في أيدي غير المسيحيين: إذا قامت الإمبراطورية الساسانية الزرادشتية في بلاد فارس بالاستيلاء على المدينة في عام ١٦٤، وحرقت كنيسة القيامة، وقامت بالاستيلاء على المدينة ثانية، وبعد ذلك بعدة سنوات، وتحديدا في عام ١٢٩، استعاد البيزنطيون المدينة ثانية، لتقع في أيدي القوات العربية بعدها بتسعة أعوام، المستجابة الصليبية لما جرى،

وخلال فترة الحكم الإسلامي، مارس المسيحيون واليهود شعائرهم وطقوسهم التعبدية، في الجزء الأعظم منها، بسلام وأمان في أورشليم، فضلاعن انتظام رحالات الحجيج المسيحيين إلى المدينة، وقد تم خرق ذلك التعايين السلمى لمدة وجيزة عند نشأة الدولة الفاطمية الشيعية، وانتقالها لحكم مصر في بدايات القرن الحادي عشر الميلادي، حيث أمر الخليفة الفاطمي الجديد بتدمير الكنائس وهدم المعابد في أورشليم، بما فيها كنيسة "القيامة". وقد أحجم الفاطميون لاحقا عن سياسة الاضطهاد تلك حين أدركوا حجم المنافع الاقتصادية والمالية الكبيرة التي ستعود على الدولة من السماح بإعادة بناء دور العبادة، واستثناف مسيرة رحلات الحج، وتدفق الحجيج إلى الأراضي المقدسة دونما عوائق، وعلى أية حال، فلعل تلك الفترة الوجيزة التي اصطبغت بمشاعر عدائية، وبمظاهر من عدم التسامع – قد أشعلت في الغرب شرارة نيران بدت خامدة، وحركت المياة الراكدة لقضية طال النظر إليها لقرون عديدة على أنها ساكنة هادئة،

أما في الغرب نفسه، فقد كانت ثمة قوى فاعلة جديدة أسهمت كمحفر الجتماعي لمندشين الحملات الصليبية. فقد شهدت أوروبا قرونا طويلة من تعاقب الغارات الداخلية المدمرة، فضلا عن المناوشات، بل والحروب الصريحة فيما بين مختلف القبائل الهمجية ،لتي غرث وطافت أوروبا طمعا في الأسلاب. وفي الوقت ذاته، فقد ولدت الهجمات الانقضاضية على أوروبا على يد الهنغاريين وقبائل الفايكنغ – الحاجة إلى أعداد كبيرة من الفرق المحاربة الدفاع عن حدود أوروبا الفايكنغ – الحاجة إلى أعداد كبيرة من الفرق المحاربة الدفاع عن حدود أوروبا للمناء وبمرور الزمن، وبتقلص وتيرة التهديدات الخارجية، انحسرت الحاجة إلى تلك لجماعات المسلحة على نحو كبير، إلا أنهم استمروا في تطوافهم وقتالهم ابعضهم لبعض، إلى جانب نهبهم المدن، وانتهاكهم النظام العام، وقد جاهد البابا طويلا، واستوات عديدة، لإيقاف هجماتهم ضد الأهالي، ووضع حد احروبهم المدرة فيما بينهم، إذاً، فقد كانت هناك حاجة إلى متنفس لتصريف طاقاتهم العدوائية التوسعية. وفي تلك الأثناء، كانت الهجمات الصليبية ضد المسلمين قد أضحت مالوفة من خلال حملات الفرسان المسيحيين شمالي الأنداس ضد الإمبراطورية الإسلامية في الجنوب، والتي طال حكمها البلاد طويلا، (إلا أن طرد المسلمين

واليهود من الأندلس لم يتم إلا بعد نهاية الحروب الصليبية بزمن طويل، وتحديدا في عام ١٤٩٢).

وفي خطابه بكليرمون، ألم البابا ايربان الثالث إلى الحاجة لأن "يهب أولئك الذين درجوا على السرقة لأمد طويل ليصبحوا الأن فرسانا". ونحن ندرك جيدا ما للبلاغة الخطابية الدينية المشتعلة حماسة من أثر فاعل في استنهاض الهمم واستنفار الحملات العسكرية ضد الأعداء أينما كانوا ومهما بعدواء إن الرمزية الدينية "للكافرين" -دون "المسلمين"- وكون أفعالهم تعد إساءة للرب، لتعطى القاعدة وترسى الأسباس العاطفي والأيديولوجي الرئيسي لشن تلك الحروب الخارجية. كذلك، فقد ناشد البايا المسيحيين مطالبا إياهم بالتضامن مع إخوانهم من مستيحتين الشترق الأوسط، والذين انتهى الصال بهم بالفعل بأن يتبصوا، هم والسلمون، بأيدى تلك الفرق الصليبية. إذاً، فماذ، كانت النواقع الرئيسية التي حركت الضالمين في تلك الحروب؟ لقد كان هؤلاء أطيافا شتى ومشارب عدة. أما البيرتطيون، فقد انتزعت الأراضى المقدسة من أيديهم بواسطة العرب المسلمين في القرن السابع الميلادي، كما انتزعت منهم أراض أخرى لصالح المسلمين حين انحدر الأثراك السلاجقة في قرون لاحقة من آسيا الوسطى، وتوغلوا في أعماق الأناضول، مما أدى إلى تقلص حجم الإسبراطورية البيرنطية. وقد كانت القسطنطينية، أنذاك، في مسيس الحاجة للعون العسكري لمواجهة الجيوش التركية والعربية، وطالنا وإن شطر الغرب لطلب المدد للنود عن حياض المسيحية والذب عنهاء بيد أننا قد رأيناء أنفاء كيف تحققت بالكامل شكوك بيزنطة للبررة تماما فيما يتعلق بنوايا الغرب المقيقية. وقد احتضن العديد من الملوك الفريبين، فضلا عن الباباء الأمل في إضعاف شبوكة الحكم البيرنطي اليوناني، وإعادة رمام إدارة الإمبراطورية الشرقية إلى أيدى "اللاتينيين"، أي إلى "قبضة روما". إذ إنه لو قدر لربما أن تنجح في انتزاع الأراضي المقدسة من براثن الحكم الإسلامي، فحيثها لن تكون فقط قد أعادت المسيحية إلى ذلك الإقليم، بل ستكون حصنا لتوسع قوتها ضد القسطنطينية ذاتها ومن ذا الذي كان بإمكانه التكهن بأن يؤدى ذلك إلى إعادة توحيد الإمبراطورية المقسمة، وذلك تحت رعاية روما الكاملة هذه المرة؟ إذاً، أم تكن القسطنطينية، في سعيها لاجتذاب مناصرة الغرب لها ضد المسلمين، تدعو الثعلب لحماية حظيرة الدجاج؟!

كذلك، فقد كان هناك العديد من العوامل الاقتصادية. إن المدن التجارية الكبرى، كالبندقية وجنوا، كان لها نصيب كبير ودور بارز في تنامي وتيرة النشاط العسكرى شرقى المتوسط. وقد مثل ذلك صفقة رابحة لكلا الطرفين تحت شتى الظروف، إذ سيبلغ الطلب على السفن والمؤن والإمدادات اللوجيستية أقصى حدوده، علما بأن تبنك المدينتين مؤهلتان، بجدارة، للقيام عن طيب خاطر وياقتدار بدور الوسيط فيما بين الأطراف المتقاتلة.

وفى أثناء الحملة الصليبية الأولى، انبثقت احتياجات جيوبوليتيكية إضافية، فعد أدى الاستقرار الاجتماعى المتزايد فى أوروبا إلى نشأة ارستقراطية قتالية أوروبية جديدة، كانت نواة الحملة الصليبية الملكية وعصيها، فعقب وصواهم إلى المشرق، قام بعض الأمراء الأوروبيين بتأسيس أربع ممالك مستقلة اهم على أراض إسلامية بامتداد ساحل المتوسط من أسب الصغرى، وحتى الأراضى المصرية. وقد مثلت تلك المالك، والتى عرفت بالإمارات الصليبية، وهى : أورشليم، وأنطاكية، والرها، وطرابلس – ربما النمط المبكر من الكولونيائية الأوروبية الفعلية فى قلب إقليم الشرق الأوسط، وبينما كانت حدود تلك الممالك وثرواتها ما بين مد وجزر من معركة إلى أخرى، فقد استمرت ثلاث منها تحيا كإمارات صليبية لما يزيد عن - ١٥ عاما، لتسقط جميعها فى النهاية فى قبضة الجيوش الإسلامية. كذلك، فقد عن - ١٥ عاما، لتسقط جميعها فى النهاية فى قبضة الجيوش الإسلامية. كذلك، فقد كان إنشاء قوة صليبية لاتينية فى تلك المالك المستحدثة يعنى، عرضيا، طرد كان إنشاء قوة صليبية لاتينية فى تلك المالك المستحدثة يعنى، عرضيا، طرد البطاركة الأرثوذكس من أورشليم وأنطاكية، وهى خسارة فادحة لمركزين دينيين هامين منيت بها الكنيسة الأرثوذكسية.

اذا، فقد كان سقوط الأراضى المهزومة في قبضة المسلمين مبررا مقبولا لمحدث. ولكن، هل كان ثمة شك في أن المغامرين الأوروبيين، في لحظة زمنية ما، لم يكونوا ليقوموا بأنشطة استيطانية وتوسعية مماثلة في الشرق الأدنى، إذا كانت المنطقة بأسرها قد سقطت في أيدي المسيحيين الشرقيين، وليس في قبضة المسلمين؟ إن ذرائع أخرى كانت لتساق، خاصة وقد كانت شتى القوى الملكية الأوروبية تتقدم لتتنزع أجزاء من الأراضى البيزنطية في الوقت ذاته. ويحق، فقد كان يمكن أن تتخذ المذبحة اللاتينية كمبرر جيد إذا لم تكن أهداف المسلمين الأكثر وضوحا وجلاء قائمة حينها، وبعبارة موجزة، فإن القوى الأوروبية كانت تامة التسليح، موفورة العتاد في تأهبها للانطلاق أينما وجدت. كذلك، كان من المستبعد تماما تصور إعداد حملة صليبية تحت لواء الكنيسة اللاتينية وإرسالها لمواجهة تماما تصور إعداد حملة صليبية تحت لواء الكنيسة اللاتينية وإرسالها لمواجهة الكنيسة اليونانية، والتي كانت مزدراة من قبل الأولى. وبالفعل، فقد وقع هجرم على الكنيسة الشرقية خلال الحملة الصليبية الرابعة، بيد أن الهدف المعلن كان، بالطبع، مواجهة ما هو إسلامي.

ولقد كان التبادل الثقافي والتفاعل الحضاري فيما بين الإسلام والغرب ينحو لأن يكون محدودا بعض الشيء نظرا لتمسك الطرفين بتراثهما والتصافهما يمجتمعاتهما، وقد كان الصليبيون مشدوهين بما بلغته الحضارة الإسلامية من رفعة وازدهار، كما أعجبوا بغنون الإسلام الرفيعة ومنتجاته النسجية، والتي كان لها جميعا تأثير جلى في فنون أوروبا وإبداعاتها، وبينما كان ينظر إلى المسلمين، يصفة عامة، على أنهم 'كافرون'، انبثقت وسط تلك النظرة أسطورة راجت في أنحاء الغرب بشأن القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي، الذي استعاد أورشليم. فقد كان ينظر إليه كتجسيد لصفات النبل والشهامة والفروسية. أما المسلمون، فلم تكن نظرتهم إلى الصليبيين جيدة، إذ اعتبروهم أجلافا يفتقرون إلى التهذيب والصفل، نوى رائحة كريهة تنبعث منهم، غير معتادين على ما درج عليه المسلمون من استخدام 'الحمامات العامة' لاعتبارات النظافة وأغراض حفظ الصحة، كما عدوهم

أفظاظا في سلوكياتهم ومعاملاتهم.

كذلك، فمن المثير ملاحظة أن الحملة الصليبية الأولى قد شهدت أول استخدام للمناداة باعتماد "الجهاد" وتبنيه من قبل السلمين لصد الغزاة الغربيين، ونشأ ذلك الاستخدام وفقا لما ذهب إليه "على بن طاهر السلمي" -وهو عالم شرعي وفقيه لغوى دمشقى- إذ لم ير الصليبيين بمعزل عن، بل كجزء من، تهديد خطير للحضارة الإسلامية، خاصة وأن تلك الحملات قد تزامنت مع الصراع المستمر الذي دارت رحاه على أرض الأندلس بين الولايات المسيحية الصليبية، وبين تلك الإسلامية، وكانت الحروب الصليبية قد شهدت أول مواجهات متوالية فيما بين المسلمين والغربيين على أراض إسلامية، أما قبل ذلك، فقد واجهت القوات المسلمة، على وجه العموم، شعوبا شرقية كان أفرادها يعملون كمرتزقة بيزنطيين. ولقد كانت بيزنطة ملء السمع والبصر، ولكن العالم الإسلامي كان يشرع، بالكاد، في اعتبار التحدي ذي الصيغة الأشمل من قبل الغرب الأوروبي، وكما أرجع البابا مسئولية هزيمة الصليبيين في الحملة الصليبية الثانية إلى خطايا الصليبيين أنفسهم، فقد عزا "السلمي" هزيمة المسلمين خلال الحملات الصليبية إلى ابتعاد المسلمين عن جوهر الدين الحق، وطالبهم أولا "بالجهاد الداخلي" أو "الجهاد الأكبر"- يضبط النفس وإعلاء القيم الروحية فوق غرائز الإنسان الدنيا للتمكن من قيادة حرب إسلامية تاجحة (جهاد) ضد الصليبيين، وقد صور كلا الطرفين الصراع فيما بينهما على أنه حرب مقدسة متعامين عن مظاهر الصراع الجيوبوليتيكية، واقد تجاهل القادة المسلمون نداء "السلمي" للجهاد، ولم يتم الالتفات إلى ذلك "المنظلج"، وربطه بالغزوات العسكرية إلا بعد سنوات عديدة من الحروب الصليبية، حين جسد القائد صلاح الدين تلك الرابطة.

الحروب الصليبية الشمالية

إذا كان ثمة شك حول ماهية الحملات الصليبية وكنهها أو حول طبيعتها التوسعية الشرهة، فإن الجانب السياسى المتسمة به قد اتضع بجلاء فى حملات صليبية أخرى وقعت فى الآونة ذاتها، دون أن يكون لها أدنى علاقة بالإسلام أو المسلمين. فبالتزامن مع الحملة الصليبية الثانية، والتى دارت وقائعها بعد نحو خمسين عاما من الحملة الأولى، انبثق متنفس جديد لتلك الروح الصليبية داخل أوروبا ذاتها قالقبائل الجرمانية التى لم ترغب فى تلبية نداء البابا للزحف نحو الأراضى المقدسة قد علمت أن بوسعها القيام بما عليها من التزامات دينية عن طريق شن حملات وغزوات ضد ما تبقى من قبائل سلافية وثنية فى البلطيق بغرض تحويلها نحو اعتناق المسيحية.

وقد أعلن برنار من كليرفو، المتحدث الرئيسي بشأن خطط البابا الصليبية، أن الحاجة تعن إلى محاربة السلاف الوثنيين إلى أن يتم قتلهم أو قيامهم باعتناق المسيحية، ولكن، بطبيعة الحال، لم تقتصر تلك الحملات على "هداية" الوثنيين، فقد كان الفرسان الجرمان الكاثرليك متحمسين لإزالة الأحقاد القديمة، والتي ارتبطت ببعض الخلافات الإثنية والنزاع على أراض بعينها، مع نظرائهم وشركائهم في الحماسة الدينية المفرطة في بوئندا الكاثرليكية. كذلك، فقد كانت مملكتا الدائمرك والسويد المسيحيتان متحمستين لبسط نفوذهما جنوبا في منطقة البلطيق، فحتى روسيا المسيحية الأرثوذكسية كانت هدفا لهماء وكنتيجة لتلك الحملات الصليبية المتعددة، "فإن شرق البلطيق قد شهد تصولات جراء تعرضه لتلك الحملات الصليبية المسكرية.

فقد تعرض الليفوندون اللاتفدون والاستوندون أولا، ثم السلاف والفنلنديون فيما بعد للهزيمة والاحتلال والإبادة على أيدى جماعات من الجرمان والدائمركيين والسويديين".

إذاً، فقد كانت الحملة الصليبية الثانية مبررا دينيا لقيام القرى الجرمانية ببسط نفرذها وإحكام قبضتها الاقتصادية شرقا داخل البلطيق ولقد أصدر البابا يوجين الثالث، في عام ١١٤٧، مرسوما بابويا بخلع قيم روحانية واستحقاقات متساوية على جميع من انخرط في الحملات الصليبية، سواء إلى الأراضى المقدسة أو ضد السلاف الوثنيين.

وفى عام ١٧٤٧، انطلقت كتيبة من الفرسان الجرمان الكاثوليك باتجاه "نوفغورود"، الإمارة الروسية الأرثوذكسية، بالقرب من "سان بطرسبرغ" الحالية، ولكنها هزمت، حيث حوصر عدد كبير من الفرسان الجرمان كثيفى العتاد فى الناوج خلال معركة دارت رحاها على مياه بحيرة "لادوغا" المتجمدة، وقد تم تصوير تلك الواقعة فى الشقافة الروسية الشعبية بأنها واحدة من عدة انتصارات للأرثوذكسية، كهبة من السماء، فى دفاعها عن نفسها ضد قوى الشر الكاثوليكية الغازية — وهو مفهوم وتصور راسخ فى العقلية القومية الروسية. لذا، فحتى فى أوروبا، فإننا تلحظ صراعا جيوبوليتيكيا ثلاثى الأبعاد فيما بين الإسلام، والمسيحية الفريية، والمسحية الشرقية الأرثوذكسية.

والملاحظ، باستدعاء ما ذكر أنفأ، أن البابا هو من دعا إلى كل تلك الحملات والحروب التي امتدت لنحو مائتي عام، فالبابا قد قام بالقعل بالتحريض، ويتوجيه وقيادة التحركات السياسية والعسكرية للأمراء الأوروبيين، ولا نجد مطلقا أدنى تشابه حين مقارنة ذلك بالمرجعيات الدينية الإسلامية ورموزها، والذين تنتفى مشاركاتهم في توجيه أية تحركات للجيرش الإسلامية. (فحين اعتلاء الخليفة لسدة الحكم، وبخاصة خلال القرون القليلة الأولى التي أعقبت نشأة الإسلام، تكون أولى مهامه تدبير الأمر واستخدام نفوذه وقوته الدنيوية). ولا شك في أن العلماء المسلمين قد باركوا الغزوات العسكرية للجيوش المسلمة، إلا أنهم لم يكونوا أبدا المحرضين عليها، أو الموجهين لدفة قيادتها، وهنا تلحظ، كما شهدنا أنفا، كيف ارتبطت الدولة والكنيسية ارتباطأ وثيقاً على امتداد الجزء الأعظم من التاريخ

المسيحى، وهو الأمر قليل الحدوث في التجرية الإسلامية،

الحملات الصليبية في ميزان التاريخ

تجدر الإشارة إلى أن المصادر التى تناولت تاريخ الحملات الصليبية بأى من المات العالم، كانت بالأساس مصادر غربية، فالحملات الصليبية كانت، في مجملها، حروبا غربية خيضت لأسباب غربية وفق سياق سياسي واجتماعي واقتصادي أوروبي، إذ كانت أوروبا، في الحقيقة، مستعدة للقيام بمهمة كبيرة في الشرق قادرة على متصاص وإعادة توجيه جميع الدوافع المتباينة المناخ السياسي والاجتماعي الأوروبي المحتقن، فقد كانت أوروبا الكاثوليكية مستعدة للشروع في حملتها الترسعية المحمومة ضد السلاف الوثنيين، وكذا ضد اليهود والمسيحيين الأرثوذكس الشرقيين، أو المسلمين - وذلك بغض الطرف عن الدين السائد في إقليم الشرق الأوسط آنذاك.

ولقد كان معظم المسلمين ممن كانوا لا يعيشون بالقرب من ملتقى المطرق التى ارتبطت بمسيرة الصملات الصليبية، أو ممن لم ينخرطوا في تلك المصراعات الحربية - يجهلون ما حدث على نحو كبير، وحين اشتعال الحروب الصليبية، لم يكن المسلمون ينظرون إليها على أنها "حدث تاريخي" متلما نظر إليها الأوروبيون وقتذاك، أو كما ينحو الفكر المعاصر إلى رؤيتها الآن، وحتى بالنسبة للمسلمين الذين تضرروا جراء المعارك المتواصلة للسيطرة على سواحل المشرق، فقد كانوا ينظرون إلى "الصليبيين"، أو كما كانوا يعرفون أنذاك "بالفرنجة" - على أنهم فصيل آخر من المرتزقة البيزنطيين، أو تلك الميليشيات الإثنية التي سيقت للخدمة من نخوم الإمبراطورية البيزنطية.

وكانت تلك الفشرة هي التي تدوولت فيها لفظة "الفرنجة" للإشارة إلى الأوروبيين في مجملهم، وما زات تلك اللفظة مستخدمة على امتداد آسيا المسلمة للإشارة إلى الأجانب القادمين من الغرب، أياً ما كانت جنسياتهم وأعراقهم.

وأخيراً، فقد أدت الحملات الصليبية إلى خلق إطار من المواقف والاتجاهات المتبناة من كل طرف إزاء الطرف الآخر، ويصفة خاصة في الغرب. وكما أوردت "كارول هيليتبراند"، الباحثة في الشئون الصليبية:

"إن اتصال الأوروبيين بالعالم الإسلامي واحتكاكهم بالمسلمين كان له أثر في إنعاش ذائقتهم تجاه الكثير من السلع كالعاج والمصنوعات المطعمة بالمشغولات المعدنية وغيرها من الكماليات الواردة من العالم العربي، ولعل أهم المصنوعات التي اشتهروا بها الحرير الدمشقي، والأنسجة القطنية، فضلا عن ضروب أخرى من المنسوجات المخملية كالموسلين والسانان والتفتا...

ولدى عودتهم إلى أوطانهم عقب تلك الحملات التى استهدفت الأراضى المقدسة، انصب حديث الصليبيين على البلدان التى رأوها بما لها من غرائبية وسحر أخاذ. أما ظاهرة "الاستشراق" بداية من القرن الثامن عشر الميلادى وحتى يومنا هذا، وتجلياتها في الأدب والفن الغربيين، والتى تناولها إنوارد سعيد باقتدار في زمننا المعاصر – فقد استقت زادها واستمدت زخمها من تراث الصليبيين، فالعالم الإسلامي كان موطن الصحاري الشاسعة، والمدن ذات الأسوار، والنساء المرتدين الحجاب، والحريم، والخصيان، والحمامات العامة، والأسرار، وما ليس بمألوف من حيوان، كما كان موطن اللغات، والكماليات، والدين المغاير... وبعبارة موجزة، فقد كان العالم الإسلامي موطن الأخطار والغموض الرومانسي".

حين سئل عن رأيه في الثورة الفرنسية، أورد شواين لاي – رئيس الوزراء الصيني الشهير خلال خمسينيات القرن العشرين ملاحظته ذائعة الصيت، "إن الوقت ما زال مبكرا جدا للحديث عنها". إذاً، فلا يني الزمن أن يعكس الأحداث للاضوية وفق أنماط مغايرة، والتي تبوح لنا بالملاحظات المعاصرة كبوحها بأحداث سابقة بعينها. فبمرور الزمن، خضعت الحملات الصليبية للكثير من التأويلات ووجهات النظر، الإيجابية والسلبية. ففي العالم الغربي اليوم، ثمة تزعة ضمن أولئك

نوى التوجه العلماني لرؤية الأحداث على أنها تمثل ذراع التوسع الغربي، واعتبار تلك الحروب صفحة قاتمة من صفحات التاريخ الغرب، أما المراقبون المسيحيون ذوو النزعة المحافظة، فيعمدون إلى تبنى وجهات النظر التي تبرر التوسع الغربي في الأراضى المقدسة كاستجابة للتحديات الخطيرة التي تهددت المسيحية بفعل التوسعات الإسلامية المستمرة حينذاك. إذا، فإن الجدل الدائر الآن في الغرب حول الإسلام يجد جذوره في استحضار الحوادث التاريخية.

وبالنسبة المسلمين، فقد كان التحول في المنظور أكثر حدة وأبعد أثرا. فاليوم، يلقى المسلمون نظرة على الماضي ليروا أن الحملات الصليبية قد اشتمات على أولى بذور النزعة الإمبريالية في سياق السياسات العربية. وقد وصف أسامة بن لادن، ضمن آخرين، الممارسات الغربية الحالية في "الحرب العالمية ضد الإرهاب" بأنها عنوان "صليبي صهيوني" ضد الأراضي الإسلامية. وللأسف، فقد استخدم جورج بوش الابن المصطلح ذاته حين أشار إلى تلك الحروب الصليبية، تلك الحرب على الإرهاب"، في الأسبوع الذي أعقب تفجيرات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر الإرهاب"، في الأسبوع الذي أعقب تفجيرات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر العليبية، قدرة الحملات الصليبية تاريخيا، فقد راعهم استخدام بوش لذلك المصطلح.

كذلك، فلا شك أن رؤيتنا ووجهات نظرنا بشأن الحروب الدائرة حاليا بالشرق الأوسط، يغلب عليها عدم الموضوعية، إذ ترتكن إلى استشعارنا للطرف الذى تأثر واستجاب للاستنفار أو الاستفزاز الأول، فى تتابع ارتدادى لانهائى من إلقاء اللوم وتحديد المسئولية – تلك المشكلة الأبدية السياسة وأحداثها الماضوية، بصفتها مشكلة دائرية قوامها أى العاملين هو السابق، وأيهما اللاحق، إن الإسلام، اليوم، هو اختزال مناسب ومريح لتوصيف التعقيدات الجيوبوليتيكية الهائلة التى انطوت عليها الوقائع الصليبية، كذلك، فإن الحملات الصليبية، اليوم، هى ركن من أركان للنظومة التصادمية فيما بين الشرق والغرب. إلا أننا قد لاحظنا بعضا من أسس المدام قبل نشأة الإسلام، والمتمثل فى الثورات الإقليمية داخل الامبراطورية

البيزنطية ضد القسطنطينية، وقد احتضنت تلك الحركات التصادمية العديد من الرايات والألوية الدينية (الهرطقية) كمحركات ورموز لما كان، في الأساس، منافسة محمومة لامتلاك أسباب القوة واستلاب الأراضى، وقد وجدت هذه المصادمات قبل الإسلام، وزامنت نشأته وتطور مسيرته، وما زالت قائمة إلى الآن في إقليم الشرق الأوسط، فهل يمكننا أن نطرح السؤال: أكان يمكن أن تقع حروب صليبية لو لم يكن ثمة إسلام؟ ريما لم تكن لتقع على النحو ذاته ووفق المسار نفسه، ولكن ريما استطاعت أوروبا الطموح المتململة أن تشق طريقها حثيثا صوب الشرق، في أي من الحالات، إذ قامت، بالفعل، بشن حروب ضد بلدان حدودية أخرى في أوروبا، في أن يكن ثمة إسلام، لكانت المصادمات والمواجهات فيما بين روما والقسطنطينية أكثر مباشرة وأمضى حدة عما كانت عليه بالفعل آنذاك.

أصداء مشتركة: الإصلاح البروتستانتي والإسلام

في ظل تصاعد وثيرة الاضطراب الداخلي والتدخل الأجنبي، استوات مجموعة من الأصوليين على مقاليد الحكم في المدينة الصغيرة وقامت بتأسيس مجتمعها الديني، وإعادة تتمية المدينة وققا النصوص المقدسة. وقد قام زعيم ديني سلطوي متعصب، يدعم وتأييد من أتباعه ومريديه الكثيرين، بتنصيب نفسه على رأس السلطة بالمدينة وأمضى نحو ثمانية عشر شهرا من الحكم الثيرةراطي المعارم، في حين طرح ذلك المجتمع الديني رؤيته عن متطلبات التخلق بالإيمان،

كذلك، فقد قام أفراد المجتمع الجديد باقتسام أملاكهم وأغراضهم مع أولئك ممن كانوا مؤمنين، كما عمدوا إلى تسويغ استخدام العنف ضد "غير المؤمنين". وفشا بين رجال ذلك المجتمع مفهوم "تعدد الزوجات"، وكان البعض لديه أكثر من أربع زوجات، ويالرغم من أن ثررتهم ظلت مهددة لإمكانية تعرضها للحصمار العسكرى من الخارج من قبل الحكام المحليين والذين خشوا من تهديد المجتمع الجديد الشرعيتهم، إلا أن أوائك المتمردين قد طرحوا نهجهم الرئيوى لإرادة الرب السياسية والاجتماعية والدينية يحدوهم الأمل في أن تكون بداية لحركة تبشيرية علي أن ذلك العصيان قد تم إخماده بواسطة تضافر جهود وقوى السلطات الخارجية، وتم تعذيب زعماء العصيان وإعدامهم، ويذا، فقد تم استعادة الوجه الأرثوذكسي للعقيدة الدينية.

لم يكن ما سبق تصويرا لحركة أصولية إسلامية، إذ وقعت تلك الأحداث في

مدينة "مونستر" الألمانية في عام ١٥٢٤، حين كانت حركة الإصلاح البروتستانتي في أوج زخمها، ولقد كانت الحركة وزعيمها من القائلين "بتجديد العماد"، وهي الفصيل الأكثر راديكالية ضمن الفصائل الثلاث المكونة للإصلاح البروتستانتي، أما الفصيلان الأخران فكانا "اللوترية" و"الكالفنية. وقد عمد "مجديو العماد" إلى إعادة تسمية مدينتهم لتصبح "أورشليم الجديدة"، بيد أن ما اتسمت به رسالتهم انطوى عليه منهجهم من راديكالية مفرطة كان كافيا لقيام القوى الكاثوليكية والبروتستانتية (اللوترية) بالاتحاد فيما بينها لتطويق المدينة والقضاء على تلك المعتقدات المنطوية على قتنة وخطر داهمين.

وقد أدت تلك المقاومة العنيفة إلى القضاء نهائيا على حركة "مجددى العماد"، وما ارتبط بها من فورة سياسية. ومثلما حدث للكثير من الحركات الإسلامية عقب تفجيرات الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، فلم يأل زعماء حركة "مجددى

العماد" جهدا لإبعاد الاتهام باستخدام العنف عن أنفسهم، وقد رفض "اللوتريون" والكالفنيون" تماما البرنامج الثورى "لمجددى العماد"، فيما كانت أورويا فى هلع من تلك الحماسة المفرطة وراء "ملحمة مونستر" تلك !! ويالتبعية، أصبح الإصلاحيون البروتستانت، الذين وصموا من قبل بكونهم "راديكاليين" بواسطة الكاثوليك، يبدون أكثر قرباً وتواؤماً مع التيار السائد، وذلك بمقارنتهم "بمجددى العماد". ونستطيع في عصرنا الحاضر أن نميز بعض النظائر لتلك الحالة، ذلك أن الكثير من الأصوليين الإسلاميين قد راعه ما حدث من تفجيرات في الحادى عشر من أبلول/سبتمبر ٢٠٠١، وتوابع تلك الأحداث ... ففي حين أخذت ما اكتنفت عليه الراديكالية الدينية من خفايا سياسية وعسكرية مضمرة – في التبدى، هرع عدد كبير لشجب العنف المعتمد أسلويا، بالرغم من إدراكهم لطبيعة المظالم التي أدت كبير لشجب العنف المعتمد أسلويا، بالرغم من إدراكهم لطبيعة المظالم التي أدت للي قبوير الوضع على النحو الذي جرت أحداثه.

إذاً، ففي كتاب يهدف التجاوز النظرة قصديرة الدى لدور الدين، وتلمس الأسباب بعيدة الغور لما يحدث عن طريق التنقيب في الأحداث التاريخية بالشرق الأوسط، بعن السؤال التالى: لماذا نتناول بالبحث ملف الإصلاح الديني في أورويا، وما أثمره من مستتبعات ونتائج؟ حقيقة الأمر، فإن حركة الإصلاح البروتستانتي تجسد، بطرائق جد متنوعة، الكثير من المفاهيم التي أثرناها أنفا، وتحديدا، الطبيعة السياسية المحض الأحداث، والتي ينظر إليها باعتبارها دينية بالأساس. لكننا نكرر أن الدين هو محرك الاضطرابات والمصادمات السياسية، وليس مسببا لها. فالقادة السياسيون يحاولون إحكام قبضتهم على زمام الدين كوسيلة لتحقيق غاياتهم ومصالحهم الذاتية، إلا أن الأحداث التي صاحبت الإصلاح البروتستانتي تظهر جليا نقيض ذلك، فقد كشفت عما يحدث حين تفقد الدولة أو الكنيسة سيطرتها على مقومات الدين وعناصره، تاركة للأخرين، حتى الدهماء منهم، حرية تعيين مقومات الدين وتحديد ما هو ديني بإعطاء تعريفات ذاتية للدين، والكيفية التي يمكن التعريفية التي يمكن التعريفات المستحدية باع طويل من

النجاح في الإبقاء على العقيدة الدينية، وإحكام الهيمنة عليها على نحو مركزى مسيس، بأكثر مما كان للإسلام، حتى انفرط عقد ذلك خلال حقبة الإصلاح، وما زالت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تسعى لاستعادة تلك الهيمنة.

فإذا لم يكن ثمة إسلام، وكانت الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ما زالت تحكم قبضتها وتمسك بمقاليد الأمور في الشرق الأوسط — لكانت الكنيسة اللاتينية، في روما، فحسب المهددة من قبل الأمراء الألمان نوى النزعة البروتستانتية الناشئة، وكذا من قبل أخرين، في التنافس على حيازة القوة السياسية، وامتلاك الثروات، والتحكم في العقيدة الدينية، كذلك، فالأغلب أن تكون القسطنطينية ما تزال حصنا للأرثوذكسية الصارمة، وإدراكها التام خطورة وضلال، بل وكارثية المسار المتبع من قبل المسيحية في الغرب.

أما الإسلام، فلم يشهد، بطبيعة الحال، أية حركات إصلاحية كالبروتستانتية، وكذا لم يشهد العالم مثل ذلك النمط، وبالنسبة للغرب، فقد كان "الإصلاح البروتستانتي" هزة عنيفة لأوروبا في مجملها، فقد أدى، ضمن أمور أخرى، إلى نشوب حرب "الثلاثين عاما"، والتي كانت إحدى أكثر الحروب دموية في التاريخ الأوروبي قاطبة والتي كان مظهرها دينيا بالكلية، فيما كانت حقيقتها صراعا لاقتسام القوى والنفوذ فيما بين الدول المتحاربة. كذلك، أدى "الإصلاح" إلى تغيير موازين القوى بداخل البلدان ذاتها بإطلاقه للعديد من الطاقات الغاضبة والاتجاهات العنيفة كما حدث في "مونستر" على نحو ما رأينا، ولقد أحدث الإصلاح قلاقل اجتماعية حين حرر الأفراد من قبضة الدولة المركزية وهيمنتها على الإصلاح قلاقل اجتماعية حين حرر الأفراد من قبضة الدولة المركزية وهيمنتها على الابنية، وشجع المزيد من التفكير الفردي الذاتي في المشاكل السياسية والدينية، حين دي، أخيرا، إلى إطلاق بعض الأفكار الراديكالية من عقالها.

وبالمثل، فقد تبنى المسلمون، على امتداد المائة سنة الأخيرة، نهجا جديدا التفكير بشأن العلاقة فيما بين الدين والسياسة، وما يربط بينهما. كذلك، فقد قاموا

بتوليد العديد من القوى المثيرة للقلاقل مثل الانتقادات الحادة الموجهة لأنظمتهم الحاكمة، وتأسيس منظمات جديدة تعمل على يلوغ الأهداف السياسية والاجتماعية المنشودة، بل وصل الأمر إلى حد تبنى استخدام العنف والإرهاب ضد من ينتقون من غزاة وأعداء، بالداخل والخارج، وما تنظيم "القاعدة" إلا قوة من تلك القوى،

ولقد كان "الإصلاح"، وفقا لأوجه عدة، حقبة لدمقرطة الدين، ولا يعنى ذلك أنه قد وجدت أية أنظمة سياسية ديمقراطية بالفعل، بل يعنى تشجيع الأفراد على تدبر النصوص الدينية المقدسة وإعمال العكر فيها، والتفكير، من دون أية مؤثرات أو إيحاءات، في طبيعة الدين ومعناه، وقد كانت تلك، بالفعل، بداية تصاعد المشاركات الشعبية في الشئون السياسية والاجتماعية، بيد أن الفصل الحالي يشير أيضا إلى العواقب الراديكالية التي قد تنجم حين تخترق النزعات الديمقراطية التقاليد الدينية. وترجد بعض الأصداء اللافتة للنظر للراديكالية البروتستانتية في الأصولية الإسلامية – بل وحتى في بعض التأويلات البروتستانتية الراديكالية المعاصرة بشئن المسيحية، وتكون الدولة، وبخاصة الدولة السلطوية، مهددة من قبل تلك الاتجاهات الجديدة نصو المزيد من الأفكار التنويرية والمتحررة بشأن القضايا الدينية، وبالفعل، فهناك ارتباط وثيق ما بين حرية الفكر السياسي وحرية الفكر الديني، إذ يعمل كل منهما على تحرير الآخر.

وتجدر الإشارة إلى أن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لم تشهد أى "إصلاح" قط، الأمر الذي يشير إلى أن الشرق الأوسط بلا إسلام –أى لشرق الأوسط الذي ظل مسيحياً أرثوذكسياً لم يكن، في الغالب، ليصير أكثر علمانية أو رشادة عما قد أصبح عليه في ظل الإسلام. وفي حقيقة الأمر، فإنه من الجلي أن الإسلام قد أصبح أكثر ديمقراطية في العصور الحديثة، وأكثر تضمينا في سياسات العامة عما حدث في الكنيسة الأرثوذكسية (فما إذا كان ذلك حسنا أم لا، فهو أمر من المكن أن يخضع للجدل والنقاش).

وأخيراً، يتناول الفصل بعضا من التأويلات الدينية المتطرفة في المسيحية المحديثة، والتي ما زال أثره ملحوظا في التفكير المسيحي المعاصر، حتى ولو لم يكن اتجاها سائدا، كذلك، توجد هنا أشياه ونظائر مذهلة مع عناصر راديكالية في التفكير الإسلامي، وفي هذا السياق، إذاً، فإن الإسلام ينظر إليه، أقلا فأقل عما كأن ينظر إليه من قبل من كونه ظاهرة شرق أوسطية فريدة واستثنائية، بل أصبح ينظر إليه على كونه جزءا من عملية "التطور الديني" العالمية بما لها من تضمينات يينية. سياسية، أو، على العكس، بأنه جزء من عملية تطور سياسي لها تضمينات دينية.

لقد عصفت حركة الإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر الميلادي بالكنيسة الغربية ونظامها الشامل، إذ يمكن القول بأنها تعد الصدع الأكبر في تاريخ الكنيسة ... ذلك الصدع الذي فاق في قوته وأثاره "الصدع الكبير" ما بين الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والكنيسة اللاتينية الذي وقع قبل ذلك بعدة قرون. وقد جرى ذلك كله داخل أوروبا، ونتج عنه انقسامات حادة لا تزال قائمة إلى اليوم. فالعالم الذي كانت تسيطر عليه عقيدة دينية مركزية في الغرب، قد تم تفتيته مخلفا علاقات جديدة فيما بين الكنيسة والدولة والفرد. فان تكون الكنيسة، وإن يكون الغرب كالعهد بهما سابقا.

إلا أن الإصلاح البروتستانتي لم يكن مفاجئا تماما، بل إن الزمن الذي شهد انطلاقه يفصح في الحقيقة، بجلاء عن طابعه السياسي. فعندما قام الراهب مارتن لوبر" بتعليق عريضة اتهاماته (٩٥ اتهاما وحيثياتها) بحق الكنيسة، وذلك على باب الكنيسة في "فيتنبرغ" في عام ١٥١٧، فقد قام، في الحقيقة، بالنفاذ إلى القلب من مشاحنات دامت قروناً عديدة مع الكنيسة، ولطالما أبدت القوة العلمانية الناشئة حديثا للولايات الألمانية ولبلدان شمال أوروبا - الاعتراضات ضد الممارسات السياسية والهيمنة الاقتصادية التي احتكرتها الكنيسة، ولقد شهدت أوروبا، بالفعل، قرونا عديدة من الصراعات المهينة فيما بين مختلف البلدان رغبة في حيارة الكرسي البابري لمصائحها وغاياتها الذلتية، ولم تكن حركة الإصلاح البروتستانتي

لترى النور، لو كان "مارتن لوتر" مجرد أحد الرهبان القلائل المنشقين الذين يتجادلون بشأن الشولوجيا، فقد كان النجاح الذي توج حركته بسبب الدعم المباشر للأمراء الألمان الذين شاركوه رغبته في تحجيم قوة الكنيسة ونقوذها اللذين استفحلا أنذاك. وبالرغم من كون الاعتراضات دينية الطابع ضد الكنيسة واقعا مشهودا، إلا أنها أضفت غطاء ثقافيا ودينيا على الهجوم ضد هيمنة الكنيسة وفسادها ... ذلك الهجوم الذي كان، في حقيقته، هجوما سياسيا واقتصاديا، وإن تزيا بإهاب ديني، وبعبارة أخرى، فإن هجوم "لوتر" وانتقاداته للكنيسة بشيران بجلاء إلى أزمة بين الدولة والكنيسة لم يكن النظام السياسي مستعدا لمواجهتها في حقب سابقة. أما بطول عام ١٥٥٧، فقد أضحى مستعدا لذلك.

فالإصلاح، في انتقاداته المعتدلة، قد طالب بإصلاح الكنيسة إصلاحاً شاملاً عقائديا وتنظيميا وهرميا، إلى جانب إنهاء هيمنة روما المركزية. إلا أنه بتطور عملية التغيير واللامركزية والتفكير المستقل، انبثقت صيغ للتفكير أكثر راديكالية إلى الحد الذي ذهبت معه بعض تلك الصيغ إلى تحدى الكنيسة، والتشكيك في مصداقيتها ككل، ومصداقية تاريخها وأنشطتها وتعاليمها الدينية وتراتبية السلطات بها، إذ كانت الكنيسة، على حد زعم تلك الصيغ، انصرافا عن المسيحية الحق في بادئ نشأتها،

أما الإسلام، فلا توجد به أشباه لئك العلاقات الوثيقة فيما بين الكنيسة والدولة كما في الغرب، حيث تسيطر الكنيسة بنفسها على القوتين السياسية والاقتصادية للدولة، وبينما يشدد الإسلام ريون اليوم ... أولئك الذين يطالبون باعتماد صيغ الإسلام السياسي، على نحو دائم، على الرحدة غير القابلة التفكيك فيما بين الدين والدولة في الإسلام، فإن هذه الرؤية، في المقيقة، هي بالأساس منيعة أيديولوجية معامسرة: فمهام الدولة وتصريف شئونها في الإسلام كائت على الدوام بعيدا عن رجال الدين، إذ لم يتبوأ أي منهم أية مناصب سياسية قيادية، ولم يشاركوا – البتة – في إدارة حكم البلاد (أما سيطرة رجال الدين على قيادية، ولم يشاركوا – البتة – في إدارة حكم البلاد (أما سيطرة رجال الدين على

مقدرات الأمور السياسية في إيران المعاصرة، فذلك استثناء صارخ كونه بدعة شيعية مستحدثة). وحتى في الملكة العربية السعودية، فإن الأسرة الملكة الحاكمة، في معظم الأحول، لها الباع الأكبر والبد الطولى المهيمئة بالمقارنة بالمؤسسات الدينية هناك.

ويلا شك، فإن شرعية الحكام المسلمين على امتداد التاريخ الإسلامي كانت مستمدة من قيامهم بتطبيق الشريعة الإسلامية في أوطانهم، على الأقل نظريا، بيد أن أولئك الحكام، على مدى أغلب فترات الحكم الإسلامي، لم يلتزموا جديا بروح الشريعة، ونادرا ما كان يعزل أي منهم جراء تلك "الزلة الدينية". فبالفعل، انزلق بعض رجال الدين المسلمين، إبان العصور الوسطى، على نحو غير مقصود إلى القول بجواز إساءة استخدام السلطات السياسية الدنيوية بحجة أن الفتنة أو الفوضي أشد وطأة من الظلم. فعلى مدار التاريخ الإسلامي برمته، لم يجث أي سلطان أي حاكم مسلم لطلب المغفرة من السلطة الدينية الأعلى متاما حدث مع "منري الرابع"، ملك ألمانيا الذي أجبر على طلب المغفرة من البابا في "كانوسا" في عام ٧٧-١، عن تحديه للسلطة البابوية بشأن بعض الأمور الدنيوية الهامة. أما هنري الثامن، ملك بريطانيا، فقد تعين عليه الانفصال عن روما تماما، وذلك اضمان أن يتم الطلاق الذي كان يريده، ويترك زوجته. إذاً، فقد كانت العلاقة الوثيقة فيما بين الدولة والسلطة الدينية طابعاً ميز معظم التاريخ المسيحي، وهو الأمر الذي لا نجد له نظيرا، ألبتة، في الإسلام.

لقد تناولت الفصول السابقة كيف قامت العقائد، في انتشارها، باستيعاب التقائيد الدينية المحلية ودور العبادة والرموز المقدسة والممارسات الخاصة بما سبقها من أديان، لتسهيل عملية اعتناق الأفراد للدين الجديد، وقد شهد كل من الإسلام والمسيحية بعض الإضافات والزيادات التي لم تكن موجودة في أي منهما في بدايتهما، وإنما أضيفت عليهما بمرور الزمن، وقد سعى الإصلاحيون المنتمون لكل منهما إلى إزالة تلك الزيادات، والعودة إلى منابع الدين الأصيلة، وكان ذلك

هدفا من أهداف الإصلاح البروتستانتي – العودة إلى الرسالة كما أنزات. كذلك، يحاول الأصوليون الإسلاميون العودة إلى الأصول والمنابع لتخليص الدين وتطهيره مما يكون عساه قد ألحق به من زيادات. وكانت "الوهابية" في شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر الميلادي إحدى تلك الحركات الأصولية، والتي عادة ما يطلق عليها "حركات التجديد". وينصرف المراد من "التجديد" إلى أمرين: ... يتمثل الأول في العودة إلى المنابع الأصيلة للدين ... فيما يذهب الثاني إلى النظر إلى المستقبل بحيث يتم تأويل النصوص التقليدية على ضوء الفهم المعاصر.

إذاً، فكيف كان إقليم الشرق الأوسط سيبدو السوم إذا ظل معتنقاً الأرثوذكسية؟ من بين المعتقدات الثلاث: الإسلام، والسيحية الغربية الكاثوليكية، والمسيحية الشرقية الأرثوذكسية ... كانت الأرثوذكسية أقلها تعرضا للتغيير. وقد تبنت روسيا، في القرن السابع عشر الميلادي، بعضا من أكثر الإصلاحات إثارة المضلاف ... تلك الإصلاحات الضاصة بالطقوس الدينية، المتماشي الممارسات الأرثوذكسية الروسية مع نظيرتها اليونانية، وهي أجندة سياسية، بالأساس، أدت الأرثوذكسية الروسية واسعة لها. وقد عززت بعض الإصلاحات الأرثوذكسية من إحكام اللولة الروسية لقبضتها على الكنيسة، ومنذ سقوط القسطنطينية فصاعدا، إحكام اللولة الروسية لقبضتها على الكنيسة، ومنذ سقوط القسطنطينية فصاعدا، الأرثونكسية أكثر العقائد الثلاث المذكورة أنفا ارتباطا بالآخرة وأكثرها إذعانا اللارثونكسية والاجتماعية. السياسية والاجتماعية النولة، إذ تجنبت الانخراط الشديد في الأجندات السياسية والاجتماعية بالمقارنة الكان، في الأغلب، أكثر تحفظا فيما يتعلق بالأمور السياسية والاجتماعية بالمقارنة بالمسيحية اللاتينية أوالإسلام.

النصوص المقدسة كمصدر للتشريع

إن الدروس المستفادة من حركات الإصلاح لا تدع مجالا للتشكك في إحدى النقاط الهامة، وهي أنه حينما تفقد الدولة، أو أية مؤسسة قرية كالكنيسة، سيطرتها على الدين، يمكن حينها الدين أن يصبح أداة لمحاربة الدولة وسلطانها، ففي بعض الحركات البروتستانتية الراديكالية – خاصة "الكالفنية" و"مجددي العماد" – فإن قوى الاستقلالية الفردية والدمقرطة لتفتح الباب أمام تأويلات أكثر راديكالية، وأوفى ذاتية للنصوص المقدسة، وتكون لتلك العملية مضامين مباشرة للمجتمع القائم ونمط الحكم المطبق.

كذلك، فقد شهد الإسلام عملية للتحرر بعيدا عن تفكير رجال الدين المسيس من قبل الدولة، والذي ساد في الماضي، وذلك باتجاه انبتاق حركات إسلامية معاصرة شتى. فحين يفقد رجال الدين التابعون للدولة شرعيتهم ومصداقيتهم، يحل أخرون محلهم في قهم طبيعة الإسلام وتأوير، نصوصه، ويمكن لأولئك "الأخرين" أن يوجهوا رسالة الإسلام ضد الدولة ذاتها. إن بعض تلك الحركات، رغما عن كونه حادا وعنيفا وراديكاليا، يعد ناتجا مباشرا لعملية "إعادة التفكير في الإسلام". وبما أن الحركات الإسلام". وبما أن الحركات الإسلام". وبما أن الحركات الإسلامية المعاصرة لم تعد رؤيتها هي رؤية رجال الدين التابعين للدولة، وبما أنها لا تقتصر على الإجابة عن الأسئلة "الآمنة" بشأن الطقوس الدينية وأمور المطهارة، فقد انبثقت تلك الحركات ضد رغبة الدولة وإرادتها. وتدعو تلك الحركات أن يضطلع الدين بمحارية الأنظمة السياسية الفاسدة والمتسلطة قمعيا والمفتقدة للكفاءة، والتي لا تمثل، ألبتة، الشعوب التي الفاسدة والمتسلطة قمعيا والمفتقدة للكفاءة، والتي لا تمثل، ألبتة، الشعوب التي غير المواتية.

وتسعى الحركات الإسلامية، بشتى مشاربها، إلى الإفصاح عن وجهات نظرها والتعبير عن أرائها بحرية وشجاعة، كما تسعى إلى كسر احتكار السلطة السياسية

والنظام الإدارى لها، بل حتى إلى تغيير الوضع القائم بالقوة بما يتماشى ومثاليات الإسلام، ولقد أدى تخفيف قبضة النظام السياسى، بعض الشئ، إلى إطلاق سراح مخزون هائل من العنف والراديكالية المكبوتة، والتى انفجرت فى وجه الدولة. وبينما تبئت بعض الجماعات تأويلات أكثر ليبرالية للإسلام بما يتماشى وروح العالم المعاصر، قإن كثيرا من الجماعات قد نهجت نهجا يفتقر إلى التسامح، وذلك بالإصر رعلى الالتزام بحرفية النصوص والسعى لتطبيقها كما أنزلت، وذلك على ظروف العالم المعاصر ومعطياته. وكما حدث فى حركة الإصلاح البروتستانتى، اندلعت حرائق جمة فيما برتبط بالحالة الإسلامية ... إذ ستنشأ مصادمات ثقافية فى المجتمعات الإسلامية عند التأمل فى العلاقة ما بين القيم الدينية والتطور المجتمعى فى عالم اليوم المتضارب، وما يزال التصادم قائما : فقد أشعلت تفجيرات الحادى عشر من أيلول/سبتمبر (٢٠٠١، و الحرب العالمية ضد الإرهاب نيران الرابيكالية، ومن ثم ابتكار ما يلزم لمجابهة آثارها.

وبعد أن انهارت السلطة الدينية المركزية للكنيسة الرومانية جراء حركة الإصلاح البروتستانتي، أصبح المجال مفتوحا لسؤال على شاكلة : كيف يمكن تطبيق محتوى النصوص الدينية لخلق مجتمع مثالي (رباني)؟ في الحقيقة، فإنه لا يوجد نص ديني يتيح صيغة قانونية (شرعية) جاهزة بحيث يتم تطبيقها مباشرة على مخرجات المجتمع، فما على الأتباع المخلصين من معتنقي العقيدة إلا أن يسعوا فقط إلى إدراك القيم التي تحويها النصوص المقدسة وقهمها كأحسن ما يكون الإدراك. إن المسيحية والإسلام قد عانا حين حاولا تطبيق النصوص والقيم فيما يتعلق بالمجتمع وأنظمة الحكم السائدة – وما زالا يعانيان، فالمسيحية البروتستانتية، على وجه الخصوص، قد سعت لتأسيس ثيولوجيتها وأحكامها الأخلاقية، فيما يخص المجتمع، وفقا للنصوص ذاتها، لا على توصيات المجامع الكنسية غير المنتئة، والتي اضطلعت بأدوار كبيرة في ظل التقاليد الكاثوليكية الرومانية، والأعراف الأرثونكسية المبكرة.

ويواجه الإسلام، تحديدا، الأسئلة ذاتها: ما الدور الذي يضطلع به "القرآن" في تشكيل وعي الفرد وفهمه للإسلام، وكذا في صباغة التشريع الإسلامي المنشود؟ ويشترك كل من الإسلام والمسيحية البروتستانتية في الاهتمام بالأفعال ونتائجها، أي الاهتمام بتطبيق القيم الدينية وما لها من آثار اجتماعية، وليس في المظاهر الثيولوجية التجريدية فحسب.

تعد 'الكالفنية'، بجانب 'اللوترية' و'مجددي العماد'، إحدى الحركات الثلاث الرئيسية للإصلاح البروتستانتي، وقد ضاض "جون كالفن" -مؤسس الحركة-تجربة دينية ذاتية عميقة تغلب عليها النزعة الصوفية، دفعته بقوة نحو اعتناق الأفكار ذات الطابع البروتستانتي، وقد ورد عنه أنه قال: "لقد أخضع الرب روحي وجعل نفسى سلسة القياد بالهداية المفاجئة". وكان "كالفن" مؤمنا بأن أمامه "مهمة مقدسة" كأداة الرب لإحياء الإيمان والروحانيات في العالم. ونظرا الاعتباره مهرطقا في فرنسا الكاثوليكية، فقد التجأ "كالفن" إلى جنيف، والتي كانت تجاهد آنذاك القوى الخارجية الطاغية رغبة في نيل استقلالها. وفي عام ١٥٣٦، اتخذت المدينة ثلاثة قرارات راديكالية مباغتة : إلغاء الأديرة، وإبطال إقامة أي قداس ديني، ورفض الخضوع للهيمنة البابوية. وقد أبد 'كالفن' بشدة فكرة 'الحاكمية' بالدينة، أى قيام رجال الدين البروتستانت بتولى مقاليد الحكم - ثيوقراطية بالمعنى الحقيقي- يكأنما كان رائدا وسابقا لما سيفعله أية الله حُوميني بعد ذلك بعدة قرون في إيران من تقرير للحكم وفقاً "لولاية الفقيه"، كذلك، فقد جاهد "كالفن" على مدى أربعة عشر عاما لاستمالة القاده في جنيف وإقناعهم بفكره، كما جاهد لبسط هيمنته على عقيدة كنيسته، والتنظيم الذي تعتمده، والمناحي الأخلاقية لها. وللمس هنا ما يشبه التسهيد أو الأساس الذي سبوف ينتهجه "الفكر الوهابي" في شبه الجزيرة العربية فيما بعد. وقد أرسى "كالفن" ما يمكن تسميته "بمدينة الرب" في جنيف، وبادي بأن يكون "الإنجيل" مصدرا لجميع التشريعات والقوائين المجتمعية-فيما يشبه اتجاهات وأفكار "الإسلاميين" الداعية لاعتبار "القرآن" المصدر الوحيد لجميع التشريعات، بل إن المملكة العربية السعودية تعتبر "القرآن" دستورها الحاكم،

أما جميع عناصر الصلوات ومكوناتها وفقا لعقيدة "كالفن" فمستقاة برمتها من الإنجيل، وكما سيفعل الوهابيون فيما بعد، فقد اعترض "كالفن" على استخدام الآلات الموسيقية، وأجراس الكنائس، والأردية الكهنوبية المبهرجة، والأعمال الفنية أثناء الصلوات العامة. كذلك، فقد تم إلغاء معظم الأعياد المقدسة التقليدية، وذكرى مولد القديسين. وقد كان الاعتقاد بقابلية الجنس البشرى للإغواء واقتراف الخطايا والمعاصى ملمحا رئيسيا من ملامح الأفكار الكالفنية. ووفقا لتلك الأقكار، فقد تم تطبيق قواعد الالتزام بالأسس الأخلاقية الصارمة، والتي يتعرض من يخالفها لعقوبات مشددة كالحرمان الكنسى، والنفى، والإبعاد لمفالفة التشريعات الدينية، وكذلك عقوبة الإعدام لمن يتهم بالكفر والتجديف. كذلك، فقد روعى أن تكون الملابس في أبسط هيئة ممكنة، وأغلقت الصانات، ومنعت العروض المسرحية وحلقات الرقص، ووضع العامة تحت المراقبة الشديدة من قبل العسس (المخبرين). كذلك، فقد طافت "شرطة الأخلاق"، أن شرطة الآداب" بالمصطلح الحديث –(المطوعون في الملكة العربية السعودية الآن) – بالأحياء والبيوت لضمان التزام الأفراد بالمعابير الأخلاقية المقررة، وكانت جميع الملذات الحسية أنذاك، ووفقا للكالفنية، موضعا للشك والارتياب.

وكان من أهداف "كالفن" أن تصبح جنيف "مملكة الرب" في الأرض، كمجتمع بلا خطيئة أو وصمة عار. وبالرغم من كون "كالفن" وحركته الإصلاحية جزء هاما من حركة الإصلاح البروتستانتي، إلا أن أراءه كانت متناقضة مع روح الفصيل "اللوتري" من الحركة ... ذلك الفصيل الذي شدد على مسئولية الفرد في تقهم معانى الإنجيل وتأويلها وإدراك رسالة الرب. وقد عمدت الكالفنية إلى استخدام مناهج وأدوات سلطوية لفرض رؤية "كالفن" واتجاهه الأخلاقي، والذي كان يحيا حياة صارمة متشددة تفتقر كثيرا إلى البهجة، فضلا عن اعتلال صحته على امتداد حياة صارمة متشددة تفتقر كثيرا إلى البهجة، فضلا عن اعتلال صحته على امتداد عيام سنى عمره.

وبالرغم من بعض مظاهر الاستياء وعدم الارتياح لدى قطاع من أهالى جنيف، إلا أن "جون نوكس"، زعيم البروتستانتية الاسكتلاندية، قد نعت المدينة بأنها المدرسة المُثلى على الأرض لتطبيق تعاليم المسيح". كذلك، فقد أضحت جنيف مركزا للتدريب حيث جابت الإرساليات التبشيرية المنهجة وفق التعاليم الكالفنية، وذرعت البلدان الأوروبية، في الواقع، "لتصدير الثورة". وسرعان ما احتلت الحركة الكالفنية مكانة عالمية من خلال اعتمادها في نشر أفكارها ومبادئها على المبعوثين السريين، وكذا الاتصالات الخفية، ما مكنها من الانتشار في بلدان الشمال الأوروبي، لتصل أفكارها، فيما بعد، إلى القارة الأمريكية.

مسيحية ، كالفن ، الهرمية

مرة أخرى، نجد تشابها مع الإسلام الأصولى تزخر به التأويلات المتشددة والصارمة للنصوص الدينية كأسس للتشريع والتنظيم الاجتماعي، فالوهابية، في إصرارها وتمسكها بالعودة إلى النصوص التراثية الأصبيلة، تشبه إلى حد بعيد كلا من "اللوترية" و"الكالفنية". كذلك، فهي تشجب الالتصاق الأعمى بالتأويلات المبكرة لعلماء الدين الأوائل في تفسيرهم للنصوص والطقوس، كما تستنكر تقليد الآباء بدون تفكير أو ترو، وتخليد الأجيال المتعاقبة للموروث العائلي والطقوس الدينية التقليدية. وبالمقابل، تصبر الوهابية على كون كل مسلم مسئولاً بذاته عن إدراك النصوص وتفهمها على نحو شخصيي.

ولا شك في أنه ملمح من ملامح الحداثة التنويرية أن يتم التأكيد على مسئولية الفرد في السعى نحو إدراك ذاتى تأملي لمعتقده ولقيمه الأخلاقية، بالمقارنة بالانصياع المطلق التقاليد الموروثة، إلا أن الخبرة والتجربة "الإصلاحية" حركذا الأصولية الإسلامية - تشيران إلى أنه حين يؤمن الأفراد بأنهم مؤهلون وقادرون بأنفسهم على تأويل النصوص المقدسة، تنشأ -حينئذ - أراء بديلة غير معتمدة، بل وشاذة تفشو على نحو كبير، وساعتها، يفقد رجال الدين ذوو الخبرة والمكانة،

الكاثوليك منهم والإسلاميون، السيطرة على ماهية 'صحة' النصوص الدينية، وبالفعل، ففى 'اللوترية'، يفترض أن يتنازل رجال الدين عن سيطرتهم ويتخلوا عن سلطاتهم للمؤمن بصفته فردا، وهنا نعود ثانية إلى المأزق الدائم للنصوص الموحى بها فى الملل الإبراهيمية الثلاث: فمن له أحقية الزعم بامتلاك القدرة على التأويل دون غيره؟ ومن ذا الذي يستطيع تحديد الاستقامة الحقيقية؟ لا يوجد أية مرجعية وحيدة بذاتها يمكن اعتبارها ذات سلطة في هذا الخصوص، بل يمكن أن يعقب ذلك بسهولة انتشار ما يمكن أن يعرف "بالدين للجميع" من منطلق الحق في التأويل، وما له من مستتبعات غير رشيدة، بل وشديدة الخطورة، وهذا ما حدث التأويل، وما له من مستتبعات غير رشيدة، بل وشديدة الخطورة، وهذا ما حدث تماماً في كل من حركة 'الإصلاح البروتستانتي' والحركات الأصولية الإسلامية، وهنا أيضا، لا يبدى الإسلام الأصولي أية سمات غريبة أن غير مالوفة، بل يحذو وفقا لمسارات يمكن التنبؤ بها بشأن انبثاق الأديان الموحى برسالاتها وتطورها.

ونظل هذه القضية على الدرجة ذاتها من الأهمية، الآن، كما كانت إيان حركة "الإصلاح البروتستانتي"، وكذا حين انبثاق الفكر الوهابي، ويسعى العديد من علماء الدين خارج شبه الجزيرة العربية اليوم إلى الحط من قدر الاتجاهات نحر التفكير المستقل كما تدعن "لوهابية"، إذ يذهب هؤلاء العلماء إلى أن "الوهابية" تمثل "فكرا دخيلا" يناقض التقاليد والتفكير المحلى، وكما في المسيحية، فثمة توترات أصيلة ما بين الفهم السلطوي المركزي للدين، ووجهات النظر الشخصية المحلية غير السلطوية، أجل، قد تؤدي التأويلات الشخصية إلى إدراك أعمق للنصوص المقدسة، إلا أنها قد تصبح بوابة مشرعة للراديكالية غير الواعية.

ففى حركة الإصلاح البروتستانتى ، فإن المخاوف من احتمال انتشار الأفكار اللهينية المتطرفة سرعان ما باتت حقيقة. فقد شهدت البروتستانتية، في بادئ نشاتها، انتشارا واسعا للملل والطوائف، والتي قدمت تأريلات متطرفة عدة للإنجيل. ويما أن لأية فكرة مستتبعات وآثار، فقد خلقت تلك التأويلات العديدة جماعات سياسية واجتماعية راديكالية اعتمدت العنف كمنهج عمل، وغالبا ما كان

يتم استغلالها من قبل السلطات والقوى المحلية كسلاح ضد القوى الأخرى،

ووفقاً لتقديرات "معجم المسيحية البروتستانتية"، فإن عدد الطوائف البروتستانتية المختلفة على مستوى العالم يبلغ الأن ٢٠٨٠٠ طائفة، بينما تذهب "موسوعة العالم المسيحى" إلى تقدير العدد بنحو ٣٣٨٢٠ طائفة، وإذ يكون بالإمكان الجدال حول العدد الحقيقي لتك الطوائف، فإن تك الأعداد تمثل، بلا شك، ثمار ما تم بنره على يد حركة "الإصلاح البروتستانتي". كذلك، فإنها تأتي لتؤكد مخاوف الكاثريكية تماما بشان عواقب انفراط عقد قبضة الرقابة المركزية على عقيدة الكنيسة، والتسلسل الهرمي للسلطات بها.

أما الإسلام، وخاصة في مذهبه السني، فيتسم بغياب الرقابة والهيمنة الدبنية المركزية، أو حتى وجود سلطة مرجعية واحدة كما البابا في المسيحية، لذا، فإنه يشارك البروتستانتية ذلك المأزق، فلا يوجد شخص واحد في الإسلام السني له حق التحدث بسلطة مطلقة أو ملزمة للآخرين بشأن التساؤلات حول تأويلات النص الديني في الإسلام، فرئيس جامعة "الأزهر"، وهي جامعة ديئية بالقاهرة، بحظي بالاحترام والتقدير، إلا أن أراءه وكلماته تعكس التقاليد القائمة واتجاهات النظام السياسي المصري بأكثر مما تمثل سلطة أو مرجعية حقيقية. ولعل الشيخ "يوسف القرضاوي"، والمقيم بقطي، يتمتع بتقدير لا تحظي به أية شخصية دينية أخرى نظرا لبرنامجه التليفزيوني الأسبوعي، والذي تبثه قناة "الجزيرة"، والذي يسعى الشيخ من خلاله إلى تفسير وجهات النظر الإسلامية الأرثوذكسية بشأن القضايا الدينية وقق الظروف والمعطيات القائمة والمعاصرة.

ولقد أدت حركة 'الإصلاح البروتستانتي' إلى توالد العديد من الجماعات الراديكالية منذ قرون عديدة خلت، وبغض الطرف عن بعض الجماعات المتطرفة تاريخيا في الإسلام، فإن التأويلات الراديكالية الكاسحة لم تنفذ إلى الفكر السياسي والاجتماعي الإسلامي إلا بحلول القرن العشرين، وقد قامت تلك الأفكار

المتطرفة بنثر البذور التى أثمرت لاحقا وأسفرت عن اتجاهات شديدة التطرف، كما في الاتجاه الراديكالي لتنظيم "القاعدة". أما الجماعة الراديكالية المصرية "التكفير والمجرة"، والتي تذهب إلى أن تصم الآخرين بالمروق والكفر، وتسعى إلى أن يهجر المرء ذلك العالم الدنيري الآثم إلى رحابة العالم الأخروي – فتتشابه مع الأفكار الكالفنية، وإن كانت الأخيرة لم تلتجئ إلى الإرهاب كمنهج عمل، وتذهب جماعة "التكفير والهجرة" إلى انتفاء وجود "الإسلام الحق" في هذا العالم إلا فيما ندر وفي أضيق الحدود، وأن الطريق الوحيد أمام المرء للخلاص من الشرور المحيطة به هو أن يدين المجتمع الإسلامي المعاصر بوصفه "مجتمعا جاهليا" أو "كافرا"، وأن يطلب الخلاص عن طريق الانتماء إلى جماعة صالحة مؤمنة (قارن: "مدينة الرب" في الخلاص عن طريق الانتماء إلى جماعة صالحة مؤمنة (قارن: "مدينة الرب" في جنيف لكالفن)، أو على نحو أعم، بالخلاص الذاتي من داخل المرء نفسه للوصول إلى نقاء المعتقد الإيمني وأصوله الحقة، كما جاءت من المنابع الأولى، وللممارسة السليمة لتعاليم الدين بعيدا عن التأثيرات الفاسدة للمجتمع العاصر.

فماذا، إذاً، عمن تستهدفهم تلك الرسائل، ومن المخاطب بتلك المواعظ؟ من المدهش، أنه في الصالتين المسيحية والإسلامية لا يكمن الهدف في استقطاب مؤمنين جدد إلى هذا الدين أو ذاك، فبالنسبة لغالبية الإسلاميين، تهدف "الدعوة" إلى تصحيح المفاهيم لدى "المسلمين" أنفسهم ... أولئك الذين يفهمون تعاليم دينهم فهما مغلوطاً، لذا فإن الهدف هو إعادتهم ثانية إلى الدين الحق". فمن وجهة نظر الكثير من أولئك الأصوليين، فإن المجتمع المسلم اليوم ينتشر الفساد بين جنباته، إذ فقد جادة الصواب وطريق الهداية الأخلاقية، وعادة ما يشار إلى المجتمع الإسلامي اليوم بأنه مجتمع "جاهلي" تشبيها له بسميه الذي ساد شبه الجزيرة العربية وما حولها قبل نشأة الإسلام. وقد استخدم المفكر الإسلامي المصري الراحل "سيد قطب" المصطلح ذاته في منتصف القرن العشرين للإشارة إلى الحالة العامة التي آل إليها المجتمع الإسلامي آنذاك كما ترأي له، بانغماسه في "جاهلية" تثناي به عن الدين الحق.

ولعل القصيل الأكثر راديكالية من بين قصائل البروتستانتية الثلاث خلال حقبة الإصلاح الديني كان فصيل "مجددي العماد"، والذين يشاطرون الكثير من الإسلاميين التزاما جادا وقويا بالعمل الدعوى أو التبشيري، إذ يعني تجديد العماد" إعادة تعميد المرء بخلاف تعميده الأول حين مواده، فوفقا لهذا القصيل تبدو فكرة "التعميد" غير ذات معنى ما لم تمثل قرارا واعيا من قبل المرء البالغ لإرساء رابطة ذاتية جديدة مع خالقه. وقد نادى الفصيل بإعادة "تعميد" البائغين، الذين سيكونون -حينئذ- على وعي تام بطبيعة قرارهم لإرساء الرابطة، كذلك، فمن لأمور الرئيسية التي يحتضنها فكر "مجددي العماد" - تفعيل قوة الم وإرادته، ورفض التقليد، والذي غالبًا ما يكون محاكاة للأعراف العائلية المتوارثة يشأن الدين، بل وفي انتقال المعتقد الديني من جيل إلى جيل تال، وقبول ذلك دونما أدنى تفكير أو تدبر، وبالمثل، ووفقا للعديد من الأصوليين الإسلاميين، فإن انتقال المعتقد الديني بالرراثة لا يكفي، غالم، الذي يدرك ريتقهم طبيعة التزامه كمسلم، عن طريق دراسة النصوص الدينية هو الوحيد الذي يمكن إدراجه في عداد "المسلمين" بحق. وقد اشتهر "مجدو العماد"، متلهم في ذلك مثل الأصوليين الإسلاميين، بمعرفتهم العميقة للنصوص الدينية، وقد بلغ هذا القصيل ذروة الراديكالية أثناء ثورة 'مونستر' التي دامت لثمانية عشر شهرا، والتي ذكرناها أنفا في مفتتح الفصل الحالي.

وتساعد الأحوال الاجتماعية المشابهة في توليد ردات فعل دينية مماثلة عبر مختلف المجتمعات، فمن بين عناصر الاهتمام المكثف إبان 'الإصلاح البروتستانتي' بما يرتبط بالثيولوچيا، كانت القوى السياسية والاجتماعية هي المحركات التي دفعت تلك الحركة قدما، وكان هذا عصر التغيير الكبير: فقد شهد انهيار النظام الإقطاعي وما ارتبط به من ظلم اجتماعي واقتصادي، كما شهد نشأة المدن ومواد نمط حضاري جديد للحياة بمنأى عن الأعراف الإقطاعية، وهو مناخ ساعد في انبثاق قيم بورجوازية جديدة، وتنامي التأكيد الواعي على احترام حقوق الأفراد،

وقد جوبهت تلك التحولات بمعارضة قوى الإقطاع، أحيانا بواسطة الأمراء، وأحيانا يدونهم، وذلك اعتماداً على مدى تأثر مصالحهم الشخصية بالأحداث. كذلك، فقد سعت الدول الناشئة حديثا –آنذاك – إلى إحكام قبضتها وبسط نفوذها على الإيرادات الكنسية والاستيلاء عليها، ولعل الأهم أن حركة "الإصلاح البروتستانتي" كان لها مردود سياسي هائل بعيد الأثر على الأمراء الألمان وغيرهم من حكام شمالي أوروبا، فالذي يحدد الموقف من ثيولوجيا "الإصلاح البروتستانتي" قد لعتمد، بالأساس، على اتجاهات للصالح الاقتصادية والسياسية، إذ مالت المواقف حيثما مالت المصالح.

وقد شهدنا مثل تلك التوجهات في اضطرابات المجتمع المكي المتحول من النظام القبلي والعشائري إلى النظام التجاري ذي الصبغة المركنتيلية، فضلا عن انهيار منظومة الأمان التي كفلتها الثقاليد العشائرية في ارتباطاتها البينية، وكذا في ظهور الدعوة المحمدية. وبالمثل، فقد كان ظهور المسيح، من قبل، في مناخ اجتماعي متحول قد اشتمل على عناصر عدة من بينها كون مدينة "الخليل" مضمرة العداء بسبب تقوق أورشليم الاقتصادي والعقائدي.

وكانت السمة السائدة التي صبغت هذا كله هي الرابطة بين الدولة من جهة، وسلطتها من جهة أخرى: فماذا يحدث حين تفقد الدولة سيطرتها على الأمور المقائدية، من المشاهد أن ذلك قد انطوى دائما على انبعاث المشاركة الشعبية في الأحداث السياسية والاجتماعية، والذي عادة ما ارتبط بإطلاق عقال الراديكالية، خاصة عندما تكون الأحوال غير مواتية.

البردةالكيسرى

لعل الهجوم الكاسح والأكثر تطرقا ضد دعائم الكنيسة المسيحية وتعاليمها هو مقهوم "الردة الكبرى"، وهي عدد من الأفكار التي استحوذت على تفكير فئة قليلة، وإن كانت محددة ولها صوت مسموع، كذلك، فقد خصص لذلك المفهوم مدى زمنى

كبير من ساعات البث الإذاعي المسيحي، وأقرد له مساحات كبيرة في وسائل النشر ووسائط الإعلام. وينحو هذا الاتجاه إلى شجب المؤسسة الكنسية ذاتها، منذ نشأتها تقريبا، كما يذهب إلى توجيه العديد من الاتهامات الصريحة لها:

* إن التعاليم والممارسات الكنسية الأصبيلة قد شُرع في تشويهها وتغييرها، بل وإفسادها على نحو خطير في مرحلة مبكرة، ربعا قد تزامنت مع حياة بعض الحواريين أنفسهم، وذهبت الكنيسة إلى ترسيخ تلك الخطايا باضطهاد أولئك المدافعين عن تعاليم المسيحية الأصبيلة وطردهم.

* شرعت الكنيسة، على نحو حثيث، في الانخراط في الشئون الدنيوية الفاسدة حين تم تبنى المسيحية رسميا من قبل الإمبراطورية الرومانية، وهو الحدث الذي أدى إلى زواج السلطة الدينية (الكنيسة) بالسلطة الدنيوية (الدولة). وقد قامت الدولة باستغلال الكنيسة ومعتقداتها فيما يصب في مصلحتها الشخصية ومآربها الخاصة، ولم يقتصر الأمر على اقتراف الكنيسة لأخطاء جسام فحسب، بل امتد لأن تكون الكنيسة ذاتها عاجزة عن إحداث أي تغيير أو إصلاح في هذا الخصوص.

* قامت الكنيسة بتضخيم تلك الأخطاء حين تبنت مفهوم "عصمة الكنيسة" فيما يرتبط بالأمور العقائدية، فاهيك عن قيامها بتخويل تلك "العصمة" وجعلها في قبضة البابا. وحقيقة الأمر أن الكنيسة -سواء الكاثوليكية أو البروتستانتية - ان يكون بمقدورها فهائيا أن تمتلك أية "عصمة"، أو تتحدث وفقا الذلك الحق مطلقا.

* ينحو "لضعف البشرى" بالسليقة والقطرة إلى ضرب من "الدين المغلوط" المسم بكونه دنيويا زائفا في اهتمامه بالطقوس السطحية، والشرك، وتجسيد الإله، والتأثر بالكهانة وأعمال السحر، وإعلاء قيمة المنجزات البشرية لمرتبة تفوق أعمال الرب أو (المشيئة الإلهية). كذلك، يميل الإنسان إلى أن يصدق الأعراف السائدة، واعتبارها صنواً أو كفئاً لدلائل الإنجيل وبيناته الموحى بها من قبل الرب.

وتمثل المفاهيم السابقة نقداً ثورياً بل هجوما مدمرا على الكنيسة وفقا العديد من فصائل الفكر البروتستانتي الراديكالي، الذي انتظم عبر تاريخه وتطوره مذاهب من أمتّ ل "مجددي العماد"، و"كنيسة يسبوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة"، و"السيستيين"، و"شهود يهوه"، كذلك، فقد زلزلت تلك المفاهيم تفكير الطوائف الليبرئلية في الكنيسة حين اتهمتها، صراحة، بإقساد الدين عن طريق إقحام السياسة في شئونه. والملاحظ هنا، أن الشيعة الكلاسبكية تتبنى المفهوم ذاته، إذ تذهب إلى الإيمان بإفساد العقيدة الأصيلة والدين الحق، وهو الأمر المحتوم جراء قيام علماء الدين بالتحالف مع سلطة الدولة الدنيوية (وإن تعارض هذا مع ما نشهده من الأيديولوجيا المتبعة في إيران المعاصرة)، واليوم، ينادي الإسلاميون السنيون ذوو الاتجاء الراديكالي المسلمين بالتفكير بالإصالة عن أنفسهم، بل يطالبون بمعارضة الدولة ومقاومتها حين تكون بعيدة عن الشرعية الإسلامية، بيد يطالبون بمعارضة الدولة ومقاومتها حين تكون بعيدة عن الشرعية الإسلامية، بيد أن كل ما سبق هو أمر مستحدث على الإسلام السني بل إنه نو صبغة "جيفرسونية" في إيمانه بضرورة وجوب الإطاحة بالأنظمة الظالمة وغير الشرعية.

الإحياء - أو «إعادة التأسيس»

ذهب الإحياثيون أو "دعاة إعادة التأسيس" وهو قصيل أخر من قصائل الفكر المسيحى الراديكالى إصابة كبد القضية : ما مقدار الإجبار والقسر اللازمين لإرساء الدعائم الأخلاقية للنظام الاجتماعي؟ وبموجب التعريف ذاته، فإن وجود الدولة، في حد ذاته، يستلزم الالتجاء إلى آليات القسر والإجبار للإبقاء على النماسك المجتمعي واستدامة النظام لسد الطريق أمام ظهور الفوضوية، وبذا، فإن الأمور غير المحددة في هذا الخصوص تبقى : درجة القسر الواجب تطبيقها، ووسائل التطبيق وآلياته، ومن المخول بإقرارها. ويواجهنا هنا سؤال نو طبيعة سوسيوسياسية، فضلا عن تلك الدينية، إذ تصدر جميع الدول تشريعاتها بشأن مناح أخلاقية بذاتها في المجتمع، كالتشريعات المعتمدة ضد الجريمة، والقتل، مناح أخلاقية بذاتها في المجتمع، كالتشريعات المعتمدة ضد الجريمة، والقتل،

وتبدر الدولة كهدف جذاب لأى ساع لإحداث إصلاح مجتمعى، دينى أو دنيوى، إذ يتيح التحكم بمقدرات الدولة والإمساك بزمام أمرها بالإقناع أو الجبر إملاء القيم الدينية وتطبيقها بين أفراد المجتمع. ويطبيعة الحال، فلا يشترط فى القيم أن تكون دينية فحسب: فاللينينيون قد ارتأوا أن السيطرة على الدولة أمر حتمى، وضرورة واجبة لإرساء نظام شيوعى على المستوى السياسي والاقتصادى والاجتماعى، وبالمثل، حرص بعض الإسلاميين، خلال أزمنة مبكرة، على توظيف سلطات "الدولة الإسلامية" لإنشاء مجتمع إسلامى حقيقى، ويمرور الزمن، فقدت للك الفكرة كثيرا من جاذبيتها حين أصبح الكثير من الإسلاميين، بفعل تراكم الخبرات، يركن إلى الذهاب بإعفاء المجتمع من معاقبة المخطئ، تاركين ذلك الخضوع للعقاب من قبل الله. وكما صورها لى أحد الأتراك قائلا: "الدولة ليست ملزمة بالإبقاء على أبواب جهذم مغلقة، إذ يجب أن تكون ذلك الأبواب مفتوحة ومشرعة أمام الجميع"،

وفى هذا الصدد، توجد عناصر مشتركة فى المسيحية، حتى فى الغرب، تقدم لنا أشباها جلية. فخلال الأعوام المائة الماضية، انبثقت حركة "الإحياء" أو "لإعادة التأسيس" تقوم على التنظير بشأن الإرساء الفعلى لدولة ترتكن إلى تعاليم المسيحية ومجادئها. وكما ينظر الكثير من المسلمين للقرآن بأنه مصدر التشريع، فإن "الإحيائيين" المسيحيين يرون أن الإنجيل، وليس دستور الولايات المتحدة الأمريكية، هو الوثيقة التى يجب أن يسير مستقبل البلاد على هداها ويحذر حذوها. كذلك، يذهبون إلى ضرورة أن تكون المبادئ الأخلاقية مشتقة من تعاليم "الإنجيل"، بحيث تمثل تلك المبادئ الأسس التى تنبنى عليها قوانين الأسرة والمجتمع و لحكومة تخويل رجال الدين مقاليد الأمر بالحكومة ذاتها، على النصو الذي يذكرنا بالشيوقراطية الإيرانية المعاصرة في ظل حكم الملالي وولاية الفقيه، وبذا تكون بالشيوقراطية الإيرانية المعاصرة في ظل حكم الملالي وولاية الفقيه، وبذا تكون المحكومات أنفسها مسئولة على ضوء من المبادئ الأخلاقية للعهدين القديم والجديد.

كذلك، يؤيد بعض "الإحيائيين" إعادة تجريم الإجهاض، والمثلية الجنسية (الانحراف السلوكي الجنسي)، وفيما لا يدعون، بالضرورة، إلى تطبيق عقوبة الإعدام، يشيرون إلى وجود نحو عشرين اعتداء يعاقب العهد القديم مرتكبي أي منها بعقوبة الإعدام، ومنها: غشيان المحارم، والبغاء، والزنا، والتجديف، و"تدنيس السبت"، والشرك بالله. ويذهب "الإحيائيون" إلى أنه أن يتحقق أي تقدم عن طريق التوصيل إلى تفاهم أو ترضية مع أولئك المنكرين الدين المسيحي، لعدم وجود قواسم مشتركة بين طرفي النزاع، كذلك، فيجب ألا يسمح بتأسيس أية منظمات سياسية تعددية، إذ تنطوي على ضرورة التعاون مع أولئك الذين لا يستقون قيمهم وأخلاقياتهم من الإنجيل باعتباره كلام الرب ووجيه.

وكما يؤمن الكثير من المسلمين بأن الإسلام، لتفوقه المعقدى المتأصل فيه، ستكون له اليد العليا والغلبة يوما ما إذ سيعتنقه جميع البشر، فإن الإحيائيين يؤمنون كذلك بأن المسيحية ستسود العالم بأسره يوما ما، إذاً، فإن فرض الدين بالجبر والإكراه يعد مذموما، وغير ضرورى، بل سيأتى بعكس المستهدف منه فى الأجل الطويل ... لذا، فإن اليوم المنتظر أت لا محالة، فكل أت قريب.

ووفقاً "الإحيائيين"، فإن "التسامح" ليس مفهوما سلبيا يقرر كون جميع المعتقدات الدينية سواسية أمام القانون، ولكن بالمقابل، فإنهم يتحدثون عن "تسامح مسيحى" يكفل معاملة متساوية لجميع الأديان دون أن يضمن قبولها جميعا بالدرجة نفسها. كذلك، لا يسعى 'الإحيائيون' إلى تنظيم المعتقدات لكل شخص على حدة، وإنما إلى تنظيم السلوك والأخلاق العامة للمجتمعات، وتتطابق تلك الرؤية، تقريبا، مع رؤية بعض الإسلاميين الداعين إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وفقا لشروط مماثلة إلى حد بعيد. ووفقا لهذا المنظور، يعنى "التسامح" في ظل الدولة الإسلامية منهج "التسامح" مع أتباع العقائد الأخرى، ولكن لا ينصرف ذلك إلى قبول شرعية تلك العقائد على نحو متساو.

إن أعداد "الإحيائيين" بمثل قطاعا صغيرا من المسيحيين، بيد أن مجمل تأثيرهم في الآراء السياسية اليمين المسيحي يعد بارزاء ليخلق اتجاها أكثر شمولية ورحابة عرف "بالدومينيونية".

ووفقا لعالمة الاجتماع "سارة دايموند"، فإن الملمح المميز لمفهوم "الدومينيونية" هو "أن المسيحيين هم من يخولهم الإنجيل لشغل جميع المناصب بالمؤسسات العلمانية (الدنيوية)، وذلك حتى قيامة المسيح". ويتجاوز هذا الملمح من المسيحية نطاق الدين ليدخل النطاق الدنيوى السياسة، بل والقومية ذاتها. وقد ميز الباحث فريدريك كلاركسون" الدومينيونية بأنها تروج لتمجيد "القومية المسيحية" وإعلاء شأنها، مطالبة الولايات المتحدة الأمريكية بالعودة إلى ما كانت عليه سابقا "كأمة مسيحية" تضطلع فيها "الوصايا العشر" بدور محورى فيما يتعلق بالنظام القانوني ونمط حكم البلاد. كذلك، يوجد الكثير من الكتب التي تتناول "الوطنية المسيحية".

وقى الولايات المتحدة، يدور الجدل حول تلك الحركات المسيحية، ويتهمها كثير معارضيها ومنتقديها بسعيها لفرض نوع من "الشمولية المسيحية"، وهو الاتهام الذي ينكره "الدومينيونيون" بقوة، ويشبه هذا الجدل كثيرا بعض عناصر الحركات الإسلامية، والتي تجادل بشأن مظاهر الجير أو القسير لحركات الإصلاح، أو "أسلمة" البلدان الإسلامية، لا المسيحية.

وفي هذا الخصوص، فإن النص القرآئي يعد صريحا وواضحا كل الوضوح في تقريره أنه "لا إكراه في الدين" -- القرآن، سورة البقرة، آية ٢٥٦ ، وفي الوقت ذاته، فإن معارضي الإسلام ومنتقديه يشيرون مباشرة إلى أن ما يحويه القرآن من سور وأيات، شيء ... في حين أن الممارسة الاجتماعية ومؤسسات الدولة في هذا البلد أو ذاك، شيء أخر، ويحتوى القرآن على العديد من النصوص المتقاطعة، يعكس كل نص منها الوحى المنزل وفقا لأزمان مختلفة وأحوال متباينة، وأن كل نص يشير إلى قضايا مختلفة. لذا، فكل من يسعى نحو فرض تأويلات صارمة

للنصوص المقدسة تفتقر إلى روح "التسامح"، وإكراه الآخرين على قبرلها - يمكنه أن يجد متسعا ثيولوجيا رحيبا لتحقيق ذلك، قوفقا لمقولة "مارتن لوثر" الشهيرة: "يمكن للشيطان نفسه أن يستشهد بالنصوص المقدسة لتحقيق مأربه الخفية"،

وحتى فى أثناء حركة الإصلاح البروتستانتى، فقد برز السؤال بشأن الأرثوذكسية الدينية والعلاقات بين المسيحية والإسلام أثناء القضية الخاصة بميخائيل سرفيتوس، الطبيب وعالم الدين الشهير. وقد اختلف سرفيتوس بشدة مع كالفن حول طبيعة 'الثالوث'، فذهب الأول إلى أن يسوع والروح القدس كانا تمثلا للرب دون أن يكون لهما وجود ذاتى مستقل – كلام معلوم !! بيد أن سرفيتوس قد مضى قدما ليصرح بأن مفهوم 'الثالوث' فى الثيولوجيا المسيحية كان عائقا على الدوام حال دون تواصل العلاقة بين المسيحيين من جهة، وبين المسلمين واليهود من جهة أخرى، وباتهامه بالتحيز لصالح 'اليهود والاتراك'، فقد أدائه قاض كاثوليكى لقيامه بذلك، كما اتهم بقراعته لنصوص القرآن، وفي عام ١٥٥٣، أمر كالفن بحرق سرفيتوس فى جنيف، واليوم، يعد سرفيتوس أول شهيد لقى حتفه بسبب آرائه التوحدية،

ظلال سيحية الإسلام السياسي العاصر

إن الصراعات والمصادمات السياسية التى نشأت خلال فترة الإصلاح البررتستانتي لتلقى الضوء على عناصر وقضايا نشأت إبان بدايات ظهور المسيحية، فقضايا الهرطقة التى صبغت تلك البدايات عاد أغلبها ليطفو على السطح، وعلى نحو أعمق، خلال القرن السادس عشر الميلادي، مدفوعة هذه المرة بالانتزامات الاجتماعية والاقتصادية المستحدثة المراكز الحضرية الأوروبية الناشئة، وكذا الأنشطة التجارية المزدمرة، ونعو قوميات جديدة، فضلا عن الطموح السياسي للحكام وللدول القرمية الوليدة، ويواجه الإسلام أمثال تلك القضايا في إشارة للطبيعة الملزمة لتلك الأمور عبر شتى الأديان ... تلك القضايا التي تجرى

وقائعها في وقت يشهد فيه العالم الإسلامي ضفوطا وتوترات عنيفة. إذ يواجه أي دين تربطه بالدرلة ونظمها روابط مؤسساتية مأزق مماثلة: العلاقة فيما بين الدين والسلطة السياسية، دور الإجبار والقسر في توطيد الممارسات الأخلاقية، فضلا عن مشكلة تطبيق القيم الأخلاقية في المجتمع، وكذا مشكلة إدارة الحكم من خلال الفعل السياسي. إلا أنه عندما يتم تحرير الدين من قبضة الدولة، فسرعان ما سيتم استخدامه كأداة سياسية لمناهضة الدولة والمطالبة بإحداث إممالحات تحت شعار القيم الدينية.

رأينا في فصول سابقة كيف كان الصراع على التحكم في المعتقدات الدينية وإحكام القبضة عليها عاملا أساسيا في الصراع على السلطة والنفوذ. ولقد جسد "الإصلاح البروتستانتي" ذروة هذا الصراع في الغرب. ففي الماضي، لم تكن رموز الإسلام الدينية تستطيع تحديد السياسات والزعامة التي تنطوى عليها قوة الدولة كما كانت الحال بالنسبة المسيحية لنحو خمسة عشر قرنا في الغرب. أما اليوم، فإنه، ووفقا للإصلاح الديني في الإسلام، فإن مجمل الاتجاهات قد تبدلت، فمع انبئاق الأصولية الإسلامية المعاصرة، لم يعد الإسلام، كما المعهد به سابقا، قانون الدولة الرئيسي. فرجال الدين نوو الضحالة العلمية والفقهية قد أضحوا يمارسون تأثيرا متزايدا في المجتمع، كما أصبح لهم صوت مسموع عن ذي قبل، إذ يتصارعون مع الدولة النيل الأحقية في "امتلاك" القرة الدينية، ويسعى الإسلاميون يتصارعون مع الدولة النيل الأحقية في "امتلاك" القرة الدينية، ويسعى الإسلاميون الأصوليون، المؤهلون منهم وغيير المؤهلين، لاستغلال الدين كأداة للإصلاح السياسي والاجتماعي، وللإطاحة بالدولة ... والتي يرونها لا تخدم أيا من الإسلام أو المواطنين.

لذا، فحين ننظر إلى الأصواية الإسلامية اليوم، فنحن لا نتحدث عن "نتاج دينى غريب" في الشرق الأوسط، فالإسلام والمسيحية يتشابهان في مسيرتيهما مع توالى ظهور قوى جديدة للتفاعل – وهي السمة المميزة لتطور المسيرة الدينية في سعيها للتعايش مع معطيات القوى المحيطة، ففي عصر ديمقراطي معاصر، ليس

غريباً أن نلفي "الشعوب" تسعى لانتزاع مقدرات السلطة الدينية من براثن الصغوة أو الدولة والتي سيطرت عليها على امتداد معظم سني التاريخ، فإذا لم يكن ثمة إسلام، لكان لهذا الأمر أن يحدث في "شرق أوسط" تهيمن عليه مسيحية أرثوذكسية شرقية.



الجزء الثانك الحدود الحضارية للإسلام

في كتابه "صدام الحضارات"، أورد "صموبيل هانتنجتون" المصطلح غير الموفق "حدود الإسلام الدموية"، ففي عالم تسوده الصراعات الدموية، علينا أن ندرك أن الحدود الدموية تنشأ عن اصطدام طرفين على الأقل، وسنقوم هنا بتنحية الإسلام بميدا عن موطن بعشته في إقليم الشرق الأوسط، وتنظر كيف تفاعل مع أربع حضارات عظمى حين تم اللقاء، وكيف تم إرساء صبغ للتعايش المسترك مع روسيا وأوروبا والهند والصين.

أولا، أرغب في الابتعاد عن الاستخدام الشائع لمصطلح "الإسلام"، إذ إنه، ومع انتشار ذلك الدين، فإننا نكون نتحدث -حقيقة - عن "المسلمين" ... فيم كانوا يفكرون، وعما كانوا يتحدثون، وماذا كانوا يقعلون، وكيف كانوا يتفاعلون مع الحضارات غير الإسلامية. وهنا، فإن المحك والأمر الأكثر أهمية هو كيف ينظر المسلمون إلى دينهم وحضارتهم، وكيف تجيء أفعالهم تجاويا مع تلك النظرة، وهو

الأمر الذى يفوق في أهميته نظرة الآخرين إلى الإسلام، وتفكيرهم بشأنه. فالإسلام، في نهاية المطاف، هو ما يقول المسلمون إنه كذلك، وهو ما تسفر عنه أفعالهم، وبالطبع، ينصرف ذلك إلى أمور جد متباينة.

ومن خلال تناولنا لتفاعل المسلمين مع غيرهم من المجتمعات غير المسلمة، سنتمكن من إدراك النهج الذي يسلكه الإسلام في ظل مختلف المواقف، كما سنتمكن من معرفة مدى مرونته وصيغه العديدة التي يتشكل وفقا لها. وبينما نقوم بملاحظة تلك التفاعلات، نلمح ثانية أن العقيدة الدينية ليست هي العامل الحاسم، إذ إن الإثنية والبعد المجتمعي ينهضان ليمثلا ذلك العامل. فهل ارتبط الإسلام بنرع من عداء لا يتزحزح، وحرب دينية ضد تلك الحضارات غير الإسلامية؟ أم تراها هدنة ما، أو بالأحرى حرباً باردة، ... أو لعله تعايش فيما بينها؟ وهل يشارك الإسلام تلك الحضارات بعض المصالح المشتركة؟

إن معظم حالات "حدود الإسلام" التي سنوردها تباعاً، لا تنصرف، حقيقة، إلى الحدود ذاتها، وإنما إلى العلاقات التي تربط المسلمين بالغير داخل الحضارات غير الإسلامية باعتبارهم أقليات دينية، ففي كل منحي وشأن، أرسى المسلمون دعائم علاقات مميزة للحياة بجوار غير المسلمين، بيد أنهم لم ينحرقوا قط عن مبدأ مهيمن وذي سطوة : التمسك الشديد بمعتقدهم الديني، واحتضائه، وحمايته، ورعاية المجتمع المسلم داخل حدود البلدان ذات الحضارات غير الإسلامية، وذلك يعني الرقض الشديد للشخلي عن الهوية الإسلامية المميزة لهم، وكذا مقاومة امتصاصبهم أو استيعابهم بحيث تتلاشى حضارتهم وتذوى على أنه لا يفهم من ذلك أنهم لن يندمجوا بالكمل كمواطنين فاعلين منخرطين في نسيج مجتمعاتهم. وبالمثل، فقد من اليهود بتجربة مشابهة إلى حد بعيد على امتداد تاريخ صراعهم لحماية مجتمعاتهم، والحفاظ على الطابع الفريد لحضارتهم المبيزة عن طريق المقاومة الواعية لمحاولات استيعابهم وتنويبهم، ومن ثم اندثارهم بالكلية. وبلحط، كذلك، قدرة المسلمين الفائقة على التعايش مع غير المسلمين، بل ومشاركتهم في التلاقح الثقافي البيني في مجتمعات تفتقر إلى روح التعددية الثقافية. وفي تناولنا الصالات الأربع، نلمح استراتيجيات "إسلامية" متعددة : التواؤم، والانصبهار، وأحيانا المقاومة حال التهديد، مع إدراك كامل لحقيقة كون المسلمين أقلية في تلك المجتمعات.

على أن مصطلح "الحدود الدموية" لا يخلو من بعض وجاهة، إذ يذكرنا هانتنجتون حوإن سبقه آخرون – أنه وعلى امتداد التاريخ، فإن "الحضارات" يمكنها بالفعل أن تمثل "خطوطا فاصلة"، فالخطوط الفاصلة هي، في حقيقة الأمر، أية "حدود" يمكن أن تنفجر إلى صراح: يمكن أن توجد بين العشائر، وفي القرى أو الأقاليم، أو الدول، أو فيما بين القارات والحضارات.

كيف، إذاً، للحضارة أو الجماعة أن تتجانس أو تتماسك؟ يعتمد هذا على الأحوال المحيطة، إذ يمكن أن تتشظى أية جماعة، في ظل ضغوط بعينها، إلى

مكونات أصبغر، ولكن، ما الذي ينشئ الحدود فيما بين الجماعات - وما مدى صلابتها؟ يعتمد ذلك، كما سلفت الإشارة، على الظرف المحيط، ولعل المثل الشعبى الذي يصور الحالة هو: "أنا وأخى ضد ابن العم، وأنا وابن العم ضد الغريب".

وهذا، فإن ما سبق كله يبقى ذا أهمية، فالإسلام ايس بالضرورة الحد الفاصل الذي يتفاعل المسلمون إزاءه في كل مرة، فقد تتنوع الجماعات التي يمكن أن تواجه بعضلها البعض عند خطوط المعارك، فتارة يكون المسيحيون إزاء المسلمين، وأخرى يكون المسلمون إزاء الهندوس، كذلك يمكن أن تكون المواجهة بين السنة والشيعة، أو بين المسلمين الأتراك والمسلمين الأكراد، أو بين العديد من الميليشيات الشيعية العراقية. إذاً، فالجبهة التي تنتظم عناصر متضامئة تختلف على الموام كما هي الحال بين الجماعات الكاثوليكية والبروتستانتية. ولعله يمكننا، في هذا الصدد، أن الحال بين الجماعات الكاثوليكية والبروتستانتية. ولعله يمكننا، في هذا الصدد، أن الحال بين الجماعات الكاثوليكية والبروتستانتية. ولعله يمكننا، في هذا الصدد، أن الحدال بين الجماعات الكاثوليكية والبروتستانتية. ولعله يمكننا، في هذا الصدد، أن الصد أي عنوان محتمل من "قاطني المريخ".

إذاً، فليس مستغربا أن نجد الصراع 'المحلى' أينما كان الأكثر شيوعا مقارنة بالصراعات ذات الدى الأعم، وهو ما نشهده في الصراعات الناشئة عن "التجاور الجفرافي"، حيث تصطرع الأطراف فيما بينها بسبب ذلك "التجاور"، بل إن الصراعات الناشئة بين المسلمين أنفسهم، أو المسيحيين فيما بينهم هي أكثر نيوعا من أية صراعات احضارية". إذاً، "فالصراعات الحضارية" الكبرى التي تحدث عنها هانتنجتون هي تصور 'نظري" بحت، بل هي محض خبال. فمن العسير أن تنخرط حضارة بأكملها في صراع ضد حضارة أخرى - إلا أن الأمر قد غدا أكثر يسرا في الأونة الأخيرة، حيث قامت وسائط الإعلام المتعددة بخلق شعور من التضامن الجماعي وفقا لنطاق أوسع وأرحب. إذ يمكن للإعلام أن يظهر عدوا نائيا -وفق البعد الجغرافي - على شاشات التلفاز بحيث تتم مشاهدته في "غرفة المعيشة"، وبذا البعد الجغرافي - على شاشات التلفاز بحيث تتم مشاهدته في "غرفة المعيشة"، وبذا السيحيون" أو "ها هم المسلمون" أو "ها هم المسيحيون" أو "ها هم المسيحيون" أو "ها هو الغرب"، وربما كانت الحملات الصليبية أشبه حدث شهده

العالم، حتى اليوم، لما يمكن أن نطلق عليه "صراعا حضاريا" ... ثلك الحملات التى صيغت الدعوة إليها بوهم وألق في خطابات البابا "ايربان الثاني" المثيرة عن التهديد الذي يمثله "أولئك الكافرون" - بيد أن معظم المسلمين لم يكن يعلم شيئا، وقتذاك، عما كان يجرى حينها،

وتبدو أهمية كل ما سبق ذكره حين نتناول قضية الأقليات المسلمة التي تحيا في مجتمعات على خلاف معتقدها . كيف سيتفاعل المسلمون هناك؟ أمن خلال "كتلة" إسلامية؟ ريما لن يكون الأمر كذلك، إلا إذا كان المسلمون يرزحون تحت ضفوط جسيمة أو تفرقة أو تمييز بالغين نظرا لكونهم مسلمين في المقام الأول. وبالمثل، فمن المحتمل أن تنطوى الحالة على صراع بين جميع مواطئي إقليم جنوبي من جهة، وبين مواطئي آخر شمالي من جهة أخرى، أو بين مجتمعات تضم خليطا من مسلمين ومسبحيين، أو أخرى تنتظم طوائف مسلمة وأخرى هندوسية تنتمى لجماعة لسانية واحدة تأتلف هند إثنيات جماعة لسانية أخرى، كما في حالة الأكراد الشبيعة والسنة ضد الأتراك الشبيعة والسنة. إذاً، فلا يمكن لنا أن نتنبأ، إذ إن الأمر كله يرتبط بالموقف المحيط، وكذا فهو متغير حيث يعمد الأفراد والجماعات إلى إعادة تقييم مصالحهم الذاتية باستمرار، لذا، يصبح من الحماقة التسليم بوجود عداء إسلامي تلقائي للجار غير المسلم، إلا إذا وجدت أمور سيئة تأخذ مكانها فيما بينهم، وهو الأمر المحتمل الحدوث بين الحين والأخر. إذاً، فالدين -ويخاصمة الإسلام إزاء غيره من الأديان- يعد أساسا "مراوغا" للصراع. كذلك، فالتسليم بوجود صراع دائم ما بين المسلمين وغير المسلمين لهو أمر شديد الحماقة، لذا، فإنه حتى في ظل "عالم بلا إسلام"، يكون هنأك الكثير من "خطوط التماس" التي تصارعت، في ظلهاء مجتمعات، وما تزال - بل والتي ستتصارع أيضًا في ظلها مجتمعات في للستقبل. فعلى امتداد التاريخ البشري المتد والموغل في القدم، تبدو 'الإثنية' على رأس القائمة، أيا ما تم تعريف "الإثنية" ... باعتبارها هوية أرسبيت بوعي تام.

هل هو احتكار لناهضة الغرب؟

تبدو دراسة المسلمين في المجتمعات غير الإسلامية على قدر من الأهمية، إذ تكشف عن وجه آخر من أوجه الهجوم الموجه ضد الإسلام: كون الإسلام مناهضا للقرب بالأساس، والحقيقة أن أكثر بلدان العالم وشعوبها قد تراكم لديه، عبر الزمن، مبررات للإعجاب بالغرب، ومبررات لكراهيته، فمناهضة الغرب ليست حكراً على المسلمين - بالرغم من أن ملابسات الحرب العالمية ضد الإرهاب خلال العقد الأول من القرن الحادى والعشرين قد نجم عنها حالة من العداء لأمريكا بين صفوف المسلمين، على أن تلك المرحلة سوف تنتهى يوما ما، إلا أن مناهضة أمريكا أو مناهضة الغرب يمكن أن تنفجر مرة أخرى، كما حدث في الماضي من قبل حضارات أخرى كالصين وبدان أمريكا اللاتينية.

وفى هذا الخصوص، فقد صدرت ألاف الكتب عن الفكر المنطوى على عداء الفرب ومناهضته والتى تمحورت حول السؤال: "لماذا يكرهوننا؟" والذى قدمت يشأنه إجابات هزيلة كالعادة، بيد أن إشكالية الجدل الأساسية كانت، حقيقة، تنحو إلى السؤال عما إذا كانوا "هم" يكرهوننا بسبب أمور قد قام بها الفرب؟ أم يكرهوننا لأسباب تعكس حيرتهم وأحقادهم وقصور فهمهم؟ ترى على من نتحى باللائمة ... أنلوم أنفسنا أم نلومهم لكراهيتهم لنا؟

ويبدو أنه سؤال بلا إجابة، أو بالأحرى، وتحريا للدقة، هو سؤال بحاجة إلى إجابات متعددة، فمن ناحية، فإن المسلمين وغيرهم يكرهون الغرب بسبب ما اقترفه بحقهم: الغرق المستعمرات، للد الإمبراطورى، الحروب، الانقلابات، الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية، نهب الموارد واستغلالها، الصلف، اللامبالاة، عدم احترام خصوصية الحضارة والثقافة الغربية. ولقد سمعنا ذلك الطرح مرارا ... وهو طرح ينطوى على كثير من أوجه الحقيقة.

وبالنسبة لأولئك الأمريكيين الذين يجدون غضاضة في تقرير أي تراث ممتد

ومتصل المحلقات من الممارسات الأمريكية المدمرة ضد بلدان العالم الأخرى – تكون الاستجابة الأكثر إغراء، "تلك هي الحقيقة، فلوموا أمريكا". لذا، نقوم بالبحث عن إجابات مريحة تخدم أهدافنا : إنهم يكرهوننا بسبب ما نتمتع به من حريات"، إنهم يحسدوننا لما نمتلكه من ثروات ولأسلوب معيشتنا المميز، إنهم يفضلون أن يلوموا الغرب بدلا من أن ينظروا إلى ما بهم من نقائص، وينطوى كل ذلك أيضا على قدر من الحقيقة، وإن لم يصب كبد المحقيقة بعد.

وأيا ما كانت جذور مناهضة الغرب وعدائه، فالا تزال الظاهرة تمثل مشكلة للغرب وللولايات المتحدة الأمريكية. فكيف يتوافق ذلك كله مع نظرة الإسلام للعالم ككل؟

إن نظرة معظم البلدان النامية تجاه الغرب المعاصر، ويخاصة الولايات المتحدة، تمثل مزيجا من إعجاب وتقدير وخوف وغضب، فنظرة الإعجاب بالغرب قد نشأت نتيجة لتنامى وتاثر التنمية الاقتصادية والسياسية به بدءا من القرن السادس عشر، إلا أن التطور الهائل على الصعيدين التقتى والعسكرى بالغرب هو، تحديدا، للسئول عن الغزو الغربي للحضارات الأخرى.

إذاً، فما القواسم المشتركة لعناصر مناهضة الغرب بين الحضارات الأخرى المعادية له؟ وهل يمكن لجبهة مناهضة للغرب أن تتحد فيما بينها لتثمر ردة فعل ملموسة ضد الولايات المتحدة؟ هل نحن ماضون نحو عالم تصدق عليه صفة "الغرب ومن عداه". يبقى هذا كله تجريدا للواقع، فالغرب ليس كيانا موحدا أو كتلة متجانسة، فهناك أكثر من "غرب" يتناوبون الحروب فيما بينهم على امتداد معظم سنى التاريخ، وبالمثل، فهناك أكثر من "شرق"، وأكثر من "إسلام"، وبالطبع أكثر من "من عداه". على أن هذه المصطلحات لا تكون ذات نفع أو مغزى إلا إذا اندمجت لتشكل نوعا محددا من القوى السياسية الناشطة القادرة على تغيير ما يلزم مما بعنينا.

وفي الآونة الأضيرة، فإن ائتلافا "ممن عدا الغرب" يشهده مسارح الأحداث جِزئيا ... وهو انتلاف مناهض للغرب والولايات المتحدة، فالعالم الإسلامي، اليوم -وهو عالم راديكالي مشتت مستثار يضج جراء الحرب العالمية ضد الإرهاب، والمعلنة من قبل جورج بوش الابن وإدارته- ليمثل درجة عائية من تضامن ذاتي الرعى ... وهي درجة تقوق كل ما خلاها على امتداد التاريخ، ولعل ذلك النوع من تضامن المشاعر لا يمكن توظيفه واستغلاله مباشرة من قبل أية دولة على حدة، ولكنه يمكن أن يحدث ثورات وممارسات إرهابية متكررة، وتعطيلا وتسويفا للأهداف الأمريكية، وذلك على الصعيد الدولي. فالرؤى الإمبريالية للإدارة الأمريكية بقيادة بوش، والتي اقترحها الاستراتيجيون من المحافظين الجدد على نحو صريح، وأشكالها الأخف ظلالا في عهد كلينتون، - قد ولدت المزيد من المشاعر المناهضة للولايات المتحدة على امتداد معظم بلدان العالم، في العالم الإسلامي، وروسيا، والصين، وأمريكا اللاتينية. وحتى لو لم تستطع تلك القوى الاندماج لتشكيل تهديد عسكرى متماسك ضد الولايات المتحدة، فإنه يمكنها بسهولة تكثيف الجهود لإعاقة الاستراتيجية النولية لأمريكا عن تحقيق ماريها. وهو بالفعل ما نجحت في تحقيقه، إذ أدى مجرد سلوكها العدواني إلى تقليص هيمنة إدارة بوش، وشل قدرتها على القيام يما تريد.

اذا، فكلما تفكرنا بشأن "حدود الإسلام الدموية"، وجدنا أننا نتحدث، بالفعل، عن منظرمة معقدة من انظواهر والأحداث: حماية الجماعات ذات الحضارة والثقافة من خطر الهجوم عليها، والاستياء المشترك من المظاهر العدوانية للغرب، ومحاولات الدول اجعل رعاياها وحدة متجانسة، فإذا ما ذهبنا إلى أن الإسلام هو العامل الفاعل في الخلافات المجتمعية ... فكأنما نكثف توجهاننا ونركز أبصارنا على حالات بعينها من المعراع الدولي في لحظة تاريخية بعينها. كذلك، فإن الإيمان بأن زخم العداء للغرب لم يكن ليوجد إذا لم يكن ثمة إسلام على الإطلاق ليعد محض سذاجة. فروسيا، والصين، والهند – كحضارات ثلاث من تلك الأربع التي

سنتناولها بالتحليل - لديها جنور راسخة من مناهضة الغرب وفقا لوجهة نظر كل طرف على حدة، ويتواءم المسلمون مع تلك الأنماط بشكل أو بآخر،

أولا: سنتناول "روسيا" بشئ من التفصيل، كونها بلداً محورياً في سردنا الذي سيلي. إن روسيا على قدر كبير من الأهمية يقوق أهمية البلدان الثلاثة الأخرى: فقد ورثت روسيا مباشرة عن الحضارة البيزنطية نظرة الاشمئزاز للغرب فضلا عن قيامها بترسيخ تلك النظرة، كذلك فهي تضم أعدادا كبيرة من المسلمين بداخل حبودها، فضلا عن تقليب نظرها على امتداد القرون للاهتداء إلى الطريقة المنتى للتعامل معهم في ظل الحكومات المتعاقبة إبان الإمبريالية، والشيوعية، وأخيرا، في ظل "حكومات ما بعد انهيار الشيوعية". وأخيرا، فإن روسيا ما تزال منخرطة بعمق في الشرق الأوسط ... ذلك الإقليم الذي يمثل، بصورة أو بأخرى، عداء مشتركا للغرب وارتيابا تجاه أفعاله وممارساته.

روما «الثالثة» : روسيا والإرث الأرثوذكسي

باقتراب القرن الفامس عشر الميلادي، كانت بيرنطة تحتضر إذ قضى الغزو العثماني في عام ١٤٥٢ على آخر بقايا الإمبراطورية. على أن مفهوم الكنيسة الأرثوذكسية الكبرى (الأم) - كان محفورا في وجدان الإقليم على امتداده، قلم يكتب عليه الموت كما كتب على الإمبراطورية، وفي القصل الحالي، سنرى كيف انتقلت الشعلة البيرنطية إلى روسيا حيث احتفظت بشرارة الاستياء من الغرب والتشكك به، وكيف تم احتضان تلك الشرارة لتنفذ شكلا جديداً على مدار خمسة قرون إلى يومنا هذا، وقد استمر عداء الكنيسة الأرثونكسية للغرب قائما حتى بعد أن تزيت الإمبراطورية بإهاب إملامي في أعقاب الغزو.

إذاً، فقد استطاع الإسلام -في تلك المرحلة أن يستكمل فرض هيمنته، ويسط نفوذه على امتداد كامل الإمبراطورية البيزنطية البائدة - وقد تشابهت الإمبراطورية العثمانية مع سابقتها البيزنطية في العديد من المناحي والأمور، إلا أن الأولى كانت ترتدى حلة إسلامية. فالعثمانيون كانوا قد ورثوا العديد من مؤسسات بيزنطة الطليعية الكبرى، وعمدوا إلى استكمال اضطلاع تلك المؤسسات بمهامها في إدارتهم لإمبراطوريتهم متعددة الملل والإثنيات، وتصريف شئونها، وعلى حين كانت الضرية التي وجهت إلى المسيحية الشرقية ضرية قاصمة أدت إلى هزيمتها وفقدان الضرية التي وجهت إلى المسيحية الشرقية ضرية قاصمة أدت إلى هزيمتها وفقدان سلطانها، إلا أنه من المهم ملاحظة أن الإسلام لم يصبح العدو الأبدى اللدود المسيحية في تلك البقاع الشرقية من العالم، بل كان التعايش هو السمة السائدة مناك. وأيا ما كان شعور المسيحيين الآن فيما يتعلق بتلك الحقبة، فلم يكن ثمة بديل هناك. وأيا ما كان شعور المسيحيين الآن فيما يتعلق بتلك الحقبة، فلم يكن ثمة بديل

هنا وهناك ... كيعض الانتفاضات والثورات المحلية التي اشتعلت بين الحين والآخر، خاصة عندما بدأ نفوذ الإمبراطورية العثمانية يضعف تدريجيا، وتتنامى الحركات الانفصالية القومية والمدعومة من قبل أوروبا، وقد تم إخماد بعض الثورات المندلعة على نحو وحشى قاس، إلا أن الرعايا المحليين من المسيحبين كانوا قد انتفضوا وثاروا -أيضا بين الحين والأخر - ضد الحكم البيزنطى فيما مضى، كذلك فقد ثار لرعايا المسلمون وانتفضوا ضد الحكم العثماني الذي امتد لأجل طويل،

إن الإمبراطوريات الكبرى لا يخلو تاريخها، أبدا، من أن يشهد بعض مظاهر الاستياء العميقة من قبل الرعايا في هذا المكان أو ذاك. فنظرا لعشرة قرون من عدم ثقة الأرثوذكس بروما والغرب من جهة، وضرورة التعايش الأرثوذكسي مع الإسلام كوضع مستحدث من جهة أخرى الم يشهد الإسلام، في بسطه لنفوذه على امتداد الإقليم، قلاقل أو اضطرابات محلية تذكر، ولقد عاشت جماعات مسيحية

عديدة في الأقاليم العربية في ظل الحكم العربي لنحو ستة قرون قبل سقوط القسطنطينية. وبينما يمكن النظر إلى عام ١٤٥٢ باعتباره رمزا أو حدا فاصلا، إلا أن الحقيقة تكمن في سيرورة الأحوال واستدامتها في الإقليم، فأيا من أضحت بيده مقاليد الأمور في الأراضي المشرقية والأناضول والبلقان، فقد غدا حاملا لإرث جيوبوليتيكي من التوترات مع الغرب، وفيما يتعلق بروسيا، سنري ملامح ذلك الإرث تنتقل إلى العالم السلاقي الشرقي لتخلق علاقات جديدة متشابكة فيما بين المسلمين والمسيحيين هناك.

وفقا للمصادر التاريخية الروسية القديمة، فقد شقت الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية والأرثوذكمبية طريقها، منذ أكثر من ألف عام، إلى كييف، مهد الدولة الروسية الوثنية المبكرة. فعقب انتصار القسطنطينية على روما -- في قرن سبق ذلك، فضل البلغار والكثير من الشعوب السلافية الأخرى اعتناق المسيصية الأرثوذكسية على المسيحية اللاتينية. ويذكر أن الأمير "فلاديمير العظيم" -أمير كيف -- كان قد أرسل مبعوبين إلى مراكز الديانات الكبرى لتحديد مدى مناسبة أي منها لاعتماده وتبنيه في روسيا رسميا، وتزخر الروايات والنوادر المتواترة بردود أفعال أولئك المبعوبين حين عادوا إلى روسيا يحملون تقاريرهم وانطباعاتهم:

فبالنسبة لمسلمى البلغار فى وادى نهر القولغا، فقد أورد المبعوثون أن البسمة والسعادة لا تعرفان طريقا إليهم، إذ يتسمون بمظاهر الحزن التى تعلو وجوههم، فضلا عن رائحتهم الكريهة المنتئة. كذلك، فإن دينهم غير مستحب لتحريمه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، وقد أورد الأمير "فلاديمير" مقولته كانطباع لما سبق: "إن شرب الخمر هو لذة الروس ومتعتهم".

كذلك أرسل "فلاديمير" مبعوثين إلى اليهود سائلا إياهم عن دينهم الذي رفضه أيضا، إذ ذهب إلى أن فقدانهم لأورشليم دليل على أن الرب قد نبذهم، وأخيرا، انحصرت المقارنة ما بين المسيحية الكاثوليكية والمسيحية الأرثوذكسية، "ففى

كنائس ألمانيا المقبضة، لم يستشعر مبعوث "فلاديمير" أي ملمح جمالي، أما في "آيا صوفيا" بالقسطنطينية، حيث أديت الطقوس الاحتفالية بالكنسية البيزنطية لإبهارهم، فقد وجدوا ضالتهم المنشودة هناك. وقد ورد عن المبعوثين قولهم: "في أيا صوفي، لم نكد نعرف ما إذا كنا في الجنان، أم ما زلنا من أهل الأرض ... إن الجمال الذي شهدناه ليعجز البيان أن يوفيه حقه، وركل اللسان عن تصوير كنهة أيا، فقد تم الاختيار بما انطوى عليه من دلالات حضارية عميقة تستشرف إذاً، فقد تم الاختيار بما انطوى عليه من دلالات حضارية عميقة تستشرف المستقبل، على أننا واثقون من المكاسب السياسية والدينية الكبيرة التي حققها أنلاديمير" من خلال تحالفه مع القسطنطينية.

إن اعتناق روسيا للمسيحية كان نصرا ومكسبا جيوبوليتيكيا كبيرا للأرثوذكسية : فإلى اليوم تظل روسيا أكبر تجمع للطائفة الأرثوذكسية على الصعيد العالمي. كذلك، فإن روسيا هي المعبر الديئي الوحيد الذي تمتلكه الكنيسة الأرثوذكسية لقوة عالمية عظمى. وفي الوقت ذاته، ستدخل أفواج تلو أفواج من الرعايا المسلمين تحت سيطرة الإمبراطورية الروسية النامية لتتحول روسيا، كذلك، إلى "دولة إسلامية" هامة.

ولم يخامر العثمانيين أية شكوك في الطابع التاريخي والثقافي "للجائزة" التي حازوها، وانتقلت من البيرنطيين إلى أيديهم، فقد كانوا يلمون، عبر فترات ممتدة، بنظم الإدارة والحكم البيرنطي وهم يضمون، على نحو تدريجي، مناطق قصية وأراضي نائية من الإمبراطورية إلى حيازتهم، فسرعان ما سعى السلطان الغازي محمد الفاتح" إلى جعل القسطنطينية عاصمة ذات طابع عالمي متعدد الثقافات. كذلك، فقد دعا جميع المسيحيين الذين نزحوا من الإمبراطورية للعودة إليها، وإعادة الدينة إلى ما كانت عليه سلفا. أما بطريرك القسطنطينية، فقد خول سلطة الإشراف على الجماعات الأرثوذكسية بأكملها على امتداد الإمبراطورية، وفي حقيقة الأمر، فإن سلطات البطريرك ومساعديه، في ظل ولة الأتراك العثمانيين، قد جوبهت بالاستياء من قبل بعض الجماعات الأرثوذكسية باعتبارها انتهاكا لما تمتعت

به من حكم ذاتى آنفا، بيد أن الكنيسة الأرثونكسية كانت تستعد، أنذاك، لأربعة قرون طوال من التعايش في ظل الإمبراطورية العثمانية ... ذلك التعايش الذي سيعمل على تغيير كل منهما،

وفي الوقت ذاته، فقد تجشمت الكنيسة تكلفة حضارية باهظة. فبالرغم من تمكنها من تسبير أمورها وفق سلطة دينية قوية في ظل الإمبراطورية العثمانية، إلا أنْ نقودُها السياسي، الذي جرد من مؤازرة دولة أرثودُكسية أيا ما كانت، قد تم تقليصه على نحو كبير، وفي ظل الإمبراطورية العثمانية، زادت عزلة الكنيسة الأرثوذكسية، وتقلصت روابطها بالاتجاهات الثقافية والدينية السائدة في الغرب أنذاك. كذلك، فقد أضحت الكنيسية أكثر انطواء على ذاتها، وواصلت اتجاها تراجعيا سابقا من قضايا وأمور ثقافية و"عقلانية" لتمثل ما كانت تصطبغ به الأرثرذكسية كسمة مميزة غالبة – أهمية الإيمان والبعد الديني في الحياة "الروحانية" للقرد، وفضيلا عن ذلك، غلب على الكنيسة شعور عميق بالثنائية ما بين المسيحية الشرقية والمسيحية الغربية. فوفقاً للرؤية الأرثوذكسية، تصطبغ الكاثوليكية اللاتينية و'الغرب' بالمظاهر المادية و'العقالانية' (تغليب قيمة 'العقر' وإعلاؤها على الإيمان و الروحانيات) وكذا بالنزعة الفردية الخالصة، ناهيك عن الفساد الناجم عن العلاقة وثيقة العرى ما بين الكرسي اليابوي والكنيسة من جهة، والسلطة السياسية الدنيوية من جهة أخرى ... تلك العلاقة التي أفضت إلى خواء روحاني عميق، فالكنيسة الأرثودكسية ترى روحانياتها بأنها انبثاق مباشر من التعاليم المبكرة للمسيح نفسه، والتي لم تلوث بفعل "سياسات" الكنيسة اللاتينية والكرسي البابوي، إذ دائما ما كان ينظر إلى روحانيات وأخرويات الأرثوذكسية بأنها تمثل ما كان يفتقر إليه الغرب المفصح عنه، باستحقاق وجدارة، في جدبه وخوائه "الروحاني"، وتهيمن تلك الأفكار بقوة على روح الأرثوذكسية وعقلها، وتبقى حاضرة في "بلاغاتها الخطابية" إلى يومنا هذا،

روسيا أو "روما الثالثة"

لقد آذنت شمس الإمبراطورية الرومانية الشرقية بالأفول، ولكن ما كان الأعراف والتقاليد الإمبريالية للمعتقد الإيماني الأرثوذكسي لتذوى مع سقوط القسطنطينية ... إذ تم الحفاظ عليها بواسطة "إيفان الثالث" – قيصر روسيا، والذي أعلن موسكو "روما الثالثة" لتخلف مركزي النفوذ المسيحي الروماني والبيزنطي. ولتعضيد ادعائه، فقد قام "إيفان" بتعزيز أواصر رابطة ملكية مع القسطنطينية من خلال زواجه من صوفيا باليلوغ – سليلة آخر أباطرة بيزنطة. كذلك، فقد استخدم شعار النبالة البيزنطي –النسر دو الرئسين – شعاراً لملكته، والذي ما زال، إلى اليوم، شعارا النبالة في روسيا.

إن اعتماد مصطلح "روما الثالثة" من قبل موسكو قد تجاوز مجرد الصفة الإمبريالية، فقد مثل رؤية تبشيرية لدور حضارى وروحانى جديد ... الترام قد وضع على عائق روسيا للحفاظ على الإيمان الصافى والحقيقى للمسيحية إزاء شرور وهرطقات كل من الكاثوليكية الرومانية والإسلام، ولعل أبرز ما يوضح تلك " لنكهة النبشيرية" الروسية الجديدة – الرسالة التي يعث بها الراهب "فيلوطيوس" السكوفي إلى القيصر "باسيلى الثالث" :

لقد سقطت كنيسة "روما" القديمة بسبب ممارساتها الهرطقية، كما انهارت أبراب "روما" الثانية تحت معاول الأثراك "الكافرين"، أما كنيسة موسكو، كنيسة "روما الجديدة"، فهى تشرق كما الشمس أو يزيد على الكون بأسره ... فأنت سيا باسيلى عامل جميع الرعايا المسيحيين، عليك أن تدبر مقاليد الأمور في إطار من خشية الرب ... عليك بخشية الرب الذي جعلك على هذا الملك، لقد سقطت روما الأولى والثانية، ولكن هاهى "روما الثالثة" تقف شامخة ... قلن تكون ثمة "روما رابعة" أبداء لا، لن تزول مملكتك وإن تخلفها أخرى.

إذاً، فالتواصل لم يتوقف عند هذا الحد، أكان ثمة إسلام أم لم يكن. كذلك، لم

يندثر مفهوم "روما الثالثة" بسبب المثمانيين. ففي تلاحم رائع ما بين الرؤى التاريخية الإسلامية والمسيحية شرقى المتوسط، شرع السلطان "محمد الثاني"، بعد الغزو العثماني، باعتبار نفسه وارث الأعراف الإمبراطورية التي سادت في بيزنطة، كما أطلق على نفسه لقب "قيصر الروم". وقد قام "محمد الثاني" بانتقاء بعض الأعراف القضائية والإدارية البيزنطية لاعتمادها في الإمبراطورية بما من شأنه الحفاظ على طابعها القومي والديني التعددي، وفي تنويعة رائعة على اللحن ذاته، نهب المؤرخ التركي "أبير أورطاي" إلى أن "محمد الثاني" قد رأى "القسطنطينية العثمانية" أنذاك -روما الثالثة" التي جاءت لتخلف "روما" الوثنية في إيطاليا، وتخلف "روما" الأرثوذكسية الشرقية في القسطنطينية- إذاً، فهي "روما الإسلامية" الأن في اسطنبول. ووفقا لتلك الرؤية، لم يمثل الإسلام اعتراضا أو رفضا الأمسيحية الشرقية، بل عمد، في امتداد وتواصل كبيرين، إلى انتقاء العديد من الأعراف الإمبراطورية الشرقية المستقاه من المسيحية وتبنيها ودمجها في إطار ما سيصبح لاحقا أكبر إمبراطورية إسلامية شهدها العالم ... تلك الإمبراطورية التي في مرتبتها مندت لآجال طوال. وفي هذا التحول الكبير، نجد الإمبراطورية تطغي في مرتبتها على قضايا للعتقد الديني ذاته.

وقد ورد بإحدى مر جعات كتاب يتناول العثمانيين والغرب:

... إن الناوشات والمعارك التى اندلعت بين الهابسيورج والعثمانيين (عند بوابات قيينا)، والتى احتشد فيها كثير من التابعين فى صفوف كل فريق – لم تمثل "صراعا للحضارات" بقدر ما مثلت "صداما للإمبراطوريات". فرغما عن الشعارات الدينية التى صاحبت تلك المعارك، فلم يكن الصراع صداما بين الإسلام والمسيحية إلا عرضا، إذ كان الهدف المرجو هو يسط الهيمنة على الأراضى كلما أمكن ذلك، إلى جانب هدف لم يقل أهمية وإن بدا أقل تحديدا، وهو الحق فى ادعاء حيازة إرث الإمبراطورية الرومانية ،.. ألم يزح "محمد الفاتح" الحكم البيزنطى باستيلائه على القسطنطيئية قبل قرنين؟ إذ لم تكن الرغبة، مطلقا، طمس معالم التجرية البيزنطية

أو محو تاريخها، بل عمد العثمانيون إلى المفاظ عليها كحق لهم.

الشكوك الأرثوذكسية الروسية إزاء الفرب

منذ أن انحاز الوثنيون الروس الأوائل إلى المسيحية الشرقية الأرثوذكسية بتفضيلهم إياها على المسيحية الكاثوليكية، شرعت الكنيسة الأرثوذكسية في صبغ روسيا بقوة بطابعها الحضاري والثقافي، وتضمن هذا مهمة روسيا الجديدة المتمثلة في خلاص البشرية وانعتاقها عن طريق نشر المعتقد الإيماني لحق. وقد انتشرت عدة مظاهر إيمانية جاءت لتصبغ الثقافة الروسية: الينابيع الأصيلة للتصوف الروسي، تقاليد الإيمان الصوفي وأعرافه، القديسون وتجوالهم، الإيمان بزهد الفلاح الروسي ويساطته، وكذلك نقاء الروح الوسية وأصالتها، فضلاعن مهمة روسيا الحضارية التنويرية، وقد اجتمعت العوامل السابقة جميعها لتعضيد المعتقد الراسخ لدى المؤمنين الأورثوذكس بشأن التوسعية، والمادية المغربة والحرص المبالغ فيه، والطابع الفردي، ومظاهر الفساد التوسعية، والمادية المفرطة، والحرص المبالغ فيه، والطابع الفردي، ومظاهر الفساد الناهر التي اصطبغ بها الإيمان الشعبي الروسي لاحقا خلال القرن التاسع عشر في مناهج التفكير الفلسفي الروسي في تمجيدها الرؤية العالمية للأرثوذكسية في مناهج التفكير الفلسفي الروسي في تمجيدها الرؤية العالمية للأرثوذكسية وشمولية السلافية وعالميتها.

وإلى اليوم، تبقى روسيا تعانى ازبواجية تجاه الغرب – وهو جانب من صراعها لتأكيد هويتها، فلطالما اصطدمت الآراء والمشارب الموالية للغرب مع تلك المناصرة للعنصر المحلى، ذلك الصدام الذي لتخذ، لاحقا، شكل المصراع بين "المستغربين" الروس، وبين عاشقى "السلافية"، إذ كان "عاشقو السلافية" يمثلون رؤية رومانتيكية للحضارة الروسية وأعرافها "الروحانية" الفريدة في مواجهة الغرب بوحشيته وماديته. وقد كان هذا الخوف مبررا: فبعد أن لنحسر التهديد

المغولي/ائتترى الروسيا في القرن الرابع عشر، كانت أخطر التهديدات الخارجية لموسكو تلوح من الغرب سواء من قبل بولندا الكاثوليكية الرومانية، أو من قبل الفرسان الجرمانيين، أو فرنسا بقيادة "نابوليون"، أو السويد والولايات الألمانية البروتستانتية، أو من قبل هنار،

كذلك، فقد تواد ادى الروس شعور بالدونية تجاه الغرب بمنجزاته التكاولوجية، وبلدانه القوية المسيطرة، وقوته الاقتصادية والعسكرية. وفي كتابهما الاستشرافي، التغريب"، أشار "أيان بوروما" و"افشاى مارغاليت" إلى أن جنور الفلسفة العاشقة السلافية والمناهضة للغرب مستقاة من الفلسفة الرومانتيكية الألمانية، والتي متأت بدورها، في جانب منها، ردة فعل إزاء قوة فرنسا الاقتصادية والعسكرية المهيمنة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومع اندلاع الثورة الفرنسية، أضحت فرنسا تجسيدا للشعور التنويري يتقوق المنطق والعلم مقارنة بالدين والحدس، ولقد كانت فرنسا "الرشيدة" أيضا خلال حكم "نابوليون"، والتي بدت ممثلة للغرب – هي كانت فرنسا "الرشيدة" أيضا خلال حكم "نابوليون"، والتي بدت ممثلة للغرب – هي من شنت هجوما شاملا على روسيا، وحاصرت موسكو، إلا أنها سرعان ما منيت بهزيمة نكراء مذلة على أيدي القوات الروسية المتداعية، وبفعل "الشتاء القارس" كقوة من قوى الطبيعة التي أسهمت في حماية "روسيا المقدسة".

إذاً، غلم يكن مستغربا أن يعتبر المفكرون الروس الأيديولوجية المحركة لفرنسا ... تلك الدولة الغربية الصليبية ذات البعد التوسعى الاستيطائى – تهديدا لروسيا وقيمتها. ولقد كانت الرومانتيكية الألمانية بإعلائها من شأن العاطفة، والحدس، والغن الشعبى، ومكانة "الطبيعة" إزاء "التصنيع" ووحشيته المفرطة – أكثر توافقا وتواؤماً مع الفكر الروسي المنحاز للسلافية. ولقد تم تمجيد الطابع السرمدى للقيم الروسية القومية في روايات أساطين الأدب الروسي من أمشال تولستوي ودوستوفسكي. كذلك، فقد آفرزت روسيا خلال القرن التاسع عشر نتاجا ضخما من الفكر الفلسفة الذي انتقد الأساس المادي البحت، بل والعدمي، للفلسفة الغربية. (وفي المقابل، فقد أفرزت، أيضا، نتاجا هائلا من الجدالات المضادة التي

قدمها الفلاسفة الروس المؤيدون للتغريب).

ولعل أهم وأبرز آمــثلة ذلك النوع من الفكر الروسى نجـده في كـتـابات المستقراطية، والذي قام بنشر مفهوم "البعد البيزنطي" وهو المفهوم الذي يذهب الأرستقراطية، والذي قام بنشر مفهوم "البعد البيزنطي" وهو المفهوم الذي يذهب إلى أن جنور روسيا الأصيلة تجد امـتداداتها في بيزنطة – المملكة والكنيسة الأرثودكسية . وقد دعا ليونتييف إلى ضرورة مناهضة روسيا التأثيرات الكارثية للغرب، والتي تزيت بالعدالة والمنفعة والثورة. ووفقا له، يكون على روسيا، بالمقابل، أن تتجه في توسعاتها الثقافية والجغرافية صوب الشرق ... صوب الهند والتيبت والصين. كذلك، فقد احتوت كتابات ليونتييف على آراء صائبة سديدة ذات بصيرة تأقبة وعمق جلى – نادى بها قبل بداية القرن العشرين بشأن التطور المستقبلي للغرب، بما فيها الإيمان بأن ألمانيا سرعان ما ستتسبب في اشتعال حرب أو حربين كونيتين في أورويا. وكذلك بأن روسيا سوف "تشهد ثورة دموية تقودها عناصر لا تؤمن بالمسيح أو المسيحية، وإنما تنحو طبيعتها إلى النهج الاشتراكي والاستبدادي ... تلك الثورة التي سيعمد نادتها إلى السيطرة على مزيد من النفوذ والقوة بأكثر مما حازه أسلافهم القياصرة". وقد ننباً ليونتييف "نبوءة" خارقة بأن الاشتراكية هي إقطاع المستقبل".

إن الكثير من الغريبين برفضون فكرة "مناهضة الغرب" على أنها مغالطة، لا على كونها جدلا ونقاشا يخضع للمنطق" – فكيف يمكن للمرء أن يكون مناهضا للغرب على أسس عقلانية رشيدة؟!". بيد أنه إذا كان مفهوم "مناهضة الغرب" تكتنفه بعض المغالطات، فإن طابع القوة الغربية نفسه وممارساتها ذاتها في سعيها للغزو والهيمئة، وفي اتسامها بالتفرقة العنصرية – ينطوي على مغالطات أيضا. ولريما لا يكون الغرب قريدا في إبراز تلك السمات، إلا أنه قد مارسها في سياساته العالمية وفق شكل جارف وكاسح بالمقارنة بأية قوى أخرى في العالم على امتداد معظم سنى العصر الحديث، إذاً، فالغرب كونه أكثر ممارسي تلك العناصر السلبية

فى العالم هو من يثير مشاعر الكراهية والعداء، وفيما يذهب البعض إلى تسمية تلك الظاهرة "صدام الحضارات"، فإنه من الجلى أن دلك "الصدام" لا يرتبط كثيرا بالقيم الحضارية، وإنما يرتبط بحقائق بعينها بشأن المواجهات الغربية العنيفة مع الشرق على امتداد القرون الخمسة المنصرمة.

وفيما يمكن أن تكون صدمة للأذن الأمريكية، يذهب "فاسيليوس ماكريدس"، للباحث في الشئون البيرنطية بجامعة "ايرفورت" إلى القول بأن "مناهضة الغرب قد بلغت أوجها خلال هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وتكون أشكال مناهضة الغرب هي النتيجة الطبيعية للغزو السياسي والاقتصادي والثقافي الغربي على امتداد العالم ككل خلال العصور الحديثة في أعقاب تنامي قوى الإمبريالية والكولونيالية".

ويضيف "ماكريدس" قابلا:

"من المثير أن خلاحظ بعض الائتلافات المناهضة للغرب، والتي تشكلت وقتذاك وفق خطوط كانت لتكون غير متناسبة أو متكافئة في ظل ظروف مغايرة وتحديدا، ذلك الائتلاف بين الأرثوثكس والمسلمين في منطقة شرقي المتوسط ... فمناهضة الغرب وفقا للأرثوذكس، ونظيرتها وفقا للمسلمين كانا مختلفين تماما، إلا أن ائتلافهما لم يكن غريبا أو شاذا ... ويمكننا ملاحظة أتجاه مشابه إزاء المسلمين والمسيحيين الغربيين في روسيا الأرثوذكسية خلال القرن الثالث عشر الميلادي. إذ فضل القيصر "الكسندر نفسكي" عقد ائتلاف مع التتار والمغول من أن يدخل مع روما في تصالف مناهض للمسلمين، وهو ما اقترحه البابا "اينوسنت الرابع" عام ١٩٤٨.

وبلا شك، فقد تخلف العالم الأرثوذكسى - روسيا، وشرقا أوروبا، والبلقان، وأجزاء من الشرق الأوسط - بالمقارنة بأوروبا الغربية فيما يتعلق بالتنمية الصناعية والاقتصادية المعاصرة، وهو الأمر الذي أدى إلى خلق شعور بالنونية لدى العالم

، لأرثوذكسى تجاه الغرب، وقد عضد الغرب من هذا الشعور من خلال استعراضه المغرور الصلف لنفوذه الإمبريالى الذي طال الكثير من بلدان العالم ككل إبان العهد الإمبريالى، بما فيها الصين، إن جل مشاعر كراهية الغرب ومناهضته قد تولدت غارج العالم الإسلامي، كم حدث في الصين خلال القرن التاسع عشر، على أن السلمين قد شاركوا أيضا في تلك المشاعر، مما ساعد في تعزيز نوع من التضامن بين المفكرين المناهضين للغرب.

أما الغرب، فقد كانت له يدوره نظرة عدائية استبعادية وقف بموجبها بمنأى عن العالم الأرثوذكسى، ففى أعقاب "الصدع الكبير" عام ١٠٥٤، أصبحت الكنيسة الشرقية، بالفعل، منافسا صريحا – إن لم تكن خصما لنوداً لروم، فالتخوم ما بين الكاثوليكية الرومانية والأرثوذكسية شرقى أوروبا، وفي منطقة البلقان ظلت تصبغها الصراعات والمواجهات حتى يومنا هذا – قارن التوترات والانقسامات ما بين الأرثوذكسية والكاثوليكية في أوكرانيا، وكذلك مشاعر العداء والانقسامات المحضارية المستمرة ما بين روسيا الأرثوذكسية وبولندا الكاثوليكية، والتي اتخذت طابعا جيوبوليتيكيا،

وخلال القرون المنصرمة، فإن الأوروبيين قد ذهبوا إلى تعريف 'أوروبا' بأنها 'أرروبا الغربية'، حتى أنهم اعتبروا أوروبا الشرقية، عالماً أخر مختلفاً. أو بالأحرى موضعاً منعزلاً قلما تكامل مع باقى القارة الأوروبية. فوحدها الثقافات الكاثولبكية/ البرونستانتية للتشيك والبولنديين والهنغاريين هى التى أجيزت ضمن الحدود الثقافية الأوروبية، وحين سقطت أوروبا الشرقية، الكاثوليكية والأرثوذكسية، فى قبضة الاتحاد السوڤييتى، فإن الفجوة الحضارية بين كلا المعسكرين قد تم ترسيخها أكثر من ذى قبل. كذلك، فقد واجه الاتحاد الأرثوذكسي أكثر مما واجهه بالنسية لتلك ذات المعتقد الكاثوليكي أو البروتستانتي. لذا، فقد كانت بولندا، وجمهورية التشيك، وسلوفاكيا، وهنغاريا أيسر أن تستوعبها أوروبا، أما رومانيا،

وصربيا، وبلغاريا، وبطبيعة الحال أوكرانيا وروسيا، وكلها ذات معتقد أرتوذكسى، فلم يكن الأمر بمثل هذا اليسر،

كذلك، فقد تم الإفصاح عن التباينات الحضارية والثقافية من خلال الفن والطقوس الكنسية. فالغرب قد أجاز استخدام الألات الموسيقية في الطقوس والشعائر بالكنائس الغربية لتحل محل الموسيقي والغناء الجريجوري المميز للطقوس الشرقية، أما المعمار، فقد هجر الغرب التصميمات الكنسية الأرثونكسية التقليدية التي اعتمدت أسلوب القباب -والتي اعتمدها المسلمون لاحقا في تصميماتهم لأبنية مساجدهم- وتيني (الغرب) العمارة القوطية والتي كان ينظر إليها الأرثونكس على أنها أكثر أقسوة و"جفافا". كذلك، حافظ التصوير الديني في الشرق على التصاوير الأكثر انضباطا وكمالا، والتي ميزت العالم البيزنطي، تلك التي كانت على النقيض تماما من التصاوير الدينية الأكثر واقعية الميزة للغرب، بما فيها التصاوير التي تماما من التصاوير الدينية الأكثر واقعية الميزة للغرب، بما فيها التصاوير التي تماما من التصاوير الدينية الأكثر واقعية الميزة للغرب، بما فيها التصاوير التي تماما من التصاوير الدينية الأكثر واقعية الميزة للغرب، بما فيها التصاوير التي تماما من التصاوير الدينية الأكثر واقعية الميزة الغرب، بما فيها التصاوير التي تماما من التصاوير الدينية الأكثر واقعية الميزة الغرب، بما فيها التصاوير التي تماما من التصاوير الدينية الأكثر واقعية الميزة الغرب، بما فيها التصاوير التي تماما من التصاوير الدينية الأكثر واقعية الميزة الغرب، بما فيها التصاوير التي الكفر والتجديف.

روسيا الجديدة

منذ انهيار الاتحاد السوڤييتى عام ١٩٩١، تعكف الدولة الروسية الجديدة، والتى انبثقت من رماد الاتحاد السوڤييتى المنحل، على استعادة هويتها التقليدية ومكانة الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وبينما عانت الكنيسة كثيرا إبان الحكم السوڤييتى وتم تسييسها، على نحو كبير، في انخراطها لخدمة الدولة ومصالحها، إلا أنها شاركت الحزب الشيوعى الروسي خوفا تقليديا من الغرب وكراهية له وعلى حين خافت الكنيسة الروسية من الكاثوليكية، فقد رأى الحزب الشيوعى، وفقا لمعتقده الماركسي-اللينيني، الغرب على أنه معقل الراسمالية. إذاً، فالكنيسة الروسية والحزب الشيوعى كانا مدركين لتاريخ الهجوم الغربي على روسيا، والذي المتهدف الإطاحة بالدولة الروسية.

إنْ المواقف والاتجاهات التقافية تبقى وترسخ رغما عن مرور الزمن. لذا،

وليس من المستغرب أن نشهد، ثابية، في ظل الفيدرانية الروسية الجديدة إحياء وانتعاشا للمخاوف والشكوك والكراهية ذاتها تجاه الغرب، تشاركها في ذلك، على نحو مستحدث، الكنيسة الأرثوذكسية التي تم إحياؤها وتفعيلها ثانية، كذلك، فسرعان ما احتضنت الدولة الروسية الجديدة، في مرحلة ما بعد الحكم السوڤييتي، الكنيسة الأرثوذكسية ثانية كرمز ومكون أساسي من مقومات القومية الروسية. ولا تزال الكنيسة الروسية تمتلك قوة شعائرية وطقسية جاذبة يمكنها أن تستحث ،لشعور القومي - ذلك المزيج القديم الذي ينتظم الدين والخلاص والإثنية والقومية.

إن المخاوف الأرثوذكسية المعاصرة من الغرب لها ما يبررها. فالمشاعر قد استثيرت بقوة حين هرعت إرساليات التبشير الغربية بالكاثوليكية الرومانية وبالبروتستانتية إلى روسيا عقب انهيار الاتحاد السوڤييتي لملء الفراغ "الروحاني" في هذه المرحلة بانسعى لجعل الأرثوذكس يعتنقون المذهب الكاثوليكي أو المذهب البروتستانتي. وقد تم تكريس مضصصات غربية طائلة لتسهيل عملية تحول الأرثوذكس إلى اعتناق أي من المذهبين، في وقت كانت المصاعب الاقتصادية في الاتحاد السوڤييتي على أشدها، وفي هذا الإطار، فقد اتهم البطريرك الروسي روما بالسعى لشيراء ذلك التحول المذهبي لمواصلة هدف ها القديم الخيراق العالم الأرثوذكسي إرساء دعائم الهيمنة الكاثوليكية. وفي معرض تعليقه على هذا الشأن، أورد أحد المراقبين الغربيين:

"هنا في موسكو، إلى جانب سان بطرسبورج، وغيرها من المدن الروسية الكبيرة، فإنه من الصعب عدم ملاحظة مواكب الوعاظ، والتبشيريين، ورجالات الكنيسة، والمعلمين غير المقيمين تقد من الولايات المتحدة الأمريكية، وغرب أوروبا، وكوريا، والهند ... وقد انتشرت دعوتهم ورسالاتهم داخل محطات الترام، وبداخل صناديق البريد، كما أمطرت تلك الرسالات أثير الإذاعات وموجاتها ... لذا، فليس مستغربا أن يشعر العديد من الروس بالانكشاف والخوف وأنهم غير مستعدين لأولئك الأجانب من حاملي "كلمة الرب ورسالته"، وقد رغب البعض منهم في كبح

جماح ذلك الإعصار الديني إن لم يخمدوه بالكلية، وفي هذا الصدد، قام البرلمان الروسي، "الدوما"، بالكشف عن تعديلين مقترحين بشأن قانون "الحريات الدينية" بما يتماشي مع تلك المشاعر كونها انعكاسا لها،

وفى محفل دولى لشعوب الروسية عام ٢٠٠١، أشار العديد من المتحدثين إلى انتشار الملل والمعتقدات الدينية الغربية في الأراضي الروسية. وقد مرر البرلمان الروسي مشروعات قوانين للحد من حرية النبشير في روسيا - حيث كان الهدف هو الحد من انتشار التحول إلى المسيحية الغربية، لا الإسلام. وفي هذا الصدد، فقد أزر الكثير من الروس هذا الدفاع عن الإيمان الروسي المحلي إزاء التأثيرات الخارجية، والتي كانت أهدافها ونواياها موضعا للشك. اذا، فقد جعلت الكنيسة الأرثوذكسية من الصعب على الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية، وعلى نحو خاص الكنيسة الإنجيلية أن تعارس التبشير في روسيا أو القيام بتدشين نصو خاص الكنيسة الإنجيلية أن تعارس التبشير في روسيا أو القيام بتدشين محركا رئيسيا للتيه الحضاري والزهر القومي، وتتوازي هذه الظاهرة، تماما، مع محركا رئيسيا للتيه الخضاري والزهر القومي، وتتوازي هذه الظاهرة، تماما، مع البور الذي يضطلع به الزهو القومي على امتداد العالم الإسلامي حين تواجه الجماعة المسلمة "غربا" ذا ثراء وسطوة ... ذلك الغرب الذي ينظر إليه بأنه يسعى التقاليد.

فالكنيسة الأرثوذكسية، ويحق، تحمل تاريضا يريو على عشرة قرون من الإيمان، والشعائر الكنسية، وموسيقى الطقوس، والقديسين، والأيقونات. وبينما لا يجعلها ذلك بالضرورة كنيسة للدولة، يرى الكثير من الروس أن الأرثوذكسية هى دين الدولة، إذ يذهبون إلى أن روسيا لا يمكن إلا أن تكون أرثوذكسية، وأنه، وفقا للتاريخ، فإن الكنيسة الأرثوذكسية كانت على الدوام كنيسة الدولة.

إذاً، فالدولة الروسية تقوم بإحياء قوميتها وإنعاش الأعراف القومية والأمجاد

بخاصة من خلال الكنيسة الأرثوذكسية الروسية بوصفها محركا ثقافيا وحضاريا بعيد الأثر، وفي هذا النصوص، فقد تم استعادة المقومات المسيحية الآن ودمجها بالمشهد السياسي في روسيا، والذي اصطبغ بالإلحاد إبان الحكم السوڤييتي، إذ أخفقت ثلة قليلة من السياسيين خلال ذلك الحكم في استحضار أهمية المبادئ والقيم الدينية. وقد أورد 'جريجوري بافلينسكي'، زعيم حركة "بابلوكو" السياسية ملاحظته بأن "غياب الإيمان بعد مقدمة للفساد والبيروقراطية، مما يؤدي بالتبعية إلى استشراء ظاهرة الإرهاب ... فالإصلاحات الاقتصادية المطبقة في دولة لا تؤمن بوجود "الرب" تعد ضربا من المستحيل".

أما "فالبرى غانشيف"، رئيس اتحاد الكتاب الروس، فقد صرح وأعلن مخاوفه من "أن روسيا تقوم باستنساخ خلايا "اللاأخلاق"، والتي اكتسبتها من الثقافة الغربية"، كما طالب بأن يعرض مطلباً جماهيرياً على الحكومة مفاده أن يتم إنقاذ البلاد من الفساد والفسوق. كذلك، فقد يتم تأجيج تلك التوترات وترسيخها عن طريق ما يعرف "بالإشكالية التوحيدية"، القائمة حتى الآن، فيما بين الكاثوليكية والأرثوذكسية حول أحقية وجدارة من سيمنح حق التحكم في الكنيسة "النسطورية"، وكنيسة "أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح" وذلك في أوكرانيا وبيلاروسيا " وهي قضية شائكة تماما في الصراعات لجيوبوليتيكية فيما بين روسيا والغرب.

إعادة إحياء الأرثوذكسية

يمكن أن يسلك التحول لاعتناق دين آخر أو ملة مغايرة مسارا ما، كما يمكن أن يسلك المسار للضاد. وقد لاحظت الكنيسة الأرثوذكسية، على امتداد العالم، في شعور يملؤه الرضاء اهتماما متناميا بالأرثوذكسية، واتجاها من الطوائف والملل المسيحية الأخرى إلى اعتناق رسالتها الدينية الأكثر أصالة ونقاء، وقد نادت بأن جوهر الدين هو "الروحانيات" ... هو كلمة "الرب" التي تملأ حياة المرء بالورع

وتصبغها بالصلاح والثقوى، ويكون المرء في دلك ساعيا أن يصبح "عبدا ريانيا" في مختلف مناحى حياته. إذ يمكن أن يأتي خلاص المرء وانعتاقه في هذه الحياة الدنياء لا أن يؤجل إلى الحياة الآضرة – إذا حبرت "الروح القدس" المرء من الخطيئة، وغمرت النفس "بالروحانيات"، إذاً، فالطقوس والشعائر الدينية قد أريد بها أن تملأ القلوب بكلمة "الرب"، وأن تثير المشاعر والصواس من خلال حرق البخور، وسماع الألحان الروحانية، ورؤية الإيقرنات، والاستمتاع بالأردية والملابس الطقوسية، واستشعار السعادة والوجد، واستحضار "الرب" في حياة المرء، وتزكية النفس بالتأمل "الروحاني"، والاقتراب من العمق الإيماني، وتلمس الطاقة الروحانية المقدسة والنهل من معينها خلال الحياة الدنياء وعدم الانتظار للتمتع بها فقط في الآخرة... في المجمل، إنها تجربة دينية براد بها إنعاش "الروحانيات" أدى المرء. ويؤمن معتنقق الأرثوذكسية أن الخصائص الريحانية للكنيسة يتم تحجيمها وتهميشها في المناخ العلماني الدنيوي الجارف، والذي تحيا فيه الكنيستان الكاثوليكية والبروتستانتية في الغرب، واللتان تذهبان، في بعض الأحابين، إلى الاهتمام بالصرعات الاجتماعية وتزعات المارسات السياسية المختلفة. ويذهب الباحث الأمريكي "نيقولاي بترو" إلى القول بأنه "إذا ما قدر الأوروبا القرن الحادي والعشرين أن تتزيا بإهاب ديني، فسيكون هذا الإهاب، بالأساس، متمثلا في المسيحية الأرثوذكسية الشرقية"، في إشارة منه إلى نزعتها الريحانية الغالبة.

إن الصدع القائم بين المسيحية الأرثوذكسية والمسيحية اللاتينية هو صدع بعيد الغور عميق المدى، وهو أقدم من ذلك الصدع بين الإسلام من جهة، والمسيحية من جهة أخرى. وقد تأثر كلا الصدعين، على نحو كبير، بالاعتبارات الجيوبوليتيكية الهيمنة والنفوذ، وقاما بتوظيف الدين كرمز، أو بالأحرى كمحرك لذلك التنافس. وبالقطع، فإن هناك تباينات عقدية عدة، إلا أنها قد اتخذت أشكالا جديدة حين تم ربطها بالبلدان المتصارعة وبقوى المشاعر القومية المتأججة.

ولعل المثال الأوضح والذي يعكس أصداء أمثال تلك المشاعر هو الطيف الديني

واسع المدى الذي تتراوح بين طرفيه العديد من الطوائف الدينية اللبنانية اليوم - السنة، الشيعة، المارون، الروم الكاثوليك، البروتستانت، الأرثوذكس الشرقيون، الدروز ... وكثير أخرون، وعلى امتداد ذلك الطيف الواسع، فإن الأرثوذكس الشرقيين، على وجه الخصوص، هم الأكثر امتلاكا لحس فطرى بطبيعة الملمح النفسى المسلمين، وكذا بممارساتهم السياسية. اذا، فليس من قبيل الصدفة أن يحتفظ على الدوام بمنصب وزير الخارجية في لبنان لفرد من الطائفة الأرثوذكسية. إن الأرثوذكس الشرقيين في لبنان يدركون، بالفطرة، طبيعة التوازن ما بين السيحية والإسلام، ودورهما المشترك المؤدى باقتدار وبراعة ضمن فعاليات السيحية والإسلام، ودورهما المسترك المؤدى باقتدار وبراعة ضمن فعاليات السياسة الدولية ومعطياتها. ويحوز الأرثوذكس الشرقيون هناك ثقة المسلمين بأكثر مما تحوزه أي من الطوائف المسيحية الأخرى. وتنبع تلك الحساسية الأرثوذكسية، في جانب منها، من قدر من الحذر والاحتراز إزاء السياسات الغربية، كما تنبع من إدراكها أن المسلمين والأرثوذكس، حتى ولو لم تكن علاقاتهما البينية تصبغها إدراكها أن المسلمين والأرثوذكس، حتى ولو لم تكن علاقاتهما البينية تصبغها المؤدة والألفة على الدوام، فإنهم يتقاسمون بالفعل تاريخا حميميا ورؤية عالمية مشتركة. إذا، فألمواقف والاتجاهات الشرقية تتجاوز في نظرتها "الإسلام" باعتباره بينا ومعتقدا.

ولكن، كيف تأتى لروسيا أن تحافظ على علاقاتها بسكانها من المسلمين ذوى الكثافة العددية المرتفعة نسبيا، وكيف تفاعلت مع التوترات الإثنية والأيديولوجية الناشئة؟



نصوبر احمد باسبن نويئر فيئر (Ahmedyassin90



الفصل الثاس

روسيا والإسلام: بيزنطة ما زالت تحيا 1

روسيسا والإسسلام

لقد عاشت روسيا جنبا إلى جنب مع الإسلام لما يقرب من ألف عام، إذ يقيم بها أكبر تجمع المسلمين بالمقارنة باية دولة غربية أخرى – يقدر بنحو عشرين مليون نسمة بما يترارح ما بين ١٧٪ و ١٥٪ من إجمالي السكان. وقضلا عن ذلك، فإن هؤلاء المسلمين ليسوا مهاجرين كما هي المال في أوروبا الغربية، وإنما جزء أصيل من السكان الذين أضحوا من رعايا الإمبراطورية الروسية من خلال الغزو الروسي البلدان المجاورة، وفي الاتحاد الفيدرالي الروسي الجديد، يمثل المسلمون أكبر أقلية نينية من حيث العند، كذلك فإن الإسلام هو أكبر معتقد ديني في روسيا بعد الأرثونكسية، وتضم موسكو، الآن، تجمعا للمسلمين يقرق أي تجمع آخر في أية مدينة في العالم بأسره.

ويفضل تعداد مسلميها الكبير، تسعى روسيا، الآن، لأن تصبح عضوا مراقبا بمنظمة العالم الإسلامي، ومقرها مكة بالملكة العربية السعودية.

ولعل الحقيقة الأكثر دلالة هي أن جميع المسلمين في الأراضي الروسية هم، في الحقيقة، ليسوا من الروس، وإنما ينتمون إلى أعراق وإثنيات أخرى تركية بالأساس. وقد غزت الشعوب التركية والتترية والمغولية أراضي روسيا خلال القرن الثالث عشر الميلادي، مع ما انسمت به تلك الشعوب من حكم وحشي قاس حين أخضعوا "موسكوني" لعدة قرون. لذا، ففي روسيا، فإن أي اختلاف ديني غالبا ما يكون اختلاف إثنيا بالأساس – باعتبار العامل الإثني عاملا هاما في تكريس الخلاف وترسيخه، إذاً، فالمسلمون الروس باعتبارهم ينتمون، بالأساس، إلى أعراق أتركية" هو أهم كثيرا من كونهم مسلمين فحسب.

ويم أن الإمبراطورية البيزنطية قد سقطت على أيدى المسلمين من الأتراك والعرب، فإنه من المنطقى افتراض أن يكون الروس شديدى العداء للإسلام والمسلمين. بيد أنه من الصعب أن نعزى سقوط القسطنطينية إلى الإسلام. فهل لنا، حقيقة، أن نصدق أنه لو كان العثمانيون الأتراك غير مسلمين لكانوا امتنعوا عن غزو بيزنطة اليونانية ودحرها، وهي الإمبراطورية الغنية المنهكة آنذاك، بغض الطرف عن المعتقد الذي تعتنقه؟

خلال حقبة الحكم السوڤييتى لروسيا، كانت السياسات الإلحادية العنيفة الدولة تهدف إلى تدمير جميع الأديان والعقائد على امتداد الأراضى الروسية. بيد أنه بينما أضعف السوڤييت ممارسة الإسلام كمعتقد، على نحو كبير، إلا أنهم قد عجزوا عن القضاء عليه. فكما كان متوقعا، عاد الإسلام ليمثل قضية أساسية وهامة لموسكو في أعقاب انهيار الاتحاد السوڤييتى، وقد نالت ست جمهوريات

إسلامية استقلالها ولم تعد جزءا من روسيا، وبخصوص المسلمين المقيمين في روسيا، فقد كانت النظرة تتراوح بين اعتبارهم أعداء، ثم دعائم لروسيا القيصرية، ثم أعضاء أوفياء للإمبراطورية الروسية، ثم قادة محتملين للحركة الشيوعية المناهضة للإمبريالية في الشرق، ثم شركاء أيديولوجيين بوجه الإمبريالية الغربية، أو كقوميين مشكوك في ولاءاتهم، أو كإرهابيين أو انفصاليين خطرين، أو حمرة أخرى - كحلفاء محتملين ضد الهيمئة الإمبريالية الأمريكية، كذلك، فقد أوضحت التجربة الروسية كيف عمد المسلمون هناك إلى التواؤم والاندماج، وفق أساليب شتى، في روسيا المسيحية في ظروف متقلبة غير مستقرة، كذلك فقد يكون المسلمون هناك ما زالوا يكتشفون بعض المشتركات الجيوبوليتيكية إلى اليوم.

وبعد سقوط الشيوعية عقب انهيار الاتحاد السوڤييتى السابق، وبنهاية التوجهات الإلحادية الرسمية للدولة، والتمتع بمزيد من الحريات والاستقلالية الثقافية، برز الملف الإسلامي، على نحو جوهرى، ضمن اهتمامات الفيدرالية الروسية. إذ توافد النشطاء الإسلاميون من خارج الاتحاد السوڤييتى المتحل إلى الأراضي الروسية انشر الأفكر الإسلامية والترويج لها، تحدوهم في ذلك نوايا سياسية واضحة سلمية بالأساس، وإن وجدت أيضا بعض الاتجاهات شديدة العنف. وبالفعل، كان المسلمون الروس بحاجة ماسة إلى تلك الإرساليات التبشيرية، إذ ققد الكثير منهم، في ظل القمع السوڤييتي على امتداد أجيال ثلاثة، جانبا كبيرا من المعلومات عن الشرائع والمارسات الدينية، وكذا الطقوس والمراد منها، إلى الحد الذي أصبحوا معه يجهلون أساسيات الدين ككيفية أداء الصلوات على نحو سليم، وقد أسفر انهيار الاتحاد السوڤييتي عن قراغ روحاني عميق على امتداد كامل الأراضي الروسية، إذ كان الروس، بصفة عامة، متعطشين لبعث روحاني خديد يضفي ڤيمة إيمانية على حياتهم يستشعرون معها معنى هوياتهم وجدواها.

وقد أسهمت الاتصالات مع الإسلاميين من خارج البلاد في تعميق وعي المسلمين الروس بدينهم، وكذا بالروابط التاريخية التي ربطت روسيا بالعالم

الإسلامي خارج حدودها. كذلك، فقد شرع المسلمون، مرة أخرى، في تأدية مناسك فريضة الحج إلى مكة، وكذلك، وربما أكثر أهمية، بدأ المسلمون التواصل مع الفكر الإسلامي المعاصر بشتى أطيافه ومشاريه، والالتحام ثانية في العالم الإسلامي الذي أصبح الآن أكثر تسبيسا عما عهده مسلمو روسيا من قبل، وفي حين كانت يعض الاتجاهات الإسلامية ذات طابع راديكالي، كان معظمها سلميا في طبيعته واتجاهاته. إلا أن الاستثناء الصارح، في هذا الصدد، كان شمال القوقار – حيث واصل الكثير من الجماعات الإثنية الصغيرة، وبخاصة الشيشان، صراعها المسلح طويل الأجل، والذي امتد لقرن ونصف القرن يهدف تحقيق الاستقلال السياسي مستحضرا الإسلام، مرة أخرى، في تلك القضية، أما هزيمتهم الساحقة على أيدى القوات الروسية في تسعينيات القرن العشرين فقد أصبحت درسا الجميم الشعوب الأخرى في روسياء التي تستهدف الإنفصال ... وكانت مظاهر الهزيمة تتمثل في تدمير عاصمة الشيشان -جروزني- ومدن أخرى، مما خلف عشرات الآلاف من القتلى. على أن العاصمة قد تم إعادة بنائها، وفطنت موسكو -هذه للرة- إلى حصافة منح الشيشان درجة مقبولة من الحكم الذاتي داخل الأراضي الروسية ... إلا أن الكثير من الدماء الشيشانية قد أريق، كما أزهق العديد من الأرواح، بينما أدى الشعور بالإحباط والغضب الشديدين في الشيشان إلى تبني عدد من المحاربين نماذج إسلامية أكثر راديكالية وأشد تطرفاء بما قيها تبنى أنموذج "تنظيم القاعدة"،

وبينما يبنو نضال الشيشان الطويل سعيا للاستقلال لا نهائيا، فإن هذا النضال لا يمثل جميع المسلمين في روسيا تمثيلا كاملا، إلا أنه، وفي تلك الحالة، هناك اختلاف في طبيعة الصراع المسلم، ففي الماضي، كانت الأخوة الصوفية هي رأس الحرية التي قادت ووحدت الجهود نحو تحقيق الاستقلال – حركات وتنظيمات صوفية يمكنها، حين تعن الحاجة، الالتجاء إلى المقاومة المسلحة عندما تتعرض ثقافتها وحضارتها التهديد من الخارج، أما هذه المرة، فقد ذهب الكثير من

"الجهاديين" الإسلاميين نوى الصيغة العالمية، والذين خاضها الكثير من الصراعات المسلحة الأخرى في البوسنة وكشمير وأفغانستان - إلى الشيشان لتقديم يد العون والمساعدة، ولنشر المزيد من الأفكار والرؤى "الجهادية" الراديكائية.

وفى بعض الأحيان، تندلع الصراعات والمصادمات ما بين المحاربين الصوفيين الأكثر تقليدية وأولئك الإسلاميين الجدد، والذين عادة ما يطلق عليهم لفظة "الوهابيين"، وقد نفذت بعض العمليات الإرهابية في قلب روسيا ذاتها كمحاولة للثار من الوحشية والدموية الروسية في الشيشان، وريما يكون الإرهاب الشيشاني ضد الروس أكبر مصادر "الإسلاموفوبيا" القائمة حاليا في روسيا.

وفي أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ وإعلان واشنطن "الحرب العالمية ضد الإرهاب"، قامت موسكو وبكين بالانضمام إلى ذلك النداء وتلك الصرخة ليعلنا أن الانفصاليين المحليين، وكذا الإسلاميين بهما هم في عداد "الإرهابيين". وقد أتاحت "الحرب ضد الإرهاب" مشروعية تطبيق سياسات أكثر عنفا وقسوة، والتي كن ينظر إليها في ظل معطيات وظروف أخرى على أنها انتهاكات لحقوق الإنسان. ففي أيار/مايو ٥٠٠٠، قامت الحكومة الأوزبكية بفتح النيران عشوائيا على الحشود الغاضبة من المتظاهرين الإسلاميين مما أدى إلى مقتل المثات ممن وصفوا جميعا بأنهم "وهبيون"، كذلك فقد ربطت الصحافة الرسمية الأوزبكية بينهم وبين "الإرهابيين العالميين"، حتى وإن أفادت الشوهد بأنهم منشقون إسلاميون تم إعدادهم محليا بالأساس -- في تظاهراتهم ضد السلطة الشمولية للغاشمة للحكم الأوزبكي.

واليوم، وفيما يتعق بمسلمى الاتحاد السوڤييتى السابق ومسلمى روسيا الحالية – فقد أصبحوا متوائمين ثقافيا وحضاريا باندماجهم فى تيار الفكر الإسلامى العالمي، إن الهوية الإسلامية تتحد الآن مسارا تصاعديا، بيد أنها تنبثق، على نحو كامل، فى إطار الاتحاد الفيدرالي الروسى بطابعه متعدد الثقافات.

فقى ظل الأجواء المتسمة بالقهر والقمع، يبرز الإسلام كعنصر هام من عناصر الهوية المشتركة، والتى تساعد فى توحيد الروس المسلمين على تنوعهم وتبينهم، إلا أنه يكون من المخطأ أن تتصور قدرة الإسلام على تجسير جميع الهوات والفجوات الإثنية والألسنية ما بين المسلمين. فحتى الشعوب التركية ذات الإثنيات المتعددة لديها منافسون من بين أنفسهم إذ لم تُظهر تلك الشعوب إلى الآن شكلا من أشكال التضامن السياسى القوى ذى النزعة "التركية" فيما بينها، ناهيك عن أى تضامن إسلامى ملحوظ، لذا، فإن الإسلام هو عنصر ترابطى جامع ولكن على نحو مؤقت غير مستدام بما تسمح به السياسات الروسية المتبعة. بيد أنه من الجلى أنه حتى لو لم تكن الشعوب "التركية" الموجودة فى روسيا تعتنق الإسلام، لكانت قد احتفظت بهوية مستقلة قوية، ولكان الأغلب أن تظل ترعى الحركات الانفصالية فى عصر يعج بالقوميات والاضطرابات فى روسيا،

كيف إذاً كانت علاقة الإسلام بالحكم في روسيا؟ بلغ الإسلام أجزاء من روسيا حتى قبل المسيحية ذاتها، ولقد نشأت علاقة روسيا الأولية بالإسلام على أرض المعركة حين قامت الإمبراطورية الروسية بالتوسع جنويا وشرقا في غزوها الوثيد لالتهام البلدان "التركية" المسلمة، وكانت إحدى الحوادث الأكثر مأساوية حين غزا 'إيفان الرهيب' مدينة قازان – عاصمة الخانية التترية عام ١٥٥٢ (صور الحصار ببراعة على لسان الراهب المخمور "فارلام" في إحدى الغنائيات المؤثرة من أوبرا "بوريس جوبونوف" لمويست موسورغسكي).

إن الكنيسة الأرثوذكسية، حقيقة، هى أول من استحث تلك الغزوات الروسية على الشرق حيث نائت بنشر المسيحية في قازان المسلمة، المؤسسة بعناية كعاصمة للخانية التترية، وعقب الغزو، سرعان ما أرست الكنيسة وجودا مؤسساتيا قويا في الأقاليم النترية، وبم التخطيط لتحويل سكانها المسلمين بالقوة والإجبار لاعتناق المسيحية الأرثوذكسية. إن استيلاء روسيا على قازان كان "حدثا حضاريا خطيرا"— حيث مثل خطوة رئيسية أولى على طريق تدشين الإمبراطورية الروسية، وتحويل

حاكم "موسكو" ليصبح "قيصرا" يسيطر على أقاليم وسكان جديد وكانت شرعية "القيصر" ونفوذه المهيمن بنبثقان من دوره القائم على نشر المعتقد الأرثوذكسى، والذي قاد حملتها القس "مكارى" – مطران الكنيسة

بمباركة القس "مكارى" وتحت إشرافه، تم خوض الحرب ضد الخانية التترية كحرب مقدسة شئتها الكنيسة الأرثونكسية. فما أن بدأت المناورات العسكرية حتى أوصى "مكارى" بمزيد من السلوك الخير والمنضبط من قبل جيش "إيفان الرهيب" المعسكر في "سفياجسك" – القلعة الموسكوفية المتاخمة لقازان. وقد وعد "مكارى" الجيش المحارب بمباركة الرب ورحماته نظير ما بضطلع به من واجب مقدس، إذ أساء المتار في قازان إلى كلمة الرب، وانتهكوا حرمات الدين وقدسية الإيمان. كذلك، فقد تنبأ بحلول نقمة الرب وعقابه على أولئك التتار الكافرين ... تلك النقمة وذلك العقاب سيجلبان النصر للجيش الروسي، بما يتفق ودور روسيا الجديد كراعية وحامية لقدسية المعتقد الأرثونكسي.

قارن كيف لم يعتبر الروس الأوائل، متلهم في ذلك مثل الصليبيين، المسلمين كأتباع دين آخر، وإنما كونهم هراطقة مارقين من المسيحية وتعاليمها.

ويالرغم من قيام الكنيسة الأرثوذكسية ببناء الكنائس والأديرة والمؤسسات الدينية في الأقاليم التي تم غزوها للتو، إلا أنه قد أسقط في يدها بشأن هدفها لنشر المسيحية في تلك الربوع، وتحويل المسلمين لاعتناق عقيدتها ... إذ بينما رأت الكنيسة الغزو الروسي للتتار المسلمين وتحويلهم لاعتناق المسيحية مهمة مقدسة، إلا أن موسكو لم تشاطرها الرأى، فالحملات العسكرية الروسية كانت، بالأساس، جانبا من بسط نفوذ الدولة وإحكام هيمنتها. فلو أم تكن تلك الأراضي التترية بأيدى المسلمين، لكانت موسكو قد داهمتها على الفور. إذاً، فلم يكن التحول بأيدى المسلمين، لكانت موسكو قد داهمتها على الفور. إذاً، فلم يكن التحول بالإمبريالي المنشود.

ولكن سرعان ما أدرك القياصرة في موسكو مدى صعوبة عملية تحويل ذلك العدد الضخم لاعتناق الأرثوذكسية وتشابكها، خاصة عند الأخذ يعين الاعتبار قدرة الإسلام على مقاومة ذلك التحول. كذلك، فقد دخلت الاعتبارات الجيوبوليتيكية المشهد، فقد أبدى السلطان العثماني اهتمامه وقلقه بشأن رفاهية المسلمين في الخانية التترية كونه المسئول عنهم من الوجهة الدينية، وفي هذا الصدد، فقد طمأنه القيصر بتأكيده على اعتزامه السماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية، وهنا فقد طغت الحقائق والاعتبارات البراجماتية على الحماسة الأرثوذكسية.

وبالرغم من أن العلاقة الناشئة كانت بين المسيحيين المنتصرين والمسلمين المنهزمين، إلا أن نوعا من التعايش قد نشأ بينهما. ففى نهايات القرن الثامن عشر، أبدت الإمبراطورة كاترين العظيمة وفضها لرغبة الكنيسة إزاحة الإسلام وتحويل جميع المسلمين لاعنناق الأرثوذكسية — وهو هدف لو كان قدر له النجاح لكان من الؤكد أن يفضى إلى موجات لانهائية من العداءات والثورات داخل الإمبراطورية. وبالمقابل، وفي سابقة هامة للتعددية الثقافية في روسيا الإمبريائية، قامت موسكو بإلمقابل، وفي سابقة هامة للتعددية الثقافية في روسيا الإمبراطوري عن طريق ربط الإسلام مباشرة ليكون ضالعا في تأسيس حلف للانصهار القومي والتماسك الاجتماعي. وفي هذا الإطار، فقد اعتمدت الإمبراطورة تكاترين سياسة قوامها رحابة الأفق والتسامح ... سياسة هدفت إلى دمج الهياكل الإسلامية الدينية والدنيوية داخل والتبيان الإمبريائي الأشمل. إذ سيصبح الدين قاعدة للتنظيم السياسي والاجتماعي للإمبراطورية بارتكانه إلى المفهوم المشترك من قبول رب واحد ومفاهيم التنوير الخاصة بالتسامح الديني. وبذا، فقد سعت مرسكو إلى تحويل السلطات الدينية ومرجعياتها في كل مجتمع على امتداد الإمبراطورية إلى أداة من أدوات الحكم ومرجعياتها في كل مجتمع على امتداد الإمبراطورية إلى أداة من أدوات الحكم الإمبريائي".

إذاً، فقد روجت الخطة الإمبريائية الروسية لتأسيس جماعات دينية، كبديل عن تلك الإثنية بحيث تمثل كل جماعة منها الوحدة السوسيوسياسية الأساسية داخل

الإمبراطورية. (وقد كانت الإمبراطورية المثمانية، فيما سبق، الرائدة في ذلك المضمار حيث عملت على تنظيم قواعد الإمبراطورية وفقا للجماعات الدينية المنشأة). وفي الإمبراطورية الروسية، تم تأمين النظام الاجتماعي والسياسي، بعناية فائقة، عن طريق ضمان استمرارية التماسك والالتزام الديني داخل كل جماعة على حدة، وبإشراف القادة المباركين من قبل الدولة، اذا، وترتيبا على ما سبق، فإن أي شكل من أشكال المعارضة الدينية أو للمعتقدية لأي من الأديان القائمة بالإمبراطورية كان ينظر إليه باعتباره رديفا المعارضة السياسية – وهي مفهوم شائع تواتر إلينا عبر التاريخ البيزنطي، أما تماسك كل جماعة على حدة فقد اعتمد على ضمان الحفاظ على هيكل موحد يعمل على تأمين المعتقدات الدينية دون أي مساس بها، وبما يتلاءم وهوية الجماعة ووفقا لهذا، فقد كان يحق لقادة أي مساس بها، وبما يتلاءم وهوية الجماعة ووفقا لهذا، فقد كان يحق لقادة الجماعات المسلمة بدورهم الالتجاء إلى السلطات الشرطية بالإمبراطورية الروسية التأمين نفاذ قراراتهم والحفاظ على انضباط الممارسات الدينية، ومن ثم استتباب النظام الاجتماعي وعناصره.

ولكن ما شرعية موسكو، من وجهة النظر الإسلامية، في تعيين زعامات المسلمة وقادتها بالإمبراطورية الروسية؟ إن الشرعية العليا المطلقة التي تمتع بها "العلماء المسلمون" في البلدان المسيحية قد تأكلت بفعل قيام الدولة ذاتها باختيارهم وتعيينهم في المناصب، وكذا يفعل قيامهم بمناصرتها وموازرتها بالمقابل، إذاً، فقد خسر أولئك العلماء استقلالهم، وأضحى من السهولة بمكان اتهامهم بكونهم مجرد "دمى" تتلاعب بها الدولة كيفما شاعت ووفقما ارتأت. لذلك، كان حق المسلمين في تعيين القائم على الإفتاء بالدولة أحد المطالب السياسية للمسلمين إبان اندلاع الثورة الروسية.

وخلال حكم سلالة "رومانوف" والتى دامت لقرون ثلاثة، أصرت الدولة الروسية على التأكيد أن سلطتها الحاكمة تستقى "كينونتها" من العنصر الديني. وبالنسبة لشروع الدولة الروسية إبان ذلك الحكم، فقد ارتكن إلى "عالم أخلاقي يتقاسمه

الجميع"، ويالفعل فقد حالف التوفيق تلك السياسات على نحو كبير، وكما يتعين على الحكام في البلدان الإسلامية، وإن كانت صيغة الحكم دنيوية، الحفاظ على القواعد الاجتماعية والقانرنية الإسلامية لتكون لهم شرعية يرتكنون إليها، فإن قبول سلالة 'ريمانوف" غير المسلمة كحكام يخضع لهم المسلمون داخل الإمبراطورية، يكون رهنا بسيماحهم للمسلمين بحرية اتباع النهج الإسلامي في نمط حياتهم، وكذلك يكون رهنا بحقاظهم على المبادئ الإسلامية في نطاق الجماعات الروسية المسلمة، بل لقد بلغ الأمر حد تشجيع الرعايا المسلمين على التقدم بشكاياهم ونزاعاتهم من القيصر البت القضائي بشأنها، ومن ثم الإقرار بشرعية القيصر، ونزاعاتهم من العيصر البت القضائي بشأنها، ومن ثم الإقرار بشرعية القيصر، بالإمبراطورية. وقد كان الهدف، وبمرور الزمن، أن ينظر الرعايا المسلمين بالإمبراطورية إلى حاكم البلاد بأنه يستند إلى "الشرعية"، وإن لم يكن مسلما، ومن ثم يترجب عليهم تقديم فروض الطاعة والولاء له. وبذا، فقد اضطلعت الإمبراطورية الروسية بدور "حامي العقيدة"، ليس فقط الأرثوذكسية، بل الإسلامية واليهودية والبوذية 'يضا، وكذلك البروتستانية والكاثرليكية لاحقا.

إن لجوء القياصرة إلى تقرير الاختلافات الدينية وتجاوز تلك الإثنية قد أدى، فى النهاية، إلى توطيد أراصر التضامن وفق أسس دينية بين المسلمين في النهاية، إلى توطيد أراصر الإثنية. بيد أن ولاء المسلمين قد قدر له أن يختبر حين استدعى ليكون على المحك، عندما قامت الإمبراطورية الروسية بغزو بلدان إسلامية خارج حدودها، وقد بلغت تلك الغزوات والصروب ما يزيد عن خمسين معركة دارت رحاها على امتداد ثلاثة قرون كاملة بين روسيا من جهة، والعثمانيين من جهة أخرى، فضلاً عن أربع حروب كبيرة تم خوضها ضد فارس المسلمة (والتي دعمت فيها بريطانيا وفرنسا الفرس تماشيا مع سياستيهما المناهضيين لموسكو). ويما أن غالبية المسلمين الروس ذوو أصول تركية، ويتبعون المناهضيين لموسكو). ويما أن غالبية المسلمين الروس ذوو أصول تركية، ويتبعون المناهضيين لموسكو). ويما أن غالبية المسلمين الروس ذوو أصول تركية، ويتبعون المناهضيين لموسكو). ويما أن غالبية المسلمين الروس ذوو أصول تركية، ويتبعون

بيد أن ولاعهم قد ظل قائما للقيصر حتى اضطرابات الحرب الكونية الأولى واندلاع الثورة البلشفية في روسيا.

إن التعايش ما بين الإسلام، والمسيحية الأرثوذكسية داخل الإمبراطورية الروسية يعد تجرية هامة في تاريخ الشعوب الإسلامية، فالمسلمون بداخل الإمبراطورية يمكن أن يمنحوا ولاءهم لها لأنهم لم يجبروا على التوبان عن طريق استيعابهم وامتصاصهم، كذلك لم يتم إكراههم على التخلي عن هويتهم الذاتية والجمعية لصالح هوية روسية مسيحية، ويطبيعة الحال، لم تكن الجماعات الإسلامية في الإمبراطورية الروسية مطلقا وحدة متجانسة، إذ نشأت كل منها على حدة وفقا لتجريتها التاريخية والثقافية المعيزة لها، كما كانت الحال بالنسبة للجماعات البروتستانتية، والكاثوليكية الرومانية، واليهودية، والبوذية داخل الإمبراطورية، والتي لم تجبر أي منها على التوبان أو التخلي عن هويتها.

الانتماء الديني أم الانتماء الإثنى؟

رغما عن وجاهتها وملاءمتها لتلك العصور، فإن مفهوم إدارة الدولة وتسيير أمورها وفقا لتلك الجماعات المصنفة بحسب المعتقد يبدو للمراقب المعاصر أمرا قد تجاوزه الزمن كونه نتاج عصر مختلف ذى نزعة دينية أعمق. إذاً، فما القاعدة التي يمكن أن ترتكن إليها هوية المرء أو الجماعات فى هذه الدولة أو تلك؟ أتكون الإثنية (الانتماء للسان ما) أم يكون الدين (كعقيدة معتنقة)؟ لقد جرى التصنيف وفقا لأحد هذين المعيارين فى الكثير من المجتمعات متعددة الثقافات لألاف السنين. أما فى الغرب المعاصر، فيعتمد مفهوم هوية المرء فى دولة ما على مبدأ "المواطنة"، والذى يعلن المرء بموجبه ولاءه للدولة فى الوقت ذاته الذى لا يتعين عليه الإفصاح عن أى شأن ذائى أو شخصى.

إن الإمبراطورية الروسية، رغما عن قيامها بخوض حروب عديدة ضد البلدان الإسلامية المتأخمة لها، إلا أنه كانت تربطها علاقات دبلومسية بالإمبراطورية

العثمانية وإيران، كذلك فقد كانت الراعي الرسمي والمدافع عن الأرثوزكسية في الأراضي المقدسة بفلسطين، والتي كانت تحت السيادة العثمانية أنذاك، ولقد أولت موسكو اهتماما بالغا لوجهة نظر المسلمين الأجانب بشأن روسيا، وفي الوقت ذاته، سعت للإفادة من المسلمين الروس في تحقيق أهداف السياسة الخارجية الروسية في الشرق الأوسط، بحيث نتمكن موسكو من مخاطبة العالم "كقوة إسلامية" وليس "كقوة مسيحية" فحسب. إذا، فلم يكن الإسلام عائقا أمام النزعة التوسعية للإمبراطورية الروسية، بل كان عاملاً محقراً لذلك.

إلا أن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ذاتها لم تنظر بعين الرضا تجاه ذلك الأمر، إذ لم تكن تستحسن مسكونية الإمبراطورية التى أعاقتها عن تحقيق أهدافها الدينية على امتداد الأراضى الروسية. وقد ذهب القوميون الروس من أمثال الأديب دوستوفسكي إلى اعتبار الكنيسة الأرثوذكسية تجسيدا "للروح الروسية"، فضلا عن معارضة الدولة بسبب علاقاتها الودية وانفتاحها على المسلمين. وقد انتقد دوستوفسكي الدولة لإطرائها المسلمين لكونهم "توحيديين"، ناعتا "التوحيد" بأنه "اللعبة المفضلة لدى الكثير من محبى العنصر التركي"، قصلا عن إيمانه بأن روسيا قد قدر لها السيطرة على الشرق.

إن مدى تقبل المسلمين للحكم الروسى عادة ما اعتمد على السياسات المنتهجة من قبل روسيا وقتها، ولعل اللحظة الفارقة قد جاءت عام ١٩١٧ حين اندلعت الثورة البلشفية، وما تبعها من تجربة سوڤييتية طويلة ومؤلق، بيد أنه خلال جميع القرون الغابرة، لم يتشكل أى كيان حقيقى للمقاومة الإسلامية الداخلية، حتى خلال الهجمات التي شنتها روسيا على جيرانها المسلمين. فقى كثير من الحالات، قام المقاتلون المسلمون أو "الجهاديون" بمقاومة حكامهم المحليين التقليديين – بما يذكر بما يجرى الآن في الشرق الأوسط، كذلك، فقد قرر بعض المسلمين الروس ممن لم يسيغوا مناصرة الروس في حروبهم ضد المسلمين المتاخمين الهم، وذلك على نحو يسيغوا مناصرة الروس في حروبهم ضد المسلمين المتاخمين الهم، وذلك على نحو

الحروب مع روسياً،

إن أغلب القوى الإمبريالية على امتداد العالم قد حاولت، في لحظة زمنية أو أخرى، تجنيد الصفوة المحلية من المسلمين لمؤازرة النظام الكولونيالي ووأد الثورات الداخلية (المحلية). فإمبراطورية الهابسبورج قد سعت قبل الحرب الكونية الأولى الداخلية (المحلية). فإمبراطورية الهابسبورج قد سعت قبل الحرب الكونية الأولى سعى القيصر الألماني خلال الحرب ذاتها إلى تأليب العالم الإسلامي بأسره ضد الحكم الإمبريالي البريطاني والفرنسي، وإن خاب مسعاه، وبالمثل، فقد أخفقت فرنسا في سعيها لنيل تأييد المسلمين لها في غزو الجزائر وضمها إليها، وكما نعلت ألمانيا حين غزت القوقاز خلال الحرب الكونية الثانية، أما البابانيون، فقد حاولوا التحالف، قبل تلك الحرب وخلالها، مع مسلمي جنوب وجنوب شرق اسيا القدس في محاولة لكسب تأييد العرب ومؤازرتهم ضد قوات الحلفاء في الشرق الأوسط. واليوم، تدعم الولايات المتحدة الأمريكية العديد من الحكام العرب غير المنتجبين شرعيا من قبل شعوبهم، وغير المحبوبين كذلك لترويج السياسات المتحبين شرعيا من قبل شعوبهم، وغير المحبوبين كذلك لترويج السياسات المتحبين شرعيا من قبل شعوبهم، وغير المحبوبين كذلك لترويج السياسات المتحبية غير المقبولة شعبياً ونشرها بالبلدان العربية.

ييد أن ارتباط روسيا بالإسلام وعلاقتها به أقدم وأعمق وأبعد غورا وأكثر تشابكا من ارتباط أورويا به، وأعل السبب الرئيسى لتك الظاهرة هو كون الإمبراطورية الروسية قد واجهت المسلمين نتيجة لتوسعها الجغرافي شرقا وجنوبا، على عكس الإمبرياليين الأوروبيين الذين واجهوهم فقط من خلال الغزوات البحرية عبر مسدفات جد بعيدة. إن أشكال التعايش الروسي مع الإسلام قائمة بالفعل وسوف تبقى كذلك على الدوام، إذ إن الطرفين يعيشان ضمن حيز مكانى مشترك. فروسيا هي الدولة الغربية الوحيدة التي يوجد ضمن هيكل المواطنة بها جماعة إسلامية أصيلة ذات شأن ملموس.

الجـــدون

دائماً ما كان المسلمون في روسيا يناضلون من أجل تحقيق هدفهم المتمثل في نيل تقصى استقلال ثقافي وحضاري ممكن، بيد أنهم كانوا يحيون أيضا داخل روسيا التي كانت بدورها تشهد غليانا ثقافيا وسياسيا كبيرا، إذ أدرك المسلمون صعوبة أن ينعزلوا بمنأى عن الجدالات المثارة حول قضاياهم وأمورهم الهامة، ومع اقتراب منتصف القرن التاسع عشر، انبثقت أول حركة إصلاح جدية بين صفوف المسلمين في روسيا - وهي حركة "المجددين"، والتي سبعت إلى تجديد هيكل الجنمع المسلم هناك. وفي حقيقة الأمر، فإن حركة "المجددين" كانت واحدة من أهم حركات الإصلاح الإسلامية المبكرة على امتداد العالم الإسلامي، والتي عكست ومثلت طبيعة التشابك الحضاري والثقافي مع المجتمع الروسي.

ولقد أكد 'المجددون' على الأهمية البالغة التعليم، وعلى ضرورة تضمين المناهج الدراسية موضوعات ومواداً عملية كالرياضيات والعلوم، وفي هذا الإطار، انتشرت المدارس، وأصدرت صحف جديدة، وشرع في ترجمة الكتب إلى اللغات المحلية. بيد أن السلطات الإمبريالية الروسية قابلت تلك الحركة بقلق وعدم ارتياح، خوفا من انتشار أفكار ومبادئ ذات صبغة هدامة أن انفصالية أو داعية لعالمية إسلامية جامعة، حتى ولو ارتبطت بعناصر ومقومات المجتمع الروسي الليبرالية. كذلك، فقد انبثقت المعارضة ضد حركة "المجددين" من عناصر "الصفوة" الإسلامية القديمة في المجتمع، والتي يغلب عليها الطابع الإقطاعي ... تلك "الصفوة' التي كانت تخشى أية حركة أو أي تجمع يهدف إلى تكوين طبقة أن "صفوة" جديدة بواسطة التحليم والإعداد والتمكين، مما ينجم عنه بالضرورة تغييبر الهيكل بواسطة التحد، وبالتالي الإضرار بمصالح "الصفوة" القديمة القائمة. وقد كان الاجتماعي المجددين" بالفعل، ولكن دونما التجاء إلى الثورة أو العنف. بل لم يعمد هؤلاء "المجددون" إلى تبني "أجندة" انفصائية أو الترويج لها، إذ سعوا إلى يعمد هؤلاء "المجدون" إلى تبني "أجندة" انفصائية أو الترويج لها، إذ سعوا إلى يتبني أجندة انفصائية أو الترويج لها، إذ سعوا إلى يتبني أركانهم وتقوية شوكتهم في إطار من الهيكل السياسي الروسي الأشمل.

ولقد صور "إسماعيل غاسبيرالي"، ذلك التنري من القرم، وأحد أبرز "المجددين"، بجلاء مدى فاعلية الحركة الإسلامية داخل إطار النظام السياسي الروسي، كذلك فقد دعا روسيا إلى التعاون مع العالم الإسلامي.

... لو أقامت روسيا علاقات جيدة مع كل من تركيا، وإبران فسيكون ذلك انتسابا الشرق الإسلامي بأسره، وستحتل بذلك مكانة سامقة على رأس الأمم الإسلامية وحضاراتها، وهو ما تسعى بريطانيا إلى تحقيقه بدأب وإصرار-

والخلاصة، أن غاسبيرائي قد رأى روسيا كأمة إسلامية كبرى إلى جانب كونها أمة مسيحية كذلك. وفي لوقت ذاته، كانت تلك إحدى أوائل التجارب التكاملية الكبرى بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية. وفي هذا الإطار، اضطلع الدين بمهمة إعظاء رؤية شاملة لمكانة روسيا العالمية، وليس حجبا لتلك الرؤية، ولكن حتى لو لم تكن ثمة اختلافات عقائدية، أو لم يكن الإسلام طرفا في المعادلة، لكانت روسيا قد واجهت مشاكل جسيمة وتحديات هائلة تتعلق بدمج الجماعات التركية الكثيفة في نسيج الإمبراطورية.

وعلى حين كان القرن التاسع عشر يقترب من نهايته، تسارعت وثيرة الحركة الإسلامية للتعليم والإصلاح والمشاركة السياسية في روسيا، وانخرطت "الصفوة" في جدالات محمومة حول "الهوية" في عصر سياسي جديد يشدد على "الإثنية". فحتى الروس أنفسهم كانوا في شك مما إذا كانوا ينتمون إلى "الغرب" أم إلى عالم أرتوذكسي فريد، أم حتى إلى "أسيا"، ويالمثل، فقد أورد المسلمون تساؤلات مشابهة : هل هم "مسلمون" بالأساس، أم مواطنون روس، أم أتراك، أم تتر، وإن كان كذلك، فوققا لأي ترتيب؟ هل هم "ينتمون" إلى روسيا؟

لقد أجبر القيصر "نيقولاي الثاني"، عقب ثورة ١٩٠٥ في روسيا، على إجراء إصلاحات وتقديم تنازلات سياسية كبرى على طريق "الليبرالية"، والتي اشتملت على إنشاء برلمان بالبلاد (الدوما)، وفي "الاجتماع الأول لاتحاد المسلمين الروس" عام ١٩٠٥ والمنعقد لبحث الاستراتيجية، نظم المسلمون الروس حركتهم السياسية وفقا لمعيار الدين، لا على أسس أيديولوجية، وكان الهدفان الرئيسيان لذلك الاجتماع تحقيق استقلالية دينية وثقافية أكبر، وأن نتم معاملتهم بالمثل كما الحال مع المواطنين الروس غير المسلمين، ويجب علينا ألا نغفل أن السبب الرئيسي لاختيار المسلمين الروس - وهم أتراك بالأساس - الإسلام كرابطة موحدة تنتظمهم، هو أن الدين، وليس الانتماء الإثنى، كان هو أساس تنظيم الإمبراطورية الروسية.

ولقد كانت سياسات هذه الحركة معتدلة ووسطية، إذ كان هدفها توحيد جميم المسلمين الروس خلف أهداف عامة مشتركة منها : التوزيع العادل للأراضي، وحرية الصحافة، والحق في التنظيم والاجتماع، وكذا حرية الاعتقاد، وأن يكون النظام ملكيا دستوريا، كذلك، فقد سعت زعامة الحزب للتمثيل ضمن المشهد السياسي الروسي، ووعدت الداخلية الروسية بأن الحرّب ليس انفصاليا ولا يعمل ضد مصلحة روسيا، فضلا عن ولائه للقيصر، وعلى مدار عدة اقتراعات، نجح "اتحاد المسلمين الروس" في الفوز بما بين ثلاثين إلى أربعين مقعدا من مقاعد النوما، وعلى الصعيد الديني، دعا "الاتحاد" إلى الاصلاح الجذري لتراتبية هرمية لهيكل العلماء المسلمين، والختيار مفتى البلاد رفقاً الاستفتاء شعبي – وهي دعوة غير مسبوقة في أي من البلدان الإسلامية، ولقد ساعدت تلك المعايير في كسر احتكار فئة بعينها فيما يخص تقلد المناصب التقليدية في صفوف العلماء. إلا أنه، وفي سنوات قليلة، بدأ الاتحاد في التصدع، لأسجاب بعضها إثني وإقليمي، وبعضها أيديولوجي تعلق بتبنى بعض مندوبي الاتحاد موقفأ يساريا تماشيا مع الاشتراكيين الروس، والخلاصة، أن الإسلام لم يعد الرابطة الاجتماعية كما كان من قبل، وأضحى المسلمون الروس ينطلقون وفق قاعدة محددة للتباينات الإثنية، والإقليمية، والطبقية، والأيديولوجية. كذلك، فلم تعد الهوية الإسلامية تحيا في مناخ يكون المسلمين بموجبه حرية الحركة في إطار سياسي تعددي، وخالا الحرب الكونية الأولى، انضم أكثر من مليون مسلم روسى إلى صفوف الجيش الروسى، حيث قاتل كثير منهم ضد القوات العثمانية في الجنوب، وذلك رغما عن 'الفتاوي" العثمانية التي دعت جميع المسلمين لدعم ومؤازرة الإمبراطورية العثمانية ضد المعتدين المسيحيين حين تلوح الحاجة إليهم.

إذاً، فقد تمثلت السمات الرئيسية لتلك الحقبة الإمبريالية القيصرية في النجاح النسبي لإدماج المسلمين في نسبج إمبراطورية مسيحية، وتأرجح المسلمين بين البعد الإثني والبعد الديني كأساس التنظيم السياسي، فضلا عن درجة من الولاء الذي أبداء المسلمون الروس تجاه النظام السياسي الروسي. أما "السياسة" في تلك الحقبة فكانت وفقا للاتجاه السيائد ... تلك السياسة التي وصفت لاحقا "بالقومية البورجوازية" بالتوازي مع بعض الأحزاب اليسارية والدينية المتشددة ... وفي المجمل، لم تكن هناك أية "حدود دم وية" في واقع الأمر. وهنا حالة رائدة، فالمسلمون إذا ما منحوا المفرصة للمشاركة باعتبارهم أقلية في نظام سياسي مقبول، سيقومون بدعم الأحزاب السياسية المشاسية المشامية على أساس سياسي/ أيدبولوجي، وليس التكتلات الإسلامية فحسب، بيد المشكلة على أساس سياسي/ أيدبولوجي، وليس التكتلات الإسلامية فحسب، بيد المشكلة على أساس سياسي/ أيدبولوجي، وليس التكتلات الإسلامية فحسب، بيد المعمل، لم تشري الدا عن هويتهم الدينية كونها ملمحا رئيسيا من ملامح هويتهم الجمعية. كل هذا ستأتي الحقبة السوفييتية وتضع نهاية حاسمة له.

الثورة الروسية و«البلشفية»

تكشف الحقبة السوڤييتية فصلا جديدا وعنيفا في التطور المركب الجماعة الإسلامية الروسية، فالحكام الشيوعيون (البلاشفة) الجدد لم يكن بمقدورهم، بداءة، تقرير ما إذا كانوا سيوظفون الإسلام لمصلحتهم أم سيقومون بسحقه، أم سيدمرونه من خلال إنشاء هياكل سياسية ذات طابع إثنى، لا طابع ديني، وفي النهاية، فقد اختاروا إنشاها وفقا الطابع الإثني وأحرزوا في ذلك بعض نجاح.

الثورة التى كانت عميقة الأثر وبعيدة المدى إذ شبت عام ١٩٩١، وذلك قبل عام واحد من اندلاع الثورة البلشفية، وكانت ردة فعل صارخة ضد السياسات الجديدة للقيصر التى حاولت إجبار المسلمين على الالتحاق بصفوف الخدمة العسكرية، كما كانت صرخة ضد مظالم وشكاوى أخرى ارتبطت باقتصاد الحرب الكونية الأولى، وقد استمرت تلك الثورة، والمعروفة "بثورة باسمشى"، منداعة وواصلت انفجارها طيلة عشرة أن خمسة عشر عاماً تالية داخل المناطق الأوزيكية والطاجكية، بصفة عامة، مدفوعة في ذلك بتطلعات وأمال قومية ودينية جديدة للاستقلال ضمن صفوف العديد من مسلمي اسبيا الوسطي الذين أضبحوا شديدي العداء للديكتاتورية السوڤيسة الملحدة، وفي الوقت الذي تم فيه سحقها على يد الجيش الأحمر، إلا أن الشورة قد كشفت جليا عن المظالم بعيدة الغور التي تعرض لها المسلمون الروس، وقد كانت تلك الثورة، أيضا، بإيعاز من المسئولين العسكريين الأتراك المتقاعدين، فضلا عن دعم الاستخبارات البريطانية لها – الأمر الذي وصم المسلمين بتهمة الولاء للقوى الأجنبية. ولقد قدمت ثورة باسمشي دليلا واضحا على وجوب تعامل الولاء للقوى الأجنبية. ولقد قدمت ثورة باسمشي دليلا واضحا على وجوب تعامل موسكن مع رعاياها المسلمين بحذر بالغ، إن إثنيا أو دينيا.

إن الحزب الشيوعي، خلال الأيام الأولى من الحكم السوڤييتي، قد بذل جهودا كبرى لتوظيف "الإسلام" لمسلحته الخاصة وماريه المنشودة، ولتجنيد المواطنين المسلمين للترويج لأجندة الثورة الشيوعية عالميا، والإطاحة بالحكم الإمبريالي الغربي في أسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وكانت الهند، للحتلة من قبل بريطانيا أنذاك، أحد الأهداف الرئيسية للسوڤييت، فالهند تقع بالقرب من الأراضي الروسية، وهي مستعمرة شهدت من قبل انتفاضات وثورات إسلامية ضد الحكم البريطاني

لذا، ففى اجتماع أسطورى مهيب عام ١٩٢١، وهو اجتماع باكو لشعوب المشرق، اجتذب السوڤييت ما يقرب من ألفى مندوب عن البلدان الكولونيالية وشبه الكولونيالية على امتداد العالم للتخطيط لفعل ثورى ضد القوى الكولونيالية الغربية،

ولقد اعتبرت موسكو البلدان الإسلامية في طليعة الثورات، وسعت الإفادة من يورها لتحقيق أهداف السياسة الخارجية السوفييتية ضد الغرب.

إن "الإسلام" لم يمثل مباشرة في قاعليات اجتماع باكو، إذ انصب اهتمام موسكو على توحيد قوميات الشعوب الإسلامية مع "الشيوعية" كاداة من أدوات مناهضة الكولونيالية. ولكن، وكما ذكرنا سالفا، فإن الإسلام ينحاز لردات الفعل لقومية حين الصراع ضد القوى غير الإسلامية. لذا فإن الاستراتيجيين السوڤييت، وبصقة خاصة لينين وزينوفييف، قد بحثوا عن سبل من شأنها تطويق العناصر المحافظة المجتمع الإسلامي، واستنهض النوافع والقوى الثورية لديها. بل إن مصطلح "الجهاد" قد تمت استعارته ليستخدم، هذه المرة، وفقا لاقتراب أكثر علمانية ودنيوية، حين ترددت شعارات "الحرب القدسة ضد الإمبريائية"، والتي علمانية ودنيوية، حين ترددت شعارات "الحرب القدسة ضد الإمبريائية"، والتي صوب القبلة الجديدة للثورة العالمية (موسكو) ... والتي ستمنح التحرر والانعتاق لجميع شعوب الشرق المضطهدة، إلا أن موسكو كانت على دراية ووعي كاملين بأن الجميع شعوب الشرق المضطهدة، إلا أن موسكو كانت على دراية ووعي كاملين بأن الإسلام والقومية يمثلان سلاحا ذا حدين ... سلاحاً قد يتم توجيهه بالمثل ضد الحكم السوڤييتي في المناطق الإسلامية من الإمبراطورية، كما حدث بالفعل أثناء الحكم السوڤييتي في المناطق الإسلامية من الإمبراطورية، كما حدث بالفعل أثناء

مرزا سلطان غالييف

الشيوعي-القومي-المسلم

ريما كان أفضل تجسيد القاء ما بين الأيديواوجية الماركسية/ اللينيئية والمجتمعات الإسلامية يتمثل في شخص "مرزا سلطان غالبيف"، وهو مسلم تترى من إقليم حوض نهر الفولغا انضم لصفوف الحرب الشيوعي إبان الثورة البلشفية عام ١٩١٧ ، وتطورت مسيرة غالبيف ليصبح شخصية بارزة في الحركة البلشفية المناهضة للإمبريالية، وقد دعا غالبيف لإنشاء "حزب شيوعي إسلامي" -وما ينطوي

عليه الاسم ذاته من جمعه لنقيضين آنيا— إذ رأى أنه يمكن التغلب على التباينات الإثنية بين الجماعات والشعوب الإسلامية العديدة داخل الإمبراطورية الروسية عن طريق ثقافتهم الإسلامية المشتركة. كذلك، فقد آمن غالييف بإمكانية استيعاب الجماهير المسلمة للماركسية وإدراكهم لها، إذا ما تزيت بإهاب إسلامي، اذلك، فقد تخيل غالييف حزيا شيوعيا إسلاميا قويا بمقدوره الترويج للثورة الشيوعية ضد الإمبريالية الأوروبية على امتداد العالم الإسلامي، إذا، فقد أصبح الدين والإثنية نسيجاً متداخلا.

لقد كان سلطان غالبيف نفسه ملحدا، بيد أنه كان قد درس "القرآن" والشريعة الإسلامية، وقام بتحذير السلطات السوڤييتية من قوة الحضارة والثقافة الإسلامية وعمقهما وتغلغلهما بداخل حياة المسلم، وقد تدرج غالبيف في المناصب السوڤييتية، على نحو سريع، إلى أن أصبح رئيسا "للجنة الشعبية للقوميات" فضلا عن دوره البارز وأرائه الكبرى بشأن تسيير سياسات "القوميات" تحث قيادة يوسف ستالين.

إن إيمان سلطان غالبيف المبكر بالحرب الشيوعى قد ارتكن بالأساس إلى طموحاته المشبوبة في مناهضة الإمبريالية، حيث رأى في البلاشفة، بصفة أولية، المنقذ الأبحد:

" ... انتقل الآن إلى تعاونى مع البلاشفة ... لقد انحزت للبلاشفة إليمانى المتجذر والعميق النابع من أعماق روحي بعدالة الرؤية البلشفية ومصداقيتها. وأنا أدرك ذلك، فتلك هي عقيدتي الراسخة. لذا، فلن يتزحزح إيماني بها قيد أنملة كذلك، فإنني أومن بأن تلة بعينها من البلاشفة بمقدورها تطبيق ما تم الوعد به في مطلع الثورة. فالبلاشفة هم من أخمد نيران الحرب الكونية الأولى، والبلاشفة هم الوحيدون المختلفة ومصائرها لأيدي أصحابها المحتلكوا زمام أمرها، كذلك، فهم الوحيدون الذين أجلوا أسباب الحرب الكونية البلاشفة هم من أعلن الحرب على الإمهريائية البريطانية للضطهدة للهند، الثانية، البلاشفة هم من أعلن الحرب على الإمهريائية البريطانية للضطهدة للهند،

ومصر، وأفعانستان، وإيران، وشبه الجزيرة العربية. كذلك، فهم من رفعوا لواء المقاومة ضد الإمبريالية الفرنسية التي استعبدت المغرب والجزائر وغيرهما من البلدان العربية بإفريقيا، فكيف يستقيم ألا أنحاز إليهم؟ وانظر، فهم قد صرحوا بكلمات لم يتم التقوه بها من قبل، بل منذ نشأة الكون ذاته، على امتداد تاريخ الدولة الروسية. فتضامنا مع جميع مسلمي روسيا والشرق، أعلن البلاشفة وجوب أن تكون "اسطنبول" بأيدي المسلمين، وبينما كان ذلك موقفهم، كانت القوات البريطانية، والتي حاصرت أورشليم، تستميل اليهود بتلك الكلمات: "اجمعوا شتاتكم سريعا صوب فلسطين، فسوف ننشئ لكم فيها دولة أوروبية".

بيد أن ستالين والزعامات السوڤييتية قد اعترضوا، في النهاية، على فكرة العزب الشيوعي الإسلامي على اعتبار كونه تواؤماً خطيراً وغير مقبول مع القوى القومية البورجوازية في المجتمع الإسلامي، وفي هذا الإطار، أصرت موسكو على أن قيادة حبركة كتلك يمكن فقط أن تكون من خلال حزب ينبني على 'وحدة البروليتاريا – حتى وإن ندر وجود طبقة بروليتارية ضمن صفوف التتر الزراعيين والتجاريين، وهنا، أدرك سلطان غالييف حقيقة الأمر، وأيقن باستحالة مشاركة الحزب الشيوعي السوڤييتي له في رؤيته المقترحة. كذلك، فقد أضحى غالييف مؤمنا بأن المسلمين قد استبدلوا نوعا جديدا من الاضطهاد بموجب ما أطلق عليه البروليتاريا الروسية بالاضطهاد القيصري السابق. وأمن غالييف أيضا بأن مصالح النتر لم تكن تتوافق مع مصالح الإمبريالية الروسية، وأن الشيوعية لم مصالح النتر لم تكن تتوافق مع مصالح الإمبريالية الروسية، وأن الشيوعية لم تحرر البلاد من الإمبريالية، بل قد أتت بشكل مغاير لها وإن بقي جوهرها قائما، وقد قام رجال ستالين بإلقاء القبض على غالبيف، وتم إعدامه عام ١٩٤٠، فضلا عن إعدام عدة ألاف من القوميين الأتراك المسلمين.

إن سلطان غالبيف يبقى مثالا واضحا وتجسيدا جليا لناشط شيوعى بارز، فضلا عن كونه منظرا ومتحدثا هاما باسم اليسار الإسلامي، فالأحداث التي أفضت إلى اتهامه، وسجنه، ونفيه، وتهميش دوره، وأخيراً إعدامه لتعطى دليلاً

د، مغاً وبرهاناً ساطعاً للطابع "القومي" الثقافة الإسلامية حين تواجه بالإمبريالية الأوروبية، أو حتى السوڤييتية، فالحقيقة أن ظاهرة خلاف سلطان غالييف مع ستالين، واعتناقه وتبنيه للمصالح "القومية" الإسلامية قد أطلق عليها اسم بذاته داخل الحزب الشيوعي، ألا وهو "السلطانغالييفية"، والتي دائما ما استحضرت الخوف الشيوعي من العناصر الكامنة التي تنطوي عليها "القومية" السائدة بين للجتمعات الإسلامية في روسيا، "ذلك، كما نرى، هو ما يحدث حين يسمح للقومية أن تحل محل الأيديولوجية الماركسية اللينينية" - كانت هي النغمة السائدة أو القول المكرر، فالسوڤييت أنفسهم قد أمعنوا في الإلحاح، على نحو غير متعمد، على تحويل "الإسلام" إلى عنصر إثني، وقد قامت السياسات الأمريكية بما يشبه ذلك على نحو كبير خلال "الحرب العالمية ضد الإرهاب".

اذا، فوفقا الزخم الثورى الجماعة الإسلامية الروسية وقوتها في حمل رسالة شيوعية مناهضة الإمبريالية وتوجيهها الشعوب المضطهدة في الشرق، فقد باحت الشجرية بفشل محقق ومنيت بخسائر فادحة : إذ بقى المسلمون على عداء محموم مع السياسات السوفييتية والاضطهاد السوفييتي الثقافة التركية المسلمة. ويحاول عام ١٩٣٦، ذهبت روسيا إلى كون الإسلام قوة مناهضة البلشفية بالأساس، وقامت بتنظيم "اتحاد الملحدين" لتعزيز دعاية إلحدية ونشرها في صفوف الرعايا المسلمين لاجتثاث جميع المؤمنين من مناصب النفوذ والسطوة. وقد مثل نشر السوفييت للإيديولوجيا الإلحادية رسميا، واضطهادهم لجميع الديانات والعقائد -- أكبر الخطايا وأفدحها، والتي يمكن أن يقترفها النظام السوڤييتي وفقا لرؤية المسلمين، وقد سعى المسلمون لمارسة شعائرهم الدينية، وحماية تقاليدهم وأعرافهم، وذلك وفقا لأنماط سرية، فقد كانت الشبكات التي انتظمت الحركات والتجمعات الصوفية عظيمة النفع والفائدة في الإبقاء على بعض المعلومات بشان الإسلام على قيد الحياة، خلال السنوات المظلمة للحكم السوڤييتي.

وبينما قامت روسيا القيصرية بالترويج للدين كأساس للتنظيم السياسي

والاجتماعي للإمبراطورية، فقد سار الشيوعيون البلاشفة في الاتجاه المضاد تعاعا بسعيهم لاعتبار الجماعات الإثنية قاعدة لتنظيم الإمبراطورية السوڤييتية وفقا لمبدأ فرق تسد". فبدلا من التعامل مع إثنية تركية واسعة الانتشار، على سبيل للثال، أنشأ السوڤييت جمهوريات سياسية مستقلة، بحيث يكون لكل لغة تركية قائمة جمهورية مستقلة ومنفصلة عن الأخرى، كاللغة الأوزبكية، والتترية، والكازاكية، والقيرغزية، والتركمانية، والأذربيجانية، ... وهلم جرا. وبذا، فقد صارت "الإثنية" الأداة المستخدمة لطمس الهوية الإسلامية، والقضاء على أية أفكار قومية ممكنة اللعائية التركية الجامعة".

إن الصراع السوڤييتى مع الإسلام قد اتخذ أبعادا جديدة فاعلة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، وذلك مع غزو موسكو لأفغانستان عام ١٩٧٩ لدعم نظام شيوعى جديد هناك. وسرعان ما امتدت ثورة مسلحة على امتداد أفغانستان، أخوض حرب مقدسة باسم الإسلام ضد الغزو والاحتلال السوڤييتى. ولقد رفد الغرب، ويخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، حركات وجماعات الجهاد الإسلامى للناهضة للسوڤييت، والتي نجحت في إجلائهم عن أفغانستان بعد ثمانية أعرام. إلا أن العديد من القوات هناك كانت بالفعل قوات سوڤييتية مسلمة شعرت ببعض التناقض إزاء السياسات السوڤييتية، والتي أعدت العدة وعقدت العزم لسحق حركة المقاومة الإسلامية. وفي أعقاب ذلك، ومع انسحاب السوڤييت بعد هزيمتهم في أفغانستان، أعلن المجاهدون الأفغان، وكذلك المجاهدون من بلدان غيرها أن الإسلام قد هزم قوة عظمى". وقد حققت الرسالة، وما تضمنته، فدفها لدى السلمين الروس الذين لم يبتهجوا لفحواها.

لقد كان انهيار الاتحاد السوڤييتي عام ١٩٩١ نقطة تحول المسلمين في الإمبراطورية السوڤييتية، فسرعان ما حصلت خمس جمهوريات إسلامية على استقلالها "الكامل" كبلدان جديدة، على أساس إثنى – وأغلبها "تركى"، بدرجة أو بأخرى، كذلك، تم منح الرعايا المسلمين الآخرين ممن استمروا في العيش داخل

حدود الدولة الروسية والتى تقلصت على نحو ملحوظ درجة عالية من الاستقلالية والمحكم الذاتى وفق قواعد إثنية صارمة. إن الثورة والاضطرابات فى كثير من تلك البقاع، ويخاصة فى جمهورية الشيشان، قد أوضحت أن صراع الشيشان من أجل الاستقلال ... ذلك الصراع المتد عبر ما يقرب من ١٥٠ عاما، والذى خيض باسم "الإسلام"، ما زال مشتعلا. وبينما يدرك كثير من المسلمين الذين بقوا فى روسيا أن الانفصال عنها غير مجد – وهم خليط من جزر إسلامية ذات إثنيات متعددة وسط بحر روسي متلاطم – فإنهم بعيدون الإسلام لمكانته البارزة وفق هوياتهم القومية، فى الوقت الذى يعلون فيه من شأن اختلافاتهم وتمايزاتهم الإثنية كذلك. إذ لا تنضوى تلك الجماعات الإسلامية الإثنية، فى واقع الأمر، تحت لواء الإسلام حتى ولو تمنى بعض الإسلاميين أن يكون الأمر كذلك.

ويبقى السؤال الأبدى بشأن مراتب الهوية هناك: هل تلك الشعوب إسلامية بالأساس، أم هى جماعات إثنية/قومية من النتر، والأوزيك، والكازاك، والطاجيك، ... وهلم جرا؟ أم هى جزء من جماعة تركية عالمية أشمل؟ أم هم مواطنون "روس"؟ والحقيقة أنها يمكن أن تكون أيا أو كلاً مما سبق، وذلك وفقا للأحوال، إذ لا تعد جماعات مغلقة، إذاً، فالهرية التي ستسود في أية مرحلة زمنية ستعتمد على معطيات الأحوال المصاحبة.

ويدرك المسلمون، على امتداد العالم بأسره، أن الاتحاد السوڤييتى قد اضطهد 'الإسلام' على نحو كبير. وفي الوقت ذاته، فإنهم يقدرون الدور الرائد الذي اضطاع به لإحداث توانن جيواستراتيجى إزاء قوى الغرب الكولونيالية الإمبريالية. إن وجود الاتحاد السوڤييتي، في ذاته، كأحد قطبي القوى العالمية قد أتاح هامشا للحركة والمناورة للبلدان الأقل شأنا، الأمر الذي أسهم في منع الدول الإمبريالية الغربية السابقة من بسط نفوذها على تلك البلدان، وقد استشعر العالم الإسلامي فزعا جراء انهيار الاتحاد السوڤييتي، كما استشعرته أمم غير منحازة لقوة أو لأخرى -- الكونها تفضل الشيوعية، وإنما لكون الانهيار جاء ليعني نهاية العالم ثنائي القطب،

وليجعل البلدان الأقل شائنا أكثر عرضة، وانكشافا، وخضوعا لمشيئة القوة العظمى الوحيدة المتبقية.

الأورو/آسيوية

نختتم الفصل الحالى بنظرة على الأيديولوجية الأورواسيوية: فقد انبثق من المناخ الاستراتيجى المتحول في مرحلة ما بعد بوش، رفقاء جدد روسيا، والصين، والمسلمون— بتقاسمون نهجا ورؤية مشتركة بشأن مناهضة الغرب وأمريكا. ومن الجلى أن مناهضة أمريكا ترتبط، بالأساس، بالبعد الجيوبوليتيكى، فيما لا ترتبط بالبعد الديني إلا بنزر يسير، فهناك بوادر لتقارب محتمل بين العناصر الراديكالية ضمن صفوق المسلمين الروس، وبين بعض القوميين الإثنيين الروس تأسس جراء تشكك مشترك في الغرب كقوة إمبريالية جديدة، على أن هذه الحركة لا تنتمي إلى التيار السائد، بيد أنه قد يكون لها عدة مسارات واتجاهات مهمة في المستقبل.

وترضح الظاهرة الأوروآسيوية بعض القضايا الرئيسية التي اشتمل عليها الكتاب: وجود اتجاهات مناهضة للإمبريالية والغرب ... اتجاهات بعيدة الغور لا تقف عند حد المسار الجيوبوليتيكي التاريخي في الشرق الأرسط، بل تتعداه لتشمل القارة الأسيوية، فالاتجاهات الثقافية الروسية، والصينية، والإسلامية المتعددة تتباين بالفعل بقدر اندماجها وتلاحمها، إلا أن العداء المشترك للهيمنة، وكذا الكراهية المشتركة لأمريكا يعملان على التقريب ما بين تلك الاتجاهات.

وتمتد جدّور الأورواسيوية إلى الأفكار الروسية المبكرة ذات الطابع الأسيوى

... وهى مزيج من الأفكار المنطوية على التشكك في نوايا الغرب، وكذا عدم الركون
إليه. إذ توضح عالما بديلا للطموحات والثقافة الروسية من خلال حس صوفى بأن
روسيا تمثل صيغة أكثر عمقا وأوفر روحانية مما يمثله الغرب، كذلك، فإنها تذهب
إلى أن روسيا لها نصيب وافر من الأعراف والتقاليد الأسيوية يخولها أن تضطلع
بدور بارز وسهمة فريدة في مجريات أحداث التاريخ العالمي، كذلك، ترى

الأورواسيوية أن روسيا أصدق وأوفى لهويتها وتقاليدها فى أى تحالف موجه ضد الهيمنة الغربية لإحداث انضباط بميزان القوة عالميا، ولخلق رؤية حياتية بديلة عسى البيزنطيون أن يفخروا بذلك.

وقد ازدادت المخاوف الروسية من التطويق الغربي، حين بادرت الولايات المتحدة بقيادة جورج بوش الابن بإنشاء قواعد عسكرية لها في أوزبكستان، وقيرغزستان، وجورجيا، وأذربيجان، وطاجيكستان في إطار ما أطلقت عليه "الحرب العالمية ضد الإرهاب"، وفي محاولتها لأن تضم لحلف شمال الأطلنطي (الناتو) أكبر عدد ممكن من جمهوريات الاتحاد السوڤييتي السابق. ووفقا لوجهة النظر الروسية، فقد انطوى ذلك كله على استقزاز كبير، يل وعلى عدائية بالغة، فقد أدت المحاولات الأمريكية الحثيثة لإحلال قوتها ونفوذها على أعتاب النولة الروسية إلى وجوب تفكير روسيا في البحث عن مصادر جديدة الدعم الجيوبوليتيكي لمقومة انتهاكات أمريكا الاستراتيجية، وقد مثل الشرق والعالم الإسلامي تلك المصادر الجديدة الدعم.

إن الرؤية الأورواسيوية تمثل مزيجا من الأعراف والتقاليد الخاصة بالولع بالسلافية وعناصر من الأرثوذكسية الروسية ... ففى صيغتها العامة، تمتد تلك الرؤية لتشمل مجموعة كبيرة من الاهتمامات والمصالح لدى البلدان الإسلامية والصين، بل وحتى لدى كل من الهند واليابان. على أنه قد يبدو من المستغرب توقع تقارب أو تعاون بين أربع حضارات كانت، على امتداد أزمنة طويلة، خصما ومنافسا ومعارضا للإمبراطورية الروسية ... إلا أنه مقياس ومؤشر للتشكك في الغرب الولايات المتحدة حاليا – وبوافعه للسيطرة والهيمنة الدولية، ومن ثم سعى الأوروآسيوية لخلق مصالح جديدة لتحل محل الكراهية التي سادت في البلدان الأسيوية الرئيسية.

وقد انبثقت الأوروآسيوية في العقد الثالث من القرن العشرين، وانبنت على

جِدُور ممثدة من الولم بالسلافية، ويذهب الباحث "ديمتري شلابنتوخ" إلى أن الأورواسيوية تؤمن بأن "روسيا هي مزيج قريد من الشعوب السلافية الأرثوذكسية والشعوب المسلمة، التركية بالأساس، لذا، فإن المسلمين الريس، لا السلاف بخارج روسيا، هم حلفاء روسيا الحقيقيون". كذلك، فالأوروآسيوية لا ترى أن روسيا جزء من أوروبا، بل باعتبارها قارة أورواسيوية عنصراها الإثنيان الرئيسيان ؛ الروسية والتركية. كذلك، فإن التعايش القديم والذي ما يزال قائما بين الأرثوذكسية الروسية والإسلام، والذي شهدناه في الهيكل السياسي للإمبراطورية الروسية يجد تعبيرا عنه في تلك الرؤية الجديدة. وبلا شك، لا يزال هناك إرث من الشكوك المتبادلة بين الأطراف للذكورة حيث لا يرغب أي طرف في التخلي عن الهيمنة والسطوة للآخر، وعلى الصحيد الشحيي، ثمة أثار من مشاعر عميقة مناهضة للإسلام -بل وعنصرية - ما زالت تصيا في المجتمع الروسي، إلا أن التقارب السياسي والجيوبوليتيكي الجديد المذهل بين تركيا وروسياء على امتداد العقد الماضي، يدعم كثيرا من اتجاهات مدرسة الفكر الأيديولوجي المثيرة تلك، لذا، فقد انتشرت تلك الشكرك الجيوبوليتيكية القديمة تجاه الغرب، على نحو متواتر في التبرق الأوسط، وذلك صُمن إطار الحضارات الشلاف: الأرثوذكسية البيرنطية، والأرثوذكسية الروسية، والإسلام - مع ما الثلاثتهم من جنور مشتركة... تلك كانت بعض الدلالات المُوحِية، بِل وَالمَقْنَعَة، على كيفية تعامل "عالم بلا إسلام" مع الغرب إلى اليوم،

إن روسيا لا ترغب مطلقا في أن تفقد شخصيتها التاريخية الفريدة ذات المجتور الأرثوذكسية، فالغرب لم يقبل روسيا يوما كجزء منه ... كما لا يمكن أن تكون وجهة روسيا الاستراتيجية صوب الغرب بمفرده، إذ ستستمر في السعى لإيجاد شركاء ينتمون إلى الحضارات الشرقية بغية دعمها، وما يمثله ذلك من دليل على التزام روسيا بشخصيتها وطابعها الأرثوذكسي والأرروأسيوي. إن انخراط روسيا الراسخ في منظمة "شنفهاي التعاونية" بين الصين وروسيا هو دليل اخر على ذلك الترجه الجيوبوليتيكي الذي يمتد ليشمل عدة بلدان بأسيا الوسطى، كما

ينهض كدليل على الاهتمام الكبير من قبل افغانستان، وإيران، وياكستان، وتركيا، إذا، تطغى الاعتبارات الجيوبوليتيكية على الاعتبارات الدينية - "فالإسلام"، وفقا لهذا المنظور، هو أشبه ما يكون بطبقة رقيقة للغاية تزدان بها الكعكة الجيوبوليتيكية الكبيرة ... إذ تتأثر الاعتبارات الأيديولوجية كثيرا بالمخاوف من الغرب ونفوذه، والتشكك في نواياه، وهو الأمر عميق الغور في مسارب التاريخ.

وينظل روسيا، وفقا لعقيدة أورواسيوية واضحة أو بدونها، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالشرق الأوسط لتقديم نفسها باعتبارها صديقا للعالم الإسلامي بغية نيل التأبيد وحشد الدعم ضد الهيمنة الأمريكية وتوغلها في آسيا، وكذلك لتجنيد رعاياها من المسلمين واستغالهم لتحقيق الغرض ذاته، فضلا عن محاولة استرضائهم واستيعابهم في الفيدرالية الروسية المناشئة، ولعل الروابط القوية فيما بين روسيا وإيران، ودعم روسيا لها تعد مؤشرات قوية على ذلك الانخراط، كما هي الحال تماما بشأن روابط روسيا المتينة مع تركيا على امتداد العقد المنصرم. إن ما ينطوى عليه المرقف من سياسات سيسهل إدراكه من قبل الإيرانيين والشعوب السامية حين إعادة التفكير فيما حدث من دفاع عن إقليم الشرق الأوسط ضد السامية حين إعادة التفكير فيما حدث من دفاع عن إقليم الشرق الأوسط ضد النهاكات "الإسكندر الأكبر" في اليونان، أو ضد الهجمات الشرسة للإمبراطورية الرومانية في الإقليم الأورواسيوي. وقد لحق الإسلام بالركب وانضم للقافلة. فأيا ما كانت طبيعة العلاقة المركبة ما بين روسيا و"الإسلام"، يكون من الصعوبة بمكان أن نظر إليها على كونها إحدى "حدود الإسلام الدموية".



نصوبر احمد باسبن نويئر فيئر (Ahmedyassin90)

المسلمون في الغرب مواطنون ذوو ولاء أم طابور خامس؟

إن أحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ وتأثيراتها الدراماتيكية قد أثارت الاهتمام بالجماعات المسلمة في الغرب كما لم يحدث من قبل. فحقيقة كون القائمين على التخطيط لذلك الاعتداء قد اتخذوا من ألمانيا مكانا لهم، فضلا عن قضائهم لوقت طويل في الغرب قد استدعى الملف المضطرب بالقعل المسلمين في أوروبا على نصو غير مسبوق. فهل المسلمون في الغرب باعتبارهم الآن أعداء — طابور خامس بانتظار إشارة بدء الهجوم؟ لقد أضحى القعبير الصريح من قبل الأوروبيين والأمريكيين عن المشاعر الدفينة الكامنة والعميقة المناهضة للإسلام أكثر قبولا في ظل المخاوف الكامنة من المناخ الأمنى الجديد.

لقد حل العنف، بالفعل، في أوروبا ذاتها. ففي آذار/مارس ٢٠٠٤، انفجرت مجموعة من القنابل في العديد من عربات القطار بمدريد مما أسفر عن مقتل ١٩١ شخصا وإصابة أكثر من ١٨٠٠ . وقد نسبت المؤامرة إلى أشخاص مسلمين من شمال إفريقيا تأثروا "بإلهام" تنظيم القاعدة و"وحيه"، وإن لم توجد أية أدلة تشير إلى وجود رابطة مشتركة. وفي تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤، صدمت هولندا جراء حادث الاعتداء الوحشي الذي تم في رابعة النهار، وأسفر عن مقتل الكاتب ومنتج الأفلام الهولندي "ثيو فان جوخ"، والذي وجد أن قاتله مواطن هولندي مغربي المولد أصبح راديكاليا خلال حرب العراق. وقد كان "فان جوخ" والذي سبق له أن قام بالسخرية من اليهود مصابا بتعصب أحمق، ومناهضا صريحا للإسلام. وقد أنتج بألما قصيرا حيث عرض أيات من القرآن على جسد يتاوي لامراة عارية كصرخة احتجاج ضد "التمييز الإسلامي ضد المرأة"، أما القاتل، فقد أحدث صدمة حتى

داخل الأوساط الأوروبية الليبرالية مفادها وجود جماعات من الأجانب يهتم بعضهم "بالاعتبارات الدينية" اهتماما يدفع إلى ارتكاب جرائم واعتداءات.

وفى تموز/يوليو ٢٠٠٥، قام العديد من مسلمى بريطانيا بسلسلة تفجيرات انتحارية بمترو الأنفاق بلندن أسفرت عن مقتل ٥ شخصا وإصابة ٧٠٠ . وقد رعم أن مرتكبى الانفجار قد تأثروا كثيرا بمشاركة بريطانيا فى الحرب بالعراق. كذلك، ففى حزيران/يونيو ٢٠٠٧، قام مسلمان – أحدهما طبيب بريطانى من أصول عراقية، بقيادة ناقلة شحن تحمل أنابيب معبأة يغاز "البروبان"، والانطلاق بها صوب بوابة مطار غلاسكو. ولم يسفر الاعتداء عن أية قتلى، وإنما خلف العديد من المصابين. وكما سبق، فقد أعزيت نوافع ذلك الحادث إلى أن تكون ذات صلة بالأحداث الدائرة فى العراق أنذاك.

وفى تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٧، اندلعت الاضطرابات لعدة أيام بالقرب من باريس على أيدى مهاجرين أفارقة وعرب استشاطوا غضبا من مشكلتهم فى سعيهم للاندماج بداخل الثقافة والاقتصاد الفرنسيين، وخلال تلك الاضطرابات، تم تدمير العديد من الممتلكات، وإن لم يتم استخدام أية تكثيكات إرهابية على الإطلاق،

وقد أسهمت جميع تلك الحوادث في استحضار ظاهرة وجود المسلمين في أوروبا واستدعائها إلى مقدمة الاهتمامات وصدارة المشهد، عن طريق طرح الأسئلة عن ولاء أولئك المسلمين، ورغبتهم، وقدرتهم على الاندماج داخل المجتمع الأوروبي. ومن الأسئلة التي تطفو على السطح، بداهة : هل هناك ثمة "اختالاف" يصبغ الإسلام ... اختلاف من شأنه إدراج المهاجرين المنتمين الإسلام ضمن فئة مستقلة عن فئات يشغلها مهاجرون آخرون؟ أو دعنا نصيغ السؤال على نحو مختلف: إذا لم يكن هؤلاء المهاجرون مسلمين، أكان للمشكلات والقضايا ذات الشأن أن تبدو مختلفة بالكلية؟ والإجابة عن السؤال بصيغتيه هي ... النفي المطلق.

وقد حذر "طارق رمضان"، أحد أبرز الباحثين الأوروبيين المسمين، من مغية ما أسماه "الوقوع في شوك أسلمة المشكلات"، بمعنى أن تعزى مشاكل المجتمع المسلم، بصورة أو بأخرى، إلى "الإسلام". ويستطود "رمضان" قائلا: "لدينا مشكلات اجتماعية ... ولدينا مشكلات اختصادية ... ولدينا مشكلات حضارية. وجميع تلك المشكلات لا ترتبط ألبتة بالدين، بل ترتبط بالسياسات الاجتماعية المتبعة ... بيد أنه عندما يكون لدينا سياسيون يفتقرون إلى حلول اجتماعية، فإنهم يعمدون إلى الزعم بأن تلك المصاعب الاجتماعية إنما تنشأ من حقيقة كون هؤلاء الأقراد مسلمين أو عرباً". وبعبارة موجزة، ستواجه أوروبا، بل إنها لتواجه بالفعل، مشكلات كبيرة تتعلق بالمهاجرين إلى أراضيها من العالم النامي خلال تلك الحقبة من عصر العولة الذي نعيشه، حتى ولو لم يكن ثمة إسلام على الإطلاق.

إن أوروبا تمثل "حدودا" جد مغايرة أمام المسلمين عما تمثله روسيا أو الهند

أو الصين، فالمسلمون في أوروبا ليسبوا من السكان الأصليين، بل هم مهاجرون جدد ممن تركوا أوطانهم، طواعية وعلى نحو فردى، للهجرة إلى بلدان غير إسلامية ابتغاء للعمل وإقامة أسر جديدة، وفيما ذهب البعض للعمل في أوروبا باعتباره نقلة مؤقتة اقتضتها ظروف بذاتها واستهدفت أمورا مادية، إلا أن قرارهم كان ينحو، على نحو مطرد، صوب الاستقرار والإقامة الدائمة في أوروبا، ومن ثم سعيهم للحصول على جنسية البلدان التي يحيون بها، وقبول وضعهم كأقلية في مجتمع للحصول على جنسية البلدان التي يحيون بها، وقبول وضعهم كأقلية في مجتمع تسوده أغلبية مغايرة.

ويطبيعة الحال، تختلف الحياة في أوروبا المعاصرة ذات التعدد الثقافي اختلافا كليا عن الحياة في معظم البلدان على امتداد العالم مما يستتبع انبثاق قضايا متجددة ومعقدة تتعلق بهوية المهاجرين، وفي معظم الحالات، تمثل أوروبا أول احتكاك للمسلمين بمجتمع تحلل بالكلية من مظاهر الإثنية والدين ... ذلك المجتمع الذي لم تعد فيه تلك المظاهر ذات أهمية في الحياة، إلى أن بدأت أفواج تترى من المهاجرين تطأ الأرضى الأوروبية. كذلك، فقد كانت الخبرة والتجرية الأوروبية جديدة بالنسبة للمهاجرين المسلمين – وكذلك بالنسبة لأغلب المهاجرين المامين أليها من بلدان العالم النامي.

وعلى نقيض أمريكا الشمالية، فإن أوروبا، بطبيعتها، ليست مجتمعا مهاجرا، إذ تشكلت من قوميات وبثقافات أوروبية غربية نالدة وعريقة يغلب عليها نمط الحياة المحافظ، ويقينا، كان "الآخر" المسلم مالوفا تماما لأوروبا كونه العدو التاريخي اللدود لها – ولكنه غالبا ما كان عدوا بعيدا ... جغرافيا، ففي عام ٧٣٧، قامت أوروبا بطرد الجيوش العربية من بواتبيه بإسبانيا المسلمة أنذاك – واعتبرت، بذلك، أنها قد أنهت، وللأبد، أي احتمال لغزو إسلامي مستقبلي، وأية "أسلمة" محتملة لأوروبا، وقد تقابل كل من الأوروبيين والمسلمين في ساحة الوغي أثناء الحروب الصليبية، وفي عام ١٤٩٧، وضع الملك فرديناند والملكة إيزابيلا نهاية قاسية لسبعة قرون من الحكم العربي للأنداس ... ذلك الحكم الذي اتسم بالتعددية، حيث تجاورت

الثقافات الإسلامية، والمسيحية، واليهودية على امتداد الأراضي الإسبانية – تلك النهاية التي سطرت لإطلاق أول برنامج أوروبي للتطهير العرقي، إذ شهد العام المذكور طرد المسلمين واليهود، من إسبانيا - كذلك، فقد أوقفت الجيوش البواندية زحف القوات العثمانية عام ١٦٨٣ أثناء حصار فيينا ... أقصى بقعة توغلت إليها الجيوش العثمانية في أوروبا الشرقية، ثم مرت الأيام، لتقوم أوروبا نفسها بغزو جمدم الدول الإسلامية واجتلالها، تقريبا، على امتداد المعمورة. وفي وقت لاحق، جاهدت أوروبا لإخماد المقاومة للناهضة للكولونيالية، والتي أشعلتها الجماهير المسلمة. كذلك، فقد سيطرت أوروبا على جميع ما يتعلق باستخراج البترول وإنتاجه في الأراضي الإسلامية قبل أن يدور الزمان دورته، وتسترد الشعوب الإسلامية حقها في مواردها، ولقد كانت محاولات فرنسا للإيقاء على سيادتها على الجزائر محاولات شديدة الدموية، وأضحى الجزائريون هدفا للكراهية والعداء في فرنسا ككل. لذا، فإن تجربة أوروبا التأريخية وذكرياتها بشأن تعاملاتها مع المسلمين عامة لم تكن إيجابية على الإطلاق، ولكن خالال النصف الثاني من القرن العشارين، انبثقت علاقات جديدة لم تكن متوقعة بين أوروبا من جهة، وبين للسلمين من جهة أخرى، وذلك في أعقاب مجيء أعداد كبيرة من المسلمين إلى الأراضي الأوروبية كمهاجرين.

من مسلمو أورويا؟

يمثل المسلمون نحو ه ٪ من مجموع سكان الاتحاد الأوروبي، وتحظى فرنسا بنصيب الأسد من إجمالي عدد المسلمين بأوروبا (ه، ٤ مليون مسلم)، تليها ألمانيا التي تستأثر بنحو ثلاثة ملايين مسلم، فبريطانيا (١، ١ مليونا)، وأكثر من نصف مليون مسلم في كل من إبطاليا، وهواندا – كل على حدة، أما النمسا وبلجيكا فيوجد في كل منهما أقل من نصف مليون مسلم، وبالنسبة الإجمالي عدد المسلمين بأوروبا، فإن نحو ٥٠٪ منهم قد ولد بالمهجر،

ولقد شهدت ستينيات القرن العشرين أول هجرة جادة للمسلمين إلى أوروبا ... تلك الهجرة التى جاءت كاستجابة لحاجة أوروبا ، أنذاك ، إلى عمالة تقوم بأعمال بعينها يستنكف الأوروبيون ويترفعون عن القيام بأمثالها ، ويذلك بدأ عصر "العمالة الوافدة". كذلك ، فما كان ينظر إليه على أنه "ترتيبات مؤقتة" من قبل الطرفين سرعان ما أضحى أمرا شبه دائم ولقد ازدادت أعداد المهاجرين حين شرعت البلاان الأوروبية في السماح للعمالة الوافدة باصطحاب أقراد من عائلاتهم ونويهم للانضمام إليهم بالمهجر . وقد مثلت الخلفيات السوسيواقتصادية للمهاجرين مشكلة رئيسية أمام أوروبا : إذ كانت نسبة كبيرة من المهاجرين عمالة غير مؤهلة وغير ماهرة تفتقر إلى درجة مقبولة من المستوى التعليمي ... تلك العمالة كانت أقل استعداداً للتواؤم مع المجتمع الأوروبي، والاندماج في نسيج النظام الاجتماعي هناك ، وقد انجرفت تلك الطبقة نحو تكوين "غيتر إثني" ينتظم أفرادها . وتتعارض أصول الطبقة لعاملة السائدة من المهاجرين المسلمين بأوروبا مع الخلفيات العملية التخصصة والمهاجرين المسلمين بأوروبا مع الخلفيات العملية المناهرة المهاجرين المسلمين بأوروبا مع الخلفيات العملية

وتنحدر أصول المهاجرين من المسلمين بأرروبا من أصقاع متفرقة على امتداد العالم: ففى فرنسا، تنحدر غالبية المهاجرين المسلمين بها من دول شمال إفريقيا، ثما نظيرتها فى المملكة المتحدة فتأتى، بالأساس، من دول جنوب أسيا، وفى ألمانيا، فإن معظم المهاجرين من المسلمين قد قدموا من تركيا، ومن البوسنة وكوسوفو لاحقا. فإذا ما أردنا تقييم المهاجرين وفقا للمعيار الإثنى، نجد أن العرب يشكلون هكار من إجمالي المسلمين المهاجرين بأورويا، يليهم الأتراك، فمواطنو جنوب أسيا. أما الجماعات المسلمين المهاجرين متثيلها بأعداد أقل بكثير. ومن الجلي أن هيكل ألما الجماعات المسلمين في أوروبا يتسم بالتنوع، سواء وفقا المعيار الإقليمي أو وفقا المادين المهاجرين المسلمين ألي ينتمون إليه، لذا فلا يستقيم أن نعتبر ذلك المهيكل متناغما أو متحانسا،

وكما أوضحت "جوسيلين سيزاري"، باحثة العلوم السياسية بجامعة السوريون

يفرنسا، فإن 'الوضع السوسيواقتصادى للمسلمين الأوروبيين هو وضع بالغ الهشاشة'، خاصة عندما يتم تصويره باستخدام معدلات البطالة السائدة. فالبطالة المنتشرة فيما بين المسلمين بأوروبا تعد أعلى بكثير من نظيرتها الخاصة بغير المسلمين، قفى هولندا، نجد أن ٢١٪ من المغاربة، و٢٤٪ من الأثراك عاطلون عن العمل. أما الأمر الأكثر إزعاجا فهو أن معدلات البطالة بين الشباب المسلم كانت في عام ١٩٩٥ ضعف نظيرتها بين غير المهاجرين المنتمين للمستوى ذاته من التحصيل الدراسى، أما فى الملكة المتحدة، فإن معدل البطالة بين المهاجرين من بنجلاديش، وياكستان يبلغ ثلاثة أمثال نظيره بين غير المهاجرين، أما فى المدن بنجلاديش، فإن ما يقرب من نصف المهاجرين من بنجلاديش عاطل عن العمل. بل الأسوة من ذلك، "انتقال ذلك التهميش إلى الجيل الذي ولد وتلقى تعليمه فى بريطانيا".

إن المشكلة القائمة تغذى نفسها ذاتياً، إذ يصعب على المسلمين من الطبقة العاملة، وأوبئك ممن تلقوا نزرا يسيرا من النحصيل الدراسى أن يندمجوا في نسيج المجتمع الأوروبي، أو حتى التواصل مع الثقافة هناك، ونتيجة لذلك يشعر هؤلاء بكونهم مهمشين، فضلا عن النظر إليهم كدخلاء بما يشعرهم دائما بالغرية والانعزالية فيفضلون أن يحتموا داخل شرنقتهم الثقافية والحضارية، مما يساعد في التأكيد على الصورة النمطية لمقاومة المسلمين للاندماج داخل المجتمعات ألهاجر إليها . كذلك، تتوالد مشاعر الاستياء، وتغدو رمزية التمايز في اللباس والمئكل والمغة أكثر تعبيرا عن مشاعر كلا الطرفين وانفعالاتهما . وتبدو هولندا التجسيد الأمثل لإحدى أدق الأمثلة على تلك المشكلة . فقد صدر تقرير عن البرلمان الهولندي عام ٢٠٠٤ جاء به : إن المجتمع ذا التعددية الثقافية كان إخفاقا مخيبا للأمال، إذ أدى انتشار "الغيتو الإثنى"، على تعدد مستوياته، وكذا الثقافات العديدة غير المنتمية لثقافة المجتمع – إلى تمزيق أواصر الدولة، وغدت خطورة ظاهرة "الاستقطاب" لا سبيل إلى تجنبها سوى تحول المهاجرين المسلمين ليصبحوا

مواطنين هولنديين"، يبد أن ما خلص إليه التقرير جاء محبطا وصادما، إذ إن صبيغة العل المقترح بأن يصبح المسلمون ... "مواطنين هولنديين" قد أصابها العوار. فماذا يقصد بأن يصبح المرء "هولنديا"؟ أينصرف ذلك إلى عدم تمييز ذلك "المتحول" عن سائر المواطنين الهولنديين التقليديين سوى من خلال سماته وخصائصه الظاهرية البادية للعيان؟ أم يتحتم على الراغب في التحول انتخلى التام عن سماته اللغوية والثقافية الأصيلة المميزة له ولوطنه الأم؟ أم أن ثمة حداً أدنى من السمات "الهولندية" التي يتعين أن يكتسبها المرء، دون غيرها من السمات؟ وبالاحتكام إلى المشاهد في العديد من البلدان، نجد أن الاندماج والاستيعاب داخل نسيج المجتمع المهاجر إليه عملية تتطلب انقضاء سنين عدة، وتعاقب أجبال تلو الأخرى ... إذا كان المراد تأسيس نوع من التثاقف الجدى، ناهيك عن الاندماج الفعلى في المجتمع.

بيد أن المشكلة المذكورة لا تقتصر على الإسلام فحسب، فأية جماعة من العمال غير المتعلمين والذين ينتمون إلى العالم النامى لديها المشكلات ذاتها فيما يتعلق باندماجها في المجتمع. إلا أنه يجب علينا، كذلك، ألا نغفل العامل الذي يمثله "الإسلام" نتيجة ظاهرة اجتماعية مثيرة أخذت تنتشر الأن بين صفوف المهاجرين: البيثاق هوية جديدة من "المسلمين الأوروبيين". فالمهاجرون الجزائريون، والأتراك، والباكستانيون ممن لهم روابط مباشرة بأوطانهم الأم قد قادوا مسيرة انتشر صداها ما بين مهاجري الجيل الأول إلى أوروبا، وخلقت "هوية إسلامية" جديدة تماماً جتميزها عن "هوية إثنية" ترتكن، بالأساس، إلى الأصول القومية للمهاجر. وتأتى هذه "الهوية الإسلامية" كاستجابة مباشرة لتحلل المهاجرين من الروابط التي وتأتى هذه "الهوية الإسلامية" كاستجابة مباشرة لتحلل المهاجرين من الروابط التي الملائمة لأوضاعهم الجديدة ببلدان المهجر، وتتبح "الهوية الإسلامية" رابطة مشتركة الملائمة لأوضاعهم الجديدة ببلدان المهجر، وتتبح "الهوية الإسلامية" رابطة مشتركة عبر خطوط إثنية بالتوازي مع تجارب وخبرات اجتماعية مشتركة بما فيها التمايز كأقلية جديدة في المجتمع الأوروبي. إن الجيل الجديد أوروبي المولد يتحدث لفات

أوروبية بطلاقة، ويختلف إلى المدارس الأوروبية. ورغما عن هذا كله، يمم إقصاقه وتهميشه لأسباب سوسيواقتصادية فيلجأ إلى "الإسلام" كهوية إثنية بينية، وذلك في ظل غياب أية هوية أخرى يمكن الانتماء إليها. إلا أن لجوء ذلك الجيل للدين بتبنيه "هوية إسلامية" يثير الشكوك من حوله في أوروبا التي هجرت الدين، ونحت جانبا.

إن الأزمة الحالية هي أزمة مزدوجة، فنتيجة للمأزق الذي تواجهه جراء الهجرة إلى أراضيها، فإن أوروبا تواجه الآن أزمة هوية خاصة بها، يتم بموجبها إعادة تقييم عملية مواجهة العولة برمتها، والتعامل مع التعددية الثقافية القائمة. أما العنف المتفشى في إقليم الشرق الأوسط، على امتداده، فلا يعبأ به المهاجرون المسلمون في أوروبا كثيراً، إلا أن حفنة من الحوادث العنيفة بأوروبا، والضائع فيها مسلمون أوروبيون لجديرة بأن تستثير مخاوف أوروبا من "الإسلام" – والتي تؤدي، بدورها، إلى تعزيز الهوية الإسلامية" للمهاجرين وترسيخها، وبالطبع، فنحن إزاء علقة مفرغة"، فهل يكون تبني "هوية إسلامية" جديدة، لا ترتكن إلى البعد الإثني، خطوة للأمام نحو المزيد من اندماج المهاجرين في بلدان المهجر؟ أم يكون خطوة بانجاه تعزيز روح تضامنية اجتماعية جديدة يصعب استيعابها في نهاية المطاف؟

إن القلق الذي يساور أوروبا بشأن عمليات الاستيعاب والاندماج له وجاهته ومبرراته. فريما كان المسلمون الآن، في حقيقة الأمر، من أمنعب الجماعات الثقافية لأن تستوعب بالكامل، وذلك، تحديدا، بسبب القوة الهائلة والعزيمة الماضية التي طالما ميزت تلك الثقافة عبر أزمنة طوال من اعتداد بالنفس، وإدراك الذات فضلا عن همة عالية وتصميم شديد على حماية المجتمع الإسلامي، والحفاظ على مقومات الثقافة الإسلامية، وفضلا عن ذلك كله، فإن "الإسلام" ليضفي قوة اجتماعية جديدة على مهاجري الجيل الأول تمكنهم من مجابهة مصاعب عملية الاندماج في بلدان المهجر،

واليوم، فإن الأمر يتعلق بالاحتفاظ "بهوية إسلامية" أكثر من ارتباطه بهوية

إثنيه أو أخرى لغويه. فقد يبتهج المرء بتعلم اللغة الهولندية، والعمل ضمن إطار المجتمع الهولندى، إلا أنه لا يرغب في التنازل عن "هويته الإسلامية". إن الاندماج الكامل لن يكون مفهوما ذا شأن بالنسبة لأغلب الأقليات غير الغربية إذا أريد به أن يكون من الصعب تمييز المهاجر عن المواطن الهولندى الأصيل، أي عن طريق اندثار ثقافته الأصلية بالكلية. فالعبرة هي في كيفية أن يجمع المرء بين كونه مسلما وكونه هولنديا، وهو أمر يمكن تحقيقه بالفعل. فإذا كان المراد أن يرتضى المرء القيم المدنية الهولندية، وأن يكون مواطنا مستقيما، راغبا في المشاركة في المجتمع الهولندي، والمساهمة في ارتقاء الأوضاع بهولندا، إذاً فمن السهولة بمكان أن يصبح المرء هولنديا، وبذا، تفقد القضية حدتها وإلحاحها بتعاقب الأجيال.

والمأزق المذكور له نظائر وأشباه تتعلق بهواجس اليهود المبكرة ومخاوفهم بشأن مظاهر عملية الاندماج في المجتمع الأمريكي، إذ يشير الباحث الأمريكي "إيريك غوادشتاين" إلى أن:

العقود الأولى من القرن التاسع عشر قد جلبت المهاجرين اليهود النازحين من بلدان وسط أوروبا فرصا غير مسبوقة التكامل الاجتماعي. وبينما أثارت تلك الفرص حماسة اليهود، إلا أنها قد ولدت لديهم مشاعر القلق حول الحدود التي يتعين أن تقصل بينهم وبين باقي المجتمع، وقد نشأ الجانب الأكبر من مشاعر القلق تلك من التوترات بين رغبة اليهود في التكامل مع المجتمع الجديد من جهة، وبين رغبتهم في الاحتفاظ بهوية يهودية مميزة، إن تاريخ معاناة اليهود من الاضطهاد والإقصاء المجتمعي قد أضفي عليهم حسا ووعيا اجتماعيا قويا كأقلية الاضطهاد والإقصاء المجتمعي قد أضفي عليهم حسا ووعيا اجتماعيا قويا كأقلية الدائل الوعي الذي يصعب عليهم التنازل عنه، والذي جعلهم يضفون قيمة عالية على استدامة الجماعة وبقائها، وبما أنه قد تم النظر إلى الروابط الاجتماعية على أنها القوة الحمائية التي ضمنت استمرارية الجماعة اليهودية في الماضي، فإن معظم اليهود يكرهون المساس بتلك الروابط.

تلك هي الأمور التي نشغل بال الجماعة اليهودية — باعدبارها أقلية ذات نقل تاريخي وثقافي لا ترغب، عامة، في الاندماج في المجتمعات التي تحيا بها، خوفا من خطر المنوبان، بل والتلاشي كلية. إذ لم يندمج اليهود جيدا في المقافتين الأمريكية والأوروبية لآماد طوال، وكانوا هدفاً لممارسة التمييز ضدهم حتى أزمنة عاصرتها الذاكرة الحية للشعوب. إضافة إلى أن اليهود، وعلى امتداد عقود طويلة، قد تم الربط بينهم وبين الحركات والتنظيمات الراديكالية، وكذلك الإرهاب القرضوي ... الأمر الذي سيطر على المخيلة الغربية في بدايات القرن العشرين بما يشبه الإرهاب الذي يعزى إلى المسلمين اليوم.

وبالطبع، فإن وضع المسلمين اليوم يختلف اختلافا جليا عن وضع اليهود من مناح عديدة، فالمسلمين، اليوم، قد صاروا هدفا وموضعا لشكوك عميقة سافرة ومستثرة، بل لقد أصبحوا هدفا يمارس ضده التمييز وفقا لأسس قانونية لمجرد الاشتباه في أي أمر يمس القضايا الأمنية، فالمسلمون في الغرب بانتظار الحصول على مزايا انضباط السلوك السياسي العام ومنافعه، وتظل سماتهم وثقافاتهم هدفا دائما للتندر، والسخرية، والتهكم، والكراهية على نحو لم يعد المجتمع الغربي يسيغه فيما يخص الأمريكيين من أصول إقريقية، أو اليهود، أو السكان الأصليين لأمريكا.

إذاً، يدور الجدل الرئيسى، هنا، حول المشكلات المتعلقة بالهجرت الكثيفة للملوثين إلى الغرب، في وقت يشهد توترات جيوبوليتيكية بالغة في العالم الإسلامي نفسه، كذلك، فإنه من المؤكد أن "الإسلام" يخلق مناخا للترابط الاجتماعي، وينشئ روابط عالمية واسعة المدى بالمقارنة بأكثرية الجماعات المهاجرة الأخرى، فقد شهدت الولايات المتحدة الأمريكية، من قبل، أقليات عصية على التواؤم والاندماج بالمجتمع، كالهنغاريين، والإيطاليين، والإيرلنديين، و لصينيين، وبالطبع اليهود ... أولئك جميعا ممن كان ينظر إليهم على أنهم ينتمون إلى عشيرتهم فحسب، وهو ما يعكس، إلى حد كبير، غياب أي بديل مجتمعي أخر.

اليساروالإسارم (التحالف الشائن)

في السنوات الأخبرة، تولدت بعض المخاوف لدى الجماعات المناصرة الصهيونية وجماعات المحافظين الجدد من أن تحالفا خطيرا ومريبا قد أخذ في شق طريقه بين "اليسار" و"الإسلام": وهو تحالف نشأ في أوروبا يقضى بأن تحصل الأحزاب اليسارية على عدد من العملاء الجدد ... أقصد الناخبين ...، في مقابل حصول المسلمين على امتيازات ومعونات، بالإضافة إلى الإبقاء على الحدود مفتوحة، بدرجة أو بأخرى، أمام هجرات المسلمين"،

أما التقارب الثاني بين الطرفين فيتمحور حول "كراهية أمريكا"، والتي يتقاسم اليسار مشاعرها، عن جدارة، مع الإسلاميين، لذا، يشار إلى تعاطف الإسلاميين وتجاويهم مع الانتقادات اليسارية لأمريكا والغرب ... والعكس بالعكس، وفي هذا الإطار، كتب المراقب الأمريكي "ويليام ليند": "إن الذي أدى إلى وقوع التفجيرات الآخيرة في لندن (تموز/ يوليو ٢٠٠٥)، فضلا عن العديد من الحوادث الأخرى التي سنتقع تباعا في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية – هو بلا شك "الحلف للركسي-المحمدي"، فمرة أخرى، أيرم العدوان اللدودان، الماركسية، وتحديداً، للماركسية الثقافية، والتي تعرف "بالانضباط السياسي"، والإسلام – صفقة شيطانية يلتزم بموجبها كي طرف بمؤازرة الطرف الآخر ضد العدو المشترك ...

ولعل الإشارة التي انطوت عليها الجدالات بهذا الشأن هي أن المحافظين الجدد قد لمسوا، بالفعل، جانبا من الحقيقة : التعاون المحتمل بين مختلف الجماعات السياسية على امتداد العالم، والتي تناهض الأعراف الغربية والأمريكية في السيطرة والهيمنة، وتسعى جاهدة للتعاون من أجل إبطال مفعولها. إلا أن المحافظين الجدد يروق لهم أن ينعتوا سعى أمريكا الدوب للإبقاء على الهيمنة الأمريكية أحادية القطب بأنه "سعى للحفاظ على التقاليد اليهودية—المسيحية". وبينما تمثل التقاليد اليهودية—المسيحية، بالفعل، جانبا من الثقافة الغربية، فإن الهيمنة الدولية لأمريكا تنصرف إلى

ما هو أبعد من ذلك، وتشير مخاوف قوى أخرى تتعلق بما يتجاوز مجرد "مشاعر الكراهية لإسرائيل وللتقاليد اليهودية-المسبحية"،

فوفقا لأحد المواقع اليمينية المناهضة الإسلام: www.jihadwatch.org القد لاحظ "أمير طاهرى" - الإيرانى بالمنفى - ذلك التعاون الماركسى - الإسلامى فوفقا له، فإن اليسار الأوروبي المتعصب يرى المسلمين باعتبارهم "الطبقة الدنيا" الجديدة في أوروبا: "ولا يقدم التحالف الماركسي - الإسلامي في أوروبا برنامجا سياسيا متماسكا، إذ تنبني أيديولوجيته حول محاور ثلاثة: كراهية الولايات المتحدة الأمريكية، والحلم بإزالة إسرائيل واجتثاث جنورها من فوق خريطة العالم، والأمل في انهيار المنظومة الاقتصادية العالم؛

إذاً، فقد تم ترسيم حدود المعركة، الأمر الذي أدى إلى صعوبة اندماج المسلمين داخل المجتمع الأوروبي، وإغراق مخيلة المسلمين الأوروبيين بالصراع الأيديولوجي العالمي،

انخراط السلمين في الجتمعات غير السلمة

يذهب العديد من المراقبين البريطانيين إلى تصوير المسلمين بالمملكة المتحدة بأنهم يقفون خارج النظام السياسى البريطاني، فبالنسبة للجيل الأول من المهاجرين، كانت تلك هي الحال غالباً، فقد كان الانخراط السياسي، وفقا لتجريتهم وخبرتهم الخاصة، عملية محفوفة بالأخطار حتى في أوطائهم الأم، والتي قد تكون أجبرتهم، بالفعل، على هجر تلك الأوطان تلمسا للأمن في ظل ثقفة مغابرة.

إلا أن "أمين ناصر" قد ذهب إلى أن مهاجرى الجيل الأول من المسلمين في المملكة المتحدة يتمتعون بوعى سياسى، ويقومون بحشد تأييد المجتمع التشريعات والحريات المدنية التي يتأثرون بها، ويصدق هذا، بصفة خاصة، على نطاق التشريعات المناهضة للإرهاب، والتي جليت بعض المصاعب والمتاعب على الجماعة الإسلامية عن طريق تقييد حرية التعبير إبان حكومة تونى بلير،

وفى مثال مدهش على التواقم، فإن نصو ١٠٪ من إجمالى تعداد الطلبة المسلمين فى فرنسا يختلفون الآن إلى مدارس كاثوليكية خاصة. وتعد ندرة المدارس الإسلامية هناك أحد أسباب تلك الظاهرة، أما السبب الأهم فيكمن فى إيمان الآباء والأمهات المسلمين بأن المدارس الكاثوليكية تنحو إلى تقديم صورة أكثر تسامحا عن دور الدين فى الحياة، فضلا عن إيدائها تقهما أرحب للإسلام عما تبديه مدارس الدولة العلمانية. كذلك يميل هؤلاء الآباء والأمهات إلى الإعجاب بتشديد المدارس الكاثوليكية على عنصر السلوك الأخلاقي، أما المظاهر الكاثوليكية للتعليم، بحد ذاتها، فيبدو أنهم لا يعيرونها كبير اهتمام. وفي المدارس الكاثوليكية، لا يوجد حظر على ارتداء الفتيات لأغطية الرأس في قاعة الدرس، وذلك على عكس المدارس التابعة للدولة. لذا، فوفقا للمعيار الديني، يوجد تعايش صحى في تلك المدارس، والذي قد يتيح قاعدة وأساسا جيدا للجيل التالى للتمتع بمناخ من التفاهم الديني على أسس تعددية.

ويينما اتبعت إدارة جورج بوش الابن سياسات تخريبية هدامة فى أنحاء العالم الإسلامي كان من شأتها استفحال الأزمة وترسيخها، كان المجتمع الأمريكي ذاته أكثر نجاحا فى دمج المسلمين فى الإطار المجتمعي عما قام به الأوروبيون. فبداية، وكما أشرنا سالفا، فإن الكثير من المهاجرين إلى أمريكا الشمالية هم فئة متخصصة حظيت بمستويات تعليمية أرقى، فضلا عن كونها أقدر على تحقيق الاندماج الثقافي من الطبقة العاملة المهاجرة إلى أوروبا. ويالإضافة إلى ما نقدم، فإن مجتمعات أمريكا الشمالية هي بدورها مجتمعات مهاجرة. إذاً، فهي، بمحض التعريف، أكثر تعددية ثقافية من المجتمعات الأوروبية. فباستثناء ثلة قليلة من المسوفينيين الأمريكيين المؤمنين بوجوب بقاء الولايات المتحدة، بالأساس، مجتمعا للعنصر الأبيض ذي الأصول الأوروبية الشمالية والمعتنق البروتستانتية، فإن معظم الأمريكيين لا يشعرون، بالفعل، بأن قدوم مهاجرين جدد إلى الولايات المتحدة سيعمل على تغيير هيكل الثقافة الأمريكية على نحو كبير، أما المجتمعات الأوروبية،

كالدول الاسكندنافية وهولندا وبلجيكا، فإنها قليلة السكان ... إذا، فإن قدوم أعداد كبيرة من المهاجرين إلى أراضيها يمكن أن يفضى، بالفعل، إلى تغيير طبيعة الثقافة التقليدية المحلية بها، والتى طالما حوفظ عليها عبر الأجيال المتعاقبة. إن هذه البلدان لم تكن لتتوقع أن تكون مجتمعات متعددة الثقافة على أى نحو ملحوظ، لذا كانت التجرية في تلك البلدان أقرب ما تكون إلى الصدمة القاسية.

أما "طارق رمضان"، والمشار إليه أنفا، فقد شدد على أن عملية اندماج المهاجرين في بلدان المهجر ذات طبيعة مزدوجة، إذ يؤمن بأنه يتعين على المسلمين، أولا، تصديد مستولياتهم والاضطلاع بها، ويلى ذلك المطالبة بحقوقهم في تلك المجتمعات الجديدة، فوفقا له، يتوجب على المسلمين الذين يهاجرون إلى أوروبا بلا قيود ليس فقط تقبل، بل وتفهم ثقافة أوروبا ولفاتها المتعددة، وطبيعة تكوينها السيكولوجي المشتق من الخبرة التاريخية له، فالمسلمون لا يمكنهم العيش خارج تلك الخبرة، أو أن يحيوا بمنأي عن الثقافة السائدة – إلا أن هذا ينبغى ألا يعنى، بالضرورة، تقبل المسلمين التام لجميع عناصر أنماط الحياة ومناحيها في أوروبا، وقد لاحظ رمضان "وجود بعض غلاة التقليديين والمتشددين في صفوف المسلمين والمتشددين في المجتمعات الجديدة. وبالطبع، فما زال ثمة من بقول بأن . "كل ما هو أوروبي يخالف بالضرورة التقاليد الإسلامية". إلا أن التيار السائد المسلمين في أوروبا، والمكون من أولئك غيير المستشعرين الغربة بها – هو جانب كبير من الحقيقة الأوروبية" ... تلك الحقيقة المسلمين في المجتمعات الأميوبية من المسلمين في المجتمعات الأميوبية من المسلمين في المجتمعات الأوروبية من المسلمين في المجتمعات المحتمعات المحتمعات المحتمعات المحتمعات الأموروبية ومنشئتهم بها،

كذلك، فقد أشار رمضان إلى أن أوروبا تمثل حضارة تتبع هامشا واسعا من الحرية الشخصية للأفراد كى يقوموا بما عساهم يريدون، فلا يوجد من يجبر المسلمين على اتباع أنماط حياة الأخرين، فإذا ما أمن الأوروبيون بضرورة حدوث تغييرات فى أنماط الحياة الأوروبية، يتوجب عليهم، إذا، أن يتوجهوا إلى صناديق

الاقتراع إذا كانوا يرغبون في إحداث التغيير المنشود، إلا أنه يتعين عليهم، أيضا، أن يدركوا أن اندماج المسلمين في المجتمعات الأوروبية لا يلزم المسلمين بأن يعيشوا كالدانمركيين أو الهولنديين النقليديين، وفضلا عن ذلك، يجب أن يدرك الأوروبيون كيف أن طبيعة الاندماج والتكامل ذاتها تتغير هي الأخرى، فأوروبا ليست ثقافة وحضارة ستاتيكية جامدة هاجر إليها المسلمون كي يمتلوا عنصرا تصادميا، لقد تكونت الحضارة الأوروبية على امتداد ألفي عام عن طريق تضافر العديد من الثقافات، والغزاة، والهمج، والحروب، والعوامل والمؤثرات الخارجية، لقد أسهم الإسلام بقسط وافر وفيض زاخر في تطور الثقافة الأوروبية في العصور الوسيطة، فضلا عن دوره في نقل الفلسفة اليونانية، لذا، يجب أن يعمد الأوروبيون إلى التغيير، والارتقاء بثقافاتهم التقليدية في تفاعلاتها مع قوى العولة.

وفضلا عن ذلك، فقد تناول رمضان قضية الهوية والأسئلة المثارة بشأنها، مشيرا إلى الحقيقة الشهيرة من أننا جميعا نحمل هويات متعددة. اذا، فمن غير المنطقى سؤال المسلم: "أى من هاتين الهويتين تسبق الأخرى – الانتماء الإسلامى أم الانتماء لألمانيا؟" ويصف رمضان نفسه بأنه "سويسرى، أكاديمى، ذكر، مسلم، من أصول فلسطينية، دو ثقافة أوروبية" ... وهلم جرا. وتتوالى الهويات المختلفة بما يتماشى والموقف القائم.

وتبدو تلك المشاكل مألوفة كذلك في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث غالبا ما تنقلب التحديات الاجتماعية إلى ضرب من العنصرية "حين تكون مرتبطة بالمكسبكيين أو السود، أو حين ارتبطت، في عصور سابقة، بالإيطاليين، والهنغاريين، والإيرانديين، والروم الكاثوليك، واليهود، والصينيين، والذين كانوا فيما مضى يعتبرون غير مندمجين بالمجتمع". وهناك، بالفعل، قضايا وشئون اجتماعية ترتبط باندماج المسلمين في المجتمعات الأمريكية والأوروبية، وغالبا ما تختلف المشاكل باختلاف الجماعات، وكذا باختلاف الأمكنة، على أن هذه المشاكل تنحو إلى الحل الذاتي عبر الزمن من خلال عملية الاندماج في المجتمعات الجديدة،

وقبول تلك الأخيرة لها، ويمثل انتخاب "باراك أوباما" رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية خطا فاصلا فيما يتعلق بقضية الاندماج، كما كانت الحال من قبل عند انتخاب "جون كينيدى"، كأول رئيس للولايات المتحدة ينتمى إلى الروم الكاثوليك.

مناهضة الغرب للإسلام

إن الأوضاع لا يمكن تحسينها بهجود أخرين في الغرب ممن يرون أن الإسلام والمسيحية متداخلان في صراع لا سبيل إلى تهدئة حدته - تلك الرؤية التي تبدو كانعكاس في المرأة للرؤية العالمية لمتحمسي ومتعصبي تنظيم "القاعدة"، فوفقا للقس رود بارسلي"، من كنيسة "حصاد العالم"، في كولومبوس بولاية أوهابو الأمريكية، والمستشار "الروحاني" للمرشح الجمهوري "چون ماكين" في انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ٢٠٠٨، والذي كتب:

"إنه لمن الأهمية بمكان أن ندرك الوجه الحقيقي للإسلام، أي أن نراه وفقا لما هو عليه بالفعل ... إنني لا أومن بأن أمتنا يمكنها بحق أن تنهض برسالتها المقدسة، وتفي بأهدافها السماوية، إلا إذا أدركنا طبيعة صراعنا التاريخي مع الإسلام. إنني أدرك تماما أن هذه العبارة تبدو متطرفة، ولكنني لا أنزع للتملص من مضامينها. فالحقيقة هي أن أمريكا قد تأسست، ضمن أسباب أخرى، بنية القضاء على ذلك الدين الزائف وتدميره، فأنا أومن بأن أحداث الصادي عشر من أيلول/ سبتمبر ١٠٠١ كانت دعوة للقتال ينبغي ألا نغفلها مطلقا.

لقد كان القضاء على الإسلام، ضمن أصلام أخرى، المصرك الذى دفع كريستوقر كولبوس" للإبحار صوب العالم الجديد عام ١٤٩٢، لقد كان كولبوس أملا في سحق الجيوش الإسلامية بواسطة الجيوش الأوروبية التي ستقوى شوكتها جراء الثروات المغدقة عليها من العالم الجديد. لقد كان هذا الطم، ضمن أمور أخرى، هو للذى أنشأ أمريكا".

أما للبشر البروتستانتي الشهير "فرانكلين جراهام"، فقد أخبر وكالة أنياء

NBC عقب اعتداءات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١: "نحن لا نهاجم الإسلام، يل العكس هو الصواب. قالرب الذي يؤمن به المسلمون ليس هو الرب الذي نؤمن به المسلمون ليس هو الرب الذي نؤمن به. إنه ليس ولد الرب وفقا للإيمان المسيحي، والإيمان اليه ودي المسيحي، إنه رب مختلف، وأذا أومن أن الإسلام دين ينطوي على الشرور والأثام".

وقد أثر "برنارد لويس"، من المحافظين الجدد، والباحث المعروف في الشئون الإسلامية – المضاوف من أن الاتجاهات الحالية لتعداد السكان في أوروبا قد تفضي، بسهولة، إلى إنتاج "أوروبا مسلمة". إلا أن الأرقام الفعلية لا ترجح مقولة "لريس" ونبرته. وقد لوح بعض المراقبين اليمينيين بخطر أن تصبح أوروبا، في المستقبل، "جزيرة عربية" جديدة الا ويدعم مثيرو المخاوف بشأن الإسلام أراهم ويدافعون عن موقفهم بالإشارة إلى ما لا يعدو إلا أن يكون، بحق، ملاحظات مثيرة للفتنة من قبل ثلة قليلة من رجال الدين الراديكاليين، من أمثال الشيخ السورى عمر بكرى محمد"، والذي كان أثيرا لدى تليفزيون لندن ا

للذا أدين أسامة بن لادن؟ أنا أدين تونى بلير، وأدين جورج بوش، لا ... أن أدين بن لادن مطلقا، أو غيره من المسلمين ... نحن لا نفرق بين المدنيين وغير المدنيين، أو الأبرياء وغير الأبرياء . نحن نفرق، فقط، بين المسلمين والكافرين. فحياة الكافر لا قيمة لها، إذ لا حرمة لها ولا قداسة".

وكذلك ملاحظة دياب أبى جهجه، اللبنانى المقيم فى انتويرب بيلجيكا، والذى النهم وأدان مفهوم "الاندماج" أو "الاستيعاب"، والذى يحلو للغرب اعتباره "مفهوما مثاليا" - بأنه "اغتصاب ثقافى" يهدف إلى حصر جميع مسلمى أورويا فى جماعة تابعة تفتقر إلى استقلالية القرار.

كنذلك، فإن العديد من الملاحظات ووجهات النظر التي يبديها الوعاظ الراديكاليون، والذين اعتلوا منابر بعض المساجد في الغرب، ويضاصة المملكة المتحدة، - تعد شائنة، ومحرضة، واستقرازية. إن هذه الملاحظات تحدث صدى في

الصحافة، كما هي الحال بالنسبة للمتطرفين في المجتمعات الديمقراطية بأسرها، بيد أنه من المؤسف أنه في خضم "الحرب العالمية ضد الإرهاب" أن تضاعف أثرها المثير للفتن والقلاقل، يما يمكن أن يكون لها من تأثير فعلى في حفنة من شباب مهيئ لأن يكون شبابا منظرفا عدوانيا، إلا أن الموانع المتى من شأنها الحد من حرية التعبير أو الخطابة ينبغي لها أن ترسم، بعناية وإنعام نظر، حدودا وتخوما قانونية. بيد أنه لا يستقيم اعتبار أحاديث جماعة صغيرة من المتطرفين الهامشيين ممثلة لطبيعة الإسلام في حقيقته، سواء في أوروبا أن غيرها، فالمشكلة الصغيرة بنبغي ألا يتم تضخيمها لتبدوذات شأن أكبر،

والأسف، فإن بعض المسلمين الذين يعانون اليأس، ويحيون حياة "العزلة" - يكونون أكثر ملاعة وقابلية لتلقى وتقبل نظرية المؤامرة التى يتم تضخيمها، كما يكونون عرضة التأريلات المبالغ فيه بشأن جرائم الغرب الكولونيالى الغابرة - وهى أحداث تنطوى ، بالفعل، على قدر كبير من الصقيقة، ولكنها تفتقر إلى المنظور التاريخي السليم والانساق التكاملي. وعلى الطرف المقابل من ذلك الطيف أو المدى، فقد تمت تنشئتنا في الغرب، عامة، على الإيمان بأن التجرية الكولونيالية الغربية كنت إيجابية بالضرورة، إذ لم تفتقر إلى حسن نية أو سلامة مقصد. لذلك، فحتى كنت إيجابية بالضرورة، إذ لم تفتقر إلى حسن نية أو سلامة مقصد. لذلك، فحتى الاتهامات الموثوقة بشأن وحشية الغرب وعدوانيته خلال تلك الحقبة الكولونيالية غالبا ما يتم إنكارها على الفور من قبل الغربيين باعتبارها إما مغالياً فيها، وإما غالبا ما يتم إنكارها على الفور من قبل الغربيين باعتبارها إما مغالياً فيها، وإما الماضي ليست بالأمر الهين، إذ لا يتم الالتفات إليها، حتى أن النقاد الغربيين السياسات الغرب غالبا ما يتم رفض طروحاتهم، أو عدم إيلائهم أدنى اهتمام في الصحافة الأمريكية السيارة.

على أن الأمر الأكثر إزعاجا أننا نواجه، الآن، بتعليقات وملاحظات غاية في الغرابة والتطرف من فئة بأكملها من الأيديولوجيين اليمينيين الذي يتشككون بالفعل في مدى "إنسانية" المسلمين بالأساس - باعتبارهم نتاجا لثقافة عاجزة، كليا، عن

اللحاق بركب الحضارة العالمية - وكأن لم يكن الإسلام أدنى دور فى خلقها. فهل سبق وأن تم توجيه مثل ذلك النوع من الاتهام بحق أية حضارة أخرى؟ لقد تم اعتماد تلك اللهجة، بالفعل، ضد اليهود فيما شهده القرنان التاسع عشر والعشرون من جرائم منظمة بحقهم فى أوروبا الشرقية، وما نجم عنها من مذابح جماعية. وفى تلك الحالات، بالطبع، لم يكن الأصر مجرد تمييز على أسس إثنية، وإنما نظريات عنصرية وعرقية كاملة قد تم نسجها حول اليهود وتقافاتهم، وما تزال تلك المشاهد ماتلة فى الذاكرة الحية.

كذاك، فإننا نشهد اليوم جدالات ومناقشات عميقة حول مدى قدرة المسلمين على اعتناق منهج "الحداثة"، وما إذا كانوا قد كفروا بكل ما هو عصرى، وما إذا كان ثمة موطئ لقدم لهم، بالأساس، فى الغرب. إن المخاوف من اعتزام المسلمين ابتلاع "ابتلاع" الغرب ديموجرافيا تبدو سافرة، إذ يتم التصريح بها علانية، فضلا عن التصريح بالمخاوف من نية المسلمين لفرض الإسلام بالإكراه، ومن سحق الإسلام التصريح بالمخاوف من نية المسلمين لفرض الإسلام بالإكراه، ومن سحق الإسلام الأوروبيين لا حيلة لهم ... هؤلاء الأوروبيون الذين سيفقدون، فى اندفاعهم الليبرالي، أية قدرة على المقاومة. لقد تم ترسيم خريطة المعارك وحدودها، وتم رفع رايات القتال خفاقة. والأمر الذي يثير القلق والمخاوف هو تكرار التجربة البهودية، إذ أضحى المسلمون فى المجتمعات الأوروبية، وكأنهم "اليهود الجدد". وتجدر الإشارة إلى أن عددا لا بأس به من الإسلامونوبيا" الحالية ملامح العقلية ذاتها، والنهج اليهود أنفسهم يلمسون فى "الإسلاموفوبيا" الحالية ملامح العقلية ذاتها، والنهج اليهود الناتيا النازية ولجرائم أوروبا المنظمة ضدهم.

المسلمون الأوربيون والعلمانية

فماذا، إذاً، عن القضية المثارة دائما على بساط الجدل، والخاصة بمشكلات السلمين بشأن العلمانية؟ إن وجود "هوية إسلامية" في حد ذاته، وخصرصا في فرنسا، ليفرض تحديا يوجه المفهوم الفرنسي للعلمانية، أن "اللائيكية". فاللائيكية لا

تستلزم الفصل الحاد ما بين الكنبسة والدولة، كما هي الحال في الولايات المتحدة الأمريكية، بل بالأحرى سيطرة الدولة على الشأن الديني والرقابة عليه. وقد أدت تلك العلمانية الصارمة إلى صدام فرنسا مع المسلمين بها في عدة مجالات، ويخاصة التعليم، حيث لا تسمح الدولة بالإفصاح الشخصى عما هو ديني في المدارس التبعة لها، إذا، فإن القانون هناك لا يتيح لفتيات تلك المدارس ارتداء أغطية الرأس، وهي قضية ذات شأن كبير ورمزية تقافية بالغة للمجتمع المسلم، إن وجود أقلية جديدة ذات حجم كبير نسبيا يمثل الدين لها أهمية كبيرة باعتباره رمزا المهوية — قد أجبر فرنسا، وأوروبا بصفة عامة، على إعادة التفكير في معنى اللائيكية، حين جاءت متطلبات التعددية الثقافية الأن لتصطدم بالعلمانية الفرنسية. كذلك، فقد أجبر الأوروبيون، والذين تنخفض لديهم، عامة، معدلات التدين، على إعادة تناول دور الدين في المجتمع، وفي حياة المجتمعات، ويبدو الأمر، التدخل في سبات عميق بعد ما عانوا ويلات الحروب الدينية سابقا.

ويا للمفارقة ... !! فقد لاحظت الكنيسة الكاثوليكية تلك الظاهرة، ولم تمتنع عن أن تبدى بعضا من موافقة، فقد صبرح الكاردينال 'جان-لوى طوران'، رئيس إدارة التقارب ما بين الأديان بالكنيسة الكاثوليكية - أن 'الدين' قد أصبح، الآن، محلا للحديث والكتابة عنه بأكثر من أى وقت مضى فى أوروبا، 'ويرجع الفضل فى ذلك إلى المسلمين ... المسلمون، - والذين أضحوا أقلية ذات شأن فى أوروبا - هم من طالبوا بإقساح مساحة للأمور الدينية فى المجتمع ... نحن نحيا فى مجتمعات متعددة الثقافات والأديان، وهذا جلى تماما، يمكننا القول بأنه لا توجد حضارة مينية صرف،..."،

إن غلاة مؤيدى العلمانية ومناصريها - والذين تفتقر حياتهم الخاصة إلى أدنى ملمح دينى - قد سعوا إلى إثارة القضية في حادثة "الرسوم الكاريكاتورية" الدائمركية الشهيرة، حيث قررت حفنة من العلمانيين الليبراليين بالدائمرك الحط

من قدر "الانضباط السياسي"، وممارسة حريتها في التعبير وإبداء مواقفها المناهضة للدين، بنشر رسوم كاريكاتورية مسيئة للنبي محمد، وبطبيعة الحال، فقد كانت ردات الفعل في العالم الإسلامي على ما اعتبر فعلا متعمدا للإساءة والتجديف - غاضبة وثائرة.

فما عسانا أن نفعل إزاء ذلك المادث الذي استثار حرية التعبير ضد الحساسيات الدينية؟ لقد كان الدائمركيون يمارسون حقهم تماما في التعبير بحرية عن أية قضية تتراءى لهم. ولكن السؤال الحقيقي ينبغي أن يكون: هل كان من المصافة وحسن التقدير التهكم والسخرية من النبي محمد، لمجرد إثبات إمكانية القيام بذلك؟! هل كان هذا هو التوقيت المناسب، خاصة والعالم الإسلامي بأسره يشعر بوطأة الحصار الرازح تحته جراء "الحرب العالمية ضد الإرهاب"؟! إن الرسوم الكاريكاتورية تلك لم تثر الدانمركيين المؤمنين ضد الدائمركيين غير المؤمنين، وإنما بالأحرى قد أثارت الأخيرين ضد قمة الرمزية الثقافية، والحضارية لأقلية غبئيلة العدد مهيضة الجناح تفتقر بشدة إلى من يتحدث باسمهاء أو يعلى من قدرها في أوروبا - كذلك، مثلت تلك الربسوم، من وجهة نظر تلك الأقلية، اعتداء سافرا ضد كينونتها ووجودها، وسخرية من حضورها وبقائها، تلك الأحداث قد تكون قريبة الشبه من التهكم والسخرية من اليهود لادعائهم أنهم "شعب الله المختار"، والتندر من خلال الكوميديا الساخرة على "الهواوكوست" (إن إنكار "الهواوكوست" بعد مخالفا القانون في ألمانيا . كذلك، فقد مررت الجمعية الوطنية الفرنسية، عام ٢٠٠٦، مشروع قرار يقضى بحظر إنكار المذابح الجماعية التي ارتكبها العثمانيون بحق الأرمن خلال الحرب الكونية الأولى).

فقى حدها الأدنى، أبانت تلك الرسوم الدانمركية غيابا للتقدير وحسن التصرف، وافتقادا للرؤية الاجتماعية، رغما عن كونها قانونية وشرعية بالكلية. ولكن ليس كل ما هو قانوني حصيف بالضرورة، وفي حقيقة الأمر، فإن الغرب مواجه هنا بضرورة التوفيق بين قيمتين مقدستين لا تقبلان التحدي أو المساس

بهما: فقى العرب، لا يمكن بحال مجرد التفكير فى مناقشة إمكانية تقليص حرية الرأى أو التعبير – إذ يبقى هذا الحق مقدساً، أما بالنسبة للمسلمين، حتى أولئك من غير نوى النزعة الدينية، فإن مناقشة مجرد احتمالية التهكم أو التجديف فى حق الإسلام، أو فى ذات ألنبى محمد وشخصه ، لا يمكن تخيلها بتاتا – فتلك، إذاً، حرمة لا تنتهك. (ملاحظة: يعمد المسلمون، الآن، إلى الدفع بفنانيهم الكوميديين والمونولوجست – فى أوروبا وأمريك الشمالية – للتهكم والسخرية من مجتمعاتهم الإسلامية ذاتها على نحو لا يستثير، مباشرة، مخاوف المسلمين من مشاعر العداء أو التمييز ضدهم).

ولقد أوجزت جماعة 'الأزمات الدولية' المرموقة، بإنقان، تك الأزمة في تحليلها للاضطرابات التي سادت باريس عام ٢٠٠٦، وذلك على النحو التالي :

إن المظاهر الراديكالية، وأعمال الشغب التي يقوم بها الشباب المسلم، على الأقل في فرنسا (ومن المحتمل، أيضا، في الملكة المتحدة) لا تعكس وجود الإسلام السياسي، وإنما تعكس غيابه، وإخفاقه ... لقد أخفق الإسلام السياسي، بجدارة، في تقديم حلول المشاكل التي تقرضها الأحداث الراهنة. ونتيجة لذلك، تحول الشباب إلى "السلفية"، وهي حركة محدودة ترتكن إلى حرفية النص المقدس مشددة على ضرورة المتزام الفرد بالتعاليم الدينية وفق قاعدة تأريلية ضيقة الأفق تشجع الانسحاب من المجتمع غير المسلم، وتدعو إلى العودة للذات بقدر من الانطوائية ورفض المجتمع والثقافة الفرنسيتين. إذاً، فالمسراع ينجذب نحو "حرب ثقافية حضارية" وليس نحو "حرب سياسية". ويخلق ذاك، يدوره، نوعا من "عدم التسييس" فيما يخص المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، وهو فراغ سياسي خطير ... وعدم رغبة في إشراك النظام السياسي من خلال القنوات السياسية لإبداء الاستياء والمطالبة بالثأر. هذه العوامل، كلها، تخلف كتلة شبابية، لا ينتظمها رابط، مخيبة للأمال لما هي عليه من غضب واستثارة وعدم نضيج ... تلك الكتلة التي تعبر عن مظالمها، على نحو متنام، من خلال "السلفية الجهادية"، وأعمال الشغب، والتي مظالمها، على نحو متنام، من خلال "السلفية الجهادية"، وأعمال الشغب، والتي مظالمها، على نحو متنام، من خلال "السلفية الجهادية"، وأعمال الشغب، والتي مظالمها، على نحو متنام، من خلال "السلفية الجهادية"، وأعمال الشغب، والتي مظالمها، على نحو متنام، من خلال "السلفية الجهادية"، وأعمال الشغب، والتي

يشعل وقودها ويذكى نيرانها، أحوال معيشية غير مستقرة، ويطالة فاشية، وتمييز المتماعي، وما استجد من قيام "الآخر" من الحط من قدر الإسلام،

وقد كتب أحد البريطانيين بعد تخوله إلى اعتناق الإسلام:

"نحن المسلمين بحاجة إلى "أجندة" جديدة، على أنه يجب ألا يتم تعريف ذلك بكونه "ليبرالية إسلامية". فالليبرالية في أمور الدين تنحو إلى إحداث ضعف وهشاشة في الإيمان، وبالمقابل، فنحن نريد أن نرجع ثانية إلى تقاليدنا، والتنقيب عن موارد تمكننا من استعادة روح صحابة النبي محمد الدمثة والمرحة.

كذلك، فمن الجلى استحالة تبنى الدعوة إذا ما هجرنا التقاليد والأعراف من أجل الإصرار على تأويل الشريعة وفق منهج يتسم بضيق الأفق وعدم المرونة، إن جيرانتا لن يلتفتوا إلى دعوتنا إياهم إلا إذا أمكننا أن نريهم أن ثمة تشابها قائما فيما بيننا، وأن لدينا أموراً ذات قيمة تغرى بالتناول، ولعل الأهم أن نجعلهم يدركون قيمة الانضمام إلينا، إن "الأجندات" الإسلامية الراديكالية المتزمتة تبدو متبناة من قبل أناس متعصبين لا تعلو وجوههم ابتسامة، بل ينم محياهم عن توترات كامنة، وصلف ويؤس باديين".

وعلى الجانب المقابل، تبدو أمارات مبشرة تجم الفؤاد وتشد الأزر، فإذا ما دلف المرء إلى موقع إسلامى بشهرة "إسلام أون لاين"، ومقره دولة قطر ... وطالع القسم المخصص للإجابة عن الأسئلة المطروحة لوجد ما يدعو للتفاؤل، ويرتبط هذا الموقع الإسلامي بواحد من أبرز رجالات الدين، ممن يتمتعون بموثوقية وسلطة فائقة ... الشيخ "يوسف القرضاوي"،

وفيما يلى نجد عرضا لأحد الأسئلة والإجابة عنه :

س: أعزائي ... أريد أن أعرف، كمسلم، يحيا في الولايات المتحدة الأمريكية،
 واجباتي تجاه جماعتي هنا، أقصد تجاه وطني. كيف يمكن أن أدعمه وأؤازره ضد

الأزمات المحدقة به من دون المساس بواهباتي الدينية؟ أريد أن أعرف كيف يتنابل "الإسلام" هذا الشأن؟

ج: بواسطة د/مزمل صديقي، رئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية:

"يجب أن ندرك جيدا أن الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ، لم تعد كما كانت قبل ذلك التاريخ، فقد تغيرت أمور عدة، وأمور أخرى في طور التغيير، بل وأمور سوف يطالها التغيير. إذاً، فيجب كمسلمين أن نقيم أنفسنا، وتعمل على تغيير بعض طرائق التفكير والسلوكيات الفاصة بنا، كذلك، علينا أن نضرج من عزلتنا، ويتعين عينا نبذ خلافاتنا الثانوية والعمل يدا بيد، ويجب علينا تقديم أنفسنا للمجتمع، وطرح قيمنا ومبادئنا الإسلامية أمامه، كما يتعين أن نسبهم بنصيب وافر في هذا المجتمع من أجل السنلام، والتناغم، وإرادة الخير، وإرساء قوعد المجتمع الخير، ليس لأنفسنا فحسب، وإنما للأمريكيين بأسرهم.

... إنه من الأهمية بمكان أن ننشئ أسرا خيرة، وأن نبقى على الروابط بين الأسر ويعضمها البعض، ولكن علينا ألا نقتصر على أسرتنا فحسب، وإنما النظر إلى الناس كافة، والتعامل معهم باعتبارهم أسرة واحدة ...

فالدين ليس طقوسا وشعائر فحسب، وإنما هو إرساء السلوكيات المثالية وانتهاج الأخلاق القويمة، والدين دعوة للحدب على الفقراء ورعاية المعوزين، إن الدين يدعو إلى محبة جيراننا والإحسان إليهم ...

يتعين علينا أن نعمل جاهدين من أجل إرساء قيم العدالة والتوافق قيما بين الناس أجمعين، وكذا فيجب أن تكون نظرتنا شاملة، وليست ضيقة قاصرة ...

إن العدالة تتطلب أن يتم تقويم الباطل باستخدام الأساليب الخيرة، فالجور لا يمكن أن يُزال بجور آخر، فلا يمكن لخطأين أن يصنعا صواباً، والغايات النبيلة لا تسوغ الوسائل الوضيعة".

وقد ورد تعليق للدكتور/طه جابر العلواني (الذي كان يشغل منصب رئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية، والتي تعرف حاليا بجامعة قرطبة، كما كان يشغل منصب رئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية :

"لقد أوضح الباحثون المسلمون المرموقون، بجلاء، أن كل مسلم يحيا في الغرب، بصفة عامة، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، بصفة خاصة — تقع على عاتقه مهمة المشاركة في إرساء حياة طيبة خيرة لكل من يحيا معه كأعضاء في المجتمع، بغض الطرف عما إذا كانوا مسلمين أن غير ذلك. فالإسلام يحث المسلمين أن يصبحوا فاعلين، وكذلك مترقبين لما عساه أن بحدث في أي مجتمع يحيون فيه ... بيد أن ذلك لا يقصد به أن يخاطر المسلم بتعاليمه الدينية حين تكون بعض السياسات المتبعة من قبل حكومته في غير مصلحته، إذ يجب أن يجاهد مبتغيا الحق والعدالة أينما يكون، وفي أي منصب يشغله".

وأخيراً، وكما هي الحال في جميع الأديان، يود المسلمون معرفة وجهات نظر مرجعياتهم وعلمائهم الدينيين وأحكامهم، بيد أنه، وفي النهاية، نجدهم يصدرون أحكامهم الذاتية بشائ كيفية المفاظ على المبادئ والقواعد الإسلامية داخل المجتمعات الغربية، حين يكون التوصل إلى صيغة توافقية أمرا ضروريا من دون الإضرار بهم، (يحرم البابا موانع الإنجاب، إلا أن المؤمنين من الكاثوليك في إيطاليا لديهم أدنى معدلات الإنجاب في أوروبا) وفي النهاية، سيقوم المسلمون بموازنة إحساسهم الفطري مع التأويلات التقليدية لرجال الدين، بل لعل الأرجح أن يحيا هؤلاء من دون القلق بشأن المتناقضات المحتملة. فكثير من المسلمين لا يرتضى جميع الأحكام والفتاوى الصادرة عن رجال الدين على أنها "دوغما" لا يمكن رفضيها، فضيلا عن أن هذه الأحكام وتلك الفتاوي تتباين كثيرا وفقا يمكن رفضيها، فضيلا من المسلمين، والذين يصوتون لصالح الغرب عن طريق قدومهم إلى أراضيه، أنه لا ضير من أن يحيا المرء في مجتمع غير مسلم، على أن يمارس حياته وفقا لمعايير إسلامية ما استطاع إلى ذلك سبيلا، عن طريق التعلم

على من الأيام، والتكامل بصبغ أكثر اندماجا مع الأجيال المختلفة،

إن ما سبق كله لا يرتبط بالإسلام فى حد ذاته، وإنما يرتبط بالديناميكيات المعقدة والمتناوية للاندماج والتعددية الثقافية. إن الأرروبيين ليتعين عليهم قبول الثقافة الإسلامية كإحدى مكونات أورويا الجديدة -- مثلما تم قبول الثقافات اليهودية، والهندوسية، والصينية باعتبارها إسهاما في ثراء التعددية الثقافية بالغرب. كذلك، يجب علينا أن نحذر من "أسلمة" المشاكل الخاصمة بالتعددية الثقافية، وإندماج المهاجرين في مجتمعاتهم الجديدة.

وتبقى ملاحظة أخيرة بشأن نمو التعددية الثقافية وتطورها: إذ كتب ويليام دائريمبل، الصحافي والكاتب البريطاني: "إن الأمر ليبدو عصيا على التصديق، إنه في عالم محوره أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وأسامة بن لادن، و"صدام الصارات"، يكون أكثر الشعراء مبيعا في الولايات المتحدة خلال تسعينيات القرن العشرين هو رجل دين مسلم حصل تعليمه بطرق تقليدية، وقام بتدريس الشريعة الإسلامية في المدارس المخصصة اذلك". لقد كان دائريمبل يشير، بالطبع، إلى شعراء القرون الوسطى فارسى الأصل تركى الإقامة، جلال الدين الرومي، أحد أبرز شعراء الصوفية المحبوبين على امتداد العالم بأسره، إذ إن أشعاره تعد شفاء روحانيا للعالم برمته. وبالفعل، فإن روحانية الإسلام تظل إحدى إسهاماته الخالدة في مسار الحضارة الإنسانية، وكم سيبدو الأمر عظيماً إذا تم إفساح المجال، يعض الشيء، أمام تلك الملامح الروحانية في خضم التتازع والاضطراب السياسي والثقافي الذي يسم حياة كل من السلمين والغربيين، فيما تدور الجدالات دورتها الخالدة حول الدين، والهوية، والمواطنة، والتسامح، والانتماء.



القصل العاشر

الإسلاموالهند

لقد شهد العالم حروباً ثلاثاً دارت رحاها بين الهند الهندوسية وباكستان المسلمة على مدار نصف القرن المنصرم، وقد تكون الحرب القائمة بينهما حمال قيامها—حربا نروية. إن الصراع على إقليم تشمير كان البذرة الرئيسية لنزاع طويل بين الطرفين، تمثل في حرب بالوكالة ما تزال مستمرة بينهما حيث تخوض جماعات تحرير كشمير المسلمة حرب عصابات ضد الحكم الهندى القمعي، كذلك، ققد نفذت الجماعات الإسلامية المتسمة بالعنف، والمرتبطة غالبا بالجانب الباكستاني، عمليات إرهابية دموية عديدة داخل الهند.

إن الهنود والباكستانيين لم ينسوا أبدا التقسيم الأليم للهند، والذي خطط له ونفذه الاستعمار البريطاني عام ١٩٤٧، والذي أسفر عن مقتل الملايين من الهندوس، والسيخ، والمسلمين أثناء الهجمات الوحشية ما بين الأطراف الثلاثة، والتي شهدت عمليات ترحيل واسعة للسكان المسلمين من الهند باتجاه دولة باكستان "الجديدة"، والهندوس والسيخ من باكستان إلى الهند. فإذا لم يكن ذلك "محورا" للصراع بين الحضارات، فما الذي عساه يكون كذلك؟!

من بين جميع الحدود القائمة بين الإسلام والثقافات والحضارات الأخرى، تبرز الهند كحالة شائكة وحرجة للغاية، فالإسلام لا يقتصر على متاخمة الهند (إذ يوجد في باكستان وبنجلاديش)، إذ عاشت أعداد كبيرة من المسلمين داخل الهند على مدار أكثر من ألف عام، في ظل روابط وعلاقات بالغة التعقيد والثراء مع الهندوس هناك، وعلى امتداد التاريخ، اضطلع المسلمون بأدوار شديدة التنوع على

مسرح الأحداث بالهند: فهم تارة تجار مسالمون قاموا بنشر الإسلام في الجنوب، وتارة غزاة فاتحون نزحوا من آسيا الوسطى نحو الشمال – إذ أنشأ المسلمون واحدة من كبريات "الحضارات الاندماجية" على مر التاريخ بين الإسلام والهندوسية، والتي تمخضت عن الإمبراطورية "الموغالية" العظيمة. ثم أضحى المسلمون، أخيرا، قلة منهزمة في أعقاب تقسيم الهند عام ١٩٤٧ ... قلة توزعت بين باكستان (الحديثة أنذاك)، وبين الهند التي يحيون بها كاقلية يجرى التعامل معها على نحو تمييزي، ويعاني أفرادها اعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية. وتمثل الهند، كذلك، أول تناول لنا لحد من "الحدود" غير المسيحية في تعامله مع الإسلام.

وققا لسيناريوهاتنا البديلة "لعالم بلا إسلام"، تبدو الملامح في الحالة الهندية أقل وضوحاً . فعلى جانب، كانت الأمور لتختلف اختلافا واضحا ما لم يكن شمة إسلام: إذ كان العالم سيحرم من المزيج الحضاري المبهر فيما بين الهندوس

والمسلمين، والذي انتظمته الإمبراطورية الموغالية. وفي الوقت ذاته، لم تكن الصراعات الدينية المؤسفة بين الهندوس، والمسلمين، والسيخ لتحدث إذا لم يكن ثمة إسلام، لذا، وفي هذا السياق، فقد يكون السؤال الأكثر إثارة. هل كان الصراع بين الهندوس والمسلمين أمرا محتوما لا سبيل إلى تجنبه؟ وهل كان لذلك "الحد" من حدود الإسلام" وتخومه أن يكون دمويا بالضرورة؟ ما السبب وراء ما نحن عليه الآن، وكيف بلغنا تلك الحال؟ وهل يتعلق الأمر، حقيقة، بالعنصر الديني؟ أم يمكننا أن نعزى جنور المشكلة إلى سياسات بريطانيا التي تضدم مصالحها الذاتية، والتي اتبعتها إبان حكمها الكولونيالي للهند؟

إن اللقاء الأول للإسلام والهند قد مثل حدا ثقافيا جديدا للمسلمين: إذ لم تكن الهندوسية مجرد ديانة قديمة مركبة تتسم بسعة الانتشار وتعدد الأوجه، بل كانت كذلك أول ديانة يلقاها الإسلام من حيث عدم ارتباطها بديانات الشرق الأوسط، و"أهل الكتاب". إذاً، فقد مثلت الهندوسية خبرة بالغة الاختلاف للمسلمين، لما السمت به من تعدد للآلهة، وغزارة في التصاوير الدينية غير المألوفة، ومزيج مذهل من الرموز البشرية والحيوانية والعناصر الميثولوجية، وكذا الرسوم العارية وشبه المارية في الفنون الدينية للكثير من الملل الهندية – فجماع ما سبق قد أدى إلى جعل الهندوسية "صادمة" على نحو يفوق أية ديانة أخرى يمكن أن يشهدها علماء المسلمين، إلا أن منطلبات الواقع سرعان ما أدت إلى إحداث توافقات، فنشأ عليش مضطرب فيما بين الهندوس والمسلمين.

اذا، فليس من المستغرب أن نجد مدارس 'تأويلية' مختلفة تناولت كامل الخبرة الإسلامية في الهند، فالقوميات، جميعها، تذهب إلى قراءة التاريخ على نحو ارتجاعي، أي أن مؤرخيها يسبرون أغوار التاريخ للتنقيب عن أسانيد وبراهين يكون من شانها دعم مزاعمهم القومية والإقليمية وتأييدها لليوم والغد. فوفقا للقوميين الهندوس، فإن الديانة الهندوسية لها جنور ممتدة ضارية في أعماق التربة الهندية على نحو لا يضاهي، لذا، فإن أية ديانة أخرى تسعى لاختراق تلك التربة،

إما أن يتم استيعابها أو ينظر إليها باعتبارها متطفلاً دخيلاً. لذا ، ينظر إلى كل من المسيحية والإسلام وفقا للمنظور الأخير – وذلك على أساس سياسى وثقافى بأكثر من كونه على أساس دينى ويستعى كل من الإسلام والمسيحية إلى استقطاب الهندوسية لما فيه صالح كل طرف منهما وان حقيقة وجوب كونه الرمز العالمي للهند والاكثر انتشارا اليوم، هو المعمار الإسلامي المثالي لتاج محل - لتثير استياء بالغالدي القيوم يبين الهندوس. إلا أن الهند بدون المزيج الحضياري الذي مخلت الإمبراطورية الموغالية كان لها أن تكون موضعا قفرا بلقعا يعاني تصحرا ثقافيا .

إن الوثائق الأكثر انفتاحا وليبرائية لهذا التاريخ ذاته لتزهو بالثمار الجنية للحضارة الهندوسية الإسلامية. إذ أثرت كل ثقافة في الأخرى تأثيرا كبيرا في مناح عدة بما يثبت القدرة الاستيعابية الإبداعية، وكذا المرونة التي يتمتعان بهما. بيد أن المسلمين الهنود، اليوم، قد أصبحوا أقلية محرومة داخل المجتمع الهندى الكبير الذي حكموه يوما، وأسهموا في تشكيل بنيانه وقواعده. فقد جاء المسلمون إلى الهند من خارجها، ثم احتلوا صدارة المشهد، ثم أهبطوا إلى الدرك الأسفل، وأمسوا اليوم يتفكرون مليا بشأن وضعهم كأقلية في ظل الأحوال الجديدة لدولة الهند الحديثة، ولعل ذلك المسار التاريخي المتنوع هو الذي أمد المسلمين الهنود برؤية ثاقبة بعيدة للإسلام في مجتمع متعدد الثقافات، لا تدانيها رؤية أخرى على امتداد العالم بأسره.

إن المسلمين قد فتنوا بالهند لأسباب عدة: أولا، كونها واحدة من الأقاليم العديدة بجنوب وجنوبي شرق أسيا التي لم ينتشر بها الإسلام بحد السيف، إذ تم تعزيز العلاقات التجارية بين الملاحين العرب ممن مارسوا التجارة، وبين الساحل الجنوبي الغربي للهند قبل مجىء الإسلام بزمن كبير. ووفقا للوثائق الهندوسية، فإن أول نزوح فعلى للمسلمين باتجاه شبه القارة الهندية قد جرى في أوائل القرن السابع الميلادي، واتخذ شكل الرحلات التجارية، ويذكر أنه قد جرى تأسيس أول مسجد بالهند في كودونغالور، الواقعة حاليا بمقاطعة كيرلا، وذلك في عام ١٦٢، في

حياة النبي محمد،

ويرصد المؤرخون تمايزات بالغة ما بين طبيعة الإسلام في شمال الهند، وطبيعته في جنوبها. إذ جاء الإسلام ليدخل الهند مبكرا عبر الحدود الجنوبية، وذلك عن طريق التجارة والتبشير بالدين الجديد، أما الشمال، فقد دخل الإسلام هناك بعد عدة مئات من السنين كواحد من العديد من الغزاة -من أسيا الوسطى - الذين دخلوا الهند عبر الحدود الشمالية. ونتيجة لذلك، نجد صدى أوسع للتوترات ما بين المسلمين والهندوس في شمال الهند مقارنة بجنوبه ... فالجنوب قد شهد اندماج المسلمين التدريجي ضمن نسيج الثقافة المحلية، مقارنة بالشمال الذي غزاه المسلمين بواسطة جيوشهم المكونة من مزيج من الفرس، والعرب، والأتراك، والمغول.

ولقد دخلت الجيوش العربية المسلمة شمال الهند في ظل الخلافة الأموية يدمشق، وقامت بغزو السند، في أقصى غرب شبه القارة الهندية. وفضلا عن ذلك، فقد جاعت الغزوات الحربية الإسلامية في القرن العاشر الميلادي. وأخيرا، قام القائد العظيم، بابور، در الأصول التركية المغولية والقادم من آسيا الموسطى، بتأسيس الإمبراطورية الموغائية، مع سقوط دلهي عام ٢٥٢٦ . ولقد سيطر الموغال إبان أرج دولتهم على معظم الأراضى الهندية. إن الموغال أنفسهم قد مثلوا مزيجا من الثقافة التركية والفارسية، وقد أدخلت اللغتان التركية والفارسية إلى الهند حيث كان لهما أثر كبير على الثقافة واللغة الهندية.

ورفقاً لما كتبه "ستيفن كوهين"، الباحث بمعهد بروكينغز:

بالرغم من اعتبار كل من الفاتحين اليونانيين، والهنفاريين، والشيئيين، والشيئيين، والمسلمين شبه القارة الهندية على أنها امتداد لقواعد نفوذهم الخارجي، فقد انتهوا إلى النظر إلى العالم من خلال رؤية محورها الهند. لقد كانت القدرة الاستيعابية للمجتمع الهندى مذهلة على الدوام ... أما الإسلام فقد جلب تقنيات عسكرية جديدة

وأفكارا سياسية ودينية، بيد أنه لم يقم بتدمير الحضارة الهندية مثلما دمر ثقافة فارس ما قبل الإسلام. وأخيرا، فقد تم توحيد الهند على أيدى الموغال وفقا لنظام إمبريالي، ووفقا للترتيبات الجديده، فقد تأثر الإسلام كثيرا بالهندوسية بالقدر الذي فاجأ الإسلام الهندوسية وقام بتطويرها.

أما الإسلام الصوفى، بما له من طابع توفيقى، فقد نال استحسان العديد من الهندوس، وأسهم فى تخفيف وطأة انتأثير الإسلامى، بيد أن رجال الدين المسلمين لم يخلصوا أبدا إلى اتفاق فيما بينهم بشأن كيفية التعامل مع الهندوسية، ومن ثم الهندوس. لقد أمضى العالم الموسوعى الفذ، البيروني، بعض الوقت فى الهند فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ملاحظا ومراقبا المجتمع، وخلص البيروني، فى النهاية، إلى أن الهندوسية، رغما عن اشتمالها على آلهة متعددة، كانت ديانة توحيدية بالأساس:

"يؤمن الهندوس بأن الرب واحد، أزلى، بلا ابتداء ولا انتهاء، يفعل كيفما شاء، شديد الطول، حكيم، محيى، مقتدر، حفيظ، كذلك، فالرب متفرد في رحدانيته، قدوس، منزه عن التشبيه، أيس كمثله شيء".

ولكن ماذا عن "الآلهة" المتعددة التي يتعبد لها الهندوس؟ يؤمن البيروني بأن عبادة تلك الآلهة تعكس، بالضرورة، الجهل الديني للفئات الدنيا من المجتمع التي تتعلق بها، أما الهندوسية كمفهوم فلسفي رفيع راق فتشارك الإسلام منهجه التوحيدي. ويغض الطرف عما إذا اتفق المرء مع هذا التأويل أم لا والذي يرفضه، بالتأكيد، أغلبية "العلماء" المسلمين - فإن ما خلص إليه البيروني هو أمر صارخ وصادم خاصة حينما يصدر عن عالم مسلم مثله.

وبالنسبة لأغلبية "العلماء" المسلمين في الهند، فإن إدراج الهندوس ضمن "أهل الكتاب" بيس غاية تيولوجية مستحيلة، ولكن إذا لم يكن الهندوس كذلك، فإنه يمكن أن يتم إجبارهم على اعتناق الإسلام، ولقد ذهبت الحماسة بيعض العلماء ممن

فرضوا اعتناق الإسلام بالقسر إلى القول بقتل الرافضين لاعتناقه. وتشير المصادر إلى أن معابد هندوسية قد تم تدميرها في كثير من أرجاء الهند، فيما تم تحويل معابد أخرى لتصبح مساجد المسلمين، ولعل المارسة الأكثر شيوعا من استخدام العنف في ما ورد عن أن الموغال قد قاموا برفع سعر الجزية المفروضة بغية الضغط على فقراء الهندوس التحول إلى اعتناق الإسلام، والذي إن تم فسيودي إلى إعفائهم من دفع تلك الجزية، بل لقد تحول كثير من الهندوس ممن ينتمون إلى الطبقات الاجتماعية الدنيا إلى اعتناق الإسلام المانعتاق من ذلك النظام الطبقي الصارم، أو بغية الانضمام إلى النسق الثقافي الحاكم، ولكن لم يستطع الموغال، في النهاية، إجبار الغالبية على النحول إلى اعتناق الإسلام، وقد كانوا أدركوا ذلك بالفعل، لذا فقد استقرت الأحوال وفقا لنوع من "التعايش البارد"، على الأقل من وجهة نظر "العلماء" المسلمين، ومن منطلق وظيفي، فقد أضحى الهندوس وكأنما هم من "أهل الكتاب" - بصورة اسمية فقط — حتى ولو كان ذلك غير مسموح به، وغير متوافق مع مقتضيات الشريعة الإسلامية.

وعلى الجانب الأخر، فعلى حين كانت أعداد قليلة من السلمين تذهب ازيارة المعابد الهندوسية، كانت أغلبية الهندوس تبتهج لزيارة المساجد والأبنية الدبنية الإسلامية كتعبير عن التوفيقية الهندوسية، وإيمانها بعالمية الدين ووحدة الوجود إن الهندوسية لا تسعى إلى اجتذاب متصولين لاعتناق عقيدتها -- فهى نسق مغلق لا يسمح، بالأساس، بانضمام معتنقين جدد، فالمرء يجب أن يكون منتميا النسق منذ مولده، فإذا ما رغب المرء في اعتناق الهندوسية، يتعين عليه، على نحو وظيفى، الانضمام إلى طبقة اجتماعية بذاتها وجماعة بعينها، ولكن، إلى أية طبقة سيتم قبول المتحول للانتماء لها قانونيا إذا افتقر إلى جماعة أو روابط قرابة؛ فدون طبقة بعينها تلازم المرء منذ مولده، يترك المرء ليحيا في غلالة اجتماعية هندوسية من بعينها تلازم المرء منذ مولده، يترك المرء ليحيا في غلالة اجتماعية هندوسية من النسيان، وقد حدثت اندماجات لم تكن متوقعة، فعلى الصعيد الرسمى، لا يرحب الإسلام مطلقا باندماج تقاليد دينية مخالفة به، إلا أن الهند كانت قد شهدت، على

الأقل، تجربة فريدة لاندماج الإسلام مع الهندرسية، وهي إحدى بنات أفكار العقل للبدع للإمبراطور "أكبر" العظيم (١٦٥٧--١٦٠)، وهو حقيد الإمبراطور بابور. ويعد "أكبر" أحد أهم الحكام الموغال على مدار أربعة قرون.

وقد كان 'أكبر' مدركا لفوضى العقائد المتصارعة داخل الهند، بما فيها الإسلام (السنة، الشيعة، الإسماعيلية)، والطوائف العديدة بداخل المعتقد الهندوسى، واليانية، والزرادشتية، والمسيحية، واليهودية. كذلك، فقد كان يتسم بالنسامح، والافتتان بالدين والمناقشات الدائرة حوله، بالإضافة إلى حرصه على جمع معتنقى العقائد المختلفة للتباحث بشأن القضايا الثيولوچية والأخلاقية. وكنتيجة لتلاقع الآراء المختلفة، توصل "أكبر" إلى نتيجة مفادها أنه لا يوجد دين واحد له حق ادعاء احتكار الحقيقة بأكملها، لذلك فقد قام بخطوة ثورية لاستحداث دين جديد أطلق عليه "الدين الإلهى"، والذي مثل مزيجا من الإسلام، والهندوسية، والمعتقدات المستقاة من المسيحية والمعتقدات المستقاة من المسيحية والمهودية، وقد كان "أكبر" يأمل، من خلال انتشار "الدين الإلهى"، أن يصل إلى وحدة تنتظم الهند لا يعكر صفوها أي تباين أو اختلاف ديني – ضرب من الواحدية الدينية !!

لقد كان المسلمون، بالفعل، على دراية بالعقيدتين اليهودية والمسيحية اللتين سبقتا الإسلام، أما "الدين الإلهى" فقد اشتمل عناصر من الصوفية والفلسفة والأخلاقيات وتقديس الطبيعة، مع التشديد على التسامح وقبول التنوع الديني، ولم يكن هذا "الدين الإلهى" يعترف بوجود إله أو أنبياء أو كتب مقدسة. إلا أن ذلك المزيج من الأفكار الوثنية قد أثار حفيظة معظم "العلماء المسلمين"، الذين رأوا الفكرة برمتها تجديفا وهرطقة، بالرغم من ضرورة كونهم حذرين بشأن ما اقترحه الإمبراطور، وفي النهاية، فإن "الدين الإلهى" لم يكن ليتجاوز أعتاب القصر الإمبراطوري، فقد كان غاية في الغرابة مفتقرا إلى أدنى ركيزة اجتماعية أو ثقافية. إلا أنه كان يمثل رؤية مميزة الفكر مسكوني مبكر، كذلك فقد ظل الإمبراطور "أكبر"

حاضرا في ذاكرة الهندوس، إلا أنه لم يلق استحسانا أو قبولا لدى أغلب علماء السلمين،

قإذا كان ذلك الانصهار" الدينى قد بدا مهما، فقد كان المعمار الموغالى فريدا وأسرا ... ذلك للعمار الذى كان مزيجا رائعا من الفن الهندوسى والإسلامى مع نكهة فارسية غالبة جعلته الملمح الأكثر شهرة وخلودا من آثار الإمبراطورية. إن الأبنية العامة الخالدة المنتمية للحقبة الموغالية تظل منارات فنية خالدة إلى يومنا هذا، لعل أشهرها "تاج محل" الذى حقق كمالا منقطع المثال، وإن نافسته فى ذلك مجموعة من القصور والقلاع والمساجد والمدارس، تم تشييدها فى الأغلب بواسطة الحجر الرملى الأحمر، وقد كان للطراز الموغالي تأثير واضح على العمارة الإسلامية على امتداد العالم، بل لقد تم تشييد عدد كبير من الأبنية العامة والخاصة وفقا لذلك الطراز المعمارى فى أنحاء بريطانيا – بما جاء معبراً عن حقبة حكم الراج أثناء الاحتمل البريطاني للهند.

كذلك، فقد كان للحقبة الموغالية آثار واضحة في الشعر بما خلفته من أشعار عظيمة وخالدة، كذلك فقد أسست تلك الحقبة لقواعد الموسيقي الكلاسيكية الهندية. بل إن أشهر أطباق الطعام الهندي في العالم تتبع نمط الطهو بشمالي الهند، وهو مزيج رائع للمطبخ الهندي التقليدي، ونمط الطهو الفارسي ... مزيج يعرف باسم الطهو الموغالي". أما الملغتان الشقيقتان الهندية والأوردية فتمثلان تمازج الألسن الفارسية، والعربية، والتركية، ودمجها في قاعدة نصوبة خاصة بلسان الشمال الهندي، وتظل تانك اللغتان أبرز اللغات السائدة اليوم بشمالي الهند، وباكستان، ويعبارة موجزة، فإن الحضارة الهندية المعاصرة لا يمكن تخيلها بدون ذلك العنصر المؤغالي، وبالرغم من ذلك، فلا يروق الأمر لعدد من القوميين الهندوس.

أما فيما يتعلق بالتمازج المشترك، فإن أحد التأثيرات الكبرى في الإسلام يظل أقل ملاصة ... ذلك هو النظام الطبقي الاجتماعي الهندوسي وأثره في المسلمين

الهنود. فوفقا لذلك النظام، يولد المرء ليحتل مكانا محدد. في السلم الطبقي طيلة حياته ... ولا يتغير ذلك الوضع الطبقي وفقا للاعتبارات الطقوسية والاجتماعية. إذ يجب ألا يمس أي فرد من أبناء الطبقة العليا أيا من المنبوذين (أفراد الطبقات الدنيا)، فإذا ما حدث ذلك توجب على الأول أن يتطهر من ذلك وفقا لمظاهر طقوسية. كذلك، فإن وضعية المرء في تلك التراتبية تحدد المدى الذي يسمح له بالتحرك خلاله فيما يخص الاعتبارات الوظيفية والاجتماعية، ولطول تعرضهم لذلك النظام الطبقي عبر فترات زمنية ممتدة، تشرب المسلمون بالهند بعض عناصره حيث أصبح المجتمع الإسلامي هناك ينقسم رسميا إلى طبقتين : الأشراف (أو النبلاء) والأجلاف (أو الأقل شأنا). وقيما مثل المسلمون في الهند نسبة قليلة للغاية من تعداد السكان حين غزا المسلمون شمال الهند للمرة الأولى، إلا أنه، ويمرور ألوقت، أخذت أعداد متزايدة من الهندوس في اعتناق الاسلام، مع ما صاحبهم من بقايا اجتماعية لوضعهم الطبقي الأدني، وقد بلغ المسلمون في الهند، وقت التقسيم بقايا اجتماعية لوضعهم الطبقي الأدني، وقد بلغ المسلمون في الهند، وقت التقسيم بقايا اجتماعية لاضعهم الطبقي الأدني، وقد بلغ المسلمون في الهند، وقت التقسيم بقايا اجتماعية وضعهم الطبقي الأدني، وقد بلغ المسلمون في الهند، وقت التقسيم بقايا اجتماعية لاضعهم الطبقي الأدني، وقد بلغ المسلمون في الهند، وقت التقسيم بقايا اجتماعية لاضعة الطبقي الأدني، وقد بلغ المسلمون في الهند، وقت التقسيم بقايا اجتماعية لاضية على المناد السكان.

إلا أنه، ورفقا لمقتضيات الشرع الإسلامي، فإن أي نظام طبقي فيما بين المسلمين يعد مرفوضا بالارتكان إلى أي معيار ديني، إذ يعلن "القرآن" بجلاء أن معايير التمايز والتفاضل فيما بين البشر كافة هو التقوى، على أننا نشهد الأثر الثقافي والحضاري المتبادل نتيجة لتعايش الأديان جنبا إلى جنب في شبه القارة الهندية.

وينجم عن ذلك كله عدة مشاهدات وانطباعات مذهلة، أولا: لم يكن هناك أدى احتكاك ملحوظ بين المسلمين وغيرهم حين دخل الإسلام جنوب الهند عبر التجار والمبشرين، فقد كان المسلمون في الجنوب متماثلين إثنيا مع جيرانهم من الهندوس، إلا أنه كانت ثمة تباينات إثنية في الشحال المحتل للنفوذ السياسي هناك، وبالأساس، فقد مثل المسلمون نوى الأصول التركية الفارسية والنازحون من أسيا الوسطى غزاة من خارج الهند، حيث تم النظر إليهم باستباء من قبل أولئك الذين

أبعدوا عن مقاليد السلطة والتفوذ. وتكمن الظاهرة الثانية في كيفية بجاح العقائد "غير المتوافقة" في التعايش فيما بينها في ظل ظروف التعاطى البشرى اليومى، بل وحتى تأثيرها المتبادل، ذلك على الرغم من وجود حالات من العنف بين تلك الطوائف الدينية، والأمر الثالث هو انبثاق ثقافة متمازجة اشتملت على خليط من الحضارات السائدة كانت آية في البهاء والروعة لا تقل في رونقها عن امتزاج الإسلام بالحضارة الفارسية في إيران، كما لا تقل عن تزاوج العنصر الإسلامي التركي مع الحضارة البيزنطية في الإمبراطورية العثمانية.

إذاً، فوفقاً لتلك الديناميكية الفائقة، والتي اشتملت على تلاقح إثنى خصيب بالإضافة إلى تأثيرات حضارية ودينية متبادلة ... فإن "الحدود الدموية" هنا تضحى غير ذات موضوع، فهل كان لفارس الزرادشتية أن تمتنع عن غزو الهند؟ وعلى أي نحو كان هذا الغزو ليختلف عن غزو المسلمين لها؟ هل كانت العناصر التركية غير للسلمة في آسيا الوسطى لتحجم عن الانضمام لجماعات وعناصر أخرى لغزو الهند من جهة الشمال؟ ... من الجلي أن الإسلام لم يكن العنصر الحاسم في ذلك

التقسيم

المسلمون:أين هم اليوم؟

مع الانهيار التدريجي الإمبراطورية الموغالية، نتيجة الاعتداءات الإمبريالية البريطانية، أخذ النظام الموغالي يفقد نفوذه وسلطانه، مما أدى إلى تراجع تدريجي في مكانة المسلمين بالهند، كذلك، فقد لمس البريطانيون قدرا من المقاومة لحكمهم لدى المسلمين يفوق نظيره لدى الهندوس، ومن ثم شروعهم في إعطاء أفضلية وحظوة أكبر في حكمهم ونظامهم للهندوس كونهم أكثر استجابة وألين عريكة.

ولقد كان المسلمون، بالفعل، ينشطون بفاعلية كبيرة في العديد من مظاهر الاحتجاج والمقاومة ضد حكم "الراج" البريطاني، وخاصة دورهم المحوري في

التمرد الهندى الكبير في عام ١٨٥٧، حين تظاهر المجندون المسلمون في الجيش البريطاني، وقاموا بأعمال شغب نتيجة الشائعة التي سرت ومفادها استخدام دهن الخنزير في صنع ذخائر الطلقات الرصاصية لبنادقهم، وقد أعرب الهندوس، لاحقا، عن مقاومة ممائلة لتلك. وكان الاستياء السياسي والاجتماعي في الهند المحتلة من قبل بريطانيا قد بلغ أشده بما يكفي لشرارة حادثة كتلك لإشعال ثورة قومية هناك. وفي وجه نفوذ الحكم البريطاني وسطوته، اتحد المسلمون والهندوس، عامة، للحد من وطأته وإن اختلف المنهج التكتيكي لتداول الأمر فيما بين الطرفين.

وفى حين أخدت القوة الإمبراطورية للموغالية فى الضمور تدريجيا وكذلك حين غزا البريطانيون الهند، وجد المسلمون أنفسهم أقلية بلا نفوذ داخل النظام السياسى الهندى فضلا عن نظرة البريطانيين المتشككة إزاءهم، والذين تساءل بعضهم فيما بينهم ما إذا كان المسلمون ثوريين بالقطرة ضد الحكم الأجنبى عامة. وياقتراب يوم التحرر الهندى من قبضة الحكم البريطانى فى أعقاب الحرب الكونية الثانية، أصبح المسلمون قلقين للغاية بشأن الدفاع عن حقوقهم كأقلية فى الهند فيما بعد الاستقلال. وكان المسلمون يخشون أنه فى ظل نظام ديمقراطى صريح، يمكن أن يكون مألهم أن يصيروا، وعلى الدوام، أقلية لا صوت لها. اذلك، فقد كانوا يفضلون شكلا أو صيغة لنظام كونفدرالى لا يكونون بمقتضاه على الدوام أقلية هامشية (وهو مأزق تقليدى يواجه جميع الأنظمة الديمقراطية، والتى نادرا ما تستطيع الأقليات فى ظلها تغيير النظام بالالتجاء إلى صناديق الاقتراع). وفضلا عن ذلك، لم يكن المسلمون بالهند وحدة متجانسة، وإنما كانوا منقسمين وفقا للطبقة الاجتماعية، وكذلك وفقا للاختلافات الإقليمية واللغوية.

وأخيرا، فلم يكن التقسيم الفعلى للهند إلى دولتين (الهند وباكستان) الهدف المفضل للمسلمين هناك. وأكن تحت ضغط الأحوال والظروف السائدة حينذاك، وكذا مخاوف الهندوس بشأن القيود التي قد يفرضها المسلمون على القوة المركزية

للهند المستقلة مستقبلا، يزغ "التقسيم" فجأة كفيار مناسب للأطراف كافة في الهند،

إن الكثير من "العلماء" المسلمين في الهند قد عارض تقسيم البلاد وإنشاء مولة إسلامية مستقلة جديدة (باكستان). كذلك، فقد ارتثوا، وقد حالفهم الصواب، أن المسلمين لن يرحلوا جميعا إلى باكستان، وأن هؤلاء المسلمين الذين سببقون دلخل الهند بعد الاستقلال سيصبحون أقلية (أدنى عدديا عما كانت قبل الاستقلال) تتلاعب بها الأغلبية الهندوسية ذات النفوذ، وعلى وجه التقريب، فقد عبر ١٤,٥ مليون مواطن الحدود المنشاة حديثا سواء إلى داخل الهند أو إلى خارجها خلال عملية التطهير العرقى تلك، والمدارة من قبل بريطانيا عام ١٩٤٧، والتي أطلق عليها لفظة "التقسيم"، ولقد السمت تلك العملية بمظاهر عنف مروعة واسعة النطاق وذلك خلال انتقالات الأهالي عبر الحدود، وما صاحب ذلك من مجازر وحشية بين معتنقى المعتقدات الثلاثة السائدة: السيخية، والإسلام، والهندوسية، وقد كانت المحصلة أن المهاجرين الجدد – المسلمين بانتقالهم نصر باكستان، والسيخ والهندوس صوب الهند – قد عانوا الإيذاء والتنغيص أثناء تلك الرحلات، وأصبحوا في عداد أكثر الأفراد غير المسامحين دينيا في كلا المجتمعين الجديدين، إذاً، فقد مثلت السياسة قنابل موقوتة جاهزة للانفجار في كلتا النولتين، ويطبيعة الحال، فإن الوضع بالنسبة للمسلمين الذين لم ينتقلوا إلى باكستان قد أصبح أكثر سوءا، فلم يقتصر الأمر على تقلصهم عدديا وفقدانهم لأي نفوذ سياسي، بل تعداه بأن أصبح ولاؤهم للدولة الهندوسية الجديدة موضع شك ورببة. وفي الحروب الثلاث، والتي ستنشب فيما بين باكستان والهند في السنوات التي تلت ذلك، أصبح الهنوس ينظرون إلى المسلمين بالهند بأنهم لا يعتمد عليهم ولا يوثق بهم ... بل وصل الأمر إلى حد اعتبارهم "طابورا خامسا" محتملاء

أما في كشمير، فقد كان الوضع مضطربا كذلك. لقد كانت كشمير مقاطعة ذات أغليية مسلمة (٧٧٪ عام ١٩٤٧) وطابع تاريخي وإثنى ممير، ولقد وعدت

كشمير من قبل البريطانيين عام ١٩٤٧ الحق في استغتاء شعبي يقضى بموجبه ما إذا كانت المقاطعة ستظل تأبعة للهند أم ستثول تبعيتها لباكستان. ولكن تم النكث بالوعد، إذ كان من المؤكد أن الهند ستخسر المقاطعة ما إذا كان الاستفتاء الشعبي ليتم بحيدة ونزاهة. وإلى اليوم، فما زالت الأغلبية المسلمة بكشمير تتملكها مشاعر الغضب والاستياء، وما زالت تتظاهر من أجل حقها في الاختيار. إن السلطات الهندية قد حكمت البلاد بفيضة فولاذية وأدارت كشمير برعونة وانعدام كياسة، فإلى جانب حروب ثلاث دارت رحاها بين باكستان والهند، في جانب منها حول كشمير المتنازع عليها ... تلك الحروب التي خسرتها باكستان جميعا - فإن ذلك اللف" يتيح بيئة خصبة لكي تمارس باكستان ضغوطا عيى الهند من خلال الدعم المستثر المففى للحركات الانفصالية الكشميرية المسلحة، ولا ريب في أن تلك المعارك المعتدة فيما بين الطرفين تعمل على إفساد العلاقات بينهما حتى اليوم، فضلاً عن كونها مصدراً رئيسياً لملامه، الإقليمي.

يشكل المسلمون ، اليوم، ١٣٪ من إجمائى تعداد السكان بالهند، على وجه التقريب. والأسف، فإن الجماعة الإسلامية هناك قد أصابها التشرذم والانقسام. قمن جهة، تضغط العناصر الأكثر تشددا دينيا لإقامة مجتمع إسلامى منفصل ومستقل ذاتيا يمكنه العيش بمعزل عن الهندوس – وهو أمر محال لانتشار المسلمين إذ يتوزعون على جميع أرجاء البلاد ككل، ولقد أسهمت تلك السياسة التى تروج لهوية جماعية، مهما كانت العواقب، في زيادة عزلة المسلمين بالهند، ومن جهة أخرى، تسعى جماعات صغيرة من المسلمين لتجاوز مفهوم "الجمعية"، وتنادى بالاندماج في الدولة الهندية "العلمائية". فوققا لتلك الجماعات، فإن التماس "البعد الجمعي" واعتباره الملاذ الأمن هو ممارسة تنطوى على الشعور بالخوف وافتقاد الأمان، أما السعى للتكامل في إطار صبيغة "علمائية" فيعكس الشعور بالتفاؤل والثقة، وبالطبع، فلدى كل فريق ما يكفى من الحجج لإثبات صحة مذهبه ولدعم موقفه المتبنى.

على أن الخيار لا ينحصر في أيدى المسلمين فحسب. إذ نشأت قيما مضى حركة قومية هندوسية قرية ذات طابع إثنى/ديني، واستهدفت العناصر غير الهندوسية، ويخاصة المسلمون، والذين تراهم الحركة حجر عثرة في طريق إنشاء نولة دينية هندوسية. ولقد أثرت الحركة، وتدعى "حزب بهاراتيا جاناتا"، في سياسات الهند القومية قيما مضى، وقد تكرر ذلك مستقبلا عن طريق النفاذ إلى العديد من حكومات الولايات الهندية والسبطرة عليها، ويعد العنف الممارس من قبل "القوميين الهندوس" تهديداً بالغاً لجماعة المسلمين في الهند... والتي تحصرهم جميعا في كيان مجتمعي شديد الانعزائية،

أما القومية الهندوسية فلا يمكن أن تنبني إلا على أسس دينية، إذ لا توجد "إثنية هندرسية" في حد ذاتها، فالهندوس ينحدرون من خلفيات إثنية ولغوية بالغة التنوع، كما الحال بالنسبة للمسلمين، ويخلاف الزعامات الهندوسية الأكثر ميلا نص "العلمانية"، فإن "القوميين الهندوس" كانوا شديدي التأييد لتقسيم الهند عام ١٩٤٧، تحديدا لطرد المسلمين منها بما يكفل إنشاء دولة هندوسية. ولعل بعضا من استياء الهندوس من المسلمين، والسيخ، والمسيحيين وكراهيتهم لهم يجد أساسه في أن مجرد وجود تلك الطوائف في الأراضي الهندية يستلزم الإيقاء على دولة هندية علمانية ذات تعددية تقافية، وهو بعينه ما يسعى 'القوميون الهندوس' إلى اجتتَّاتْ جِدُورِهِ، والمفارقة، فإن المسلمين، اليوم، هم الذين يؤيدون بشدة إنشاء دولة علمانية، وهو أمر لا يجد نظيرا في أي من البلدان الإسلامية، فلكونهم أقلية، يدرك المسلمون تماما المنافع التي ستتحقق لهم جراء إنشاء "النولة العلمانية" من الإبقاء على سمات ثقافتهم، ومجتمعهم، ومعتقدهم، والحفاظ عليها ضد أي تدخل رسمي من النولة هندوسية المعتقد، ويصفة عامة، يشعر للسلمون في الهند بأن تقافتهم، وحضارتهم بالهند أكثر غنى وخصبا من تلك الخاصة بباكستان ... باكستان التي طالمًا اعتبرت هملا إقطاعيا لا يتسم إلا يموروث ثقافي هزيل. فالمأثر الثقافية والحضارية الكبرى للهند إبان الإمبراطورية المنفالية قد بقيت ضمن الأراضى الهندية بعد التقسيم، ما عدا ما تعلق بمدينة "الأهور"،

وفي تلك الأجواء، فإن الانتفاضات الجمعية لم تحب مطلقاً، إذ أصبحت مدينة "أيوديا"، في الشمال الشرقي من الهند، يؤرة مثقلة ومشحونة بانفعالات كلا الطرفين، وتعد المدينة أحد المزارات المقدسة السنة لدى الهندوس، كما أنها تشتهر يسحر طبيعتها، وجمال معايدها الشنامخة، ومنذ نحو تسعمائة عام، تم مهاجمة تلك المديئة وتهديها بواسطة قوات مسلمة قدمت من أفغانستان. أما بابور، مؤسس الإمبر طورية الموغالية، فيقال إنه أقام مسجدا هناك. وقد ادعى الهندوس، بعد ذلك بكثير، أن ذلك المسجد قد أقيم في موقع أحد المعابد الهندوسية (معبد راما)، وأي أن الدليل على ذلك لا يرقى لمرتبة اليقين. ولقد كان هذا الموقع مو الذي تم اختياره من قبل حزب "بهاراتيا جاناتا" عام ١٩٩٢، حين قررت أن تخلق تحديا هندرسيا صيارها ضد مفهوم الموغالية، والهند المسلمة، ففي أعقاب استعدادات وتنظيمات ممتدة، نظم الحزب مسيرات ضمت نحق ١٥٠ ألف هندوسي، تم تسليحهم بمعاول لمهاجمة مسجد "بابرى" الذي تم تحطيمه إلى أشاره صغيرة، وقد كانت رمزية الحدث هائلة لكلا الطرفين ... ذلك الحدث الذي أطلق موجات من الثأر المتبادل على امتداد الأراضي الهندية، وقد كان لهذا الحدث أصداء في "أيوديا" عام ٢٠٠٥، حيث أقدم خمسة مسلحين مسلمين على تفجير المقر المؤقت لمعيد راما الجديد في المكان الذي كان يشغله قديما، إلا أن الحادث قد أسفر فقط عن مقتل جميع أولثك للسلحث.

لقد أدت نشأة "شيف سينا"، الحزب القومى الهندوسى، ومقره بومباى - إلى زيادة استقطاب المشاعر الإثنية والدينية فيما بين الطرفين فى ولاية ماهارشترا، ولقد استهدف الحزب، لكراهيته الشديد لهجرة هنود الجنوب لبومباى، المسلمين بصفة خاصة، والذين يبلغ تعدادهم نصو ١٥٪ من إجمالى سكان بومباى، كذلك، فقد ثبنى الحزب قيما قوق قومية، ولغة خطابية بليغة، كما تخصص فى تجنيد قاطعى الطرق بغرض ترهيب مسلمى الجوار وترويعهم، فيما استطاع، فى الوقت

ذاته، إحكام قبضته على إدارة الحكم بالمدينة وتسييرها باقتدار ملحوظ. وفي عام ١٩٩٢، نشبت أعمال شغب عنيفة ضد المسلمين في بومباي، حيث قتل نحر ١٩٩٠ شخص، أكثرهم من المسلمين الذين أحرق أغلبهم أحياء، ولقد أسفرت تقارير لجنة التحقيقات الرسمية عن ضلوع 'شيف سينا' في التحريض على أعمال الشغب تلك. وفي أذار/مارس ١٩٩٣، وفي ردة فعل إزاء تلك الأحداث، تم تفجير ثلاث عشرة قنبلة في بومباي أسفرت عن مقتل ١٥٠ فرد. وقد أعزيت تلك التفجيرات إلى تنظيم يتبع المافيا الإسلامية، ويذا، فقد نشأت سلاسل متفرقة من العنف السجالي في غير مؤضع من الأراضي الهندية،

وفي كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، وقع اعتداء وقح حين أقدم خمسة مسلحين مسلمين على مهاجمة مينى البرلمان الهندى في نيودلهي في رابعة النهار، وللطف الأقدار، اقتصرت الوفيات على أفراد الحراسة وجميع المسلحين، بيد أن الصدمة القومية التي أحدثها هذا الاعتداء على رمز كبير له دلالته كالبرلمان، كانت هائلة، ولقد ذكرت السلطات الهندية، بعيد التعرف على مرتكبي الحادث، أنهم ينتمون إلى "جيش الراشدين" و"جيش محمد"، وهي جماعات تتخذ من باكستان مقرا لها ... جماعات تلقت دعما باكستانيا طيلة السنوات السابقة لتنفيذ عمليات بعينها في كشمير.

أما عام ٢٠٠٧، فقد شهد أعمال شغب عنيفة ضد المسلمين في ولاية "غوجارات"، كانت مروعة على نحو خاص حيث لقى نحو من ألفى مسلم حتفهم أثناء تلك الأعمال، قوفقاً "للجارديان" البريطانية :

فى ولاية "غرجارات" الهندية، ورفقا لمسح محلى، تم تدمير ٢٣٠ أثراً إسلامياً فريداً وتضريبها، احتوت مسجداً بالغ الروعة بنى منذ أربعمائة عام وذلك خلال أعمال الشغب الأخيرة ضد المسلمين هذاك وقد ذكر المختصون أن التدمير كان واسع النطاق بحيث يضاهى الحدث الأكثر شهرة لتدمير "الباميان" البوذية في

أفغانستان، أو تحطيم معابد البوذيين في جبال التيبت على أيدى الحرس الأحمر. وفي انتهاكات على الجانب المقابل، عمد الغوغائيون الهندوس إلى تسمير واجهات المساجد، وإلقاء الأحجار لتحطيم الزخارف والنقوش الفارسية، وإضرام النيران وإحراق نسخ أثرية من "المصاحف القرآنية" ... "لقد كان هذا سعيا حثيثا منظما لمو حضارة برمتها وإزالتها"، كما ذكرت السيدة/تيستا سيتالفاد - مؤسسة الكيان المعارض للكفاح والصراع الجمعي، والذي حمل اسمها، والقائم على جمع ما تعلق بتلك الإنتهاكات.

لذا، يجب النظر إلى الاعتداء الإرهابي المروع للجهاديين الإسلاميين في بومباي في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨ باعتباره إحدى حلقات سلسلة ممتدة: فقد حصد ذلك الاعتداء، بلا تمييز، نحو ألفين من الأرواح على نحو عشوائي، في هجمات متعددة على بعض الأماكن العامة والفنادق الكبري – وهو من نوعية الاحداث التي أدت إلى هجمات مضادة بحق المسلمين في الهند، بالرغم من كونها قد بدت وكأن لم تكن يد ضائعة بها . وترسخ تلك الحوادث جميعها عدم شعور المسلمين، جمعيا، بالأمان، وتقود إلى جعل الهوية الإسلامية في حالة من الترقب والدفاعية، والتي أضحت سمة للمجتمعات المسلمة على امتداد معظم أرجاء العالم الإسلامي.

وفى دراسة عن "التوترات الجمعية" فى الهند أجرتها مكتبة الكونجرس الأمريكى عام ١٩٩٥، أعزيت معظم أعمال العنف الجمعية هناك، لا إلى "العداءات التاريخية"، ولا إلى الأصولية الدينية، على نحو كبير، وإنما إلى تضافر المشكلات السوسيواقتصادية، واستراتيجيات وتكتيكات الساسة الهنود غير المسئولة من عام ١٩٨٠. كما أوضحت تلك الدراسة الطابع المقلقل للتحضر متنامى الوتيرة، وما يحدثه من عدم استقرار، وكذلك التنافس المتزايد بين الجماعات المختلفة لتوفير متطلبات المعيشة، وفضلا عن ذلك، فقد حددت الدراسة التغيرات التي طرأت على مسيرة العملية السياسية في الهند، والتي أقضت إلى استغلال السياسيين

المشاعر الدينية على نحو خطير، والانحياز الشوفيني لطبقة الهندوس د ت الأغلبية العددية ... كل ذلك من أجل مكاسب انتخابية قصيرة الأجل. ولقد أسهمت أعمال العنف التي قادتها الجماعات الإسلامية من حرب العصابات في كشمير، والعنف الذي قاده السيخ في إقليم "البنجاب" – في شعور الأغلبية الهندوسية بأن "الأقليات الدينية تعمد إلى توظيف التكتيكات العدوانية للحصول على امتيازات خاصة من الحكرمة". وخلصت الدراسة إلى أن "استغلال الساسة والمجرمين التوترات الدينية في الهند قد أبرز بجلاء الدي الذي أضحت بمقتضاه المشاعر الدينية هناك وسيلة للمناورة والضغط".

وقد أشارت مجلة "تايم" الأمريكية، في تغطية خاصة لها عام ٢٠٠٣ عن أعمال الشغب في الهند، إلى الصدع الكبير والتباين السافر فيما بين الهندوس والسلمين هناك، فوفقا لمعيار "العنف" فحسب، نجد :

المسلمين في الهند أكثر عرضة لأن يكونوا ضحايا الهجمات والاعتداءات العنيفة، وذلك مقارنة بالهندوس، ففي جميع أعمال الشغب "الجمعية" منذ الاستقلال، كشفت السجلات الرسمية للشرطة الهندية عن أن ثلاثة أرباع الأرواح المزهقة والممتلكات المدمرة كانت من نصيب المسلمين ... وهي النسبة التي قفزت إلى ٨٥٪ خلال أعمال الشغب في ولاية "غوجارات" عام ٢٠٠٢.

إلا أنه في أعمال الشغب التي قادتها الأغلبية الهندوسية (اعتبارا من عام ٢٠٠٣)، والتي أسفرت عن سنة آلاف قتيل، على وجه التقريب، لم تتم محاكمة أولئك المسئولين عن حوادث الاغتصاب، وإحراق الممتلكات، والقتل إلا قيما ندر، على أن التأبيد الضمني للحكومة الهندية، على الصعيدين المحلى والقومي، في ظل حزب "بهاراتيا جاناتا" – لأعمال العنف من قبل الهندوس هو ظاهرة يصعب إخفاؤها.

كذاك أشارت مجلة 'تايم' إلى أن ٤٠٪ من المسلمين في المدن الهندية يقبعون في المدنيا للدخول بالمقارنة بـ ٢٢٪ من الهندوس، وبالرغم من أن المسلمين

يشكلون ١٣٪ من إجمالي تعداد السكان بالهند، إلا أنهم يشغلون فقط ٢٪ من إجمالي الوظائف الحكومية، بل وتقل النسبة لمن يتم تشغيلهم بواسطة الهندوس في المقطاع الخاص، ويبلغ معدل الأمية بين المسلمين في المدن الهندية نحوا من ٣٠٪ بالمقارنة بـ ١٩٪ في صفوف الهندوس، وقد أورد رئيس أحد الأحزاب الهندوسية المعتدلة تعليقا جاء فيه: "هناك اتجاه سائد في الهند للنظر إلى المسلمين وفق صيغة "هم"، لا رفق صيغة "نحن"، وبالطبع، فإن لهذا الاتجاه عواقب وخيمة، وإلى السوم، وعلى وجه العموم، لم يتم السماح لمسلمي الهند بالانخراط فيما نطلق عليه التيار السائد" في بلادنا".

إن انبثاق القوميات في الهند هي بالفعل، محرك معاصر للعديد من القوى المتفاعلة أنيا: ردات الفعل المناهضة للكولونيالية، الاتجاه "الوطئي" والشعور "القومي"، التمايزات الإثنية والطبقية والإقليمية، إلى جانب التنافس الاقتصادي. وتظهر الأحداث المضطربة التي خيمت على مجريات التاريخ المعاصر في الهند - مدى قبح القوى المحركة للنعرات القومية ورداعتها حتى في ظل نظام ديمقراطي،

إلا أن الخبرة التاريخية للمسلمين في الهند تسفر بجلاء عن التعايش المثمر الذي تقاسم بمقتضاء الطرفان المسلم والهندوسي إثراء أحدهما للآخر. فالحضارتان، الآن، مترابطتان ارتباطاً وثيقاً، كذلك فلا يستقيم الحديث عن وجود حضارية فيما بينهما، وينحصر خيارهما في إيجاد صبغ جديدة التعايش المشترك في ظل الدولة الهندية. فقى هذا الإطار، أسبهم الإسلام، بفاعلية، في التثير الكبير في مجريات المسار التاريخي في الهند، وذلك، بالأساس، من خلال التكامل، والاندماج، والانصهار في المجتمع فالمسلمون، في الهند، ليسوا كلا متجانسا، فهم متفاوتون تفاوتا ملحوظا، كذلك فهم موزعون على أرجاء شبه القارة الهندية، ولكن، والمفارقة، فإن الإسلام يمثل الآن تجسيدا لمشاعر الاستياء لدى الأغلبية الهندوسية بشأن العديد من القضايا التي لا تمس "الدين"، في جوهره، من قريب أن بعيد، بن تجد جذورها في الصراعات الجمعية المتنوعة من أجل امتلاك

مقاليد السلطة والهيمنة. ووفقا لهذا السياق، فإن المسلمين هم مجرد جماعة واحدة من بين العديد من الجماعات التي ينتظمها الفكر "الجمعي"، والتي تتنافس فيما بينها في ظل مناخ من العنف والتشاحن. فالدور الذي تضطلع به باكستان، بهويتها القومية غير المستقرة، ومخاوفها الجيوبوليتيكية القلقة، وضلوعها في أحداث كشمير وأف فانستان – يعمل على زيادة حدة المشكلة، ويالطبع، فسيكون أحد المشاهد المأساوية، في عصرنا الراهن، أن نرى قيام القوى ضيقة الأفق المنتمية لجميع الفصائل المتناحرة بتمزيق أواصر تلك الفسيفساء الحضارية والثقافية شديدة التداخل، وتقطيعها إرباً.

ويبقي السؤال المنطقي: هل إذا لم يكن تمة حكم بريطاني للهند باعتبارها إحدى المستعمرات التابعة للتاج، أكان من المحتم أن نشهد تقسيما للهند على النحو الذي جرى؟ وهل ما إذا استشرت عوامل الضعف في جسد الإمبراطورية الموغالية، على نحو تدريجي من ولاية هندية إلى أخرى، أكان للهندوس والمسلمين أن يقوموا بتجربة بعض الاقترابات غير الناجعة لمصالحهم، والإبقاء على مقهوم "الهند للوحدة" كهدف مشترك، ولو على أساس فيدرالي؟ ... يبدو ذلك أمرا محتمل العدوث، كذلك، يبدو من غير المحتمل أن يكون ثمة تفكير في ميكانيزمات للتقسيم، أو تنفيذ ذلك الأمر بواسطة الهندوس والمسلمين بمفردهم، فقد استدعى ذلك تدخل قوة إمبريالية كبرى ذات سلطات كاسحة لإنجاز ذلك التقسيم على أرض الواقع، ويبدو أن السيطرة الإمبريائية البريطانية على الهند على امتداد عدة مئات من ويبدو أن السيطرة الإمبريائية البريطانية على الهند على امتداد عدة مئات من السنين – وليس "الإسلام" بحد ذاته – هي المفتاح للإجابة عن أسباب إجراء ذلك التقسيم "الذكد"، وغير الضروري ودوافعه... والذي ظل "عقيما"، وعاجزا عن الإتيان التقسيم "الذكد"، وغير الضروري ودوافعه... والذي ظل "عقيما"، وعاجزا عن الإتيان بأية حلول على وجه الإطلاق.

الفصل الحادي عشر

الإسلام والصين

قلة في الغرب هي التي تدرك الروابط الوثيقة ما بين الإسلام والمدين، إن المدين تأتي في صدارة الدول التي تضم أعدادا كبيرة من المسلمين: فعلى امتداد أرجاء البلاد يتوزع نحو عشرين مليون مسلم — وهو عدد يقوق نظيره في العديد من الدول العربية، على أنه توجد اختلافات واضحة فيما بين هؤلاء المسلمين، فنصف عدد المسلمين المدينيين، على وجه التقريب، ينتمون إثنيا إلى "الهان"، تتخللها بعض الدماء العربية والفارسية تجد جذورها في هجرات المسلمين الأوائل المدين، ويشار إليهم بأنهم "هوى" أو "هوى—هوى"،

ويتصدث هؤلاء اللغة الصينية فحسب، ويتطابق نعط حياتهم اليرمى مع الصينيين من "الهان"، عدا القليل من التمايزات الثقافية التى تنشأ من كونهم مسلمين. ويمرور الزمن، تمازجت عناصر "الهان" مع العناصر الإسلامية وفق طرائق مذهلة ونشأ بينهما نوع من التعايش السلمي في إطار الثقافة الصينية الأرحب، أما النصف الآخر من مسلمي الصين فينتمون إثنيا ولغويا إلى عنصر مغاير – قمعظم هؤلاء من أصول تركية، ويعيش "الأوغور"، كما يطلق عليهم، في أقصى غربي البلاد ويمثلون الجماعة "التركية" الأكبر على الإطلاق، وبينما نجد "الهان" المسلمين تتقاطع حياتهم، في مجملها، مع نمط الحياة السائد في الصين، فإن "الأوغور" بخلاف ذلك، وتنظر السلطات الصينية بارتياب إلى أولئك "الأوغور" وتعاملهم بقسوة، مشددة على الطابع الإثنى الذي بسم المشكلة بالأساس، والتي يتم وتعاملهم بقسوة، مشددة على الطابع الإثنى الذي بسم المشكلة بالأساس، والتي يتم تضخيمها بفعل اعتناقهم للإسلام وتمسكهم به كعقيدة لهم.

وفى الحالة الصينية، فإن الصورة الشائعة عن انتشار الإسلام بالسيف لا تجد أساسا لها. فوفقا الوثائق الصينية، بلغ الإسلام مشارف الصين فى وقت مبكر للغاية، عام ١٥٦، بعد ثمانية عشر عاما فقط من وفاة النبى محمد، وذلك عن طريق البحر إلى "كانتون" بواسطة مبعوث من قبل الخليفة "عمر بن الخطاب". وهناك حديث يعزى إلى النبى محمد يقول: "اطلبوا العلم ولو فى الصين"، ووفقا المتقاليد الإسلامية، أمر الإمبراطور المصينى إبان حكم سلالة "تانغ" بإنشاء مسجد فى "كانتون" هو الأول فى الصين ... ذلك المسجد الذى ما يزال قائما إلى اليوم. وقد أمن الإمبراطور بأن الإسلام يتوافق كثيرا مع التعاليم المكونقوشيوسية، كما عمل على منح النجار العرب والفرس حقوقا لإرساء قواعد الاستقرار الأولى داخل على منح النجار العرب والفرس حقوقا لإرساء قواعد الاستقرار الأولى داخل على منح المديني، لذا، فقد كانت أولى اللقاءات الصينية بالإسلام فى "كانتون" معلمية ومثمرة، ولقد تم منح المسلمين موضعا فى المجتمع الصينى، حيث عرفت

مهاراتهم وعلاقاتهم التجارية منذ تجار مرحلة ما قبل ظهور الإسلام، وسرعان ما أدركت الصين المهارات البحرية الفائقة التي كان المسلمون يتمتعون بها، والمكاسب المحتمل أن تتحصل عليها الصين ببسط نفوذها وقرض سيطرتها، ونتيجة لذلك، سرعان ما أصبح المسلمون مسيطرين على عمليات الصادرات والواردات الخاصة بالصين خلال فترة حكم سلالة "سونغ" (٣٠٠- ١٢٧٩)، ولقد كان منصب المدير والقائد المسئول عن الملاحة يتم شغله، على الدوام، بواسطة أحد المسلمين.

إلا أنه بعيدا، وعلى الحدود الشمالية الغربية للصين، كانت هناك مواجهة مختلفة تماما بين الصين والإسلام كانت لها عواقب جيوبوليتيكية عميقة الغور ويعيدة المدى. ذلك أنه في أثناء حكم سلالة "تانغ"، انحدرت القوات الصينية غربا صوب آسيا الوسطى، حيث واجهت الجيوش العربية للخلافة العباسية في عام ٧٥١ عند نهر طلاس (ويقع الآن ضمن حدود دولة قيرغرستان". ولقد أسفرت المواجهة عن هزيمة القوات الصينية على أيدى العرب، وهو الحدث الذي وضع حدا التوسع الصيني باتجاه آسيا الوسطى، ويرى الكثيرون أن معركة نهر طلاس تعد نقطة تحول حاسمة على الصعيدين الاستراتيجي والحضاري: إذ حالت دون سقوط أسيا الوسطى في قبضة الحكم الصيني، والأمر الأهم هو أن أعدادا متزايدة من القبائل التركية أخذت في اعتناق الإسلام، وهو حدث كان له تأثير لا يمكن محوه في هجراتهم عبر قرون طوال حاملين معهم دينهم الجديد إلى كل من حوض البحر في هجراتهم عبر قرون طوال حاملين معهم دينهم الجديد إلى كل من حوض البحر المتوسط والأناضول من أعمال لإمبراطورية البيزنطية.

ويمرور الوقت، أضحى المسلمون أكثر اندماجا في إدارة شئون الإمبراطورية الصينية: فخلال حكم سلالة (يوان) المغولية (١٢٧١–١٣٦٨)، استعان المغول والمسلمين لتوطيد أركان العلاقات التجارية مع الغرب. أما القوات المغولية، والتي توغلت عميقا نحو الغرب حتى حدود دمشق، فقد قامت بجمع الألاف من العرب والفرس وأتراك أسيا الوسطى، وإرسالهم إلى الصين للمساعدة في إدارة شئون الإمبراطورية – فيما يتعلق بالأمور المالية والضريبية، والأعمال الفلكية ووضع

التقاريم، وفي بناء عامسة جنيدة في بكين. وقد كان ذلك بداية لأول تدفق جدى من دماء أتراك أسبا الوسطى نصو الصين لإحداث التوازن مع الإثنيات العربية والفارسية للمسلمين الأوائل. وقد عهد إلى المسلمين بالأعمال المرتبطة بالإدارة والحكم، وأضحى الكثير منهم مندمجا تعاما في الثقافة الصينية، الأمر الذي أسهم في تكوين الأعراق المختلفة "للهوى".

أما فترة حكم سلالة "مينغ" بالصين (١٣٦٨–١٦٤٤)، فقد كانت فترة مثمرة وخصية للمسلمين. إذ بعد أن كان ينظر إليهم باعتبارهم تجاراً من العرب والفرس الدخلاء، شهدت تلك الفترة اندماج المسلمين "الهري"، بحق، في الثقافة المبينية، وحملهم أسماء صبيئية. وقد أقام "الهوي" مراكز كبرى لتعليم المسلمين في "نانجينغ"، وكانت اللغتان العربية والفارسية هما اللغتين الثقافيتين لتعلم الإسلام، كذلك، فقد زادت معدلات زواج المسلمين بالصين من أنباع المعتقدات الأخرى، وبذا، فقد ذاب طابعهم "الدخيل"، وأصبح مظهرهم الخارجي مشابها اسواهم، وليس لدي "الهوى" "ما يجمعهم من لغة مستقلة أو أراض إقليمية بعينها، أو نمط معين الحياة الاقتصادية، بالرغم من اشتهارهم بميلهم الفطري نصو التعامل التجاري في الأسواق بمهارة واقتدار". فالشيء الوحيد المشترك بين أبناء "الهوى" هو الإسلام وممارساته. ويسبب وجود الإسلام المبكر في الأراضي الصينية، فقد تم اعتباره أحد الأديان الرسمية للإمبراطورية إلى اليوم. ويمرور الزمن، أصبح الهوى أكثر تآلفا، كما أصبحوا موضع ثقة السلالات المتعاقبة للحكام الصيئيين نظرا لانتمائهم، بالأساس، إلى ثقافة 'الهان'، واندماجهم المتزايد في المجتمع الصيني، وذلك على خلاف الأقليات للسلمة الأخرى ذات الإثنيات المغايرة بما تتسم به من نزعة مقاومة ضد الذوبان في ثقافة "الهان" ... تلك النزعة التي ما زالت مستمرة إلى اليوم-

وخلال أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، ثمت أبرز المغامرات البحرية في تاريخ الصين على يد الأدميرال 'زينغ هي"، وهو صيني مسلم تم إرساله من قبل الإمبراطور عبر سلسلة اشتملت على سبع رحلات بطول المحيط الهندي، حيث عاد

إلى الصين يوعى وإدراك بالممالك الإسلامية وحضاراتها ... تلك القابعة إلى الغرب من الإمبراطورية الصينية.

التأثيرات الثقافية المتبادلة

كما في روسيا والهند، فقد أحرز الإسلام درجة عالية من التواؤم مع المضارة والثقافة بالصين، وفي الصين، كما في غيرها من بلدان العالم، انبثقت بعض مركات التجديد الإسلامي المؤقتة، والتي هدفت إلى العودة بالإيمان إلى منابعه الأصيلة، وإزالة أية أفكار غير إسلامية دخيلة وقدت على صعيد الفكر والممارسة، فضلا عن إيلاء الاهتمام بمبادئ وأساسيات الدين الإسلامي، وقد أثر هذان الاتجاهان المتضادان – استيعاب الجديد من الأفكار، ورفض أي إبداع أو تطوير – على الإسلام في الصين.

إن المفكرين الإسلاميين في الصين قد راعهم، في وقت ميكر، ذلك الكم الضخم من الأفكار الفلسفية الصينية، والتي كانت قائمة بالفعل لدى دخول الإسلام الصين، وكما أوضح المؤرخ "جوناتان ليبمان":

"يبدو أن تأثير الأفكار الكونفوشيوسية ونفاذها إلى الإسلام في الصين قد آمد الإسلام في أخريات حكم سلالة "مينغ"، ويدايات حكم سلالة "كينغ" – والذي كان مهددا بالأقول – بدفقة من دماء جديدة وقدر من الحيوية ... وقد انبثقت جماعة من الإسلاميين الصينيين، عمدت إلى استخدام اللغة والأفكار الكونفوشيوسية بمنهاجية لدراسة، وترتيب، وإيجاز ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية. وقد قام أفراد تلك الجماعة بتأسيس نسق ثقافي إسلامي صيني متكامل، وكتابة مجموعة من الأعمال الإسلامية باللغة الصينيئة، ووفقا للأسلوب الصيني الفريد. وقد أطلق المسلمون بالصين على تلك الأعمال لفظة "هان كتاب" أو "ديوان الهان". وكان لتلك الأعمال بالصيني على المجتمع الصيني المسلم".

وفي الصين، تم بناء المساجد، جميعها، وفقا للطراز الصيني التقليدي الذي

بنيت المعابد والهياكل وفقا له. كذلك، فقد أبدع 'الهوى' حروفا عربية/صينية فردة المتمكن من قراءة اللغة الصينية وكتابتها يأحرف عربية. أما الباحثون المسلمون الراغبون في بعض التواؤم قيما بين الثقافتين الإسلامية والصينية، فقد وجدوا، بالفعل، تلك المواصة الفلسفية في الكونفوشيوسية. وقد عمد "يوسف ما دكسن"، أحد أهم الباحثين المسلمين بالصين، إلى إيجاد تألف وتناغم فيما بين الإسلام والكونفوشيوسية. وقد ولد "دكسن" في مقاطعة يون نان" في الجنوب الغربي من الصين، وقام برجلة الحج في عام ١٩٨١، حيث مكث لمدة ثمانية أعوام في إقليم الشرق الأوسط، ودرس بالأزهر في مصر، وقام برحلات واسعة في أرجاء الإمبراطورية العثمانية، بما في ذلك أورشليم. كذلك، كان "دكسن" على دراية واسعة ومعرفة عميقة بكل من اللغتين العربية والفارسية، وكان أول من ترجم معاني القرآن" إلى اللغة الصيئية، كما حمل "دكسن" أيضا إلى الصين أحدث تيارات الفكر الإسلامي والسياسي السائدة، آذذاك، في الشرق الأوسط.

إن تحلق المسلمين حول الكونفرشيوسية قد يبدو، الوهلة الأولى، غريبا لما لها من طابع علماني صريح، وتشديدها على العنصر الفلسفى لا على الآفاق الدينية السامية. بيد أنه، ولما كانت الكونفوشيوسية تطرح إطارا من الأخلاق والقيم، فقد بدت أقل تحديا للإسلام على الصعيد الثيولوجي، كذلك، فالكونفوشيوسية هي أكثر العقائد والديانات ذات النزعة "الصيبية"، وهو الأمر الذي يصب في صالح المسلمين لإقناع القائمين على تسيير أمور الإمبراطورية إبان حكم سلالة "كينغ"، والتي اشتهرت بالتشكك في المسلمين وقمعهم ومراقبتهم، — بالعناصر التوافقية المشتركة بين الإسلام والكونفوشيوسية... بإظهار حرصها على استتباب النظام، وتحقيق العدالة، ومتطلبات الحكم الجيد، وتأييد الإمبراطور ومؤازرته.

وقد آمن بعض المسلمين بأنه من المكن اعتبار الكونفوشيوسية مدخلا لنشر الدين الإسلامي بين صفوف الصينيين. إلا أن التواؤم التام فيما بين العقيدتين كان على الدوام تحديا كبيرا، خاصة وأن العقيدة الإسلامية، في مجملها، تتجاوز

المنظور الدنيوى غير التوحيدى الذى ينطوى عليه الفكر الكونفوشيوسى، كذلك، فإن الثقافة الصينية بنزعتها الإثنية المركزية الغالبة تجعل من الصعوبة بمكان نقبل أن تكون "مكة"، تلك النائية ذات البعد الغرائبي، قبلة ومركزا للإيمان لدى المسلمين، في حين ترفض الملل الإبراهيمية الثلاث برسالاتها، وما تنطوى عليه من عناصر إيمانية قبول ذلك للعتقد الصيني شديد التبسيط، لذا، فلم ينجح المسلمون في اجتذاب معتنقين جدد للإسلام من بين صفوف "الهان" الصينيين. أما البوذية، فكانت تحديا أكبر واجهه المسلمون حين سعوا إلى التعرف إليها ومحاولة تفهم أهدافها، ذلك لأصولها الهندية، وعدم انبتاقها من التربة الصينية، واتسامها بالتجريد الشديد والغيبيات المفرطة، وطابعها غير التوحيدي الذي اصطدم بمشاعر المسلمين.

حكم سلالة «كينغ» (١٦٤٤-١٩١١)

إن حكم سلالة "كينغ" للصين قد جاء ليكون نقطة تحول فارقة بالنسبة للمسلمين هناك، لعلها أسرا فترات التاريخ الصينى على الإطلاق من وجهة نظر المسلمين حتى بدايات ثورة "ماو تسى دونج". فقد عمدت تلك السلالة المنتمية إنتيا "للمانشو" (الالطائية) لا "للهان" – أن تكون عدائية النزعة تكيل بمكيالين وتنحاز ضد مصلحة المسلمين، كذلك لم تكن تلك السلالة تركن إلى الأجانب لتشككها فيهم، مع عدم إيلاء "الهرى" أية مصداقية أو ثقة. وقد قامت سلالة "كينغ" بحظر بناء أى مسجد جديد في الصين، كما منعت أية رحلة للحج "لكة"، مما أدى، على الفور، إلى شعور المسلمين بالغرية جراء تلك الإجراءات. وقد أدت النزعة التمييزية ضد المسلمين، والتي اتسمت بها تلك السلالة -إلى جانب أفول نجمها تدريجيا- إلى انتفاضتين كبيرتين من قبل مسلمي الصين: الأولى هي ثورة "بانتاي" (١٨٥٠-١٨٠) في الجنوب الغربي من البلاد، والثانية هي ثورة "دنغان" (الهوي) (١٨٨٢-١٨٧٧) في الشيمال الغربي منها، وفي أثناء هاتين "دنغان" (الهوي) (١٨٨٢-١٨٧٧) في الشيمال الغربي منها، وفي أثناء هاتين بهذابح وإبادات جماعية، وفي أثناء تلك الفترات التي اتسمت بالدموية، نزح الكثير بهذابح وإبادات جماعية، وفي أثناء تلك الفترات التي اتسمت بالدموية، نزح الكثير بهذابح وإبادات جماعية، وفي أثناء تلك الفترات التي اتسمت بالدموية، نزح الكثير بهذابح وإبادات جماعية، وفي أثناء تلك الفترات التي اتسمت بالدموية، نزح الكثير

من "الهوى" إلى أسيا الوسطى، وتحديدا إلى الجزء الروسى بها، وكان يطلق على مؤلاء "البنفان" ... وما زالوا يمثلون أقلية بارزة تحتفظ بعلاقات مع المسين، ولم تكن الثورات ضد حكم سلالة "كينغ" حكرا على المسلمين، بل كان هناك فوضى وثورات وقلاقل على امتداد كامل الأراضى الصيئية حين أخذت شمس تلك "السلالة" تأذن بالمغيب، وهنا تبقى خلاصة مهمة مفادها أن المسلمين في الصين، كما في روسيا، لم يقوموا بالثورة إلا حين ورجهوا بأمور وأحوال مهولة كتلك التي مثلها القمع الصيني إبان حكم سلالة "كينغ"، وكذلك ما جاحت لتمثله الأحزاب الشيوعية في كل من روسيا والصين لاحقا،

إن الصوفية – تلك القوة الإسلامية الفائقة التي تعمل على مد جسور التواصل والحوار فيما بين الأديان بتشديدها على الجوانب الروحانية السامية – قد دخلت الصين عن طريق أسيا الوسطى، والتي نشأت بدورها في التخوم الغربية (العالم الإسلامي الواقع في إقليم الشرق الأرسط). وقد استطاعت أعداد قليلة، وإن كانت هامة، من المسلمين الصينيين الارتحال إلى مصر، وشبه الجزيرة العربية، والإمبراطورية العثمانية، ونواح أخرى لدراسة الإسلام في وقت كان إقليم الشرق الأرسط ذاته يشهد ميلاد عدد من الحركات التجديدية. ولقد نقلت تلك الأفكار الجديدة، والمعروفة "بالتعاليم الجديدة" – إلى الصين لمواجهة الأنماط الإسلامية التقليدية شبه المتحجرة هناك. ولقد مثل الضغط الذي أحدثته "التعاليم الجديدة" تجديدا تقافيا عمل على إحداث التواصل بين العناصر المتنائية في العالم الإسلامي، إذ سعى باحثون جدد إلى تقريب المارسات الإسلامية في الصين للسلامية في الصين قدر الإمكان مع الفكر السائد في قلب العالم الإسلامي.

وقيما كانت الصين تدلف إلى ثلاثينيات القرن العشرين، كان الباحثون المسلمون البارزون هناك ما زالوا عاكفين على السعى لإحداث التوافق الفكرى المنشود مع ثقافة "الهان" الصينية، والتشديد على أهمية التعليم والعلوم الحديثة لتعضيد المجتمع الإسلامي بالصين، وقد أمن الكثيرون بأن ما يبتغيه المسلمون في

الصين من أمن ثقافي أن يتأتى إلا في ظل "صين" قوية تلفزم بالإدارة الجيدة، والمنهاجية القويمة، وتسعى تلك الجهود "إلى جعل الإسلام يقهم جيد كدين أخلاقى يعنى بالمبادئ السياسي والثقافي يعنى بالمبادئ السياسي والثقافي الصيني من دون المساس بقواعده الرئيسية".

بيد أن الحكم الشيوعي للصين قد جاء ليضع نهاية لذلك كله، فقد قام بتوجيه ضربة شديدة لجميع الأديان، والتقاليد، والقيم وليس الإسلام فحسب وخاصة خلال "الثورة الثقافية". فالمساجد على امتداد كامل الأراضي الصينية قد جرى تشويهها، أو تدميرها، أو غلقها، وكذلك الأمر بالنسبة لجميع المؤسسات الدينية للعقائد الأخرى، بيد أن "الهوى" قد عادوا ليصبحوا فاعلين في الصين ما بعد الحقبة الشيوعية، بانتشارهم في الأرجاء كافة، لقد أصبحت ثقافة "الهوى"، ومسلمو أسيا الوسطى مصدراً للرومانتيكية الشعبية في الملاحم الصينية، وكذلك تأثيرها في الأزياء، والموسيقي الصينية، وقد انتشرت المطاعم الإسلامية، كذلك، في المدن الصينية، وتقدم تلك المطاعم المئكولات وفقا لمبادئ الشريعة الإسلامية (بتحرى الحلل عند الذبح)، فضلا عن تقديمها لأطباق من لحوم الضأن الشهية، والتي الست من أطباق المطبخ الصيني التقليدي – بما يفسر ارتيادها من قبل الصينيين غير المسلمين، ومن المرجح أن يضطلع "الهوي" بأدوار هامة في العلاقات الخارجية الصينية كنموذج دال على التعايش المشترك فيما بين الصينيين على اختلاف مشاريهم"،

وفى عام ١٩٩٥، تم انعقاد "المنتدى العالمى للإسلام والكونقوشيوسية: - حوار حضارى"، وذلك فى العاصمة الماليزية "كوالا لمبور" حضره باحثون من بلدان شرق أسيا، ودول الجوار، وقد افتتح المفكر الإسلامى، والسياسى الماليزي البارز أنور إبراهيم، اللقاء وأشار إلى أن:

هناك العديد من الأشباء والنظائر المذهلة فيما بين الإسلام والكونفوشيوسية،

في المبادئ والخبرة التاريخية، وكذلك في رفضهما لأن يفصلا الدين، والأخلافيات، والمبادئ السامية عن محيط العمل العام، إذ لا تختلف رؤية الإسلام واعتراضه على العلمانية، بسعيها لفصل السياسة وغيرها من الاهتمامات الاجتماعية عن الدين والأخلاقيات عن رؤية الكونفوشيوسية لها ... تلك الرؤية التي عرض لها البروفيسور "توواي مينغ في كتابه الشائق، Way Learning and Politics لذا، فلا توجد أية صعوبات تواجه المسلم في التوازم مع الطرح الكونفوشيوسي لاستعادة الثقة في الحكومات، وللعمل على الانتقال بالمجتمع من الوضع الراهن إلى مناخ أكثر اقترابا من المبادئ السامية والأخلاقيات.

الأوغسور

أما الجانب المقابل فيختلف اختلافا تاما. فبالنسبة النصف الآخر من السكان السلمين بالصين غير المنتمين "الهان" إثنيا على الإطلاق، فتنحدر عناصر أولئك السلمين من أصول تركية (إلى جانب جماعة صغيرة من الطاجيك ذات اللغة الفارسية). ويمثل الأوغور أكبر تلك الجماعات التركية، إذ يبلغ عدد أفرادها حوالى عشرة ملايين نسمة يعيشون في مقاطعة "زنجيانغ" الصينية. وكما هي الحال بالنسبة المسلمين الروس الذين تم استيعابهم ضمن الإمبراطورية الروسية، فقد تم استيعابه ضمن الإمبراطورية بالأساس، وتحيا تلك الأقليات التركية والطاجكية بعيدا عن وسط الصين، إذ تقطن الأقاليم الغربية المتاخمة اباكستان وكاراخستان، ومن المنظور التاريخي، فقد تم ضم تلك الأقليات المتدة الأتراك أسيا الوسطي، ويرتبطون ارتباطا وثيقا بالشعوب التركية الأخرى في أسيا الوسطى، ويصفة خاصة الشعوب الأوزبكية، والتي ينحو الأوغور إلى الترابط معهم على امتداد معظم سنى التاريخ، لذا، تختلف تلك الأقليات كثيرا عن الهان" على الصعيد الإثنى، والمثقافي، والديني بما ينشئ هويات متمايزة، ويعزز من المقارة ضد دولة "الهان" الساعية نحو تطويقها.

وقد عمل الحكم الشيوعى في الصين على تهميش الكثير من الأقليات هناك، خاصة خلال "الثورة الثقافية"، إذ تم تخريب ثقافاتها وتجريفها- وعلى امتداد سنوات عديدة، أبدى الأوغور مقاومة مسلحة وقتية ضد سياسات الدولة الصينية التي عطت ثقافتهم ومساعيهم نحو حكم ذاتى. إن المقاومة، سواء كانت مسلحة أو سلمية، كانت حدثا ذا شئن، تم قمعها بواسطة الشرطة، على أنها لم تختف أو ثرول ... إذ واصل الأوغور احتجاجاتهم كردة فعل قوية ضد جهود بكين لاستيعابهم داخل المجتمع الصيني، وطمس هوياتهم.

ومن أجل إحكام السيطرة على تلك الأقية صعبة المراس، فقد عمدت الصين إلى تصفير أعداد هائلة من الهان للهجرة صوب مقاطعة "رنجيانج"، وتعد تلك الهجرات جانبا من رغبة جامحة للسيطرة على الأوغور، والذين سيتم غمرهم، في النهاية، بموجات متصاعدة من الهجرات من جانب "الهان" باتجاه موطنهم الأم، ويمرور الزمن، لن يستطيع الأوغور، والبالغ عددهم نحو عشرة ملايين، الصمود طويلا لحماية هويتهم، وتقافتهم أمام أكثر من ٢٠١ مليار من "الهان" بالصين، وفي لحظة زمنية ما، قد تمسى ثقافة الأوغور مجرد عنصر جذب سياحي طريف، أو قطعة متحفية من ماض قد ولي، أما المدين، فقد يادرت بانتهاز الدعوة "للحرب العالمية ضد الإرهاب" للتصريح بأن الانفصاليين الأوغور فصيل من الشبكة الإرهابية ذاتها التي تقوم واشنطن بمقاومتها.

لذا، فمن الجلى، كما فى أى موضع آخر بالعالم، أن مشكلة بكين لا ترتبط، حقيقة، بالإسلام مطلقا، وإنما تتعلق بالأقليات الإثنية، خاصة حين تكون تلك الهويات الإثنية قائمة بالتوازى مع اعتناق دين بذاته، وعلى سبيل المثال، يصدق هذا على الأوغور المسلمين، وأهالى التببت من البوذيين والمغول، إذ يزيد ذلك التمايز المضاعف من إصرار تلك الأقليات على حماية وجودها الثقافي فى تطلعها لنوع من الاستقلالية والحكم الذاتي.

وتؤمن الصين چيدا بأن نفوذها المستقبلي في آسيا يعتمد على الحفاظ على روابط وثيقة مع الشعوب المسلمة بها، بما في ذلك قطاع الطاقة بالغ الأهمية، والذي يقع بالأساس في مناطق يقطنها مسلمون من "زنجيانج" وحتى بحر قزوين، اذا، لا تنظبق هنا مقولة "الحدود الدموية للإسلام" من وجهة نظر القادة في بكين، حتى في سعيهم لإخماد شرارة الانفصال والمقاومة من قبل الأوغور، وأهالي التيبت البوذيين، ومن المرجح أن تسعى طائفة قليلة من "الجهاديين" إلى مواصلة الصراع في "زنجيانج"، بيد أن تأثيرها سيكون ضعيف ومحدودا، إذ تقوم الصين على نحو وثيد، باستثمال عناصر الأوغور،

إن معظم العالم الإسلامي يرى في الصين قوة هامة ضد استئثار أمريكا بالهيمئة، وثقلا مضادا في ميزان القوى الذي صارت الولايات المتحدة، بموجبه، قوة ترجح كفتها بلا منازع. إلا أن البلدان والأقاليم المجاورة للصين، كما الحال في أسيا الوسطى، فتمثل الصين، في نظرها، صورة مبهمة وغامضة للمسلمين هناك، والذين يدركون الطابع التوسعي الذي طالما اتسمت به الصين في الماضى، وقدرتها على الاستيعاب، بل الابتلاع النهائي لأية ثقافات مغايرة فقط من خلال ثقلها الديمجرافي الهائل، ومع ذلك، تمثل الصين وروسيا قوتين متقابلتين لإحداهما الأخرى بما يتبح حيزا أرجب نسبيا للمسلمين للتعبير عن أنفسهم وثقافاتهم.

إذاً، فمن الجلى هنا أن المشكلة في الصين تكمن في تعدد الإثنيات بها، وليس في الإسلام بحد ذاته، ولم تكن المشكلات بشأن تلك الجماعات الإثنية لتختلف كثيرا حتى ولو لم يكن ثمة إسلام، "فالهان" متكاملون فيما بينهم، ويمثلون حلقة وصل هامة بين الثقافتين الإسلامية والصينية. أما المسلمين المتمايزون إثنيا، على نحو كبير، فيخوضون حربا انقصالية ذات طابع إثني، حتى ولو زاد من حدتها اختلافهم العقائدي مع الأغلبية الصينية غير المسلمة.



نصوبر احمد باسبن نويئر فيئر (Ahmedyassin90

الجزع الثالث الإسلام والعالم المعاصر



نصوبر احمد باسبن نويئر فيئر (Ahmedyassin90)

الكولونيالية-القوميات-الإسلام والصراعمنأجلالتحرر

ها هو الوصف الموجن المسار الطويل الذي تتابع يموجبه تاريخ المسلمين: سنوات المجد الإسلامي، فتراجع المسلمين التعريجي، فاستعلاء القرب، فاستحواذ القوى الإمبريالية الغربية على العالم الإسلامي، فالمسراع ضد الكواوتيالية، وأخيرا، الاستياء الحالي من السياسات الإمبريالية الجديدة للقرب والتي تهدف إلى مزيد من انتدخل والهيمئة، ويعد إدراك طبيعة هذا المسار أمرا ضروريا لفهم الأسياب وراء مشاعر الفضب والاضطراب الصادرة عن العالم الإسلامي تجاه الغرب اليوم، إنه تاريخ طويل من الاستياء وعدم الرضا يجد جنوره في سلسلة من الأحداث الحقيقية المحدة ذات الطابع السلبي في إقليم الشرق الأوسط، والعالم الإسلامي، ويجيء العامل الإسلامي منظورا وفهما الطبيعة تلك الظاهرة، على أنه ليس العامل الحاسم في تبريرها،

وحين آنكر هنا "العالم الإسلامي"، فحقيقة الأمر أن المصاعب والمشكلات، السابقة والقائمة، لا تقتصر على عالم يعرف بكونه "إسلاميا". فالأوضاع المذكورة هي جزء من كل أكبر يمثله العالم النامي يصراعاته ومشاعره الغاضبة في إفريقيا، وآسيا، وأمريكا اللاتينية، فالمشكلات النابعة من الكولونيالية، والإمبريالية يمكن أن تحدث تماما لو لم يكن ثمة إسلام، بيد أن وجود ثقافة إسلامية واعية بالذات، ومنتشرة في كافة أرجاء العالم – يساعد بلا شك في إبراز مظالم المسلمين، على نحو أكثر عمقا من أي مرضع آخر، وفضلا عن ذلك، فقد تم تأطير "سيكولوجية المقاومة" في سبيل المثال، لديهم حساسيات مشابهة فيما يخص قضايا النفوذ والهيمنة الغربية، بيد أنهم يقومون بتأطيرها وفق خصوصياتهم الثقافية والحضارية، وأنساقهم التاريخية،

ولطالمًا أيقن المسلمون بدورهم البارن على مدار التاريخ - فإنجازاتهم في

تأسيس حضارة إسلامية مزدهرة تؤكد أنهم قد حظوا بعناية السماء ومباركة الرب. فأصداء النجاح المدوى للدين الجديد كانت مذهلة، إذ انتشر على امتداد بلدان شمال إفريقيا، ونصف القارة الأسيوية خلال عقود قلائل أعقبت وفاة النبى محمد، مما أسفر عن تأسيس إمبراطوريات وثقافات مزدهرة وخالدة. ولقرون طوال، كانت السيادة والريادة للمسلمين عالمنا في الفنون، والأداب، والعلوم، والفلسفة، والمهارات القتالية، والمخترعات – مما أوضح لأتباع الإسلام أن تلك الحضارة المشرقة قد شقت طريقها على هدى من نهج سليم،

أما أوروبا الغربية، فقد كانت الإقليم الوحيد في العالم، وفقا الحدوده المعروفة أنذاك، الذي لم يكن للمسلمين تأثير واضمع عليه، أو اتصال وثيق به، فحين برزت أوروبا الغربية كقوة مؤثرة عقب نشأة القرميات بعد حركة "الإصلاح البروتستانتي"، وعصر الكشوفات الجغرافية، حينها فقط رجحت كفة الحضارة الغربية بالمقارنة

بالحضارات الشرقية. إذ أخذت الحضارات والبلدان الإسلامية تفقد حيويتها، وحماستها الإبداعية، وبسلك مسارا تراجعيا واضحا.

وإلى الأن، ما زال للسلمون يتحسرون على تراجع حضارتهم، وتضاؤل دورهم الصالح أوروبا الغربية : ما أسباب التراجع؟ وأين الخطأ؟ وكيف يستعيد المسلمون مجدهم التالد؟ أيكون ذلك راجعاً إلى تخليهم عن قيمهم ومبادئهم الإسلامية؟ كانت تلك الحقية هي التي شهدت تزايد النفوذ الأوروبي في تحديه للعالم الإسلامي ... ذلك التحدي الذي أفضت مجرياته إلى الهيمنة الأوروبية على العالم الإسلامي بأسره، وبالتألى اشتعال شرارة المقاومة لدى المسلمين لمجابهة تلك الهيمنة. وتمثل بلك الخيرة التاريخية أساساً للسبكولوجية الإسلامية المناهضة للإمبريالية في عالم اليوم.

إن الحضارات، على اختلافها، تتبع مسارا نمطيا معروفا يراوح ما بين الصعود والهبوط ... وهي ظاهرة ميزت مسار الحضارة الإسلامية عبر تاريخها الممتد. وينحو المسلمون ذوو النزعة الدينية إلى أن يعزوا تراجع دورهم الحضاري إلى فقدان "البوصلة" الأخلافية، على أنه يوجد، بالتأكيد، أسباب أكثر موضوعية يجب الإشارة إليها ... أسباب أدت إلى التراجع النسبي للشرق، وارتفاع شأن الغرب بالمقابل. والعوامل السابقة جميعها لا ترتبط بالإسلام في ذاته إلا في نزر يسير، إذ تجد أسبابها، وجنورها في التغيرات السياسية والجيوروايتيكية التي شهدها العالم وما زال يشهدها، فضلاً عن عوامل خارجية أخرى تسم بالموضوعية والحيدية، ويعبارة موجزة، لو لم يكن ثمة "إسلام"، فإنه من الجلي أن مسار الغالبية العظمى من تلك الأحداث لم يكن ليختلف كثيرا.

العوامل الحضارية والثقافية

كان الإسلام، إبان الدهاره، الحركة المبكرة والأكثر تمثيلا لإرهاصات ظاهرة العملة". فبامتداد دولته على رقعة جغرافية تفوق ثلك المتى كانت تشخلها

الإمبراطورية الرومانية، قام الإسلام بربط أطراف نائية من العالم، المعروف حينذاك، من خلال ثقافة إسلامية مشتركة، كانت فيها العربية، والفارسية مجتمعتين "اللغة المشتركة" لعناصس الإمبر طورية الإسلامية ورعاياها. إلا أن ضعف تلك "الروح الجامعة" قد أدى إلى تقزيم وضمور ما كان ذات مرة مجتمعا ثقافيا يتسم بمهارات البحث الثاقب، وبالانفتاح على الأخرين. بل لقد نشأ أيضا صراع، حينذاك، فيما بين اتجاه محدود الأفق يتقيد بالتأويل الحرفي لنصوص العقيدة، وبين أخر يتسم بوجه حضاري رحب الأفاق.

إن ضمور كل من القوة الثقافية، وحب المعرفة، والتعطش إلى مصادرها وبفعل انطفاء الحماسة الحضارية دونما أية مدخلات ثقافية — قد أدى إلى تصدع بنيان التفكير الإيداعي في الثيولوجيا الإسلامية، والفلسفة، والمحلوم، والمخترعات. إذ هيمنت الطقوس، والشعائر الدينية، والأحكام الشرعية وفقا لمفهوم ضيق الأفق على ما اتسم به الإسلام من تلاقح فكرى وثقافي مثمر، وطابع بحثى مميز. فالفكر المتحجر قد أخمد تلك الروح الإسلامية التاريخية، والتي كان تناولها النصوص الدينية بالتدقيق وإنعام النظر متاحا خلال قرون سابقة. وقد ظهر ذلك الضمور المعرفي لدى المسلمين جليا في انهيار الروح العلمية لديهم، وكذلك، وعلى نحو أكثر حدة، في الشعور السلبي للعام، واللامبالاة تجاه التطورات التقنية والعلمية اللاحقة في الغرب — إلى أن تصل تلك التطورات إلى عتبات أبواب المسلمين، وتسيطر على أفكارهم. كذلك، فإنه حتى إزاء التحديات الغربية، فقد نظر الكثير من المسلحين الإسلاميين للغرب على أنه مستودع أو خزائن التقنيات الحديثة، دونما إدراك من قبلهم للفكر المبذول على الجانب الثقافي والإبداعي لتسيير تك التقنيات.

كذلك، فقط اضطلعت عوامل جيوبوايتيكية خارجية هامة بنور رئيسى في تراجع العالم الإسلامي على النحو الذي نشهده، فالغزوات المغولية الوحشية بادية الشراسة، والتي انفجرت من السهوب المغولية في القرن الثالث عشر الميلادي، قد طمست العديد من المراكز الحضرية الإسلامية الكبرى – أعداد كبيرة من المدن،

بالإضافة إلى سكانها، ومكتباتها وثرواتها ثلك الغزوات التى كانت ضرية قوية لم يبرأ المسلمون من أثرها بالكامل إلى اليوم، ثم أدى ظهور دولة شيعية المذهب في إيران في القرن السادس عشر الميلادي إلى تقسيم العالم الإسلامي ذي المذهب السني، مما أدى إلى عرقلة مسيرة التواصل والعلاقات التجارية لأصحاب المذهب السني على امتداد الأقاليم الأوروأسيوية، وفي تحول نسقى شامل، ومع صعود نجم القومية الأوروبية بما لها من قدرات بحرية وملاحية - تحولت التجارة فيما بين حوض المتوسط وبلدان المشرق من الطرق البرية إلى تلك البحرية. وإطالما المشاركة مباشرة في المتجارة البينية الأسيوية. كذلك، فقد أسهم ظهور "الطاعون" المشاركة مباشرة في المتجارة البينية الأسيوية. كذلك، فقد أسهم ظهور "الطاعون" القادم من أسيا صوب شرقي المتوسط في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي في فقدان الأوروبيين لحماستهم لطرق التجارة البرية. وعندها، صار البحث عن طريق فقدان الأوروبيين لحماستهم لطرق التجارة البرية. وعندها، صار البحث عن طريق بحيث بحيث يتم تجنب أخطار المطرق البرية ومصاعبها،

إن مساعى الكشف عن طرق ملاحية جديدة صدوب المشرق قد انبنت على تقنيات بحرية حديثة. فقد كان استخدام الغرب انتك التقنيات معتمدا على ما أنجزه الملاحون والبحارة العرب والمسلمون، عبر قرون سابقة وما لهم من خبرات ملاحية، من اكتشاف للمحيط الهندى وامتدادته، وخرائطهم الجغرافية التفصيلية، واستخدامهم للبوصلة، وبنائهم لسفن تناسب أعالى البحار. ولقد قادت تلك المهارات الملاحية والبحرية المتقدمة إلى الحدث ذي الأهمية العظمى: اكتشاف "العالم الجديد". أما اهتمام الأوروبيين المتنامي بنطوير عمليات النجارة الملاحية عبر المحيط الأطلنطي، فقد أسس لفصل جديد في التاريخ العالمي أدى إلى زيادة ثروات أوروبا، واستحث المزيد من الاكتشافات الأوروبية بشرق أسيا، كذلك فقد أسهم في التجارة الآسيوية.

كذلك، فقد أثرت التغيرات البيئية الهامة في صعود الحضارات وأقولها. فقد

أورد المؤرخ الشهير "جاريد دايموند" أن "الهلال الخصيب"، والذي كان لأماد طوال مهدا للحضارات، قد بدأ يفقد "خصوبة تربته" نتيجة للتصحر، واختفاء الأحراج، فضلا عن موجات الجفاف التي تعرض لها، وتدهور ثرواته الطبيعية والحيوانية، على نحو تدريجي، أما أوروبا الغربية، ولأجال امتدت إلى ما بعد سقوط روما، فقد كانت مشاركتها محدودة في النطور الحضاري العالمي حتى أواخر العصور الوسطي، وفي تلك الأثناء، فإن مناخ أوروبا المعتدل، وأراضيها الخصبة، والتنوع الغني لبيئاتها النباتية والحيوانية، جنبا إلى جنب مع زخم حضاري ناشئ، كل ذلك أدى، في النهاية، إلى انبئاق حضارة أوروبية غربية فتية ارتكنت إلى نجاحات المجتمعات الشرقية ومنجزاتها، فيما مضى ... تلك المجتمعات التي أضحت بيئاتها الطبيعية أقل وفرة وأدني إنتاجية.

أما "جيفرى ساكس"، الباحث بمركز التنمية اللولية يجامعة هارفارد الأمريكية، فقد أشار أيضا إلى أثر المتغيرات المناخية والإيكولوجية: ففيما السمت القارة الأوروبية بمناخ معتدل، اصطبغ إقليم الشرق الأوسط بموجات متزايدة من القحولة والجفاف: "فبحلول عام - ١٩٠٠، عندما بدآ انهيار الإمبراطورية العثمانية، كانت أوروبا تمتك المفحم، والطاقة المائية، والأخشاب، وخام الحديد. أما البلدان الإسلامية، فكان لديها القليل من تلك الموارد الأساسية اللازمة لحركة التصنيع خلال القرن التاسع عشر، أما أبار النفط قلم يتم اكتشافها، واستغلالها إلا بعد أن أصبحت البلدان الأوروبية قوى كولونيالية". وتعطى سجلات التقسيم الحضرى صورة لما كانت عليه الحال. ففي عام ١٠٠٠ مبلادية، كان لدى كل من الشرق الأوسط وأوروبا الغربية العدد ذاته من السكان، والذي بلغ، آنذاك، ثلاث عشرة مدينة يبلغ نسمة لكل منهما، إلا أن الشرق الأوسط كانت به، حينذاك، ثلاث عشرة مدينة يبلغ تعداد أي منها نحو خمسين ألف نسمة، في حين كانت هناك مدينة واحدة في أوروبا، آنذاك – ألا وهي "روما"، ويحلول عام ١٦٠٠، تبدلت الأحوال على نحو

إن الاكتشافات البحرية الأوروبية في الشرق، وكذا في المعالم الجديد قد أسهمت في إرساء قواعد حضور أوروبي طويل الأجل على امتداد السواحل المؤدية القارة الآسيوية، حيث تم أولا إنشاء مراكز تجارية لتوزيع السلع، وتلا ذلك تدشين قواعد عسكرية كولونيالية، وأخيرا تم تثبيت دعائم التفوذ الكولونيالي، ويناء الإمبراطوريات. وفيما يخص القواعد العسكرية، فقد تعاقبت البرتغال، فإسبانيا، فهواندا، ففرنسا، وأخيرا بريطانيا في تدشين تلك القواعد العسكرية هناك. وفيما ظل جانب كبير من شرقي المتوسط "بحيرة إسلامية"، فإن الإمبريالية الغربية، وتوسعاتها كانت، حينذاك، تفتتح عصرا من عصور الإمبريالية، والذي سوف وتوسعاتها كانت، حينذاك، تفتتح عصرا من عصور الإمبريالية، والذي سوف التي يدافع عنها كل طرف فيما يخص استحقاقه لأراضي دولة دون الطرف الآخر، ولكن، في النهاية، اتخذت تلك "المتلكات الإمبريالية" التي اقتنصتها بلدان الغرب لاستغلالها لصالحها، طابعا قانونيا شرعيا – على الأقل فيما بينها، حتى ولو لم يكن ذلك في مصلحة رعاياها على وجه الإطلاق.

ومع نهاية الحرب الكونية الأولى، صار أغلب العالم الإسلامي رازحا تحت الهيمنة الإمبريالية الأوروبية، باستثناء الصحراوات الداخلية الشاسعة للمملكة العربية السعوبية، وكذلك أراض كثيرة من أفغانستان، وقد شاركت قوى أوروبية عديدة في اللعبة الإمبريالية تلك فيما وراء البحار " البرتغال، إسبانيا، هولندا، فرنسا، بريطانيا، ألمانيا، بلجيكا، وإيطاليا"، وبالرغم من اختلاف النمط الإمبريالي لكل قوة منها عن الأخرى، إلا أن جميع تلك القرى قد اشتركت فيما بينها في تعرضها للمقاومة من قبل رعايا الدول الخاصعة لملاستعمار، وكذلك في مظاهر الاستياء، وعدم الرضا التي أبداها أولئك الرعايا،

على أنه لا يستقيم النظر إلى الكواونيائية والإمبريائية باعتبارهما حكرا على الغرب، أو أنهما ظاهرتان غربيتان بالأساس، أو أنهما انعكاس لخطايا الغرب، إذ كانت الإمبراطوريات جزءا من نمط النظام السياسي الاعتيادي على امتداد كثير

من بقاع العالم المختلفة، عبر مراحل زمنية عديدة، بيد أنه توجد عدة سمات هامة تصطبغ بها الكولونيالية الغربية : أولها، أن الكولونيالية الغربية ذات طابع بحرى ملاحى، حيث قام الأوروبيون، فيما مضى، بركوب البحر عبر العديد من الرحلات الملاحية التى جابت أعالى البحار لتأسيس نقاط إمبريالية الهيمنة خارج حدودها في بلدان يقطنها أناس يختلفون عنها بالكلية، على الصعيد الإثنى والثقافي، وغالبا ما عمد الأوروبيون إلى استجلاب بعثات تبشيرية مسيحية إلى المناطق التى فرضوا هيمنتهم عليها كجزء من سياسة هدفت إلى تحفيف حدة الطابع الاستعمارى الذي النسمت به هيمنتهم على المستعمرات، ويختلف هذا النمط الإمبريالي بالكلية عن النمط المتبع من قبل أغلب الإمبراطوريات غير الأوروبية، والتي كانت إمبراطوريات توبيل المبرياطوريات لتغزو التخوم ويول الجوار الجغرافي عن طريق الرحف التدريجي الوئيد عبر تلك الأراضي، ولقد ويول الجوار الجغرافي عن طريق الرحف التدريجي الوئيد عبر تلك الأراضي، ولقد كانت القوى الإمبريالية الغازية عن طريق البر تعرف الكثير عن الأقاليم التي قامت بغزوها، فقد كانت تلك الأخيرة مألوقة لديها، كذلك فقد أرست القوى الإمبريالية عبر المرون عديدة من الأخذ والعطاء المتبادئين عبر التخوم علاقات مع تلك الأقاليم عبر قرون عديدة من الأخذ والعطاء المتبادئين عبر التخوم وأحياناً — كجزء من منظومة ثقافية ممتدة،

إن الإمبراطوريات التى نشأت عن طريق الغزو البرى للتخوم وبول الجوار غالبا ما توسعت وفقا لمواقع سياسى بذاته. أما الإمبريالية الأوروبية فقد سعت إلى تقنين نلك الأنماط الجديدة من الهيمنة من خلال الفرض القانونى للعلاقات بينها وبين البلدان الواقعة تحت سيادتها. وقد عمدت القوى الإمبريالية، في بعض الحالات، إلى إلحاق بعض المستعمرات بها كما حدث في حالتي إلحاق فرنسا للجزائر، وإلحاق بلجيكا للكونغو، وقد مثلت تلك الهيمنة المفروضة بقوة القانون انتهاكا صارخا المسيادة القومية للمستعمرات، وفي الوقت ذاته فقد استقبلت بترحيب "قانوني" من قبل النظام العالمي الغربي، وبينما اختلف نمطا الاستعمار عن طريق الغزو، البرى والبحرى، كثيرا فيما بينهما، إلا أن أيا منهما لم يكن أفضل

من الآخر بأي وجه من الوجوه.

وأخيرا، فإن أكثر أنماط الإمبريالية إيلاما وزعزعة، وهي كواونيالية الاستيطان، قد استلزمت الاستيطان من قبل الدخلاء الذين أتوا لاغتصاب الأرض والعيش عليها، وبسط الهيمنة من خلال إرساء أنظمة لحكم أهالي تلك المستعمرات ... الخاسرين على الدرام، تلك هي أصبعب الحالات الكولونيالية التي يمكن مناهضتها بدون عنف حقيقي، لذا، فقد شهدنا توترات عديدة وإراقة للدماء في جنوب إفريقيا، وجنوبي روديسيا (زيمبابوي حاليا)، وأنجولا البرتغالية، والجزائر، وكذا في الأراضي الفلسطينية التي استوطنها اليهود الأوروبيون لتكوين دولة إسرائيل.

التأثيرا لإمبريالي في الجتمعات الإسلامية

سرعان ما شوه الحكم الإمبريائي مسيرة التطور الطبيعى للعالم الإسلامى، عن طريق إطاحته بالهياكل التقليدية للحكم والزعامة، وتدميره للمؤسسات التقليدية وتخريبه للأنماط الثقافية السائدة، في حين فشل في تشجيع بدائل وخيارات للتنمية تستقى روحها من التربة المحلية. فالإمبريالية قد مثلت فرض آليات الثقافة الأجنبية للدخيلة وهياكلها في تطبيقها على بلدان المشرق، على أن هذه الهياكل عادة ما لا ينجع استزراعها في تربة الثقافة والحضارة القائمة، وما زالت المجتمعات للإسلامية، إلى الآن، يسكنها هاجس الهيمنة الخارجية الأجنبية، حتى واو لم تتخذ تلك الهيمنة الأشكال الكولونيائية الكلاسيكية.

ولقد تم تصميم الهياكل الإمبريالية الأوروبية الحاكمة التى تعبر، بشكل أساسى، عن مصالح المستعمر الاقتصادية، والسياسية، والاستراتيجية ... لا عن الاحتياجات الهيكلية للتنمية القومية بمفهومها الشامل للنول الرازحة تحت الاستعمار. أما الحكام الذين تم تنصيبهم في تلك البلدان، فلم يمتلكوا، في الواقع، أية سلطات مستقنة، وإنما انحصر دورهم في الحفاظ على راهنية الوضع، والرفاء

بمصالح المستعمر ومأريه

كذلك، فقد تم الحط من شأن العلماء ومكانتهم في ظل الحكم الكولونيالي، وتم إضعاف شوكة المؤسسات الإسلامية ذات الصلة بالحكم في المستعمرات، وخاصة بالنظام القانوني حيث أضحى دورها محدودا، أو تم القضاء عليها بالكلية. أما "العلماء"، فقد عهد إليهم، من خلال التفويض، ببعض النواحي الهامشية فيما يتعلق بإدارة الحكم مثل قانون الأسرة، وقانون الأحوال الشخصية، بيد أن تتحية "العلماء" عن مسيرة الحكم والتشريع قد عمل على توجيه ضربة قوية المؤسسات الإسلامية، وقدرتها على النهوض والحداثة في ظل الأحوال المعاصرة، كذلك، لم يكن بإمكان الأعراف المحلية المحكم أن تنمو على نحو طبيعي مائم، وأخذت المؤسسات الإسلامية، الإسلامية، والتي تم إبعادها عن آليات الحكم الاعتبادي، في التدهور والضمور، ولم يعد بإمكانها أن تفي بمتطلبات تك المجتمعات النامية وأمالها، وقد خلف ذلك كله كيانا لإدارة البلاد وحكمها يتسم بالجمود مما جعله مصدر استياء في المستقبل حين جاهد لإرساء علاقات قوى جديدة في تلك المجتمعات بعد نيلها لاستقلالها.

ولقد كانت التجربة الجزائرية مثالا صارفا من حيث بعدها الثقافي، فلقد قامت فرنسا بضم الجزائر إليها، وتوطين عشرات الآلاف من الأوروبيين بها وفي هذا الإطار، انبثقت صفوة إدارية حاكمة جديدة كل الجدة تعتمد اللسان الفرنسي في جميع تعاملاتها، وتربطها بالسلطات الكولونيالية أواصر متينة للغاية. وقد اشتمات رؤى تلك الصفوة ووجهات نظرها على تبنى عناصر عديدة تنتمى الثقافة الفرنسية، وبذلك فقد أصبحت، يوما تلو الأخر، غريبة عن الجذور العربية للجزئئر المحتلة. وفي نهاية المطاف، أضحت تلك الصفوة قنبلة اجتماعية موقوتة في ذاتها، وبصفة عامة، فإن عملية التثاقف تلك مع المجتمع الفرنسي الأكثر نقدما على الصعيدين التقنى والإدارى، كان يمكن أن تعمل في صالح الجزائر، ولكن في أعقاب ثمانية أعوام وحشية من الصراع المسلح لنبل الاستقلال عن فرنسا، وجدت الك الصفوة "المتفرنسة" نفسها في موقف متضارب : هل يعتبر أفراد تلك الصفوة تلك الصفوة "المتفرنسة" نفسها في موقف متضارب : هل يعتبر أفراد تلك الصفوة

منتمين لفرنسا أم للجزائر، وإن كانوا منتمين الأحدهما، فإلى أي منهما أكثر؟ وهنا يبرز تساؤل هام: هل يكون في صالح المجتمع أن يعمل على تعليم صفوته وتتقيفهم وفقا للغة مختلفة تماما عن اللغة المستخدمة من قبل السواد الأعظم من ذلك المجتمع؛ فإذا ما تم الإبقاء، بل تشجيع ذلك التباين اللغوى بغية خق فجوة ثقافية دائمة بين الصفوة وبين سائر المجتمع، فسينجم عنها تناقضات سياسية واجتماعية شديدة حين تبرز إلى المشهد المجتمعي صفوة محلية جديدة تلقت تعليمها واستقت ثقافتها وفقا للغتها العربية لتواجه تلك الصفوة الفرانكفونية القديمة في صراع شديد على الاستئثار بالسلطة والنفوذ، وتصبح اللغة، بل والثقافة ذاتها، حينئذ، عنصر شقاق لا عنصر وفاق. إن هذه القضايا الهامة لم يتم حسمها بعد في ظل الخلافات والتضاربات المؤسفة للسياسة الجزائرية المعاصرة.

لقد كانت الإمبراطورية العثمانية، بالأساس، هى من استطاع المحافظة على روح هيمنتها وسطوتها ضد الانتهاكات والتجاوزات الأوروبية خلال القرن التاسع عشر، فد عجب، إذاً، أن كان ذلك محط معظم الجدالات اللاذعة والثاقبة بشان العلاقة بين الدين والدولة -- وفق مسيرة التطور الطبيعى الموروث الثقافي التركى. ولعل ذلك هو السبب في كون المؤسسات السياسية التركية، وبالرغم من بعض العثرات والهنات، أكثر ثباتا وعفوية من نظيراتها في أي من أرجاء العالم الإسلامي الفسيح.

أما فيما عدا ذلك، فإن الحكم الإمبريالي الأوروبي قد جمد إمكانية تطور المؤسسات الإسلامية ودورها في المجتمعات النامية، ويأتي ذلك كأحد التفسيرات الرئيسية التي تساق عند الصديث عن الطبيعة المتصلبة والضامرة التي أضحت عليها الكثير من المؤسسات الإسلامية في عالم اليوم، والتي أدت بدورها إلى تعطيل تلك المؤسسات وإعاقتها لأي تطور سياسي محتمل للدولة، وخلق تناقضات اجتماعية، تؤججها العواطف والانفعالات، بين الطرق التقليدية وتلك الغربية فيما يخص إدارة الأعمال والمصالح التجارية، ويمكن أن نذهب، ويدرجة عالية من

التيقن، إلى أن تعطيل مسيرة التطور "الطبيعى" للإسلام في هذه الدولة أو تلك قد أدى إلى إحداث توترات خطيرة على امتداد معظم العالم الإسلامي، كما أسهم في جعل المناخ مهيئا لمزيد من "الراديكالية" لدى الحركات والجماعات الإسلامية المختلفة.

وينظبق ما سبق، أيضا، على سياسات التعليم الكولونيالية: إذ تم تهميش التعليم الإسلامي على نحو كبير، وبذا تم استئصال أية ضغوط مجتمعية "طبيعية" تهدف إلى إحداث تغييرات لتطوير النظام التعليمي لمواجهة التحديات المعاصرة، ففي الإمبراطورية الروسية، أدى التحدي الغربي لمسلمي القوقاز وأسيا الوسطي، على نحو ملحوظ، إلى استثارة الجهود الوطنية واستنهاضها من أجل إحداث أصلاح تعليمي، وذلك من خلال ما عرف بالنزعة "التجديدية"، وحركة الجددين". كذلك، فقد ثم الارتقاء بمستوى التعليم والمدارس في مناخ من الإصلاح الإقطاعي داخل الإمبراطورية العثمانية أنذاك.

من المشروع الإمبريالي إلى التحرر الوطني

بالنسبة لمسلمي اليوم، لا توجد قضية أكثر إلحاحا والتهابا من قضية التحرر من التدخل الإمبريالي للغرب وسياساته. ففي الولايات المتحدة الأمريكية، فإن مصطلع "الإمبريالية الجديدة" يظل ذا جرس ماركسي يصطبغ به، ما أدى إلى أن اعتبره كثيرون ضربا من "الرطانة الأيديولوجية"، كذلك، فإن مصطلع "الإمبريالية الأمريكية" قد يزعج البعض الآخر بالرغم من وجود العديد من الكتب والدراسات في الولايات المتحدة عن تلك الظاهرة في العقود القليلة الماضية، وبالطبع، فقد تم استخدام تلك المصطلحات، على نحو موسع، في البلاغة الخطابية الماركسية والشيوعية، والعالم الثالث إبان الحرب الباردة، على أن اعتماد الشيوعية المصطلح لا يعني عدم صحته، إذ مارس الغرب، لأربعة قرون على أقل تقدير، هيمنة إمبريالية طاغية على باقي مناطق العالم محققا بذلك مكاسب طائلة في ظل حصانة وأمان،

فالولايات المتحدة الأمريكية، ووفقا لتقديراتها الذاتية، هي القرة الوحيدة على أمتداد العالم المتسمة بالسيطرة والنفوذ في جميع المجالات والمناحي تقريبا، مع إصرارها الدوب على فرض إرادتها بطريقة أو بأخرى ... تلك الظاهرة التي يطلق عليها كثيرون مصطلح "المهيمنة" أو "النفوذ الإسبريالي". بل إن بعض المفكرين من المحافظين الجدد يذهب إلى تبنى مصطلح "الإسبراطورية الأمريكية"، ولكن أيا ما كان الاسم، فإن الظاهرة ذاتها تبقى الأكثر أهمية.

إن مصطلح "الإمبريالية" لا يبدو غريبا في هذا السياق، حتى بعد انقضاء الصورة "الرسمية" لزمن الإمبريالية الغربية، إذ ظهرت أشكال جديدة من الإمبريالية خلال العصير الحديث، وخاصة في إقليم الشيرق الأوسط، بدءا من الحكام ذوى الولاء الكامل للغرب، والذين تم اختيارهم بواسطة بريطانيا للهيمنة على الحكومات "المستقلة" حديثا في معظم البلدان، وقيد وقع الاختيار عليهم كيما يقوموا بالاستجابة لرغبات الغرب وتفضيلاته وتنفيذها، حتى وإن لم يحظوا بأى دعم أو تأييد من شعوبهم الفطية. فقد اندلعت الثورات في كل من إيران، والعراق، ومصر، وسوريا، وغيرها، حين بلغت التوترات بين الحكام الموالين للغرب، وشعوب تلك البلدان ذروتها فقامت انقلابات عسكرية للتخلص من أولئك الحكام – كما حدث في مصير، والجزائر، وليبيا، وتونس، والأردن، وسوريا، والعراق، واليمن. ومنذ ذلك الحين، فإن غالبية القادة في العالم العربي وغيره يتم دعمهم من قبل الغرب، إذ لم يتم انتخاب أي منهم، ويقوم هؤلاء "القادة" بتنفيذ السياسات الموالية المصالح يتم انتخاب أي منهم، ويقوم هؤلاء "القادة" بتنفيذ السياسات الموالية المصالح

إن الإمبريالية الجديدة تظل قوية وذات فاعلية في العالم الإسلامي نتيجة السببين التاليين: أولا، لأن العديد من بلدان العالم الإسلامي لها أهمية جيواستراتيجية بالغة، وذلك بسبب امتلاكها لمصادر الطاقة وتحكمها بوسائل المواصلات وطرقها، ثانيا، وعلى وجه التحديد، لأنها تعد أخر ما تبقى من بلدان حيث القاعدة فيها هي الحكم الشمولي المستبد بشعوبه، والخانع والذئيل القوي

"الإمبريائية الجديدة". وعلى حين زالت الأشكال المباشرة للحكم الأجنبي منذ زمن ليس بالقصدير، إلا أن مبكانزمات الهيمنة الحديثة تشتمل على المعونات الاقتصادية الضخمة من قبل الولايات المتحدة، ويخاصة تلك الموجهة إلى مصر، استخدام ألية القروض تحت إشراف الولايات المتحدة وسيطرتها، والتي يقوم البنك الدولي على تنفيذها، مبيعات الأسلحة، الدعم الدبلوماسي، وجود القواعد العسكرية، التدخل السياسي بصورة منتظمة، التلاعب بالسياسات الإقليمية كورقة ضغط فاعلة، التهديدات العسكرية، والتغافل المقصود والتعامي عن انتهاكات الحريات المدنية وحقوق الإنسان في تلك البلدان.

وتمثل تلك السياسات جميعا عراقيل ومتاعب للبلدان الخاضعة "الإمبريالية الجديدة"، إذ تعمل على استثارة الغضب لدى شعوب تلك البلدان، وتضعف من مكانة حكامها، وتستنهض عوامل "الراديكالية" والعنف. ولقد اتخذ ذلك النوع من التدخل السياسي والاقتصادي طويل الأجل مظهرا فجا في إقليم الشرق الأوسط بأكثر مما اتخذه في أي موضع آخر بالمعمورة، فمنذ بدايات الإعلان عن "الحرب العالمية ضد الإرهاب"، أخذ هذا التدخل في تثبيت جذوره من خلال انتشاره وتوغله مما أدى إلى زيادة درجة غليان الشعوب المقهورة، والتي أمست تستشعر صعوبة التحرر والخلاص.

ثورات ضد الإمبريالية

إن الأمر المثير للدهشة أن الثورات والمصادمات التي وقعت في العالم الإسلامي ضد الهيمنة الأجنبية قد جاءت متأخرة وفق لتاريخ الحركات المناهضة للإصبريالية، وينظرة إلى الماضى، نجد الأمريكتين أول من ثار في وجه القوى الأوروبية الإمبريالية: بريطانيا، وإسبانيا، والبرتغال. بيد أن تلك الثورات لم تمثل صراعا من جانب الشعوب المطية ضد الحكم الكولونيالي الأوروبي، وإنما كانت ثورات قام بها المستعمرون الأوروبيون أنفسهم في مقاومتهم للهيمنة شديدة الوطأة

من قبل بلدائهم الكواوئيالية ذاتها - وهو الأمر المُضلف عن الصراعات المناهضة للإمبريالية والتي نشبت لاحقا في مواضع أخرى من العالم،

أما المرحلة الرئيسية التالية للحركات المناهضة للإميريالية وحركات الإصرار الذاتي على التحرر، فقد انبِثقت، في الحقيقة، حين وقعت سلسلة من الثورات "المسيحية" في البلقان ضد الإمبراطورية العثمانية "المسلمة" خلال القرن التاسع عشر. ولقد كان العامل الحاسم في نجاح تلك الثورات – دعم روسيا والقوي الأوروبية لها، لاستعدادها لمؤازرة تلك الثورات "المسيحية" بغية تحجيم الإمبراطورية العثمانية وتقليص حجمها ونفوذها، وبالتالي اجتذاب مؤيدين " جدد لها في ذلك الإقليم. ويمثل الطابع "المسيحي" لتلك الثورات تناقضنا صبارها اولاء الرعايا المسلمين الأساسي تحت الحكم العثمائي، والذين كانوا ما يزالون ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم جزءً من الإمبراطورية الإسلامية ذات القوميات المتعددة – بغض الطرف عن أية مظالم لهم بشــأن السـيــاسـات المحليـة التي تنتــهـجـهـا الإمبراطورية، وبتيجة لذك، فقد استشعر الحكام المسلمون مخاوف تتعلق بقابلية الأقليات المسيحية لأن تثور، خاصة وهي رهن إشارة البلدان الفربية. وبالفعل، كان يمكن للزعماء المعلمين، منذ مائة وخمسين عاما خلت، التحدث يبعض الثقة عن "الحدود الدموية للمسيحية" في استنهاض الثورات ضد الإمبراطورية العثمانية ... تلك الإمبراطورية التي واجهت بعض الثورات المطية الموجرة من قبل المسلمين، والتي كانت تتسم بمحدودية الانتشار.

وبالنسبة لمعظم بلدان العالم العربي، فإن انهيار الإمبراطورية العثمانية، مع نهاية الحرب الكونية الأرلى، لم يكن ليعنى حصولها على الاستقلال مطلقا. ففى تحول عنيف للأحداث عقب الحرب مباشرة، أخضعت القوى الأوروبية الكثير من بلدان العالم العربي "للانتداب" تحت سلطاتها، وبذا فقد أخضعت تلك البلدان لهيمنتها الإمبريائية، لذا، فإن الثورات التي حالفها النجاح، والموجهة ضد الإمبريائية الأوروبية من قبل المسلمين قد قامت، بالأساس، في وقت متأخر نسبيا

(خلال القرن العشرين). ولعل الاستثناء الوحيد لتلك القاعدة تمثل في المشاركة الواسعة من قبل مسلمي الهند في التعرد ضد المحكم الكواونيالي البريطاني هناك عام ١٨٥٧، وإجهاض الأفغان للمغامرات الإمبريالية البريطانية هناك. ولقد كانت الدولة الأولى التي حصلت على درجة أو أخرى من الاستقلال – أفغانستان عام ١٩١٩ . أما العراق، فقد تلاها، ولكنه أحرز استقلالا اسميا (صوريا) عن بريطانيا، وذلك في عام ١٩٣٧، إذ ظلت بريطانيا تتحكم في إدارة شئون الحكم به، وتوجيه سياسته صوب نوع من الحكم غير المباشر ووجود عسكري قسري حتى عام ١٩٥٨ . أما البلدان الإسلامية الأخرى فقد أحرزت أشكالا محدودة أو صورية من التحرر، إذ خضعت تلك البلدان، عادة، إلى حكام خاضعين للغرب يدينون له بالولاء، ولم يتأت ذلك حتى نهاية الحرب الكونية الثانية، إن حصول العديد من البلدان الإسلامية على استقلالها في وقت متأخر نسبيا يساعد في تفسير المشاعر العدائية التي ما زات تصبغ التوجه الإسلامي والمسلمين، إلى اليوم، فيما يتعلق بمناهضة الإمبريائية، في الوقت الذي ما زال التدخل السياسي للإمبريائية الغربية الغربية المرب.

الصراع من أجل التحرر:

إسلامأمقومية؟

إن مقاومة الهيمنة الأجنبية هي غريزة فطرية لدى جميع الثقافات. ولم تكن القوى الكولونيالية التي هيمنت على العالم الإسلامي مختلفة عمن مورست بحقه الهيمنة إثنيا فقط، وإنما دينيا كذلك: غرب مسيحي مهيمن على شرق مسلم منهزم والعيمنة إثنيا تعتنق الهندوسية، أو "صين" كونفوشيوسية بوذية. اذا، فإن مقاومة القوى الإمبريالية تشدد على كل من الاختلافات الإثنية، والدينية بين المقاومين وبين تلك القوى. إذاً، لماذا لا يتم توظيف "الدين" كأحد خطوط التماس الهامة، وكذلك كأداة لإضفاء الشرعية على الصراع والمقاومة الإثنية؟ إن العقائد التوحيدية، بما

الديها من إيمان راسخ بكونها وحيا من لدن الرب قد تمثل القوة الدينية الأكثر فاعلية في تحالفها مع "القومية".

وبالفعل، يمكن أن يكون "الدين"، أحياد، قوة أكثر فاعلية ومضاء من مجرد الإثنية إذ يجد جنوره في قوة أعظم — ويمكن أن يستمر الدين كذلك عبر امتداد زمني معين على أقل تقدير إلى أن تحل محله الإثنية التي تشتمل على "رابطة الدم" التي تنتظم كل من ينتمي إليها - اذا، فليس من المستغرب أن نجد أنه قد تم توظيف الإسلام، على نحو منتظم، في الصراع ضد الهيمنة الإمبريالية. بيد أن الأمر لم بكن حريا دبنية، وإنما مقاومة للإمبريالية، إذ انبني على قاعدة إثنية لكل دولة على حدة، ولم يكن حركة دينية فوق قومية مترابطة الأركان، كذلك، يجب أن ندرك أن مقاومة المسلمين الكولونيالية كان جانبا من حركة عالمية واسعة النطاق لمناهضة الكولونيالية اشتملت على مقاومة المسيد حيين، والبوذيين، والهندوس، والكونونيالية الشيمنة الأوروبية.

إن إحدى القوى الهامة والمؤثرة لمقاومة الهيمنة الإمبريائية في العالم الإسلامي كانت الجماعات الصوفية، ففيما عرف عن 'الأخرة الصوفية'، بوجه عام، من أنها اقتراب أكثر روحانية وصفء للإسلام، إلا أنها تعد أحد أفضل التنظيمات المجتمعية من حيث التنظيم والتماسك. وتندرج تلك 'الأخوة الصوفية' وتنتظم وفق مؤسسات أشيه ما تكون بجمعيات أهلية اجتماعية بهدف الحفاظ على حضارة الإسلام وثقافته في ظل فترات تتسم بالقمع الشديد، وبهدف استنهاض المقاومة وحروب العصابات ضد أي احتلال أجنبي. إن تاريخ المشاركة المصوفية في العديد من حركات الصراع من أجل التحرر هو تاريخ طويل يمتد ليشمل أجزاء شاسعة من أسيا، وإقريقيا، والشرق الأوسط. ولقد كان الدور الذي اضطلعت به الجماعات الصوفية بارزا في مقاومة الغزو السوفييتي لأفغانستان، وضد الاحتلال الأمريكي لأراضيها لاحقا، فضلا عن مقاومتها لقوات الاحتلال الأمريكي في العراق. على آنه لا يستقيم اعتبار الإسلام كمصدر لتلك المقاومة، وإلا فإنه يتعين علينا الإيمان، إذاً،

بأن أولئك المسلمين القائمين بالمقاومة لوالم يكونوا مسلمين لما قاموا بالثورة ضد الهيمئة الأجنبية.

أما في الغرب، وتحديدا في الولايات المتحدة الأمريكية، فإن حركة "المسلمين السود" برمتها، والتي استهلت نشاطها بدءا من ثلاثينيات القرن العشرين، تمثل بجلاء التوظيف العمدي للدين التشديد على التمايزات الاجتماعية القائمة، أنذاك، ضد عنصرية 'الرجل الأبيض' ونهجه الاضطهادي، ففي بدايات القرن العشرين، قام الزعماء القوميون السود في أمريكا، تحت قيادة 'إليجا محمد'، ثم 'مالكولم اكس' لاحقا – بحث الأمريكيين ذوى الأصول الإفريقية على نبذ 'عقلية العبيد وثقافتهم' التي ظلت مسيطرة عليهم، ومطالبتهم باعتناق "الإسلام"، كونه دينا يقترب كثيرا من جنورهم الإفريقية، وعلى حين كان يتم تمييز الأمريكيين من أصل إفريقي عن الأمريكيين البيض على أساس عرقي فحسب، فقد جاء 'إليجا محمد' ليعمق الصراع بالترويج لهرية دينية مميزة تجمع السود معا.

وفى الوقت ذاته، دأب الغرب كديدنه على توظيف المركات والصماعات الإسلامية المناهضة للإمبريالية لتحقيق مصالحه ومآريه. فخلال الحرب الباردة، نظرت واشنطن إلى الشعوب المسلمة بالاتحاد السوڤييتى، أنذاك، باعتبارها "قوة سياسية ناعمة مستضعفة" يمكن استغلالها وتوظيفها ضد موسكو. كذك، فعادة مشجعت واشنطن، بالتواطؤ مع ديكتاتوريي العالم الموالين لها، الإسلاميين في العديد من البلدان على الصراع ومناهضة الأحزاب الشيوعية المحلية- ولعل الحالة للأكثر شهرة على الإطلاق، هي دعم الولايات المتحدة "للمجاهدين" في أفغانستان في مصراعهم ضد المغرق السوڤييتي لها في شانينيات القرن العشرين ... تلك في صراعهم ضد الغرق السوڤييتي لها في شانينيات القرن العشرين ... تلك كان عليه الرعيل الأول من مؤسسي الولايات المتحدة الأمريكية". على أن المسلمين، كان عليه الرعيل الأول من مؤسسي الولايات المتحدة الأمريكية". على أن المسلمين، من عليه الحالات، لم يكونوا في حاجة إلى الكثير من المدعم الخارجي لمقاومة أي من مغظم الحالات، لم يكونوا في حاجة إلى الكثير من المدعم الخارجي لمقاومة أي من نتلك المغامرات الإمبريالية المتى استهدفت أراضيهم وثقاقتهم.

أسباب الدور التحاظم للهوية الإسلامية

يحمل كل فرد من أفراد العائلة الإنسانية هريات متعددة : العائلة، العشيرة، الإثنية، الجنسية، الدين، الجنس (الجنوسة)، اللغة، الطبقة الاجتماعية، شريحة الدخل، المهنة، الهويات، ... إله: وتتسم هذه "الهويات" جميعا بتضافرها وتشابكها، وتعرضها لموجات من المد والجزر، وبروزها وفقا لأهمية وأولويات تتفاوت بتفاوت المرحلة التي نحيا خلالها، فاعتبارات الانتماء العائلي والعشائري تسود خلال الطقوس الشعائرية المختلفة، وكذلك أثَّناء الاحتفال بشتى المناسبات وضمن إطار شبكة الدعم، أما الهوية السياسية فتبس جلية أثناء عمليات الاقتراع أيا ما كان نوعها ، ويتجلى الطابع القومي القرد حين انخراطه في الخدمة العسكرية المكلف بها، وفي المناسبات الاجتماعية كحالات الوفاة تتبدي الهوية الدينية للمرء. أما الهوية المهنية فتطل برأسها في الأوقات الخاصة بالعمل الوظيفي والمهني، وكذا فيما يرتبط به من علاقات وتنظيمات، وتبدو الهوية المتعلقة بالجندر بائنة حين مواجهة الجنس المقابل، وأوضح ما تكون لدى الإناث حين تعرضهن لتمييز يرتكن إلى ذلك العنصير من عناصير الهوية. كذلك، فإن التكاتف والتضيامن فيما بين الطبقات الاجتماعية يمكن أن يفوق تأثيره ذلك الخاص بعنصر الهوية الإثنية خلال فترات الشدة الاقتصادية التي تلجئ الكثير من غير القادرين إلى عمليات شراء ومضاربات جمعية. إذاً، يمكن القول بأن اختلاف الظروف المحيطة بالفرد تبرن استجابات تتباين خلالها أولويات الهوية التي يقدم بها المرء نفسه إلى المجتمع.

فعلى سبيل المثال، إذا ما قد كان سئل يهودى فى "برلين الحرة" خلال العقد الثالث من القرن العشرين عن هويته، لكان من المحتمل أن تكون إجابته قد جاءت على النحو التالى: "ألمانى، أستاذ لمادة الأحياء، اشتراكى، يهودى ... وفقا لهذا الترتيب. فإذا ما سئل عن هويته، ولكن بعد ذلك بخمسة عشر عاما، وفى ظل هيمنة النازية على مقاليد الأمور فى ألمانيا، لكانت هويته اليهودية" تتأثر تأثرا بالغا كونها أصبحت أمرا فاصلا بين الاستمرار على قيد الحياة، أو الموت !! فإذا ما سئل

عراقى سنى الانتماء يحيا فى بعض التخوم الشيعية ليفداد خلال الاحتلال الأمريكى ليلاده — عن هويته، لكانت الهوية "السنية" كذلك فارقة وفق اعتبارات الحياة والموت، فيما تفقد هويته "العراقية" الكثير من أهميتها وتأثيرها فى تلك الحالة. أما فى "اليوسنة" بيوغوسلافيا السابقة، وتحديدا فى عام ٢٠٠١، فقد كانت الهوية "الدينية" هى الهوية الوهيدة التى يتم اعتبارها والاهتمام بشأنها، حتى حين كانت الهوية "السياسية"، وكذا "اللغوية" متطابقتين بالفعل، ولكن هذه الهوية "الدينية" لم يكن لها شأن يذكر قبل ذلك بعشرة أعوام فى ظل حكم الرئيس "جوزيب بروز تيتو" ليوغوسلافيا،

وفي الوقت الذي استشعر العالم الإسلامي بأسره أنه واقع تحت حصار محكم، أضحت "الهوية السياسية" من الأمور بالغة الأهمية بالنسبة لكثير من السلمين، فالسلمون في ماليزيا يشاهدون الفلسطينيين وهم يقتلون، وذلك عير شاشات التلقاز، كذلك يشاهد الكشميريون، الشيشان ... ويشاهد النيجيريون، العراقيين ... ويشاهد الأفغان الصوماليين، وحين يكون الهاجس الرئيسي لدي المجتمعات متعلقا بالعنف السائد و"بالحرب المالمية ضد الإرهاب"، تفقد الكثير من الهوبات أهميتها النسبية، بيد أن ما سبق لا يرقى إلى أن يمثل قاعدة عامة تصدق دائما، قالهوية "الإسلامية" السائدة، والتي لها قصب السبق فيما يتعلق بالأولوية والانتشار بالمقارنة بغيرها من عناصر الهويات الأشرى - تنبثق، بالأساس، في أوقات العسس والشدة الاقتصادية، وحينها يضحي "الإسالام" العامل الحاسم ذا التأثير الممتد عالمياء على أن حقيقة الأمر تظهر أن معظم الخلافات لا تعلق إلا أن تكون ذات طابع "محلى" أو 'إثنى". كذا، يتعين على السياسة الغربية السماح لتلك الأقاليم المحتقنة أن تهدأ بحيث تسمح للحياة بأن تعود وفق حالتها الاعتيانية، ويحيث تتخلص من القوات الأجنبية التي تحرض وتثير مشاعر "المحليين" سلبياء وأخيرا، لتتيح الطابع "الإسلامي" الذي تصطبغ به الهوية أن يعود أدراجه كواحد من السمات المتصارعة فيما بينها أثناء حياة الفرد المعنى. فخلال فترات ممتدة من حياتهم، ينصل المسلمون إلى التفكير في أشياء مفايرة تماما عن مجرد كونهم "مسلمين".

إن المجتمعات، على اختلافها، حين يتوجب عليها الدفاع عن نفسها ضد الأخرين، تسعى لإنشاء حائط صد مشترك يحميها من الانتهاكات الخارجية لها. وهذا هو السياق الذي ينبغى لنا أن ننظر إلى "الهوية الإسلامية المعاصرة بموجبه ففي إقليم الشرق الأوسط، كان العامل الحاسم - منذ نصف قرن أو يزيد - بشأن الهوية يتمثل في القومية العربية، والتي كانت لها الصدارة في سلم الأولويات بما يتجاوز العامل "الإسلامي" بكثير. إلا أن الدلالات التي ينطوي عليها كون الفرد "مسلما" اليوم، ووفقا للصعيد العالم، لم يشهد لها مثيل على الإطلاق في أي زمن مضي، فالمسلمون الراغبون في اجتذاب الدعم والتأييد العام ضد التدخل الأجنبي سيرفعون أية راية من شأنها توجيد الآخرين حول ذلك الهدف بفاعلية فائقة.

وحين قك العرب ارتباطاتهم بالإمبراطورية العثمانية ذات التعددية الإثنية في نهايات الصرب الكونية الأولى، لم يضطلع الإسلام بأى دور على الإطلاق في هذا الصدد، فقد كان الأمر، في النهاية، لا يعدو إلا أن يكون صراعا إسلاميا واسلاميا أما عندما كان صراعا عربيا - تركيا، فكانت الإثنية، لا الإسلام، العامل الحاسم حينذاك. وقد راجت عملة القومية الإثنية في العالم العربي، في مصر على سبيل المثال تحت حكم جمال عبد الناصر في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، كقاعدة للمقاومة ضد الانتهاكات والتدخلات الأوروبية، وكذا ضد العشرين، كقاعدة للمقاومة ضد الانتهاكات والتدخلات الأوروبية، وكذا ضد ألامبريالية الجديدة". بيد أنه، ونظرا للضعف الذي أصاب الحركة القومية العربية في نهاية المطاف، فقدت القومية كهوية بريقها وألقها كقوة مأمولة، وحلت محلها الهوية الإسلامية" - وهو طور ما زلنا نشهد تداعياته إلى يومنا هذا.

إن إدراكنا للأهوال والعواصف التي أسفرت عنها القومية ذات الأساس الإثنى، وكذلك ما جرته من حروب مقيتة على امتداد العالم بأسره خلال القرنين

التاسع عشر والعشرين - ليطرح سؤالا ذا وجاهة: هل الإثنية، بالقعل، الأساس الأكثر تنويرية فيما يخص إقامة الحدود الفاصلة، أيا ما كانت؟ أم أن ضربا بذاته من التعددية الإثنية هو النمط الأكثر 'رقبا' لتراتبية السلم الاجتماعي وتنظيمه؟ بلا شك، فإن المجتمعات ".لجاذبة للهجرة" كالولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وأستراليا، ونيوزيلندا لتؤمن بأن القواعد الإثنية المتعددة تعزز "النهج التسامحي" عن تلك المنبنية على التمايز الإثني لكل فصيل مجتمعي. بيد أنه، ووفقا لذلك التصور، تبقى تلك المجتمعات "الجاذبة للهجرة" أمام بدائل وخيارات محدودة أخرى.

أما في العالم الإسلامي، فيلا يوجد أدني إيمان بأن الإثنية تتيح، دائما، الأساس المثالي للتنظيم الاجتماعي والسياسي في هذا المجتمع أي ذاك. فالإسلام ذاته، وعلى نحو فطرى، يمقت القوى والمبادئ القومية باعتبارها ضيقة الأفق ومسببة للخلاف والشقاق، حتى ولو أقر بأن الاختلافات هي إحدى عوامل القوة والثراء المجتمعي. أيا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا (القرآن، سورة الحجرات – من الآية : ١٢). فوفقا للإسلام، يكون من الأفضل النطلع نحو الوحدة على هدى من تعاليم الدين، وبالانضواء تحت رايته ولوائه، إذ إن ذلك سيمتد ليشمل امتدادات أرحب من العناصر البشرية، فالإسلام ليس حكرا على أحد، وبوسع الكافة أن يعتنقوا مبادئه وقتما شاءوا. أذا، فإن السعى نحو إحداث التضامن وتثبيت أركانه – في إطار الإسلام – بعد مفهوما أشمل وأرقى من السعى ذاته في إطار هوية "إثنية" معطاة. أما إذا تعلق الأمر بصراع ضد غير المسلمين، فإن العامل الحاسم لتوحيد الصفوف، حينها، سيكون بصراع ضد غير المسلمية وفاعليتها المطلقة في هذا الإطار.

لذا، فقد كان العديد من "الإسلاميين" ينتهجون موقفا عدائيا من الأفكار التي تطرحها "القومية" في حد ذاته هو صنيعة غربية مشئومة تدعو إلى الفرقة والخلاف، وبالفعل، فقد تحققت أسوأ مخاوفهم في

الحالة التركية. إن "مصطفى كمال أتاتورك"، مؤسس الدولة التركية الحديثة، الذى جاء ليخلف الإمبراطورية العثمانية المتداعية الأركان، أو "رجل أوروبا المريض" كما يحلو للبعض نعت تلك الإمبراطورية – قد أبطل تماما جميع الآليات التى اعتمدتها القوة التركية إبان الخلافة العثمانية بتأسيسه الدولة القومية الجديدة في تركيا. كذلك، فقد قام أتاتورك باعتماد نهج عدائي ضد جيران تركيا من البلدان الإسلامية، بل ومن "الإسلام" كدين، بصفة عامة. أما ثالثة الأثافي بالنسبة للمخلصين من المسلمين قاطبة، فقيامه بإلغاء الخلافة الإسلامية، وبالتالي تعطيل مهام "خليفة" المسلمين - باعتبار "الخليفة" الزعيم الروحي، إن جاز التعبير، لجميع المسلمين ذوى المذهب "السني" على امتداد العالم بأسره – بما يشبه تماماً قيام أحد رؤساء الوزارة الإيطاليين بإلغاء "الكرسي البابوي" نهائيا، فالعالم الإسلامي، المقسم بقعل تضارب المسالح "القومية" وتباينها بعد عقيما في تصديه لغرب توسعى غاشم.

ووفقا لهذا الاعتقاد، فإن حروب "الغرب"، والتي يتم اعتبارها موجهة ضد "الإسلام"، كما هي الحال في "الحرب العالمية ضد الإرهاب" ... ستعمل بالتأكيد على تضخيم الدور الذي يتوجب على الإسلام الاضطلاع به، وستعمل كذلك على قيام المسلمين بالتضامن فيما بينهم إزاء ذلك الخطر الخارجي على نحو غير مسبوق.

المسلمون والإرث الإمبريالي المأساوي

إن إعادة ترسيم الصدود، والتي جرت على نصو تحكمي من قبل القوى الكواونيالية، وذلك وفق خطوط صممت خصيصا لتخدم مطالب قومية خامنة بها، أو لتتنافس مع قوى كواونيالية أخرى – كانت إحدى أكثر مظاهر الحكم الكواونيالي تدميرا للمستعمرات التي وطئتها أقدامها، فقد تم تمزيق روابط الجماعات الإثنية، وتم إهمال المحدود السياسية والاجتماعية وتجاوزها والتي جرى التعايش وفقا

لمقتضياتها قبل قدوم الحكم الكواونيالي، فضح عن إنشاء حبود افتراضية تحكمية لمقتضبيات الحكم الإداري الجديد، فإذا ما كان العرب قد تركوا أحر را في اختيار أساليب الحكم، لكان عدد الدول العربية أقل مما هي عليه حاليا: إذ كان من المكن أن نظل نشهد إقليما تاريخيا كان قائما فيما قبل 'كسوريا الكبرى"، والذي كان ينتظم الدول التالية والقائمة حاليا نتيجة لتفككه (سوريا، لبنان، الأردن، فلسطين). أما القيام بحكم تلك البلدان وإدارتها التي تم خلقها واستحداثها، على نحق مصطنع، خاصة قيما بعد ما عرف باسم "الاستقلال" – فقد كان يمثل نهجا ينطوي على كثير من المصاعب والإشكاليات بالنسبة لمن عساه قد حكمها وأدار شئونها من حكام عرب، كذلك، فقد كـــان "الولاء ١١" لتلك البلدان المؤسسة حديثًا، حينذاك، "ولاء اصطناعيا"، فكانت النتيجة المتمية والمنطقية لذلك نشيأة الخلافات حول الحدود "الاصطناعية" الجديدة التي فصلت تلك البندان، فضبلا عن الصراعات الإثنية والاقتراب المنبني على محاولة التدخل لإعادة الوضع إلى ما كان عليه سابقا بإمراز صيغ جديدة الرحدة بين تلك البلدان، إذاً، فقد تعين على فاعليات التنمية السياسية أن تعضى، بالأساس، وفق طريق مرسوم سلفا يضع باعتباره مصالح البلدان الإمبريالية، وأو كانت تلك البلدان لتبعد آلاف الأميال عن البلدان الخاضعة للاستعمان بصوره المختلفة،

أما مقتضيات التنمية الاقتصادية فقد تم إخضاعها كى تنحرف عن المسار الذى كان من المنطقى أن تنتهجه بما يحقق الاحتياجات الشاملة لتحقيق التنمية الاقتصادية بالبلاان الخاصعة – نحو مسار "اصطناعى". كذلك، كان الهدف الرئيسى منه تحقيق مصالح البلاان الكواونيالية. ولا شك أن تلك البلاان قد دفعت باستثمارات صوب البنية الأساسية في الكثير من مستعمراتها، بيد أن ذلك كان موجها، بالأساس، إلى خدمة مصالحها وتحقيق مأريها دونما أدنى اعتبار لإحداث تنمية إقليمية فاعلة، فعلى سبيل المثال، فقد تم مد خطوط السكك الحديدية وتسبيرها في إفريقيا، وذلك من مصادر المواد الخام إلى النقاط التجارية للتوزيع،

والقائمة عند السواحل هناك، ونادرا ما كان يتم ربط أية مستعمرة بأخرى، ووفقا للمقتضيات الثقافية، فقد قامت البلدان الكولونيالية بصبغ مستعمراتها بصبغة ثقافية تحكمية جديدة، وتفضيل جماعات إثنية ولغات بعيتها دون أخرى، بما يتناسب، بالضرورة، ودرجة انصياعهم لتنفيذ أوامر البلدان الكرلونيالية، وقد نجم عن ذلك كله، أن خلفت تلك الأوضاع قنابل سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وسيكولوجية موقوتة، والتي ما زالت تواصل انفجاراتها، وإحداثها لتوثرات داخلية يمكن أن يمضى وقت ليس بالقصير حتى يتم التعامل معها بنجاح واقتدار.

ولقد قام 'جوزيف ستيجليتز"، الاقتصادي المرموق بالبند الدولي، والحائز جائزة "نوبل" في الاقتصاد لعام ٢٠٠١، بتشخيص المشكلة:

"لقد خلقت القوى الكولونيالية إرثا تضاريت بشأنه الاتجاهات والأراء في العالم النامي الذي كانت تحتله فيما مضى. بيد أن النتيجة الواضحة التي لاقت رواجا بين شعوب العالم النامي المحتلة كانت اتفاقهم على أنه قد تم استغلالهم من قبل القوى الكولونيالية. فالاستقلال السياسي الذي أحرزه العديد من بلدان العالم النامي في أعقاب الحرب الكونية الثانية لم يضع حدا للكولونيالية الاقتصادية، ففي بعض الاقاليم، مثل إفريقيا، كان نهب الموارد الاقتصادية من قبل القوى الكولونيالية، حينذاك، وكذا اغتصاب البيئة الطبيعية وانتهاكها في تلك المستعمرات يتم مقابل فتات ضئيل وثمن قليل، باد العيان، وكان الوضع أكثر حساسية في أقاليم أخرى، ففي الكثير من بلدان العالم، يتم النظر إلى المؤسسات العالمية كالبنك وصندوق النقد الدوليين باعتبارهما أليات المهيمنة ما بعد الكولونيالية. إذ قامت أطبت المؤسسات العالمية السيرالية المؤسسات العالمية السيرالية المؤسسات العالمية المؤسسات العالمية السيرالية المؤسسة المؤسسات العالمية المؤسسة المؤسلة المؤسسة المؤسسة

وفوق ذلك كله، فقد كانت مصدر النفط والطاقة بالعالم الإسلامي محركاً أساسياً للتدخل الغربي المستمر لامتلاك مصادر النفط، والتحكم في شركاته، وسياسات التسعير، والأنصبة السعرية، فضلا عن استمالة الحكام الموالين للكواونيالية للحصول على أفضل العروض بالنسبة للنفط، والتدخل السياسي والمسلح. لقد أطاحت الولايات المتحدة الأمريكية، والمملكة المتحدة عام ١٩٥٨ بالدكتور/ محمد مصدق – أول رئيس وزراء إيراني منتخب ديمقراطيا، وذلك لتعطيل عملية تأميم النفط الإيراني وإيقافها. وتبقى "السياسات النفطية" لعبة بالغة الخطورة ... تلك اللعبة التي تم التحكم بها من قبل القوى الكولونيالية العظمى على اراض مسلمة، بل وأبعد من ذلك.

الإسلام والراديكالية المناهضة للكولونيالية

تولد الإمبريالية، على الدوام، ردات فعل مناهضة لها، ولقد احتضنت الحركات المناهضة للإمبريالية أيديوارجيات عديدة تنوعت باختلاف المناسبة، وذلك لتحقيق أهدافها، فبعد الحرب الكونية الثانية، سيطرت القومية اليسارية على المشهد لأيديوارجي في الشرق الأوسط، فما زال للرسالة القومية التي بعث بها جمال عبد لناصر من مصر جرسها المآلوف: التنديد بالتدخل الغربي في الشرق الأوسط، دعوة العرب لممارسة حقوقهم السيادية في التحكم بمصادر الطاقة لديهم، إزائة القواعد العسكرية الغربية في الإقليم، والدعوة إلى إيجاد حل عادل القضية الفلسطينية.

أفكان لنا أن ننسى أن القومية العربية خلال خمسينيات القرن العشرين وستينيات كان ينظر لها بأنها التهديد الدائم المصالح الغربية في الشرق الأوسط بما استحث الولايات المتحدة الأمريكية ويريطانيا القيام بعمليات مستترة للإطاحة بقادة إيران وسوريا، والتأثير بالتحايل على المشهد السياسي المصرى (وللأسف، فما زالت الولايات المتحدة الأمريكية تؤمن، ونحن في القرن الحادي والعشرين، أنه

يمكن لها أن تتجاهل أو تتجاوز التوميات العربية أو غيرها من القوميات – وهو ما أدى إلى تلك الكوارث المشهودة في العراق وسوريا). كذلك، وفي زمن سابق، ويما يزال يثير الدهشة إلى اليوم، اعتبرت الولايات المتحدة ويريطانيا "الإسلاميين" سلاحا يمكن به إضعاف شوكة القادة القوميين العرب، وتحجيم المسالح السوڤييتية بالمنطقة.

فالولایات المتحدة، علی وجه الخصوص، لم تتوقف عن الإطاحة المستمرة بنظم الحكم 'غیر الصدیقة !!' سواء عن طریق العملیات المستترة، أن بالتدخل العسكری السافر فی الدولة تلو الأخری بهدف الإتیان بانظمة موالیة لها، والقائمة مذهلة : كوریا (۱۹۵۰–۱۹۵۳)، إیران (۱۹۵۳)، جواتیمالا (۱۹۵۶)، كوستاریكا (۱۹۵۰)، مسوریا (۱۹۵۷)، إندونیسیا (۱۹۸۸)، جمهوریة الدومینیكان (۱۹۳۰)، بیرو سوریا (۱۹۹۷)، الاكوادور (۱۹۳۰)، الكونفس (۱۹۳۰)، فییتنام (۱۳۹۱–۱۹۷۲)، كویا (۱۹۹۱)، البرازیل (۱۹۹۱)، شیلی (۱۹۷۲)، أنجولا (۱۹۷۸)، نیكاراجوا (۱۹۸۱)، لبنان (۱۹۸۲–۱۹۸۵)، غرینادا (۱۹۸۳)، بنما (۱۹۸۹)، العراق/الخلیج العربی (۱۹۹۸)، الصومال (۱۹۹۹)، البوسنة (۱۹۹۹)، کوسوف و (۱۹۹۹)،

كذلك، فقد قامت واشنطن بتمويل جماعة "الإخوان المسلمين" في معارضتها لنظام جمال عبد الناصر في مصر أواخر خمسينيات القرن العشرين، واستعانت بالسعوديين للغرض ذاته. كما استعانت بالإخوان المسلمين الإطاحة بنظام حكم موال لعبد الناصر في اليمن عام ١٩٦٧ - وامتد الدعم الأمريكي للحركات الإسلامية في إندونيسيا أيضا، ولقد مارست إسرائيل الدور ذاته : فخلال ستينيات القرن العشرين قامت بإطلاق سراح الشيخ/ أحمد ياسين – زعيم حركة "حماس" الإسلامية، والذي كانت قد اعتقلته حينذاك، كما قامت بتمويل الحركة كأداة ضد منظمة التحرير الفلسطينية ذات الطابع العروبي القومي بقيادة "ياسر عرفات" – منظمة التحرير الفلسطينية ذات الطابع العروبي القومي بقيادة "ياسر عرفات" – في اعتقادها الأحمق بأن الإسلاميين أكثر مروبة من القوميين، وفي عام ٤٠٠٠،

قامت إسرائيل باغتيال الشيخ/أحمد ياسين!!

إن الولايات المتحدة تتحمل جانبا من مسئولية الانحراف المتعمد لدور العديد من الحركات الأيديولوجية في العالم الإسلامي مخلفة إرثاً أسهم فيما بعد في إزعاجها وتكدير صفوها، فإن لم يكن ثمة "إسلام" لبحثت واشنطن عن قوى أيديولوجية أخرى لإضعاف أو تدمير الحركات القومية الراديكلية في حينها،

وام يكن 'القوميون العرب' الوحيدين فيما خص المقاومة. فلقد قامت عصبة من الزعماء القوميين بتأسيس "حركة عدم الانحياز" عام ١٩٥٥، والتي اعتبرت نفسها "قوة ثالثة" ما بين المعسكرين السوقييتي والغربي خلال الحرب الباردة، ولقد دعا قادة الحركة العالم النامي للدفاع عن حقوقه السيادية ضد القوى الغربية الإمبريالية الجديدة، والتي ما زالت تسعى الهيمنة الاستراتيجية، أما واشنطن فقد اعتبرت "الحركة" برمتها تهديدا لمصالحها، إذ أظهر الواقع الفعلي انحيازا من قبل "الحركة" باتجاه الاتحاد السوقييتي شعد الإمبريائية الغربية.

إن برنامج "حركة عدم الانحياز"، والوارد بإعلان هافانا عام ١٩٧٩، قد دعا إلى الحفاظ على "الاستقلال القومى، والسيادة، والتكامل الإقليمى، وأمن الدول الأعضاء" في "نضالها ضد الإمبريالية، والكواونيالية، والعنصرية، والصهيونية، وجميع أشكال العدوان الخارجي، والاحتلال، والهيمنة، والتدخل، وفرض السيطرة، بالإضافة إلى مقاومة سياسات القوى والتكتلات الكبرى". ولقد أصبح ثاثا الدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة أعضاء في "حركة عدم الانحياز". ومن المنظور الحالى، ما زال الغة الخطاب الخاص بالحركة وقعه الصادق.

(أما إسرائيل، فقد كان لها أسبابها الوجيهة لاعتبار الحركة مناهضة لها ولسياساتها، وبالفعل كانت تلك هي الحقيقة، ولم تكن معارضة الحركة لإسرائيل نابعة من عداء "السامية"، بل كانت معارضة لأيديولوجية قومية يهودية في دعمها لإنشاء دولة صهيونية اليهود دون سواهم على حساب ثلاثة أرباع مليون لاجئ

فلسطينى خسروا ديارهم وأوطانهم، وبالنسبة للعالم الإسلامي، والعديد من بلدان العالم الثالث، فإن تأييد الغرب ودعمه لإنشاء دولة إسرائيل قد أثار المخاوف من أن تلك الدولة قد أريد بها أن تكون كيانا غريبا يتم استزراعه عمدا في قلب الشرق الأوسط للسيطرة عليه، فالأحداث المتلاحقة لم تستطع أن تبدد أمثال تلك المخاوف).

وتنهض المشكلة الفلسطينية كدايل حى على أن الفيام بربط جدور القضية بالإسلام كعقيدة أمر غير ذى موضوع، فلا يوجد ارتباط من أى نوع بين "الإسلام" كعقيدة وبين المشكلة الفلسطينية وجنور الأزمة العربية الإسرائيلية، فلقد ظهرت المشكلة إلى الوجود عندما نزح عدد من يهود أوروبا الشرقية إلى فلسطين على نحو وثيد، فى البداية، لتتسارع وتيرة تلك الهجرات فيما بعد مدعومة فى ذلك بتمويلات ضخمة من قبل "اليهودية الغربية" فى القرن التاسع عشر ويدايات القرن العشرين. أما الحركة الصهيونية الجديدة، فقد نشأت بالتزامن مع حركات قومية إثنية أخرى فى أوروبا، مثل تلك الناشئة فيما بين الإيطاليين، والألمان، والهنغاريين، والسلاف، والأتراك، وغيرهم، وفضلا عن ذلك، فقد كان اليهود ما يسوغون به السعى نحو والأتراك، وغيرهم، وفضلا عن ذلك، فقد كان اليهود ما يسوغون به السعى نحو أنشاء حركة دينية قومية نظرا للتمييز العنصرى الذى طالما عانوا ويلاته، وخاصة فى أوروبا الشرقية. هذا فى الوقت الذى تزايدت فيه مخاوف الفلسطينيين جراء تلك الهجرات الكثيفة النازحة من أوروبا صوب أراضيهم، إذ بدا جليا أن الأيديولوجية الصهيونية قد اعتبرت كامل التراب الفلسطيني وطنا جديدا المهود.

واقد كانت جرائم "الهواوكوست" بحق اليهود، والتي يتحمل الأوروبيون وزرها بالكلية، دافعا قويا لنزوح اليهود صوب الأراضي الفلسطينية مدعومين في ذلك من قبل الأوروبيين الذين أذنبوا بحقهم، ففي حركة شاملة للترهيب والتطهير العرقي، قامت إسرائيل بتهجير ثلاثة أرباع مليون فلسطيني عن ديارهم وأراضيهم إبان تأسيس دولة إسرائيل الجديدة، ولقد استاء الفلسطينيون كثيرا من إرغامهم على دفع ثمن أوزار الأوروبيين بحق اليهود، فإذا لم يكن ثمة "إسلام"، لاستاء الفلسطينيون المسلام"، لاستاء الفلسطينيون المسلام"، لاستاء

عن القيام بالهجوم وشن حرب عصابات لاستعادة تلك الأراضي، وكان ذلك ما حدث بالفعل من قبل الفلسطينيين المسيحيين الذين شاركوا في الحركات الهجومية ضد الإسرائيليين، وبالرغم من اتخاذ ذلك الصراع الإثنى الفلسطيتي/ اليهودي صبغة دينية على كلا الجانبين خلال الأعوام الأخيرة، فلم يكن اللاسلام"، -كعقيدة-أدنى ارتباط بجذور ذلك الصراع،

إن حركات المقاومة الفلسطينية قد مرت، في الواقع، بثلاث مراحل مميزة خلال تحولاتها الأيديولوجية: مرحلة القومية العربية، والمرحلة الماركسية—اللينينية، وأخيرا، المرحلة الإسلامية. إلا أن ثلاثتها تشترك في الهدف ذاته، وهو السعى لإنشاء دولة "فلسطين" المستقلة، فالقضية الفلسطينية ما زالت واحدة، أما المحرك الأيديولوجي فظل متغيرا — أيديولوجيات متغيرة لمظالم ثابتة.

وتشير تلك الأحداث بجلاء إلى المشاعر الكامنة وراء سياسات بلدان العالم النامى في سعيها الدوب نحو استقلاليتها وسيادتها غير المنتقصة، ويمثل العالم الإسلامي جانبا من تلك الصركة، إذ يعد "الإسلام" المحرك أو الراية التي يتم بموجيها مناهضة التعخلات الغربية، فإذا لم يكن ثمة "إسلام"، لظلت المظالم من قبل الإمبريالية كما هي، ولما خفتت حدة المقاومة، إلا أن حركات المقاومة كان يمكن أن تحرم من الزخم الأيديولوجي والمشاعر المشبوبة للإسلام في تزاوجها مع الأبعاد القومية.

إذاً، فطالمًا كان الغازاة، والمحتلون، والمضطهدون من غير المسلمين، يظل "الإسلام" يتوسل به، جنبا إلى جنب، مع القومية ... في مناهضة تلك الفئات.



نصوبر احمد باسبن نويئر فيئر (Ahmedyassin90



الفصلالثالثعشرا

الحرب-المقاومة-الجهاد-الإرهاب

لم يعان إقليم في العالم، قط، من التبخل المكثف والمستمر من قبل الغرب مناما عانى إقليم الشرق الأوسط، ويرجع ذلك لأسباب عديدة منها : قريه الجغرافي من الغرب - ذلك الغرب الذي اتسم لاحقا بنزعات توسعية فائقة، تمتع الشرق الأوسط بموارد هائلة للطاقة قد أغرت الغرب بما لها من أبعاد وتأثيرات مالية كبيرة، موقعه الاستراتيجي الجيويوايتيكي العالمي، عبر الزمان، كملتقي طرق بين الشرق والغرب، ولقد رأينا في الفصل السابق ما كان للكواونيائية، والإمبريائية، والإمبريائية الجديدة من آثار على امتداد قرون عديدة، وما اتسم به الصافير من وطأة التحضل الأمريكي شيرن الشرق الأوسط.

إن الغضب المتزايد، وكذا الإحباط المتراكم، وتزايد معدلات العنف الراديكالى الذي ولده هذا التدخل عبر التاريخ يعد أمرا ماثلا للعيان. ولعل السؤال لا يكون: كيف وقعت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، بل الأحرى: لماذا لم نقع تلك الأحداث قبل ذلك اليوم؟ ويما أن الجماعات الراديكالية بالشرق الأوسط قد باتت تعبر عن مظالمها في زمننا المعولم، ففيم العجب من قيامها بتوجيه ضرياتها إلى قلب الغرب المعتدى؟ إذاً، لا يستدعى الأمر كبير عناء لكي يستشرف المره ضربا من المقاومة الارتدادية المكبوتة، ونوعا من ردة الفعل الحادة، بل العنيفة إزاء من المقاومة الارتدادية المدى، وعند هذا الحد، يكون من المخادعة أن يلتفت الغرب حوله ليسال في دهشة: ما الخطب الذي حل بالعالم الإسلامي، أو بالإسلام لأن يشهد الغرب كل تلك الاستجابات وكذا في ردات الفعل العنيفة من المسلمين؟ فما يشهد الغرب كل تلك الاستجابات وكذا في ردات الفعل العنيفة من المسلمين؟ فما هي إلا بلادة وتجاهل متعمد من الغرب ألا يقر بأثار سياساته عبر القرنين

الماضيين أو يزيد في تحفيز ردات الفعل تلك من قبل العالم الإسلامي.

كذلك، يجب ألا يثير الالتجاء إلى استخدام للعنف أدنى دهشة. فحين تسوء الأصور وتتدهور الحال، من الذي يعمد إلى الاستجابة أولا، للعتدلون أم الراديكاليون؟ وفي هذا الإطار، يبدو "أسامة بن لادن"، وكأنه نذير الشؤم – إذ تشير ممارساته العنيفة المبكرة إلى أن الأحوال قد ساءت كثيرا في إقليم الشرق الأوسط. فإذا كان الراديكاليون قد هبوا للدفاع عن قضاياهم للمرة الأولى، فإلى أي مدى تقف القوى الأكثر اعتدالا والتي تشاركهم الهواجس والشكوك ذاتها؟ إننا لندرك أنه يوجد تعاطف ضمني عام، إن لم يكن تأييداً حقيقياً لأسامة بن لادن في الشرق الأوسط، حتى ولو لم تغتفر ممارساته بالكلية.

إذاً، فإنه لا يستقيم، من وجهة النظر التحليلية، الزعم بأن الإسلام أو

الأيديولوجيا الراديكالية هما المصدر الرئيسى لتلك المقاومة، وبالرغم من أنه لا شك في أن العوامل الدينية والأيديولوجية تضطلع ببعض دور في بلورة المقاومة واستقطابها، وكذا في ردات الفعل العنيفة، إلا أنها ليست المصدر الحقيقي للمشكلة، فهل نمتك رفاهية الخلط بين المحرك، وبين المشكلة؟ أم هل لنا، بالأحرى، أن نفترض أن ما عاناه المسلمون على أيدى الغرب، على مدار قرون عديدة، لم يكن ليعنى الكثير إذا ما كان سكان الإقليم من غير المسلمين؟

ويالفعل، فإذا ما كانت مشاعر الاستياء وعدم الرضا في الشرق الأوسط تبحث عن محرك للتعبير عنها، فلم لا يكون ذلك المحرك هو الدين ... "الإسلام"؟ وكما رأينا من قبل، فقد كان الدين والهرطقة رايتين خالدتين لسياسة المقاومة في الشرق الأوسط منذ الأيام الأولى للمسيحية، إن الإسلام ليملى على أتباعه قدرا من التوقير والإذعان للسلطة، كما أنه يضفى نوعا من الشرعية على أولئك المؤمنين بعدالة قضيته – وهي، في هذه الحال، الدفاع عن الأمة ضد التدخل الخارجي.

فإن لم يكن من خلال الإسلام، فوفق أى إطار، إذاً، سيبلور الشرق الأوسط مقاومته للغرب؟ وما عساها، إذاً، تكون صرخة الاستنفار؟ لقد رأينا كيف كانت القومية العربية بقيادة مصر الناصرية محركا لتلك المقاومة خلال خمسينيات القرن العشرين وستينياته، بيد أنه لم يكتب لها النجاح، ويذكر أن تحالفا عسكريا ثلاثيا شكلته كل من بريطانيا، وفرنسا، وإسرائيل قد سعى بالفعل للإطاحة بعبد الناصر أثناء أزمة السويس عام ١٩٥٦، كذلك، فقد سطع نجم الماركسية—اللينينة كمحرك أيديولوجى للمقاومة، لكنها لم تسفر عن شيء يذكر في نهاية المطاقد، إذاً، والإسلاموية، بجذورها الضارية في أعماق الثقافة الإقليمية، وقدرتها على استنفار التأبيد الشعبي تحت دعاوى المصلحة الإقليمية" — هي المحرك الأيديولوجي الأكثر معاصرة، وحداثة، والأمضى فاعلية، وذلك في المستقبل المنظور، على أدنى تقدير.

فعندما أرادت روسيا أن تعترض على سياسات العالم الخارجي إزاعها، ماذا

كان المحرك الذي اعتمدته لاستنفار التأييد العام؟ حين وجد ستالين نفسه تحت هجمات جيش الرايخ الثالث أثناء الحرب الكونية الثانية، كان يدرك تماما أن الماركسية-اللينينية لن تسعفه لاستنهاض مشاعر الروس المقاومة، ومن ثم فقد لجأ إلى القومية الروسية عله يجد مخرجا ولكن دون جدوى، وأخيرا انتهى به المطاف، محاطا بمسحة من يأس، إلى التوسل بالكنيسة الأرثوذكسية ذاتها كقوة دافعة ومحرضة، كونها رمزا "لروسيا المقدسة"، أما الإمبراطورية اليابانية، قبيل الحرب الكونية الثانية، فقد سعت إلى إيجاد محرك لاكتساب تأييد رعاياها لسياساتها التوسعية والإمبريالية في أسيا، فتم التوسل بما للعقيدة الشنتوية من هالة قدسية، بل وبيعض المعتقدات البوذية لاستمالة الروح اليابانية. وفي سريلانكا، قامت الأغلبية السنهالية ذات العقيدة البوذية في قمعها للانفصاليين التأميل ذوى العقيدة الهنوسية - بالالتجاء إلى الرهبان البوذيين لاستنهاض التأييد السنهالي العام المحبود الحربي الألماني، بل إن الولايات المتحدة ذاتها، في زمن الحروب، تدفع المجود الحربي الألماني، بل إن الولايات المتحدة ذاتها، في زمن الحروب، تدفع الكنائس البروتستانتية، والمكاثوليكية، والمعايد اليهودية لإقامة الصلوات العامة، الكنائس البروتستانتية، والماثوليكية، والمعايد اليهودية لإقامة الصلوات العامة، والقداسات لإضفاء روح الشرعية على الصراعات القومية.

إذاً، وفى هذا السياق، سيكون أمرا يدعو للدهشة إذا لم يتم التوسل بالإسلام فى صراع الشعوب الإسلامية ضد الهيمنة الغربية – جنبا إلى جنب مع القوميات المحلية، إذ تعضد تلك القوى من بعضها البعض إزاء التهديد الخارجي،

فلا غرر، إذاً، أن تكون واشنطن معنية بكون الإسلام مستخدما كمصدر هام للمقاومة وردات الفعل العنيفة تجاه الممارسات العسكرية الولايات المتحدة، فهل تتوقع الولايات المتحدة، إذاً، ألا ينتفض الشرق الأوسط للمقاومة، بل يذعن لما تمليه الأهد ف والمطامع الاستراتيجية الأمريكية؟ لا يمكن بحال أن يحدث ذلك، وإلا كان واضعو السياسات ومتخذو القرار بمناى عن الصقيقة ومقتضيات الواقع (فالإمبراطورية، عادة، ما تكون بمعزل عن الحقيقة لإيمانها بأنها ذاتها تخلق

الحقيقة). اذا، فإذا تم اختبار المحرك ودراسته، الإسلام في هذه الحالة، الوقوف على المثالب والمشكلات، كما لو أن الإسلام ذاته، بشكل أو بأخر، هو مصدر المشكلة المرتبطة بالمقاومة – لكان ذلك انحرافا عن لب القضية وجوهرها، أم أنه من المصافة أن ننكر حقيقة تأثر الأخرين كثيراً بما نقوم به من ممارسات بحقهم؟ إن ذلك، أيضا، ما يذهب الباحث السويسرى، أطارق رمضان"، إلى نعته "بأسلمة المشكلة".

وينحو 'روبرت كابلان' إلى تبنى نهج يختلف قليلا، إذ يذهب إلى القول بأن المكون الإسلامي له ارتباط، على نصو أن أخر، بالقضية المثارة ... ويبنو طرحه في هذا الشأن جبيرا بالمتابعة:

"كان المستشرق، وعالم الإثنيات الأمريكي تشارئتون ستيفنز كوون" قد كتب عام ١٩٥١ أن الإسلام قد أسهم في تحقيق السعادة، والحياة الكريمة للملايين في بيئة قاحلة مقفرة على امتداد أربعة عشر قرنا. قإلى جانب رسائته الصريحة الواضحة، فإن الطابع "الجهادي" للإسلام قد جعله عنصر جذب لأوئئك المضطهدين. إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا يأبه معتنقوه بالقتال، إذ هم مستعدون لخوضه. فالحقبة السياسية المتسمة بالتوترات، والضغوط البيئية، والحساسيات الشقافية المفرطة، والعشوائيات المنتشرة، وهجرات اللاجئين – لهي حقبة مهيأة، بالفطرة، لانتشار الإسلام وتوغله ... وهو الدين الأسرع انتشارا في العالم للعاصر. (ويالرغم من أن الإسلام ينتشر في غرب إفريقيا، إلا أن ذلك يتم عرقلته بضرب من التوفيقية الأرواحية، وهو ما يجعل المعتنقون الجدد أقل قابلية لأن يصيروا متطرفين مناهضين للغرب، بيد أنه يجعل إيمانهم أقل رسوخا وثباتا ... وهو الأمر الذي يضعف من فاعليته كمناهض للجريمة.

وتشير ملاحظات "كابلان"، بالفعل، إلى كون الإسلام صرخة استنفار ناجرة ضد التدخل الخارجي، ولكن لو لم يكن ثمة "إسلام"، لكان لنا أن نتوقع ردات فعل عنيفة تصدر عن أية ثقافات رازحة تحت ظروف عصيبة مماثلة،

إن التغطية الإعلامية المتلفزة لأحداث الحادى عشر من أيلول/سبتمبر قد أفرزت انطباعات هائلة: فمدى جسامة العمليات المنفذة، ووحشيتها البالغة، وأعداد الوقيات، والسنة النيران والدخان الأسود الناجم عن التدمير متصاعدا في سماء صافية الزرقة لهو أمر لافت وصادم، على أن تلك الصور تشي بإيحاءات مختلفة تتباين بتعدد مشاهديها،

قبالنسبة للعديد من الأمريكيين، وكذا بعض المشاهدين الأوروبيين، فإن الرسالة واضحة جلية : ففيما تسعى الولايات المتحدة جاهدة لإرساء دعائم السلام في ربوع العالم، إذا بها فجأة تتعرض لهجوم وحشى من قبل جناة مهووسين. إذاً، فالحدث يستدعى عقابا سريعا ورادعا لاستئصال شأفة المعتدين ليكونوا عبرة لمن عساه يراوده أدنى خاطر للقيام بعمل مشابه، فحقيقة الأمر، ما هي مثالب الثقافة الإسلامية – وبعض المنتمين إليها في عداد الحلفاء – والتي قد تقرز أمثال تلك المارسات الشنيعة المروعة؟ بعبارة موجزة، فإن التاريخ يبدأ في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.

ولكن تظل أعداد غفيرة على امتداد العالم بأسره، بما فيه الغرب ذاته، قد قرأت المشهد بما احتواه من أحداث قراءة مختلفة بعض الشئ. فالهجوم كان، بالطبع، صادما، ووحشيا، ومأساويا بحق المدنيين الأبرياء الذين لقوا حتفهم خلاله. لكن لم يكن ذلك الهجوم ليمثل مفاجأة، فبتأمل السياسات الأمريكية في الشرق الأوسط، والغضب الإسلامي المتصاعد على مدار فترة زمنية ممتدة بشأن العديد من القضايا، كان من المحتم، عاجلا أم آجلا، أن تثور فئة من المسلمين، وترد الكرة على من ابتدرهم بالعداء، فالتاريخ لا يبدأ في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ولكن كان هناك مقدمات استهلالية طويلة، إذ تغرى سياسات الولايات المتحدة الأمريكية بالمزيد من أعثال ثلك الهجمات طالما ظلت تسعى إلى الهيمنة الدولية،

والتدخل السياسى والعسكرى، وطالما استمرت إقامة مستودعات لشحن مشاعر العداء ضدها. وعلى ما كان من جسامة وأهوال صبغت الأحداث، إلا أن الأمل قائم في أن تكون تلك الهجمات ناقوس خطر لواشنطن عن مدى جسامة الموقف، وحتمية إعادة التفكير في الأمر برمته. ويبدو هذا الرأى الأكثر شيوعا في بلدان العالم المختلفة فيما عدا الولايات المتحدة الأمريكية.

عدائلة القضيلة

يقرر الكثير من المطمين، بمشاعر من الأسي، أن مجتمعاتهم مثقلة بمشاكل جساح، بيد أنه لا يساورهم أدني شك في شرعية موقفهم وعدالته في مقاومتهم للهيمنة الغربية، بل وفي الرد بالمثل إذا ما تطلب الأمر ذلك، فبالنسبة للمسلم، أو أي امرئ آخر، ينهض الافتداء والتضحية بالحياة من أجل مطلب أو قضية يعينها دليلا ساطعا دامغاً على صدق القضية وعدالتها، إلا أن الربط ما بين الحرب والدين يثير مشاكل أخلاقية مركبة في أعراف جميع الديانات الكيري، وتعود جنور أعراف التفكير المسيحي بشان الأسس الأخلاقية التي قد تبرر الحروب إلى القديس أوغسطين، على أقل تقدير، وبتثير سؤالا يبدو عصديا على مقابلته بإجابة شافية : ما الذي يجعل الحرب عادلة؟ إن التفكير الأخلاقي الغربي التقليدي بشبأن عدالة الحروب ينطوي على عنصرين مميزين، على أقل تقدير: أسباب خوض حرب ما، وأخلاقيات التعامل أثناء الحروب. كذلك، يرسى التفكير الغربي التقليدي معايير أخرى ترتبط بمدى إلحاح الحاجة إلى خوض حرب ما لو كان ثمة بدائل سلمية لتسوية النزاع، ومدى المعركة ونطاقها، وشرعية السلطة الداعية إلى المحرب، ومدى عدالة القضية التي يحارب من أجلها المرء، ومدى مناسبة حجم الدمار الذي تلحقه الحرب بالطرف الآخر ردا على نظيره الملحق بذلك الطرف، فضلا عن وضعية غير المشاركين بالحرب، والمدنيين، والمنشآت المدنية.

إن الحديث عن أشالقيات الحروب يبدو من قبيل التناقض، حين يكمن الموت

والدمار في صميم العمليات العسكرية ذاتها، ربطبيعة الحال، وعلى نحر مطلق، فإن إرفاق الروح، بصفة عامة، هو عمل لاأخلاقي. بيد أن الاعتبارات الأخلاقية والقيمية، في وقت الحروب، تنحو إلى أن تكون نسبية في كليتها : فإذا ما تحدثنا عن العدالة، يبقى السؤال: عدالة من؟ وماذا عن مدى التناسب؟ وما الحدود المقررة بشأن المجرحي أو القتلى من المدنيين؟ أي الطرفين على صواب، وإلى أي مدى يمتد ذلك الصواب؟! إن جميع البلدان، على مدار التاريخ، والتي قرعت أجراس الحروب لتزعم، بل لتكاد تؤمن بعدالة مطلبها وقضيتها في مواجهة أعدانها الأشرار.

وتزداد حدة المأزق في المجتمعات الديمقراطية، فإذا عمدت الدولة إلى قدر من الغموض فيما يخص "العنصر الأخلاقي" وذلك أثناء الحرب أو الصراع ذاته، فإنها، وقتئدً، ستثير مشاعر الكراهية في صفوف محاربيها ورعاياها، وسينجم عن ذلك أن يصبح ما تزعمه من عدالة مطلقة الطلبها أو قضيتها باهتا وغير ذي موضوع، اذا تعن الحاجة إلى أن يصبغ كل طرف مسعاه بأنه الحق المبين بون منازع، وأن الأخر هو "الشر الطلق"، وتعمل وسائط الإعلام الحديثة على زيادة تعقيد المشكلة، إذ أتاحت للكافة إمكانية متابعة مجريات الحروب عن طريق المشاهدة التليفزيونية أن المتابعة عبر الانترنت تبعا لوجهات نظر متباينة. وقد عمدت الإدارة الأمريكية برئاسة جورج بوش الابن إلى فرض نوع من الرقابة الذاتية على وسائط الإعلام الأمريكية فيسا يتعلق بتغطية الأحداث الدموية لحرب العراق ولقد كانت القناة الفضائية العربية، "الجزيرة"، إحدى أهم مصادر الغضب والاستياء الأمريكي لقيامها، على نحر متواتر، بنقل تفاصيل الحرب من موقع الأحداث، والتصوير الحي لأثر القصف والعدوان على المدنيين في تلك التخوم. وعادة ما كان الإعلام الأمريكي ينعت مشاهد القتلي من الأمريكيين، بل والضحايا من المدنيين بأنها "مسيئة وفاحشة مستهدفا من وراء ذلك، ضمن أهداف أخرى، عدم رؤية الأمريكيين لها. كذلك، فإن الممارسات التي أدت إلى وقوع تلك الأحداث والمشاهد لهي "مسيئة وفاحشة بالمثل، فمن السهولة بمكان أن تخاص الحربي طالما ظلت عواقبها التي تطال البشرية ... نائية، ومغيبة، وتجريدية.

الجهاد

إن النظريات بشان "الجهاد"، والأدبيات الكثيرة المتناولة له هى المكافئ الوظيفى لنظرية "الحرب العادلة" فى المسيحية. وقد صبغ هذا المفهوم لإعطاء تعريفات وحدود بشأن ممارسات المسلمين وسلوكهم أثناء الحروب، ولعل لفظة "الجهاد" هى اللفظة الأكثر إثارة للجدل والمشاعر، والتى يربطها الغرب بالإسلام فى عالم اليوم، فلا يكاد يمر يوم أو ليلة إلا ويتم استخدام اللفظة، إما بواسطة "الجهاديين" أنفسهم، أو عن طريق منتقدى الإسلام، ويضيق صدر الكثير من المراقبين مما يتداول عن جذور مفهوم "الجهاد" أو مدى استخدام اللفظة، إذ يؤمنون أنها لا تعدو إلا أن تكون تبريرا الطابع الشنيع والمروع للتحدى "الجهادى" لقوى السلام والاستقرار الغربية.

و"الجهاد" أكثر من معنى في القرآن، وأحاديث النبي محمد، فجذر الكلمة في اللغة العربية يعنى "الجهد" أو "القتال" أو "الصراع"، وغالبا ما تستخدم اللغظة لتعنى نضال المرء وكفاحه ليحيا حياة خيرة فاضلة، وليعلى من شأن القيم والمبادئ الدينية في معاملاته الحياتية، وليعمل على نشر الإسلام بدأبه الذاتي عن طريق أن يكون المرء مثالا وقدوة تحتذي، وكذا ليرسخ دعائم الإيمان. وفي هذا السياق، فإن لفظة "الجهاد" ترتبط لدى المسلمين بإيحاءات ومدلولات دينية إيجابية خاصة بتكريس حياة المرء سعيا لتحقيق الأمثلية والأفضلية. وهذا هو "الجهاد الأكبر" كما أشار إليه النبي محمد،

أما 'الجهاد الأصغر' فيشير، وققا للنبى محمد، إلى ما يبذله المرء خلال المعارك الحربية، والتي يكون محركها الأساسي الدفاع عن الإسلام والذود عن حياضه، وكذا حماية 'الأمة الإسلامية' من أي خطر يتهددها، وبما أن الجماعة المسلمة الناشئة، والتي كانت تعانى حصارا من قبل الوثنيين في مكة، قد عانت

النهاكات عديدة من قبل أعدائها، فقد كان الدفاع عن تلك الجماعة صادرا عن آيات وردت بالقرآن، وأحاديث النبي محمد، بيد أنه ما أن استتب الأمر لجماعة المسلمين، حتى شرعت في الدخول إلى مرحلة من التوسيع العسكري، وبينما كان الإسلام ينتشر، فقد واجه العديد من البلدان والإمبراطوريات التي اصطرع معها في حروب لفرض السيادة والهيمنة على أقاليم عدة.

إن التشريع الإسلامي ليضع اشتراطات وقوانين مطولة بشأن قواعد السلوك والتعامل أثناء الحروب، منها ألا يتم استهداف النساء أو الأطفال، وأن يكون ثمة مناسبة وتكافئ في القوى، وألا يتم تدمير أو تخريب أية منشأت مدنية دونما مسوغ، وأن يكون نداء الحرب واستنفار الحشود صادرا عن إمام عادل أو من بيده سلطة شرعية تخوله ذلك، وأن الحروب التي لا تسترشد بهدى من تعاليم "الجهاد" وضوابطه هي حروب غاشمة وغير شرعية. ويضرب النبي محمد المثل حين يأمر المحاربين بألا "تؤذي امرأة، أو طفل، أو هرم، أو أي من أتباع الديانات الأخرى في كنائسهم، ومعايدهم، وصوامعهم". ولقد تجادل "علماء الإسلام"، إبان العصور الوسطي، عن مدى شرعية استخدام المنجنيق ضد حصون الأعداء وقلاعهم، وقد ذهب عدد من العلماء إلى عدم مشروعية ذلك نظرا لما قد ينجم عن استخدام أمثال ذهب عدد من العلماء إلى عدم مشروعية ذلك نظرا لما قد ينجم عن استخدام أمثال الأسلحة من الأضرار بالمدنيين، وليس بالمتحاربين فحسب.

وكما تم انتهاك المبادئ الأخلاقية المسيحية فيما يتعلق بالحروب، فقد انتهكت نظيرتها الإسلامية كذلك، "فالدمار المتكافئ"، وهي لفظة أريد بها التلطف، قد أدى إلى إبعادنا عن "البعد الإنساني" فيما يخص وفيات المدنيين أثناء الحروب – تلك اللفظة التي راجت وشاع استخدامها في الولايات المتحدة الأمريكية. ففي أثناء الحرب الكونية الثانية، فإن إلقاء القناس فوق مدينتي "هامبورج"، و"دريسدن، الألمانيتين، واستخدام الأسلحة الذرية لأول مرة في المتاريخ، حين ألقت الولايات المتحدة القنابل الذرية فوق مدينتي "هيروشيما"، و"ناجازاكي" اليابانيتين – كان ذلك المتحدة القنابل الذرية فوق مدينتي "هيروشيما"، و"ناجازاكي" اليابانيتين – كان ذلك كله موجها ضد المدنيين في استعراض للقوة أريد به الترهيب والترويع،

فكما أشار "فون كلاوسفيتز"، فإن الحروب وقودها العاطفة، والتي دائما ما تتجاوز أغراض الحرب ذاتها، والدافع وراء خوضها. فما أن يبدأ الصراع حتى تتصاعد حدة الكراهية فيما بين الطرفين ... فالوحشية تولد وحشية مضادة تصطرعان في موجات تصاعدية لانهائية من العنف الأحمق للوتور.

وقد استخدم مصطلح "الجهاد" وفقا لمدلولاته الأكثر حداثة في العديد من المناحي الدنيوية، مثلما تم استخدام مصطلح "الحروب الصليبية" بمفهومها الغربي للدلالة على محارية الجريمة أو الحملات ضد تعاطى المواد المخدرة أو الاتجار بها. أن نضال الزعيم الهندوسي "المهاتما غاندي" ضد الاحتلال البريطاني لبلاده قد أشير إلى كونه "جهادا". كذلك، فقد تم اعتماد المصطلح ذاته لنعت الحملة القومية للرئيس التونسي العلماني الأسبق، الحبيب بورقيبة، والخاصة بالتنمية الاقتصادية في بلاده. ولقد استخدمت بعض الحركات النسائية مصطلح "الجهاد"، وأطلقته على صراع المرأة في سبيل تحررها وانعتاقها، واستخدمه أخرون التعبير عن الصراع من أجل إرساء نظام أخلاقي واجتماعي عادل. بيد أن المصطلح قد استخدم، بادئ الأمر، لنعت ممارسات أولئك المدافعين عن "ديار الإسلام" ضد هجمات الغرب، وكذلك لنعت المارسات العنيفة ضد العديد من البلدان "الغربية"، خاصة تلك الضائعة في عمليات عسكرية على "الأراضي الإسلامية". بل لقد استخدم بعض الوهاييين، والسلفيين الهووسين المصطلح ذاته لتبرير انتهاكاتهم بحق المسلمين الشيعة.

وبمرور الزمن، أصبح الدفاع والهجوم يتناوبان، وأحد مفهوم "الجهاد" يستخدم، على نحو واسع، الإشارة إلى الحرب ضمن دعايات المسلمين الحربية. وفي بعض الأحيان، شهدنا دولا إسلامية تحارب دولا إسلامية أخرى، ولم يكن نشر "الإسلام" ذا صلة بتك الحروب، فالمهدى، الثائر السودائي في القرن التاسع عشر، قد أطلق على تورته ضد الإمبراطورية العثمانية "جهادا"، كما نادى بموت جميع الأتراك !! وبالمثل، فقد أعلن الوهابيون "الجهاد" ضد جميع المسلمين من "غير

الهابيين". لذا، فقد استخدم مصطلع "الجهاد" سلبا وإيجابا على مدار عقود مديدة، ليجد رواجا في عالم اليوم، إذ يتم اعتماده كمسوغ للمقاومة ضد القوى الغربية في العالم الإسلامي.

إن بعض الجماعات الراديكالية المتطرفة قد انتحلت الآن ذلك "المفهوم القرآنى" حتى في صرعاتها وحروبها ضد خصومها السياسيين المحليين أنفسهم داخل ألعالم الإسلامي، إلى الحد الذي ذهب إليه بعض الراديكاليين في إعلائهم كون "الجهاد" الركن السادس للإسلام، جنبا إلى جنب مع أركانه الخمسة التي تأسس عليها. إذاً، فأيا ما كان الاسم، فجدير بنا أن نشير إلى تبرير القانون الدولي للمقاومة المسلحة من قبل الشعوب ضد القوى العسكرية الأجنبية الساعية إلى غزو بلادها واحتلالها.

أما مفهوم "الجهاد" فقد أصبح بالتوازى مع مفهوم "التدخل الغربى" قرينين متلازمين :فكلاهما قد خلق نهما للقتال ذاتى التعضيد، كل فى اتجاهه صوب الآخر، أو ضربا من الاعتماد التبادلى على العنف والوحشية، وكأنما ببرر أحدهما الأغر. وفضلا عن ذلك، فقد أضبحت دراسة ظاهرة "الجهاد" صناعة محلية فى الولايات المتحدة الأمريكية، يقودها متشيعون مخلصون من كلا الطرفين، والذين يتجادلون بحماسة بشأن طبيعة الظاهرة/المشكل، وتسعى جل تلك الدراسات إلى الوقوف على بعض مثالب الثقافة الإسلامية، وثقافة إقليم الشرق الأوسط لتبرير الصراعات، لقد أضحى "الجهاد" مصدرا رئيسيا للمشكلة، لا تمثيلا لها أو تعبيرها عنها.

وأعل من نافلة القول أن نذكر أن الجماعات الراديكالية المتطرفة التي تعتمد العنف أسلوبا لها قد أساعت استخدام مصطلح "الجهاد"، جنبا إلى جنب مع تأويلاتهم المتطرفة اكل ما هو إسلامي لإشاعة روح الكراهية والعداء للغرب في أوقات الصراع المشترك. وسوف نقوم لاحقا بمناقشة بعض عناصر ذلك الطرح،

فهل يعقل، إذاً، الإيمان بأنه لو لم يكن ثمة "جهاد"، أن يمتنع العالم الإسلامي عن القيام بحرب عصابات بحق الغرب؟ على أية حال، فقد كان هجوم الولايات المتحدة ضد نظام صدام حسين مهمة علمانية بحتة، كما كانت إرهاصات ويادرات المقاومة الأولى قد نبعت من قبل حزب "البعث"، والقوى القومية بما لا علاقة له ألبتة 'بالإسلام' أو "الجهاد"، إلا أن مفهوم 'الجهاد" قد أضحى، فيما بعد ذلك، حجر الزاوية الذي ارتكنت إليه معظم ردات فعل المعارضة العراقية ضد اعتداءات الولايات المتحدة وغزوها للعراق، وهنا، أيضا، يجرى الخلط بين "الإسلام" كقاطرة ومحرك للصراع، وبين جنور المشكلة ذاتها.

السلطة العادلة وأسامة بن لادن

لقد طرح مفهوم 'الجهاد' ثانية حين وطئت القوات الأمريكية أراضى الملكة العربية السعودية إبان حرب الخليج الأولى لتحرير الكريت من الغزو العراقى لها، وتزخر أسيات الفقه والشريعة الإسلامية بآراء متبايئة حول مدى مشروعية استعانة الحاكم المسلم، أيا من كان، بغير المسلمين القضاء على مسلمين آخرين، وتكون أمثال تلك الاستعانة مقصورة على أحوال بعينها، كما تتطلب إبرام معاهدات ذات شروط صارمة محددة. فقى حالة المملكة العربية السعودية هذه، فقد وافق "العلماء السعوديون، في النهاية، على السماح للقوات الأمريكية باستخدام الأراضى السعودية وققا لمدى مؤقت وصارم، وذلك لأغراض الدفاع عن المملكة ضد أى غزو السعودية وققا لمدى مؤقت وصارم، وذلك لأغراض الدفاع عن المملكة ضد أى غزو علما انقضت دواعي الأزمة تلك، إلا أن القوات الأمريكية لم تغادر المملكة بعد أن وضعت انحرب أوزارها، الأمر الذي اعتبره "العلماء" نقضا للمعاهدة وانتهاكا اشروطها، بيد أن معظمهم قد آثر السلامة فلم يثيروا أدئى احتجاج ضد حكومة بلادهم، إلا أن أسامة بن لادن والكثير من رجالات الدين، وكذلك المواطنين قد بلادهم، إلا أن أسامة بن لادن والكثير من رجالات الدين، وكذلك المواطنين قد إذا والاحتجاجات، واحتلت تلك القضية حيزا كبيرا في إحدى الموجات المبكرة من إدانات بن لادن، وشجبه السياسات العسكرية الأمريكية في المنطقة. فكما صرح بن إدانات بن لادن، وشجبه السياسات العسكرية الأمريكية في المنطقة. فكما صرح بن

لادن خلال لقاء له مع روبرت فيسك "للجارديان" البريطانية، عام ١٩٩٦ :

"عندما جاءت القوات الأمريكية إلى المملكة العربية السعودية، بلد الحرمين الشريفين، كانت هناك معارضة شديدة لذلك من قبل "العلماء"، وطلاب الشريعة الإسلامية على امتداد المملكة ...

... إن المواطن السعودى البسيط يعلم أن بلاده هى أكبر منتج للنفط فى العالم، إلا أنه، وفى الوقت ذاته، يعانى ضرائب مرتفعة ويحظى بشدمات لا ترقى إلى مستو مقبول مرض - ويدرك البسطاء، الآن، ما يتردد عى ألسنة "العلماء" أثناء خطبهم بالمساجد من أن بلادهم قد أصبحت مستعمرة أمريكية ... لذا، فهم يبذلون قصارى جهدهم ولا يألون وسعا لإجلاء الأمريكيين عن أر ضيهم...

وفى النهاية، سيأتلف جميع المسلمين فى النضال ضد أمريكا ... وأنا أومن أنه، إن عاجلا أم آجلا، فسوف يرحل الأمريكيون عن أراضى المملكة، كما أومن بأن الحرب للعلنة من قبل الولايات المتحدة ضد الشعب السعودى تعنى الحرب ضد جميع المسلمين فى كل مكان، إن مقاومة الاعتداءات الأمريكية ستنتشر فى العديد من البلدان الإسلامية.

هذا، فإنه لا يتعين علينا أن نتفق وتفسير بن لادن للأحداث كي ندرك كونه يوجه اتهاما قاتونيا يجب أن يتبناه الشعب السعودي، والشعوب الإسلامية الأخرى في رفض التدخل، لأجنبي غير المشروع في السعودية، على هذا النحو، شرع بن لادن في طرح قضيته الكبرى بدءا من رفض استمرار بقاء الجيش الأمريكي في الملكة، ومرورا بتوسيع دائرة الهجوم ومداه، ومن الجلي أن قضية بن لادن، ومطالبه قد لاقت رواجا كبيرا على امتداد العالم الإسلامي في أعقاب أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، التي أدت وقائعها إلى الدعوة الحرب عالمية ضد الإرهاب، مما أشعل الرغبة لدى المحبطين والمهووسين لاعتماد اليات الإرهاب والتفجيرات الانتحارية، ولا يرتبط كل ما سبق "بالإسلام" في شيء سوى في نبرة والتغجيرات الانتحارية، ولا يرتبط كل ما سبق "بالإسلام" في شيء سوى في نبرة

البلاغة الخطابية، بل يرتبط ارتباطا وثيقا بالاعتبارات الجيوبواليديكية، والمنظور ذي الطابع القومي للمصالح السعودية والإسلامية.

ولكن تلك هي لغة تنظيم 'القاعدة' - المنظمة الجهادية المتطرفة التي تفتقر مرجعيتها الدينية إلى شرعية المؤسسات المعترف بها، فإذا ما نظرنا إلى مؤسسة دينية كبيرة تحظى بدرجة عالية من الشرعية والقبول العام -مجمع البحوث الإسلامية بجامعة الأزهر بالقاهرة -، نجد أنه عشية الاعتداءات الأمريكية على العراق في الحادي عشر من آذار/مارس عام ٢٠٠٣، أصدر المجمع بياناً كان له قوة الفتوى الملزمة:

يدعو المجمع كل المسلمين لتوحيد الصف والجهود، والتضامن في مواجهة تلك الحروب العدرانية غير الشرعية على العراق ... في ظل ما يحيط بعالمنا العربي والإسلامي من نذر العار والشر التي تمثلها الحشود العسكرية مدججة بأقوى ألات الدمار وأخطرها، وقد أيقن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف أن أمتنا العربية والإسلامية بل وعقيدتنا الدينية (الإسلام) هي هدف أساسي لكل هذه المشود العسكرية التي تستهدف ملايين البشر من أمتنا، وتستهدف كذلك عقيدتنا ومقدساتنا كافة، وكل ما يملكه عالم العرب والمسلمين من مصدر الثروة والقوة، متمثلا هذا كله في مرحلته الأولى ضرب العراق، راحتلال أرضه واستلاك ثروته الوفيرة من النفط ... ويحيى المجمع ويبارك الموقف الداعم لرفض ضرب العراق ، وضرورة استخدام الوسائل السلمية في حل الأزمة ... وفي ضوء ما سبق يعتقد الجميع أنَّ العدوان على العراق واقع لا محالة، وهنا، ويمنطق، شريعة الإسلام أنه إذا نزل العدو في أرض المعلمين فستكون أمتنا العربية والمعلمة أمام غزوة صليبية جديدة تستهدف الأرض، والعرض، والعقيدة، والوطن ... ويكون "الجهاد" وقتها فرض عين على كل مسلم، وبناء عليه، فإن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف يدعو العرب والمسلمين في كل أنحاء العالم أن يكونوا على استعداد للدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم، وأن يعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا ، ويكونوا فوق ما

يحيطهم من خلافات حتى يقضى الله أمرا كان مقعولا، ويدعو المجمع جميع العرب والمسلمين في كل أنحاء العالم ألا يهنوا وألا يضعفوا أمام هذا العدوان، لأن الحق تبارك وتعالى متكفل بنصرة دينه، وإظهاره على الدين كله،

وفى تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤، أصدر سنة وعشرون من العلماء وأساتذة الجامعة المشهورين بالملكة العربية السعودية فتوى تدين الحرب على العراق. فبعد مباحثات تناولت الحاجة إلى البحث أولا عن آلبات لإحلال السلام، أعلن بيانهم:

لا شك في وجوب جهاد المحتلين على ذوى القدرة، لأنه من جهاد الدفع، ويابه دفع الصائل، ولا يشترط له ما يشترط لجهاد المبادأة والطلب، ولا يلزم له وجود قيادة عامة، وإنما يعمل في ذلك بقدر المستطاع، إن هؤلاء المحتلين هم، ولا شك، من المحاربين المعتدين الذين اتفقت الشرائع على قتالهم حتى يخرجوا أذلة صاغرين بإذن الله، كما أن القوانين الأرضية تضمنت الاعتراف بحق الشعوب في مقاومتهم، وأصل الإذن بالجهاد هو لمثل هذا، كما قال -سبحانه -: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير" (سورة الحج، آية ٢٩). وقد قرر سبحانه - سنة التدافع التي بها حفظ الحياة وإقامة العدل وضبط الشريعة، فقال: "رلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر قيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز" (سورة الحج، آية قيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز" (سورة الحج، آية عن نفسه، وعرضه، وأرضه، ونقطه، وحاضره، ومستقبله ضد التحالف عن نفسه، وعرضه، وأرضه، ونقطه، وحاضره، ومستقبله ضد التحالف عن نفسه، وعرضه، وأرضه، ونقطه، وحاضره، ومستقبله ضد التحالف عن نفسه، وعرضه، وأرضه، ونقطه، وحاضره، ومستقبله ضد التحالف عن نفسه، وعرضه، وأرضه، ونقطه، وحاضره، ومستقبله ضد التحالف عن نفسه، وعرضه، وأرضه، ونقطه، وحاضره، ومستقبله ضد التحالف عن نفسه، وعرضه، وأرضه، ونقطه، وحاضره، ومستقبله ضد التحالف عن نفسه، وعرضه والاستعمار البريطاني من قبل.

بل لقد أصدر الإمام الشيعى أية الله السيستاني، المتسم بالطابع المدر المحافظ، أحكاما تنص على شرعية مقاتلة القوات الأمريكية في المراق من منطلق الدفاع عن الذات ... كان هذا غيضاً من فيض الأحكام والفتاوي المتعددة التي جاءت كردات فعل غاضبة نجاه تلك الحرب، والتي مهدت لأحكام قانونية مدروسة

للظروف التى يكون بمقتضاها الجهاد، ومن ثم الحرب - مشروعاً، إن مقاومة أى معتد في أي مكان هو أمر طبيعي ومشروع، فإذا ما أحيطت تلك المقاومة بصبغة شرعية إسلامية لعزز ذلك كثيرا من موقف المدافع،

دوافع الإرهاب

إن الممارسات الإرهابية والأعمال الانتحارية قد اعتمدت كمصطلحات وفدت على لفة الغرب المستخدمة لوصف أفعال المسلمين في إطار الحروب. ومن قبل، فقد عرفت الولايات المتحدة الأمريكية مهام فرق "الكاميكازي" اليابائية ضد غواصاتها البحرية إبان الحرب الكونية الثانية. إن القول بأن "الإرهاب هو سلاح الضعفاء" يظل حقيقة بدهية، فقد صرح الشيخ/أحمد ياسين – الزعيم الأسبق لحركة "حماس" أنه لو كان بمقدور الفلسطينيين امتلاك مقاتلات جوية، وقائفات قنابل واسعة المدى، لكانت تلك الأسلحة موضعا للاختيار. أما القوات البريطانية في أمريكا الشمالية إبان حروب التحرير، فقد أدانت القوى الأمريكية غير النظامية لقيامها باعمال غير قانونية إذ انخرطت في حروب عصابات بدلا من المؤجهة الباشرة للقوى والتشكيلات البريطانية المتدوقة عليها. إذا، فإن الولايات المحدة والمعيارية، والتي من الجلي امتلاكها اناصيتها. وفي الوقت ذاته فهي تشجب تلك العمليات غير النظامية التي تجعل القوة الإسلامية غير أخلاقية أو جبانة. (وبالرغم من أن المرء بإمكانه أن يدين من يقوم بالتفجيرات الانتحارية بالعديد من الأوزار، من أن المرء بإمكانه أن يدين من يقوم بالتفجيرات الانتحارية بالعديد من الأوزار، الأنه يصعب أن يكون "الجبن" إحداها).

فهل تكمن المشكلة، أساسا، في الإسلام؟ أم توجد جنور سياسية واجتماعية لتلك المشاكل تتطلب المزيد من التناول والتحليل؟ ومن الجلي أن هذا الكتاب يناقش كون المشكلة لا تكمن في "الإسلام" بالأساس، وإنما تكمن في الإرث الجيوبوليتيكي والاجتماعي الذي يمس المسلمين ... أولئك الذين يلجأون بالفعل إلى "سلاح

الضعفاء". إن العمليات الإرهابية لها تاريخ تليد عبر مختلف الأزمنة والبقاع، إلا أن القرن العشرين قد شبهد بعض النماذج الصارخة لتلك العمليات مثل: الجبهة الوطنية لتحرير فيتنام الجنوبية، ومنظمة "إيتا" الانفصالية الساعية لتحرير إقليم الباسك من السيطرة الإسبانية عليه، و"الدرب المضيء" في بيرو، و"حزب العمال الكردستاني" (وهو منظمة كردية في تركيا)، وحركة "مجاهدي خلق" (وهي جماعة إيرانية مناهضة للجمهورية الإسلامية هناك)، ونمور التأميل في سريلانكا، والسيخ في الهند، والحرب الشيوعي في الهند أيضا، وكذلك حركة ناكسال في الهند، و"الجيش الجمهوري الأيرلندي" في أيرلندا، وحزب "كاغ" ليميني المتطرف في إسرائيل، و"الألوية الصمراء"، و"أوم شيئريكيو" أي الدين الحق – في السابان، و"القوات المسلحة الثورية لجيش كولومبيا" في كولومبيا، ... وغيرها، وقد شهدت العقود الأخيرة تزايدا ملحوظا في أعداد المنظمات الإسلامية مع ما استجد من مواجهات تجاه الغرب.

إذاً، فمن أجل أى مبدأ نقوم بالتضحية بأنفسنا؟ وهل الظروف المساحبة لتلك التضحية تصبغ عليها معنى أسمى؟ فالتضحية بالنفس من أجل الآخرين — العائلة، العشيرة، القبيلة، الأمة — وأن يضحى المرء بحياته من أجل خالقه ... تلك قضايا عولجت وفق أكبر قدر من الحرمة، والقداسة، والتبجيل، والتضامن الجمعى. فالموت، وخاصة الموت الوحشى، يتطلب معنى ومسوغا - فالناجون والأحياء يتلمسون عزاء وتفسيرا ... بعضا من معنى أن هدف اذلك الغياب المبكر الذي حدث باختيار المرء ذاته، وماذا عن طبيعة عملية القتل ذاتها؟ وما الظروف التي يمكن لنا بموجبها تبرير إزهاق الروح؟ إن الإجابة عن تلك الأسئلة الأخلاقية ذات العمق تتجدد بتجدد الملابسات والظروف في كل عصر لأي من طرفي النزاع، وغالبا ما يخلع عليها أرفع المصطلحات الأخلاقية المكنة وأسماها — المعتقدات الدينية لثقافة ما.

وتجرى مناقشة النوافع لزمن ليس بالقصير. فالاشك أن مجتمعات الشرق الأوسط تعد أقل تقدما بالقياس بغيرها، وذلك في مناح شتى، فالمسترى التعليمي،

ومستورات المعيشة، وفرص التوظف عادة ما تكون غير متاحة بالنسبة السواد الأعظم من المواطنين باستثناء عدد قليل من "النخب النفطية"، وبلدان الخليج العربى الثرية ذات الكثافة السكانية المنخفضة. لذا، تبدو آفاق المستقبل محدودة وغير واعدة. كذلك، فإن سوء الإدارة هي السمة الغالبة على تلك البلدان، فليس هناك ما يفوقها سوءا إلا البلدان الإفريقية. إلا أن الحقيقة الكبرى أن تلك الظروف قد صبغت إقليم الشرق الأوسط لأزمنة طوال، بالتزامن مع الإسلام على مدى أربعة عشد قرنا، بيد أن الزيادة المطردة الهائلة في العنف، والإرهاب، والتنفجيرات الانتحارية تعتبر حديثة للغاية، وترتبط مباشرة بحقبة اتسمت بسياسات تدخلية أوروبية وأمريكية بالغة في الشرق الأوسط. فحتى لو كانت ثقافة العالم الإسلامي، بحد ذاتها، ثقافة مهيأة لمارسة العنف والوحشية بأكثر من أية ثقافات مجتمعية أخرى – وهو افتراض محل نظر –، فإننا ما زانا بحاجة إلى تفسير شاف للزيادة المطردة في أعمال العنف في الشرق الأوسط في ظل الظروف الراهنة.

والمراسف فقد اعتدنا جميعا، في العقد الأخير أو نحوه، عالما يزخر بالعنف، والإرهاب، والتفجيرات الانتحارية – إلى الحد الذي شعرنا معه أن ذلك هو النمط الاعتيادي للحرب الإسلامية. بيد أنها، وعلى خلاف هذا، تمثل عوامل جديدة طرأت على المشهد الاستراتيجي. إن الإرهاب والأعمال التفجيرية تكاد تكون أمرا غير مألوف قبل خمسة وعشرين عاما أو نحوها. فلم يكن يسمع بالتفجيرات الانتحارية في العالم الإسلامي منذ خمسينيات القرن العشرين وحتى سبعينياته، حتى في ذروة اتقاد الحماسة الثورية للقومية العربية، والهزيمة المروعة التي منى بها العرب في حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ مع إسرائيل، لقد نفذ الفلسطينيون أعمالا إرهابية ضد إسرائيل، يبد أنها لم تكن أبدا مهاما انتحارية، لقد كان شبعة لبنان أول من اعتمد التفجيرات الانتحارية بنجاح هناك، وما خلفته من آثار مروعة بحق الأهداف الأمريكية المستهدفة – السفارة الأمريكية في بيروت وثكنات الأسطول الأمريكي، وذلك في بدايات ثمانينيات القرن العشرين، أما نمور التاميل الهندوس في

سريلانكا، فقد كانوا أول من اعتمد الاستخدام المنظم للسترة الانتحاربة في الفترة ذاتها، والتي أدت إلى أحد أعلى معدلات الأعمال الانتحارية خلال تلك الحقبة، ومنذ ذلك الحين فصاعدا، ارتفعت معدلات التفجيرات الانتحارية في الشرق الأوسط على نحو رهيب، خاصة بعد الغزو الأمريكي للعراق وأفغانستان.

فقى عام ٢٠٠٧ وحده، والذى شهد أعلى معدلات تلك التفجيرات، كان ثمة مما مهدوما انتحاريا، منها ٢٥٠ هجوما فى أفغانستان والعراق المحتلين، وذلك وفقا للإحصائيات الحكومية الأمريكية، ويقوق ذلك ضعف عدد الهجمات خلال أى من سنوات ربع القرن الفائت. وفضلا عن ذلك، فإن أكثر من أربعة أخماس تلك التفجيرات الانتحارية قد وقع فى السنوات السبع الماضية فحسب، فى حين نشهد حاليا ذيوع تلك المظاهرة واستشراها على امتداد العالم بأسره، ولقد أوردت الواشنطن بوست، فى عددها المؤرخ ١٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٨، أنه "بدءا من عام ١٩٨٣، فإن المفجرين المنتمين لأكثر من خمسين جماعة فيما بين الأرجنتين والجزائر، وكرواتيا والصين، والهند وإندونيسيا – قد استخدموا متفجرات والحارية، وحقائب الأمتعة للمفخخة، والبطون الحبلي الزائفة ... وتستخدم كلها البخارية، وحقائب الأمتعة للفخخة، والبطون الحبلي الزائفة ... وتستخدم كلها التفجير . فمن بين ١٨٥٠ حادث خلال ربع القرن المنصرم، وقع أكثر مما نسبته التفجير . فمن بين ١٨٥٠ حادث خلال ربع القرن المنصرم، وقع أكثر مما نسبته الأربعة الفائعة".

وتوجد العديد من النظريات التى تذهب إلى بحث أسباب تلك الزيادة الهائلة التى شهدتها معدلات التفجيرات الانتحارية، وتقدم معظم تلك النظريات ملمحاً أيديولوجياً أو أخر لطبيعة الصراع، ويؤمن بعض المحللين أن الدواقع الدينية تأتى في صدارة الدواقع: الرغبة في الدفاع عن "الأمة"، وعن العالم الإسلامي، والتضحية بالنفس في سبيل الإسلام، وللخلود في الجنان، بينما يذهب محللون أخرون إلى وجود اضطرابات نفسية تدفع بالمرء للإقدام على الانتحار ... فالمرء

الذي ينتصر، وفقا لهم، غير كامل الأهلية. في الوقت الذي تذهب فيه فئة ثائثة إلى أن مشاعر الإحباط الناجمة عن تردى الأحوال الاقتصادية والاجتماعية المرء تدفعه بشدة لارتكاب ذلك الفعل غير المسئول. أما "رويرت بيب"، من جامعة شيكاغو، فيذهب إلى أن معظم تلك الممارسات تأتى كاستجابة مباشرة وردة فعل ضد الاحتلال الأجنبي. والرغبة في تحرير الوطن من الغزاة. إلا أن آخرين، من أمثال "مارك سيجمان"، يقرون في تنويعات على اللحن ذاته بأن الاستثارة القومية والثقافية هي المحرك، بيد أن عملية الانخراط الفعلي في الممارسة على المستوى الفردي تجد وقودها في التأثير البالغ لفكر الجماعة المحيطة بالمرء – جماعة من الأصدقاء أو أعضاء أحد التجمعات المتاخمة ... الذين يقررون، على نحو جماعي، التطوع معا للدفاع عن القضية والتضحية بالنفس دونها.

لذا، فإن الدوافع تعد أمرا هاما إذ تشتمل، في طياتها، على علاج لها. فقد حاولت الولايات المتحدة الأمريكية أن تلتجي إلى تقسيرات معانى "القرآن" وتأويلاتها كي تثبت للمتمردين العصاة بطلان ممارساتهم وعدم مشروعيتها وفقاً للنصوص الدينية، أو بالأحرى كونها "لا إسلامية". كذلك، فقد دعت واشنطن العديد من رجالات الدين الإسلامي للاجتماع لشجب الإرهاب الممارس تحت ستار الدين وباسمه، وبالفعل، فقد استجاب عدد كبير من العلماء نثلك الدعوات وقاموا بالشجب والتنديد، بيد أنه، وللأسف، فإن جل المعضلة لا يكمن في مواجهة مرتكبي تلك الجرائم بالتأويل السليم للنصوص الدينية، على هذا النحو المبسط الساذج. وفضلا عن ذلك، فإنه من المستبعد أن تكون أية سلطة إسلامية يتم الاستعانة بها قادرة على إخماد حروب العصابات الوحشية الرافضة لتلك السياسات المقيتة ... تلك الحروب الموجهة ضد قوى الاحتلال الأمريكي، ولقد أصدر كبار "العلماء" في الملكة العربية السعودية ومصر بيانات وفتاوي عديدة تندد بالممارسات الوحشية لتنظيم العربية السعودية ومصر بيانات وفتاوي عديدة تندد بالممارسات الوحشية لتنظيم القيرة ، وغيره من التنظيمات المتطرفة، كذلك، فقد تم استتابة بعض السجناء الذين "أدركوا فداحة الخطأ والجرم الذي اقترفوه" ... تلا ذلك قيامهم بالتبرؤ من

ارتباطاتهم وممارساتهم الوحشية السابقة.

وفى حين أنه من الممكن، بمرور الزمن، أن يتم إقناع بعض الراديكائيين بمدى ما اجترحوا من إثم، وذلك على أيدى رجال الدين، إلا أن السجون تمثل قنوات أكثر إقناعا لتبرؤ السجناء من أفعالهم السابقة، وهو ما يثير الشكوك حول مدى جدية عزم السجناء على التوبة والإقلاع عما سلف، إن معظم كبار علماء الدين في المملكة العربية السعودية ومصر يتم النظر إليهم باعتبارهم "تابعين" يدينون بالولاء النظام السياسي بما يتواءم ورؤية ذلك الأخير، وقلقه من تنامي تلك الأيديولوجيات الراديكالية. لذا، فإن عدد علماء الدين الوسطيين، والمتسمين بالنزاهة والموضوعية ممن يقدرون، بالفعل، على مخاطبة عقول أولئك الراديكاليين الشباب وإقناعهم، يبقى محدودا.

إن معظم الشباب يصبحون راديكاليين نظرا اطبيعة ما يشهدونه في واقع حياتهم: الفزو الأجنبي، قتل الأمريكيين الكثير من الدنيين، القوى العسكرية الغربية والإسرائيلية، شعور بالمذلة، والمهانة، والانكسار، تعطش إلى الأخذ بالثار والانتقام ... ويكون هذا الانتقام في بعض الحالات لأناس من عائلاتهم ذاتها قد قتلوا. تلك قضايا واقعية تجرى أحداثها ولا ترتبط بالضرورة بالأيديولوجية الإسلامية، فإذا لم يُشاهد حدث معين حين وقوعه بالفعل، فتتم مشاهدته عبر شاشات الثلغان، فالراديكالي العازم على استخدام العنف لن يعوقه أو يثنيه عن عزمه سماعه لموظة أو خطبة مفادها أن الإسلام لا يؤيد التفجيرات الانتحارية أو قتل المدنيين. فالمرء الذازع نحو الانتقام والقصاص بسبب الهجمات، الفعلية قتل المدنيين. فالمرء الذازع نحو الانتقام والقصاص بسبب الهجمات، الفعلية والمتخيلة، ضد عائلته، أو جماعته، أو دينه سوف يسعى جاهدا لقتل الأعداء، وسيقوم ذلك المرء بالتنقل ما بين بديل ثيولوجي وآخر، وفتوى دينية وأخرى إلى أن يصادف بديلا أو فتوى تتيح له رخصة وسلطة تنفيس غضبه الإجرامي. إذاً، تأتي يصادف بديلا أو فتوى تتيح له رخصة وسلطة تنفيس غضبه الإجرامي. إذاً، تأتي الشورة أولا، ثم يتبعها التبرير الشيولوجي، وهو تعزيز أخلاقي لدعم ممارسة قد تقرر سلفاً إنفاذها، وفي هذا الإطار، سيكون من العسير تماما أن نجد أية ما في سلفاً إنفاذها، وفي هذا الإطار، سيكون من العسير تماما أن نجد أية ما في

"القرآن" تقنع العقول المتعطشة للانتقام، أو تعمل فجأة على تحرير الععول المتحجرة، أو تلين "قناة الفضب"، أو تلطف مشاعر الاستياء وعدم الرضاء إذاً، تسبق الجوارح العقل. وفضلا عن ذلك، فإن النصوص المقدسة في معظم الأديان تحتوى أيات عديدة، يمكن أن يتم نزعها من سياقها واستخدامها لتأبيد الأفعال الوحشية، بغض الطرف عن ماهية ذلك الدين وثقله وقحوى رسالته.

كذلك، فإن عمليات غسيل الأدمغة التي تمارسها السلطات في البلدان الإسلامية لا تغير، بالضرورة، من الآراء ووجهات النظر المتبناة. فالطلبة من الشيعة في مدارس المملكة العربية السعودية يتم إجبارهم على استخدام كتب تحط من قدر المذهب الشيعى. بيد أن الشيعة هناك يقولون إن أبناهم يعرفون كيف يتجنبون الحرج، ويتخلصون بالضحك من تلك الرسائل الموجهة في مدارسهم، وبالمثل، وفي مجتمعات شمولية كالاتحاد السوفييتي السابق، كانت أعداد كبيرة من السكان تعلم أن الدعاية التي تقوم بتوزيعها وسائط الإعلام التابعة للحكومة باطلة، كما كانت سيقط تلك الأفكار تماما عن أذهائها، وذلك على نحو ممنهج، حتى لو قامت بالمداهنة بإظهار اعتناقها لها بين جمهور العامة. ويعبارة موجزة، فإن قيام للدارس من خلال نصوص الكتب بها، أو تصريح أنظمة المعلومات بمزاعم وادعاءات معينة لا يعني قبول تلك الرسائل من قبل المجتمعات المتسمة بالتشكك والحذر.

إن الكثير من المسلمين المعتدلين يرفضون التأويلات والتبريرات الدينية المقدمة من قبل تنظيم "القاعدة" عن ممارساته الدموية. بيد أنهم يدركون أيضا الأجواء ليست آمنة بالنسبة العالم الإسلامي، وأن الاستسلام والإذعان الغرب لا يعد بديلا كذلك. كما أنهم قد يمقتون تلك الممارسات بيد أنهم يرونها الاستجابة الوحيدة الممكنة "سلاح الضعفاء". إن المجتمعات المسلمة قد تأسف كثيرا لتلك الأقعال الوحشية كما قد تخشى ضلوع أبنائها بها الكنها تجد أنه من المفهوم الأقعال الأمور في ظل الأحوال الراهنة ومن ثم يصعب إدانة من أتى بتلك الأفعال كردة فعل الأحداث. إن المجتمعي لردات الفعل العنيفة تلك بيدو،

على أدنى تقدير، عاملا هاما في تمديد ظاهرة المارسات الإرهابية بقدر وجود القائمين بالعنف أنفسهم.

إن المجتمعات تدافع عن نفسها، ووفقا لرؤية بذاتها فإن الأمر هو ذاك بالفعل، وغم البساطة الظاهرة، فالإدارة الأمريكية برئاسة جورج بوش الابن قد زعمت أنها كانت تحاول فقط الدفاع عن نفسها، بأن "تقتل الإرهابيين في العراق، قبل أن يباغتونا في عقر دارنا"، بيد أن معظم المعارك، والحروب، والسجال بين القوى تجرى وقائعها على أراض إسلامية في ظل هجمات القوى الخارجية وانتهاكاتها، كما استمرت تلك الحروب لأماد طوال. لذا، فإنه عند الحديث عن قضية الدفاع، يبدو الأمر أكثر ملاحة وانطباقا على السلمين عنه على الولايات المتحدة، وما للأخيرة من يد طولي تنشر قراتها بموجبها على امتداد العالم بأسره.

إن الدين سيتم التوسل به على الدوام، وفي أي مكان لاجتذاب العامة واستقطابهم، ولتسويغ الحملات والمعارك والحروب الكبيرة، ويخاصة في الثقافات التوحيدية، بيد أن المطالب، والحملات، والمعارك، والحروب لا ترتبط بالدين، فإذا ما أبعدنا عنصر الدين عن المعادلة، فسيظل هذاك مطالب، وحملات، ومعارك، وحروب،



نصوبر احمد باسبن نويئر فيئر (Ahmedyassin90)

ما العمال؟ نحوسياسة جديدة للتعامل مع العالم الإسلامي

تعريف الإرهاب في عالم الواقع

ليس في استطاعة أحد أن يقضى على ظاهرة الإرهاب على سطح كوكيفا الأرضى. فالإرهاب يعد أحد أكثر تمثلات السياسة خبثا، بيد أنه من المكن كبح جماحه والحد من انتشاره، والأسف، فإن السياسات الحالية للولايات المتحدة الأمريكية لن تفعل ذلك، بل لقد أدت في الواقع إلى استشراء المعضلة واستفحالها. ولعل الخطأ الأول هو الاستخدام الحكومي للولايات المتحدة لتعريف قانوني ذاتي الفرض للإرهاب ... ذلك التعريف الذي لا يعس جوهر تلك للشكلة عالية الطابع وحقيقتها.

وعلينا الاعتراف بأن محاولة التوصل إلى إجماع عالمى بشأن تعريف الإرهاب قد صارت مشكلة شائكة منذ مدى زمنى طويل. فالحكومات، فى حقيقة الأمر، تخلص إلى تعريف الإرهاب بأنه "ما أعتبره وأراه إرهابا من وجهة نظرى"، أى أنه تعريف غير موضوعى ذاتى الغرض، فضلا عن كونه وقتيا يعالج متطلبات اللحظة الراهنة فحسب. إن التعريف المقدم من قبل وزارة الدفاع الأمريكية فى عام ٢٠٠٤ هو تعريف ينطوى على مغالطة وانحراف ملحوظين: 'الإرهاب هو الاستخدام العمدى للعنف غير القانونى أو هو التهديد باستخدام العنف غير القانونى لغرس الخوف والرعب يقصد إجبار الحكومات والمجتمعات وترويعها بغية تحقيق أهداف سياسية ودينية وأيديولوجية، فى مجملها".

إن المصطلح المفخخ سياسيا في سياق التعريف السابق هو "استخدام العنف غير القانوني"، إذ لم يتم تقديم توضيح أن تعريف المقصود بـ "غير القانوني"، بيد

أنه يبدر أنها تعنى "ذلك غير المجاز من قبل الحكومة". ولكن، أليس ذلك، بالتحديد، هو ما يشكل غالبا محور الصراعات السياسية - تعريف "غير القانوني"؟ وينحو الفكرون السياسيون الغربيون إلى تعريف "الدولة" بأنها الكيان الوحيد الذي يحق له الاحتكار الشرعي لاستخدام العنف. إذاً، فالدولة تساوي "القانوني" وقد تلائم تلك المعادلة معظم الديمقراطيات الغربية حيث تمارس الحكومات سلطات "الحكم" وفقا لإجماع الأمة، ولكنها أبعد ما تكون عن الحقيقة في ظل البلدان ذات الحكم السلطوي الشمولي الذي يقصى المعارضة السياسية ويضطهدها، حيث لا يتم التغيير عادة إلا من خلال بعض أشكال الأنشطة "غير القانونية". وتسعى حكومات تلك البلدان التأكيد على أن جميع تلك المعارضات "غير قانونية". وغالبا ما تواجه تلك المعارضات بأنماط من "إرهاب" الدولة الموجه ضد جماعة بذاتها من رعاياها أنفسهم.

إن أحداث الصادى عشر من أباول/سبتمبر ٢٠٠١، و"الحرب العالمية ضد الإرهاب" قد عملا على تمكين جميع البلدان التي تواجه أي نوع من العصيان أو التمرد الداخلى وتعضيدها، بتأهيلها لصبغ خصومها بتهمة "الإرهاب". فالإرهاب، بالطبع، هو الكلمة الفصيل، فإذا ما توسل به، لم يعد هناك داع لأي تفاوض أو معالجة سياسية، فيكون الدولة مطلق السلطة في اعتماد أقصى عنف ممكن لاستئصال شافة المعارضة. ولقد وجدت الأنظمة السياسية على امتداد العالم فرصة كبيرة في اللحاق بركب "الحرب العالمية ضد الإرهاب" التي أعلنها بوش الابن، إذ أحلوا أنفسهم في عداد أولئك المنتمين "لمحور الخير" في مواجهة قوى محور الشر"، ممن لا يمكن أن يتم التوصل معهم إلى أية تسوية أي أدنى توافق. ولقد أوجز "مايكل والترز" المشكلة ببراعة: "في البداية، يكون الاضطهاد ذريعة للالتجاء إلى الإرهاب، تم يستخدم الإرهاب كذريعة لمارسة الاضطهاد. فالأول لاربعة البسار المتطرف، والثاني ذريعة اليمينيين المحافظين الجدد".

ويتفق الجميع أن العنف السياسي في أي مجتمع هو أمر غير مرغوب فيه، والإرهاب هو ضرب من العنف السياسي، بيد أن العنف السياسي في كثير من بلدان العالم بتم اعتماده من قبل النظم القمعية ذاتها ضد الخصوم المحليين، ومن المحتم أن تواجه النظم غير الشرعية بموجات متلاحقة من العنف السياسي، وفيما يلى ما ذهب إليه إعلان الاستقلال الأمريكي :

إن الحكومات لتنشأ في صفوف الرعايا، وتستمد سلطاتها الشرعية والعادلة من إجماع أولئك الرعايا ... فإذا ما أخلت الحكومات، أيا ما كان تنظيمها أو هيئتها، بالشرعية والعدالة، يكون من حق الشعوب أن تستبدلها أو تزيحها ... وإذا أظهرت التجاوزات والانتهاكات المتلاحقة قدرا من الإخلال بذينك المبدأين نتيجة التحرل إلى الاستبداد والشمولية المطلقة، يكون من حق الشعوب أيضا، ويكون ولجبها الإطاحة بتلك الحكومات، والاستعاضة عنها بأمناء مخلصين يسهرون على أمنهم المستقبلي.

أما في العالم الإسلامي المعاصر – ونحن لا نتحدث هنا فقط عن المسلمين، بل عن مجمل العالم النامي – فإن هناك، على أقل تقدير، حالات ثلاثاً يصبح بموجبها العنف السياسي قابلا للنفاش: الإطاحة بالنظم الديكتاتورية المستبدة، والنضال من أجل التحرر الوطني، والمقاومة المسلحة ضد الغزو الأجنبي،

١- الإطاحة بالنظم الديكتاتورية المستبدة: يوجد بالعالم الإسلامي الكثير من النظم المستبدة، والتي حظيت بتأييد الغرب ودعمه لعقود عديدة. ولدى تلك النظم المستبدة مهارات وخبرات في قمع المعارضة السياسية عبر طرائق شتى منها العنف والاعتقال، فهل يمثل العنف السياسي بحق "النظام" أو "الدولة" إرهابا، ومن ثم يكون قمعه بالكلية مبررا؟ فإذا ما كانت الدولة قمعية مضطهدة، فما مدى شرعية الثورة والنضال المسلح ضدها؟ وللأسف، فقليل من البلدان هي التي تفرز من هم على شاكلة "المهاتما غاندى"، و"نياسون مانديلا".

٧- النضال من أجل التحرر الوطنى: لأسباب تاريخية، من بينها قيام الإمبريالية بإعادة ترسيم الحدود الكولونيالية فى إفريقيا، والأقاليم الأوروأسيوية ... وجدت المئات من الجماعات الإثنية نفسها مقسمة بحدود اصطناعية، أو مضمئة بداخل دولة تختلف ثقافتها عنها بوضوح، دولة غالبا ما تمحو هوية تلك الجماعات، وتقمع حقوقها الثقافية ... ولم يتم سؤال تلك الجماعات، ألبتة، بشأن تضمينها فى إطار تلك الدول. وتتضمن تلك الجماعات الإثنية . الشيشان، وأهالي كشمير، والأوغور، وأهالى التبيت فى الصين، والتاميل فى سريلانكا، والفلسطينيين، والسيخ فى الهند، والأكراد فى تركيا وإيران والعراق، والمورو فى الفلبين، والبنغاليين فى باكستان (ما قبل بنجلاديش)، والايغبو فى نيجيريا، والإريتريين فى والبنغاليين فى باكستان (ما قبل بنجلاديش)، والايغبو فى نيجيريا، والإريتريين فى الجماعات تكون إثنية أو ديئية.

ويشير التاريخ إلى بلدان عديدة تحظى بكامل الشرعية حاليا قد ولدت من

رحم "العنف غير القانونى"، والموجه غالبا ضد الصراعات المناهضة للكولونيالية، والإمبريالية : تركيا، إسرائيل، الصين، المكسيك، الجزائر، إندونيسيا، اليونان، بلغاريا، كويا، فيتنام، كينيا، جنوب إفريقيا، والولايات المتحدة الأمريكية ... تلك فقط بعض أبرز تلك البلدان، فإذا كان معيار "البنتاجون" اليوم قد تم اعتماده بشأن "العنف غير القانونى" المارس من قبل الثوار الأمريكيين في ١٧٧١ ضد الشرعية المفترضة للحكم البريطانى، لما كانت "الجمهورية الأمريكية" لتوجد اليوم، كذلك، يجب ألا ننسى الأصول والجذور الإرهابية لزعماء من أمثال جومو كينياتا في كينيا، وجميعهم قد ومناحم بيجن في إسرائيل، ونيلسون مانديلا في جنوب إفريقيا، وجميعهم قد اعتبروا ساسة جادين نوى منزلة، وذلك في أعقاب انتصاراتهم.

إن السياسات الأمريكية المعاصرة تميل دائما نحو "الإبقاء على سياسة الوضع الراهن"، ودعم الدولة بما فيها حتى القمع الممارس من قبل الدولة لضمان راهنية الأوضاع مع بعض حالات استثنائية من 'وخز الضمير"، ولعل الاستثناء الرئيسي هو حين تكون الدولة المتعرضة للحركات الانقصالية وموجات التمرد -- في عداء مع واشنطن، حينها تتلاشي تلك المبادئ في الهواء: فتعمد سياسات الولايات للتحدة، حينها، إلى التعاطف مع الانقصاليين ودعمهم: الأكراد في العراق إبان حكم صدام حسين، البلوش في إيران، الأوكرانيون واللاتفيون وغيرهم في الاتحاد السوفييتي السابق، أهالي التيب في الصين أيام حكم ماو تسي تونج، ... إلخ،

٣- المقاومة المسلحة ضد الغزو الأجنبى: كمقاومة الغزو الأمريكى للعراق وأفغانستان والصومال. إلا أن المقاومة الإرهابية للجيش الأحمر الروسى فى أفغانستان، فى تمانينيات القرن العشرين، كانت تدعمها واشنطن وتؤيدها بحماسة. إذاً، أليس من حق الشعوب المحتلة بفعل الحروب أن تلجأ إلى المقاومة المسلحة؟ إن البلدان التى تضوض غمار الحروب، وحتى تلك الديمقراطية منها، ترفض جصفة عامة - أن تتناول تلك الأسئلة، على نحو صريح، عما يمثل العنف المسموح به. إذ ستفضل القيام بالتلاعب بالتعريفات الشائعة بما فيه صالح الدولة

وذلك لتبرير ممارساتها عمن وجهة نظرها الشخصية فإن الدولة محقة دائما ... أخلاقية دائما.

إنَّ الأسئلة بشِّئْن مدى تناسب ردات الفعل ومالاحتها تدخل ضمن الجدالات التقليدية بشان الحرب العادلة، فإذا قتل جنود قليلون على أيدى الإرهابيين، على سبيل المثال، فهل تكون ردة الفعل يقتل مائة مقابل كل جندى قتيل أمرا مشروعا من الوجهة الأخلاقية؟ وماذا عن تأبيد إسرائيل الضمني لسياسة "مائة عين مقابل عين واحدة" عوضنا عن "العين بالعين"، وذلك كنوع من الردع؟ وماذا يشأن سياسة "الترهيب بالصدمات"؟ أو تغيير النظم السياسية الحاكمة عن طريق الغزو العسكري؟ أو إلقاء القنابل فوق المدنيين العزل؟ هناء نكون أيضا محاصرين في دائرة المغالطة المفرغة للنسبية والموضوعية : هل يكون إلقاء قنابل من ارتفاع خمسين ألف قدم بغية قتل إرهابيين مع لتساع دائرة الدمار لتشمل أبرياء — مشروعا، بينما يكون قيام أحد المفجرين الانتحاريين بقتل بعض الأعداء من مسافة خمسة أقدام في النضال من أجل التحرر الوطني بما يتسبب في مقتل أبرياء --غير مشروع، وغير أخلاقي؟ لا شك في أن يعض الممارسات الإرهابية هي ممارسات غير تمييزية بعض الشيء تتم خصيصا لنشر الرعب وإضعاف المعنوبات، ولكن ماذا، إذاً، عن دريستن أو هيروشيما أو ناجازاكي حيث كان الهدف الرئيسي هو نشر الرعب وإضعاف المعنويات - أن بلغة عصرية لقرض "الترهيب بالصدمات" الكسب الصراع؟ إن جميع تلك الأسئلة ترتبط ارتباطا مباشرا بالأزمات المتعددة في العالم الإسلامي - وخارجه، فلا يوجد ثمة شيء، ألبتة، طابعه "إسلامي" بشأن تلك المواقف - اللهم كون التضامن الإسلامي يعضد كثيرا من إرادة المقاومة،

ويالرغم من تلك الأسعلة، يكون من الخطأ أن نربط معا بين وجود ظاهرة الإرهاب بتعريفات مبسطة للعدالة النسبية ... تعريفات تتسم بالغموض والمراوغة، فالإرهاب ظاهرة فعلية قائمة تمثل بلاء على المجتمع. إن مرتكبي الممارسات الإرهابية غالبا ما يكونون قساة وحشيين فضلا عن كونهم مهووسين غير أسوياء،

يعيشون على هامش المجتمع، وينخرطون في ممارسات إجرامية، أو قد يكونون متعصبين أيديواوجيين. ولكن لا ينطبق ذلك على الجميع، يطبيعة الحال. فالظروف القاسية مثل الاضطهاد والحروب ثواد ردات فعل واستجابات عنيفة من عناصر اجتماعية غير سوية، إلى جانب أخرى من مواطنين اعتياديين، لذا، يجب أن يتم تطبيق التعريف المضتار للإرهاب بنزاهة، ودونم تمييز، فاستخدام واشنطن الانتقائي ذاتي الغرض المصطلح يلقى بظلال من الشك بشأن مدى صلاحيته القانونية والتحليلية والإقناعية، بما يضعف من قوة موقفها في أعين العالم، ناهيك عن العالم الإسلامي.

كذلك، يجب ألا يؤدى افتقاد الإجماع حول التعريفات إلى شلل الإرادة. فالأمر الضرورى في هذا الصدد هو إدراك السياسات للأعراف النولية - كيف ينظر باقى العالم لتلك القضايا. ففي العراق، كانت الحقيقة أن رأى أغلب العالم تلك القضايا بخلاف مر رأتها واشنطن، ويخلاف ما أعلنته التعطية الإعلامية الأمريكية الجارية ذات الأفق الضيق بشأن تلك القضايا، أو بالأحرى ما عمدت إلى تجاهله. إن الإخفاق في التعرف على الحقائق الإقليمية وإدراكها، وكذا الإخفاق في تناول المظالم القائمة وأخذها بعين الاعتبار - من شأنه ضمان الإخفاق المحقق لسياسات أوياما مثلما كانت الحال في ظل إدارة بوش الابن. ويجب ألا يعامل معظم المسلمين المحاربين باسم الظالم القومية"، شأنهم في ذلك شأن قوميين آخرين، باعتبارهم إرهابيين بل كخصوم سياسيين تستلزم مطالبهم نوعا من المعالجة السياسية أو الشاوف بشأنها. فالعصبيان قد يكون غير قانوني، ولكنه لم استجابة البشر للظروف الجائرة.

يكاد الجميع يتفق على أن إزهاق النفس البشرية عمل مناف للأخلاق. إلا أنه، وفي هذا الإطار، فإن القانون والتشريع الغربي يرسم حدودا فاصلة دقيقة ما بين جرائم الدرجة الأولى، والدرجة الثانية، والدرجة الثالثة ... فضلا عن القتل غير العمدي، والقتل الناجم عن الإهمال، كذلك فإنه يحيل قتلة بعينهم إلى عقوبة الموت،

فيما لا يذهب إلى ذلك بالنسبة لقتلة آخرين، فالسياسة يتعين عليها التمييز بين أطياف مختلفة في محيط العنف السياسي والإرهاب، فالساسة يميزون بين (أ) حركة "حماس" التي تعتمد أسلوب حرب العصابات والتكتيكات الإرهابية في إطار جغرافي ضيق ينتظم الأراضي الفلسطينية والإسرائيلية، و(ب) العراقيين والبشتون الذين يقاومون الغرو الأمريكي المسلح لأراضيهم، و(ج) جماعات مثل تنظيم "القاعدة" الذي يقاتل الغرب بأسره، كما فعلت الألوية الحمراء، و"بادر ماينهوف"، و"أوم شينريكيو" (الدين الحق) من قبل،

التفاوض مع الإرهابيين

إن إدارة بوش الابن، في رؤيتها للحركات والجماعات الإرهابية على امتداد العالم، قد رفضت التمييز فيما بين تلك الجماعات – فلا يوجد شي، اسمه "هذا إرهابي حسن". بيد أن الساسة، بالرغم من تنديدهم بالإرهاب إجماليا، يعمدون غالبا إلى التفاوض مع الكثير من الجماعات الإرهابية – وذلك تحديدا لإدراكهم أن المفاوضات قد تثمر، في النهاية، عن اتفاق أو تسوية، فالبريطانيون قد أجروا مفاوضات مع "الجيش الجمهوري الأيرلندي" في النهاية، ويؤمن الكثير من الإسرائيليين بضرورة التفاوض مع حركة "حماس". (تذكر، كيف رفضت إسرائيل الإسرائيليين بضرورة التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية "الإرهابية" !!). كذلك، يعتقد الكثير من الأمريكيين بضرورة التفاوض مع حركة "حماس" وحزب الله، أو عناصر من حزب البعث في العراق، أو حركة "طالبان" في أفغانستان، على سبيل عناصر من حزب البعث في العراق، أو حركة "طالبان" في أفغانستان، على سبيل المثال، كونها ثعتبر جماعات "رشيدة عاقلة" لها أهداف سياسية محلية محددة.

فالجماعات السياسية "الرشيدة العاقلة"، والمنخرطة في العنف السياسي غالباً ما يكون لديها أهداف محددة وواضحة. كذلك، فلديها مقار يمكن زيارتها فضلا عن امتلاكها لبرامج ونشرات ومواد ترويجية ومقالات في تك المقار، ويديرها رموز وشخصيات معروفة يمكن إجراء مقابلات معهم ... أولئك ممن يتحدثون إلى العامة

عبر الخطب والمحاضرات، إذاً، فنحن نتفهم أهدافهم ونعتبرها "رشيدة عاقلة"، حتى لو اعترضنا عليها لأسباب سياسية، فبعض تلك الأهداف تبعث على التعاطف، ويعضها الآخر يستدعى التربيخ، فوصمهم جميعا بأنهم "إرهابيون" هو أمر خاطئ من وجهة النظر التحليلية، كذلك فهو عديم الفائدة قد يحدث نتيجة عكسية، فالسلطات لا تتوقف عن ترديد أنها "لن تتفاوض مع الإرهابيين" – إلى أن تفعل، والن تعترف بالإرهابيين" – إلى أن تفعل، وعادة ما تفضى تلك المواقف المحددة والمفترضة بشان الإرهاب إلى كونها مجرد مواقف تفاوضية تمهد الطريق السويات تفاوضية أكثر جدية.

إن مقولة 'إن من يعد إرهابيا من قبل طائفة قد يعد محاربا من أجل الحريات من قبل طائفة أخرى" تبدر مقولة مبسطة، على أنها تقترب كثيرا من الحقيقة. كذلك، تمثل تلك المقولة جدلا يثير حنق معظم الحكومات كونها تخلق 'معادلا أخلاقيا' فيما بين الأطراف المتحاربة – وهو مفهوم مكروه من قبل الجانبين. إن جوهر المشكلة يكمن في أن ما نحسبه مقاومة لا يعدو إلا أن يكون، في حقيقة الأمر، "دعوة سياسية"، اعتمادا على ما إذا كنان المرء منحازا إلى السلطة، أم منحازا إلى المقاومة، أم منحازا إلى المقاومة، وتتحدث معظم حكومات العالم عن المبدأ، بيد أنها تعمد إلى انتقاء تعريفها المقاوم بمن هو "الإرهابي" وفقا لمصالحها المتغيرة، والمرتحلة، فإذا ما تمسكنا بفكرة كون جميع تلك الحركات والجماعات تصدر عن "أجندة إسلامية رادبكالية" بعينها لا سبيل إلى تغييرها، فلن نتمكن أبدا من إيجاد طرق لتحجيم المشكلة. إن معظم تلك الجماعات لديها أهداف غير دينية الطابع من المكن التفاوض بشأنها.

كيف نقضى على الإرهاب

إن تقرير مؤسسة RAND عام ٢٠٠٨، والمعنون 'كيف تزول الجماعات الإرهابية" بعد واحدا من أشمل التطيلات الإحصائية، وأكثرها إثارة والتي أجريت عن "الإرهابيين" خلال السنوات الأخيرة الماضية، وقد قامت مجموعة من باحثى

RAND بدراسة ٦٤٨ حركة امتد نشاطها من عام ١٩٦٨ وحتى عام ٢٠٠٨، وكان أهم ما تم التوصل إليه أن "الانتقال إلى العمل السياسي هو الطريق الأكثر شيرعا الذي سلكته الجماعات الإرهابية". وها هي أهم النتائج المتوصل إليها بإيجاز:

* تحرل 27٪ من الجماعات الإرهابية إلى العمل السياسي، أو بعبارة أخرى، تحولها عبر التكيف والمواصة. كذلك، فقد وجدت الدراسة المذكورة أن "إمكانية التوصل إلى حل سياسي يتناسب عكسيا مع حجم الأهداف الإرهابية" ومداها، أو بعبارة أخرى، فكلما كانت المظالم والأهداف محددة وعملية وذات طابع محلى، زاد احتمال إمكانية التعامل معها لإيجاد حلول أها.

* ضمن نسبة الـ ٤٠٪ من الحالات والتي كانت فيها التنظيمات الإرهابية غير قادرة على، أو غير راغبة في، التحول إلى التكيف السياسى - كانت السياسات، وليست الممارسات العسكرية هي الوسائل الأكثر نجاعة لتحييد الجماعة الإرهابية، إن الشرطة والأجهزة الاستخباراتية هي أكثر قدرة على تفهم تلك الجماعات، واختراقها، وتحييدها مقارنة بقدرة الطرق الحربية العقيمة.

* في ١٠ ٪ من الحالات، انتهت بالفعل مهام الجماعة الإرهابية لتختفى من الرجود بعد قيامها بتحقيق أهدافها، وفي ٧٪ فقط من الحالات، كانت الممارسات العسكرية فاعلة في القضاء على أنشطة الجماعات الإرهابية.

* "تستغرق الجماعات الإرهابية ذات الطابع الدينى وقتا أطول لتزول بالمقارنة بغيرها من الجماعات الأخرى"، وعلى الجانب الآخر، "فنادرا ما تحقق الجماعات الدينية أهدافها. وقد أورد التقرير، أيضا، أن حجم الجماعة يعد محدداً هاماً لمسير تلك الجماعة. فالجماعات الكبيرة التى تزيد أعدادها عن عشرة آلاف عضو قد حالفها النجاح في أكثر من ٢٥٪ من الوقت، فيما يتدر "النصر" ويعز حين يقل حجم الجماعة عن ألف عضو".

* "حين تنخرط جماعة إرهابية ما في تمرد أو عصيان، فإنها لا تزول بيسر أو سهولة، ففيما نسبته ٥٠٪ من الحالات، عمدت الجماعات إلى إجراء مفاوضات للتوصل إلى تسوية مع الحكومة، وفي ٢٥٪ من الحالات، تحقق تلك الجماعات النصر، وفي ١٩٨٪ يتم هزيمتها على أيدى القوات العسكرية". وهو ما ينطبق على العراق وأفغانستان،

إن وجود الحركات "العالمية" مع تلك البراجماتية في أن واحد، كما شهدنا في كل من العراق وأفغانستان، من المحتمل أن يعضد الرادبكائية الكلية للعامة بمن فيهم ذوق الاتجاء الوسطى، وبالمثل، فإن التوصل إلى تساويات سياسية مع الجماعات الإرهابية البراجماتية يخفف كثيرا من حدة احتقان المناخ السياسي المشحون، وحينها يصبح العامة أقل تعاطفا مع الجماعات الإرهابية ممن على شاكلة تنظيم "القاعدة" والذين سيعتبرون، ساعتها، يحاربون من أجل قضية أو مطلب لم يعد متوافقاً مع مصالح العامة.

استجابــة السياســات

قى النهاية، لا يمكن قصل الإرهاب عن أحوال الشعوب، ومشاغلها، وإحباطاتها فى إقليم الشرق الأوسط، وكلنا نعرف أن الإرهاب هو "سلاح الضعيف". بيد أن لجوء المسلمين إلى الإرهاب، رغما عن كونه غير مقبول، لا يجعل مظالمهم غير شرعية. فبالنسبة لإرهابيي تنظيم "القاعدة"، فإن الإسلام كان مثل العدسة المكبرة حين توضع فى الشمس لتلتقط تلك المظالم المشتركة واسعة الانتشار، وتركزها فى شعاع مكثف ... هى لحظة وضوح الرؤية المميزة للممارسات بحق التدخيلات الأجنبية الموطدة لأركانها منذ زمن طويل، فالمظالم قد سبقت الهجمات الإرهابية، وما زالت تحيا إلى الأن.

وكما أشرنا من قبل، لم يبدأ التاريخ في الصادي عشر من أيلول/سبتمبر١٠٠١، فقد شهدت العقود الماضية، وأبرزت جهودا أمريكية حثيثة

ومتسارعة الوتائر لاستمالة إرادة المسلمين نحو الأهداف الأمريكية، ولم يقتصر الأمر على إخفاق تلك الجهود وما صاحبه من عدم التوصل إلى حل لأية مشكلة، بل أسبهم في زيادة حدة الحماسة ضد الولايات المتحدة على امتداد العالم الإسلامي مم كيدها خسائر فادحة.

إن الإرهاب في الشرق الأوسط، وفي غيره من أقاليم العالم يمكن أن يتم تحجيمه على نطاق واسع، ولكن فقط في حالة تراجع الأحوال والظروف التي أدت إلى نشاته، فالجهود الأمريكية المتنامية التي يبذلها الجيش الأمريكي لاقتناص الراديكاليين الماليين وقتلهم لم تؤد إلا إلى إنتاج أجيال جديدة من الراديكاليين أكثر نشاطا وحماسة. ويمكن التدخل العسكري إضعافهم، ولكن أعدادهم تأخذ في الازدياد للطرد بفعل انتقال الجيوش الإسلامية من دائرة صراع إلى دائرة صراع أخرى، أو قيام الشعوب بالتحول إلى العنف ضد أنظمتها السياسية السلطوية ذاتها – والمدعومة من قبل الولايات المتحدة. ولا يستدعى الأمر وجود عدد كبير من العصاة المتمردين أو الإرهابيين لإحداث خلافات وعداءات بين البلدان والجيوش. إن الإحداث المتلال الإسرائيلي لفلسطين، على امتداد أكثر من سنة عقود يوضع، بجلاء، ان الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، على امتداد أكثر من سنة عقود يوضع، بجلاء، انتشار إقليمي، بل وأصداء شبه عالمية.

ويقع عبء إنهاء ظاهرة الإرهاب، في المحل الأخير، على الشعوب الإسلامية ذاتها، ولكن لكى يتحقق ذلك، يجب أن تختفي الظروف الحاضنة لتلك الراديكالية، والتي تولد موجات منتشرة من مذهضة كل ما هو أمريكي. وبلغة أكثر وضوحا، يعني ذلك إنهاء أية تدخيلات أجنبية في البلاان الإسلامية، وكذلك الكف عن الهجمات العسكرية المسلحة من قبل الجنود الأجانب – وهي الصور التي تتتابع، ليل نهار، على شاشات التلفاز على امتداد العالم بأسره، فيما عدا الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها !! ويجب أن تعطى المجتمعات الإسلامية فرصة لالتقاط الأنفاس والهدوء، وأن تعود الأمور إلى نصابها، ثانيا : يمكن للمسلمين أنفسهم البدء بتغيير

طرائق التفكير في مجتمعاتهم لمحارية الإرهاب بطريقة ناجعة. وبالفعل، فمن المحتمل أن يكون الإسلاميون الأكثر تأهيلا لنزع سلاح الراديكاليين المادي والثقافي، ولإصباغ صفة عدم الشرعية على أية شرعية، أيا ما كانت، قد سعى الراديكاليون إلى استغلالها للتوسل بالإسلام — حتى لمطالب غير إسلامية، على أنه قد يكون من الممكن نزع صفة الشرعية عن الأساس الإسلامي لاستخدام الإرهاب واعتماده كمنهج، لا الأسس العملية التي تؤججه، إذ ليس مجرد أن يكون الإسلاميون "دينيين" أن تكون أصواتهم عالية مسموعة، وإنما لأنهم هم الفصيل السياسي الوحيد القائم في تلك اللحظة من التاريخ المعاصر للمسلمين الذين يحظون بالشرعية والاحترام، وعلى نحو عقلاني رشيد، قإن الزعماء المسلمين الدين يحظون بالشرعية والاحترام، وعلى نحو عقلاني رشيد، قإن الزعماء المسلمين الدين يسعوا إلى المناداة أبالاعتدال طائما أن الأحوال الراهنة قد جعلت من العسير الجدال والتحاور بشائه، على أن الأحوال الراهنة لن تبقى أبد الدهر. أما المعتدلين ،.. أولئك الذين لا يمكن أن تحيا أفكارهم، ووجهات نظرهم في ظل ظروف تتسم بالراديكالية.

إن شعار "عدم التسامح نهائيا مع الإرهاب" هو شعار يجب العمل على محوه وإلغائه، فهو شعار أجوف يتسم طابعه بالديماجوچية والطوياوية، تماما مثل شعار "عدم التحسامح نهائيا مع الجريمة"، والذي لا يوجد له أدنى معنى وظيفى في المجتمع المعاصر.

إن الأمر لا يستلزم نفاذ بصيرة لمعرفة أن المسلمين ان يرحبوا بالتدخل الأجنبي المكثف في مجتمعاتهم بأكثر مما سيرحب به المجتمع الأمريكي، كما ان يستلزم الأمر عظيم قريحة وتاقب رؤية للاستنتاج بأن إيقاف الأنشطة والعمليات المؤدية التلك الاستجابات وردات الفعل العنيفة من جانب المجتمعات الإسلامية – قد يكون سياسة معقولة وناجعة كبديل عن المسار الأمريكي المروع القائم بالفعل. وفي هذه المرحلة، فإن الأمور قد تدهورت بشدة وعلى نحو لا يمكن معه أن ينتهي

الإرهاب ضد الولايات المتحدة على نحو مفاجئ حالما غادرت القوات الأمريكية أراضى الإقليم، بيد أنها ستكون الخطوة الأولى التي لا مناص عنها لتخفيف حدة الإرهاب ويطأته، ولا شك في أن الانسحاب العسكرى سوف يدحض ، بقوة، أي تبرير لاستمرار حركات راديكالية على غرار تنظيم "القاعدة"، وفي البلائن الإسلامية، وحيث كان وجود تلك الجماعات ييدو مبررا كأداة لمحاربة الغازى الأجنبي، فلن يكون هناك ترحيب بها بعد اليوم . إن الصير الذي كان يمكن للإرهاب، سابقا، أن يناور فيه سوف ينكمش بسرعة في ظل الظروف الاستراتيجية حين لن تسمح الشعوب الإسلامية أنفسها لمحاربين خارجيين بأن يفرضوا عنفهم عليها، ويتعين علينا ألا نقوم "بأسلمة" تلك المشكلة إذا ما أردنا إدراك طبيعتها المحددة والعملية، وللأسف، كانت واشنطن بطيئة بشأن هجرة ونبذ إصرارها على فرض الهيمنة الاستراتيجية الأمريكية على العالم الإسلامي، بل والعالم بأسره وهو سبب رئيسي لتلك المشكلة.

إن أسلوب أوياما المختلف، وتوجهاته وانفتاحه على معطيات واقترابات جديدة قد استرعى انتباها كبيرا من قبل العالم الإسلامي. ويبدر جليا الكافة أنه يتفهم مشاعر العالم الإسلامي وبوافعه والبلدان النامية الأخرى، فهو يدرك أهمية ما تلعبه الكرامة والاحترام في عمليات التواصل لتحل محل الوعيد، والعجب، وفرض القرة، بيد أن كونه قادرا على تحويل دفة العملية السياسية يظل سؤالا قائما، وأو أن الأحداث لتشير، حتى الآن، إلى أن المهمة ستكون خارج نطاق قدراته، لقد عمل أوباما على شد أزر كثير من المسلمين، بيد أنهم بحاجة إلى رؤية تغيير حقيقي، وحقائق جديدة في الواقع الفعلي. إن القوات البحرية الأمريكية، مع ذلك، ما زالت تغالى في توسعاتها وامتداداتها بأعالى البصار، وتمضى في ذلك وفق حلول عسكرية المشكلات السياسية، والثقافية، والاقتصادية.

نتيجة التغيرات العالمية خلال نصف القرن الفائت، أضحى الإسلام -اليوم-أكثر ثقافات العالم وحضاراته من حيث الوعى السياسي الذاتي، ولقد حاولت أن أعطى صدورة للحضارة الإسلامية في سياق أشمل ينتظم الأحداث العالمية منذ أزمان سحيقة وحتى اليوم، ولعله صار جليا، الآن، كيف أن الأحداث التى نقوم بريطها بالإسلام هي، في حقيقتها، استجابات وردات فعل سياسية واجتماعية تشترك فيها الكثير من المحضارات، والثقافات الأخرى. وبالنسبة لبعض قارئي الكتاب، قد يبنو هذا النصرب من التفسير وكأنه اعتذار موجه إلى الإسلام – بما يوحى من تلمس الأعذار له. بيد أن القصد من وراء هذا الكتاب ليس سردا لمناقب الحضارة الإسلامية ومثالبها. إذ لم أعتزم تقديم تكشف حساب يكل ما هو حسن، أو كل ما هو غير ذلك. وإنما كان الهدف توضيح استجابات المسلمين وعواطفهم واختياراتهم تجاه غير المسلمين و ونكر الأسباب والظروف التي تؤدى إلى أن يشعر الكثير من المسلمين ويتصرفوا وفقاً لما نشهده. وهذا هو أساس الاهتداء إلى يشعر الكثير من المسلمين ويتصرفوا وفقاً لما نشهده. وهذا هو أساس الاهتداء إلى على امتداد العالم الإسلامي، ولكن كلما كانت الأحوال أكثر سوءا، كانت درجة على امتداد العالم الإسلامي، ولكن كلما كانت الأحوال أكثر سوءا، كانت درجة الإحماع التي تنشأ أكبر وأعم.

إن إدراك الديناميكيات المحركة للمجتمعات الأخرى ومعرفتها كان يمكن أن بساعدنا في اجتناب سلسلة طويلة، امتدت لعقود تات عقوداً، من أزمات ومواجهات أمريكية متوقعة مع العراقيين، والفلسطينيين، والأفغان، والبشتون، والصوماليين – أو مع حركات قومية في بلدان أخرى كالصين، وفيتنام، وفنزويلا، أو حتى روسيا اليوم، وكان يمكن لتلك الرؤى أن تتبح لنا تلمس تنامى الضغوط على نحو عنيد ومتصلب ... ذلك التنامى الذي انفجر، في النهاية، في أحداث الحادي عشر من أيلول/سجتمبر ٢٠٠١، وبالطبع، فإن صانعي السياسات الرافضين لأي تفهم لطبيعة المجتمعات الإسلامية، والذين يفضلون نهجهم ذاتي الغرض ... "لماذا يكرهوننا؟" قد قاموا بتنفيذ سياسات فاشلة كان لها انعكاسات سلبية باهظة التكلفة للكافة – وما نجم عنها من مثالب هي الأكثر فداحة على امتداد تاريخ تعامل الولايات المتحدة الأمريكية مم العالم الإسلامي.

الاستراتيجيسةالكبسرى

تماشيا مع عنوان هذا الكتاب، يتعين على واشنطن أن تصبغ سياساتها فى الشرق الأوسط كما لو لم يكن ثمة "إسلام". فجل القضايا فى هذا الإقليم يمكن أن يتم تناولها وحلها دونما اللجوء إلى "الإسلام" كعامل فاعل أو تفسيرى، ويالفعل، فإن اعتبار الإسلام تفسيرا لتلك القضايا يجعل رؤيتنا لها مشوشة ومرتبكة. فالإسلام، ويخاصة فى ثويه الأيديولوجى الأكثر تطرفا، يمكن أن يزيد من تعقد تلك الشكلات وتفاقمها، وإن كان لا يخلقها من الأساس. إذ تنشأ تلك القضايا والمشكلات، بالأحرى، من تحديات إقليمية سياسية، واقتصادية، واجتماعية محددة وواضحة ... تلك التحديات التى تتجاوز العنصر الدينى، حتى وإن تم تغليفها فى غلالة من الخطابة البلاغية الإسلامية.

فلرؤية المشكلات كما لو كانت مرتبطة بالإسلام، نحن مدعوون لتكريس الوقت والطاقة لبحث "الدين" ودراسته، والسعى لتغيير تأويلنا وفهمنا له وفقا لطرائق نجدها أكثر ملاعة لمصالحنا الذاتية. بيد أن أية "نسخة أمريكية للإسلام قدرها أن تقابل بالرفض والاستنكار. وحقيقة الأمر، فإن مصطلح "الإسلام الأمريكي" قد تم نحته، بداءة، إبان الثورة الإيرانية، وهو إحالة لاذعة وساخرة لإسلام مكرس بالكلية للتقوى الفردية، والمبتعد تماما عن مجريات السياسة ومقتضياتها، غير المدرك أو المبال بالقضايا السياسية الساخنة في عالم اليوم - وبعبارة موجزة، ذلك الذي لا ينتج أية أثار جيويوليتيكية. إذاً، فإحالة الأمر إلى "الإسلام" ينقل المشكلة، بصورة جلية، إلى "الآخر"، فلا يستتبع أية دراسة جادة من جانبنا لإخفاقات سياساتنا خاتها، ولكن لا ينصرف القصد من وراء هذا إلى تقرير عدم وجود مشكلات حقيقية في إقليم الشرق الأوسط والعالم النامي تستدعي العمل على علاجها علاجا ناجعا، إذ توجد الكثير من المشكلات في الواقع، وكما أننا لا يمكننا أن نحمل "الإسلام" مسئولية كل شيء، كذلك فإنه لا يمكننا أن نحمل الغرب مسئولية كل شيء، بيد أن إنعام النظر في قضايا بعينها، وإيلاها أهمية قصوى - بما في ذلك أسبابها،

والحلول التي يمكننا القيام بها - هو أكثر الطرق ملاءمة للمضي قدماً.

ومن أجل تحجيم حدة المواجهة الحالية ما بين المالم الإسلامي، والولايات المتحدة الأمريكية - يتوجب علينا القيام بالخطوات المحددة التالية :

* يجب المعمل على إنهاء التدخل العسكرى والسياسى الغربي في العالم الإسلامي - وكلها مظاهر مثيرة ومستغزة للمسلمين - بما يضمن أن تسترد المنطقة استقرارها وسلامها، ويعنى ذلك انسحاب جميع القوات الأمريكية والغربية من أراضي العالم الإسلامي،

* يجب تفعيل مجهودات التعرف إلى الممارسات الإرهابية وإحباطها من خلال مجهودات الشرطة وأجهزة الاستخبارات، كذلك يجب أن يكون القبض على الإرهابيين مهمة المنظمات النولية والبلدان المعنية، لا مهمة الولايات المتحدة الأمريكية التى تتشط عبر امتدادات وتوسعات غير قانونية خارج أراضيها لممارسة سيادتها في القبض على الأفراد واغتيالهم وفقا لإرادتها المطلقة.

* يتعين على الولايات المتحدة أن توقف دعمها المميز لكل ديكتاتور موال لها يشوه سمعتها ويكذب التزاماتها المصرح بها بشأن الديمقراطية، ويؤدى إلى تهيئة مناخ سياسى قابل للانفجار، فضلا عن إذكاء مشاعر الاستياء ضد كل ما هو أمريكي،

* يجب العمل على دفع مسيرة الديمقراطية في أرجاء العالم الإسلامي، على ألا تكون واشنطن هي المحرك الذي يقود توطيد الديمقراطية هناك. فالوضع المثالي يكمن في أن تكف واشنطن يدها عن تلك العملية لئلا تشارك في إفسادها، كما كانت عليه الحال فيما مضي، من خلال ربطها بمصالح الولايات المتحدة الذاتية. فالاستخدام الانتقائي والوظيفي السابق للديمقرطية، والذي مارسته واشنطن لتحقيق الأهداف الاستراتيجية الأمريكية قد شوه المفهوم ذاته الذي تنبني عليه برامجها لإحلال الديمقراطية.

* يتعين على الولايات المتحدة أن ترتضى أن الأحراب الإسلامية سوف يتم انتخابها، في ظل المناخ الديمقراطي، على نحو شرعى في انتخابات مبكرة، وذلك في معظم البلدان الإسلامية. ولعل الأمر السار هو أن الإسلاميين سيتم استيعادهم سريعا في خلال عام أو تحوه إذا لم يلتزموا بتحقيق وعودهم التي قطعوها على أنفسهم أمام الجماهير، أو إذا لم ترق ممارساتهم إلى توقعات تلك الجماهير وتطلعاتها. ويعنى ذلك معالجة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية الملحة، وليست الخطابة الجوفاء المناهضة للإمبريائية.

* يجب التوصل سريعا إلى حل المشكلة الفلسطينية، والتي ينظر إليها على المتداد العالم الإسلامي بأسره باعتبارها أكثر حالات الإمبريالية فظاعة وشناعة ... تلك الإمبريالية التي اقتلعت السكان المحليين وزجت بهم في أحوال معيشية متردية بائسة في مخيمات اللاجئين، وفرضت عليهم أن يصبحوا مواطنين من الدرجة الثانية في إسرائيل، أو أجبرتهم على ترك الوطن إلى المنفى – وذلك على استداد أكثر من سنة عقود، ولقد تزايدت حدة معاناة الفلسطينيين بالتوازي مع راديكالية انتشرت فيما هو أبعد من فلسطين. وتستلزم هذه الأزمة حلا سريعا ناجزا، والذي يبدو أن خطوطه وملامحه العامة معروفة لجميع الأطراف، إن المطامع الكولونيالية بعود في وجهودها الحثيثة في الأقاليم الفلسطينية يجب أن توضع نهاية الها.

* إذا ما تم تخصيص ما نسبته ١٠٪ من التريليون دولار أمريكى أو يزيد، والذى تغدقه واشنطن على حروب الشرق الأوسط التي حصدت الكثير من الأرواح، ونجم عنها خراب وتدمير طائلان دونما مبرر ... لو تم هذا التخصيص لبناء المدارس، والجامعات، والستشفيات، والعيادات الطبية، ومعاهد التدريب، فسيشهد الإقليم تحولا إيجابيا كبيرا، وستتحسن صورة الولايات المتحدة هناك تحسنا ملحوظا، فضلا عن إمكانية إنجاز تقدم ملموس في الأحوال المعيشية بالإقليم،

* يمكن أن تضع السياسات الأمريكية المستنيرة نهاية للمصادر الدولية وقوق

القومية للعنف والمراديكانية في وقت قصير، أما المنابع المحية للعنف، في كل قطر على حدة، فتستلزم تحليلات منفصلة ومستقلة، وعلاجا يتماشى والظروف الدلخلية المحلية، إذ لا تشكل تلك المتابع، عامة، مشكلة ملحة مقارنة بمثيلاتها الدولية.

* وحدهم المسلمون (أى السكان المحليون) هم القادرون، في النهاية، على إيجاد حلول بشأن الراديكالية الإسلامية (أى المحلية).

بيد أن التغير المعاصر الإسلام، ويسبب عدة عوامل تاريخية مركبة، غالبا ما نجده اليوم يفتقد التوجيه، فضلا عن كونه خائر القوة، منقسما على ذاته، غارقا في قوضى ما بعد الكولونيالية، كذلك فهو يصارع من أجل الإصلاح وإعادة بناء الكرامة والاستقلالية – كل ذلك في مواجهة هجوم عسكرى، وسياسي، وثقافي شرس من قبل الغرب. إن جنور الإسلام ورؤيته لبعيدة الغور شاسعة المدى، ومن المكن أن تنشأ نهضة ثقافية إذا لم يتم إعاقتها بالقوى الجيوبوليتيكية العالمية المتوحشة، والمتصارعة في سبيل امتلاك أسباب القوة، والتفوذ، ومصادر النفط، والقواعد العسكرية في قلب العالم الإسلامي.

إن الحضارة الإسلامية هى حضارة الفكر الروحانى، والثقافى، والاجتماعى العميق، بيد أنها حضارة يتم انتهاكها فى الوقت الحاضر، إذ من الأفضل ألا يتم استثارتها بلا مسوغ فى هذه اللحظة الحرجة من مسيرة تطورها، حين تستشعر أنها تقع تحت تهديد يطال وجودها ذاته، إذ إن مثل ذلك الهجوم عليها ليعمل فقط على إبراز أكثر مناحيها تعصباً ورجعية وتصعيده، وتنحية نوافع الإصلاح والاعتدال، ودفع المسلمين إلى التحفز والاستعداد للهجوم.

ويجب أن ينهض الغرب لمواجهة ذلك التحدى - بيد أن الغرب، في الحقيقة، مصاب بالقصام فيما يخص تصرفاته، وسلوكه. فالغرب، من الداخل، هو صاحب أرفع سجلات المسارات الديمقراطية والرفاه الاقتصادى، والتعليم، وحماية حقوق الإنسان وحقوق الأقليات، كما أن لديه جمهرة من المؤسسات لحراسة تلك الحقوق

وحمايتها، وينظر العالم الإسلامي إلى تلك الخصائص والمزايا نظرة إعزاز وتبجيل، وعلى الجانب الآخر، فإن الغرب -على الصعيد الدولى- قد قام، على نحو شائن، بانتهاكات عديدة لحقوق الإنسان، وكذا الحريات الفردية، والحق في الحياة وفقا لسياساته الخارجية، وقيادته لحملات إمبريالية وعسكرية -كل ذلك تحت دعاوى مثالية كمناهضة الشيوعية، والدمقرطة، وحماية الزعامة والريادة الأمريكية، والاحتراز من الإرهاب. ويذهب العالم الإسلامي إلى كراهية تلك السمات والخصائص، إذ عاني المسلمون كثيرا جراء تلك الحملات العسكرية بأكثر مما عساهم قد أقادوا من سياسات الولايات المتحدة الأمريكية، إن الغرب، ويخامنة الولايات المتحدة بما لديها من قوة ونفوذ، أمامه طريق طويل ليجعل ما ينادي به من مثاليات قومية ينطبق، بالفعل، على سلوكه في سياساته الخارجية.

إن الانتهاكات التى أوغرت صدر العالم الإسلامى ضد الغرب لم تحدث بسبب كون الأخير شيرا فى ذاته، وإنما لأنه قد امتلك النفوذ والقوة القيام بكل تلك الانتهاكات للآخرين على صعيد دولى، إننى ان أكون سعيدا حين أرى تركيزا النفوذ الدولى فى أيدى أخرين كفرنسا، أو الملكة المتحدة، أو ألمانيا، أو الصين، أو روسيا، أو أيا من كان، والحقيقة هى أن الولايات المتحدة الأمريكية تمتلك، الأن، نفوذا دوليا طاغيا، بيد أن احتكار القوة والنفوذ لم يكن بالأمر الصحى وفق أى سياق كان، إن دستور الولايات المتحدة به ضوابط تشريعية، فهناك قوانين محارية الاحتكار التى تهدف إلى منع أية شركة، مهما تكن درجة امتيازها، من الاستئثار بالسوق بمفردها، ومنعها من سحق المناخ التنافسي القائم، وبالمثل، ينبغي ألا نرى احتكاراً للقوة والنفوذ على الصعيد الدولى – إذ ليس ذلك في صالح أحد مطلقاً.

إن الإسلام، وفن الحكم وإدارة شئونه - من المرجع أن يترابطا، على نحو ما، خلال الفترة الزمنية المقبلة، وبالنسبة للمسلمين، فإن ذلك يعد تأكيدا على أن القيم والأخلاقيات في الممارسة السياسية لن يتم تجاهلها في لعبة القوة التي غالبا ما كانت ذات طابع متشكك في طبيعة الدوافع البشرية. كذلك، فلن يتم تجاهل "الدين"

آو تهميشه كقوة في مجريات العلاقات الدولية في أي مكان على وجه المعمورة. إذ يبدو "الدين" كجزء من الفلسفة الإنسانية وحنينها القلبي الدائم إلى الانعتاق للتحليق صوب عوالم أرقى وأرحب، على أن "الدين" في ربطه بالسياسة يبدو مزيجا متناقضا، إذ لا يعد كشفا أو إلهاما ملاحظة أن القوة في ارتباطها بأية أيديولوجية وينحو أحدهما لإفساد الآخر، فإن لم يكن ثمة "إسلام"، لكانت قد وجدت بالطبع ديانات أخرى تضطلع بالدور ذاته في ظل ظروف ممائلة، أما في حالة غياب الأديان كلها، لكنا قد اهتدينا إلى —أو قمنا بخلق—أيديولوجيات أخرى لتبرير الأفعال والممارسات ذاتها، إذاً، "فعالم بلا إسلام" لا يغير كثيرا من طبيعة الأمور.

فإذا ما حسبنا أن "الدين" كان قوة سلبية في تاريخ العالم المعاصر، فلننظر البديل. لم يكن "الدين"، بحال، ايفعل أسوأ مما فعل العنف العلماني المتوحش، والمجازر غير المسبوقة التي سيطرت على المشهد الغربي طيلة القرن العشرين، والذي اشتمل على حربين كونيتين، ونظم فاشستية ونازية وشيوعية —لا صلة لأي منها بالدين على الإطلاق. إن التطرف العلماني قد جلب علينا وبالا هائلا، فالمشكلة الحقيقية تكمن في طبيعة الأمال البشرية، وما تصبو إليه النفوس، إن خيرا أو شراء إننا في الغرب سنكون أفضل حالا وأرشد مالا إذا قمنا "بلاأسلمة" رؤيتنا للقضايا الإقليمية، والنظر إليها باعتبارها مشاكل اجتماعية وسياسية ذات طابع إنساني عالى ، ... مشاكل قد أسه منا بنصيب منها، ويذا يقع على عاتقنا جزء من مسئوليتها.

صدر من هذه السلسلة

- ١- محمد (ص)
- ٧- صدام الحضارات
 - ٣- عصر الجينات
 - ٤ القدس
- ه⊶ العولة والعولة المضادة
- ٦- التاريخ السرى للموساد
- ٧- من يخاف استنساخ الإنسان؟
 - ۸ جریم محمد علی
 - ٩- عولة الفقر
 - ١٠ منور حية من إيران
 - ١١ اليحث عن العدل
- ١٢ لورانس: ملك العرب غير المتوج
 - ١٣ــ الصهيونية تلتهم العرب
 - ١٤ معارك في سبيل الإله
- ١٥- التطبيع ومقارمة الغزوة الصهيرنية
 - ١٦- التسوية: أي أرض.. أي سلام
 - ١٧ المكنز الكبير
 - ١٨- الحق يخاطب القوة

- ا ۱۹_نساء في مواجهة نساء
- ٢٠ مؤامرة الغرب الكبرى
 - ٢١ ـ روسيا .. إلى أين
- ٢٢- موسوعة الأم والطفل
 - ٣٢ الخدعة الرهيبة
 - ٢٤- نهاية الإنسان
 - ٢٥- خدعة التكنولوچيا
 - ٢٦- ٢٦٥ حتوتة وحتوتة
- ٢٧⇒ يوش صُد العراق ... لماذا؟
 - ٢٨- أين الخطأ ؟
 - ٢٩- اللواب المزدوج
 - ٣٠ رجال بيض أغبياء
 - ٣١– سادة العالم الجدي
 - ٣٢- الخطيئة الأولى لإسرائيل
 - ٣٣– اللعب مع الصغار
 - ٣٤- الإبادة السياسية
 - ٢٥ حكومة العالم السرية
 - ٣٦- ما بعد الإمبراطورية

٣٧- بوش في بابل

٣٨- المقاومة العراقية .. ومستقبل النظام

الدولي

٣٩- تزييف الوعى

٤ – القانون في خيمة من ؟

۱۶ – کفی

٤٢- معنى هذا كله

٤٢ حياة بلا روابط

23- ٢٦٥ حدوثة وحدوثة

٥٥- أنا والعولة .. عالم بديل ممكن..

٤٦ جسدي سلاحاً

٤٧ – ثالوث الشر

٨٤ - الحضارة الإسلامية المسيحية

٤٩ - أمــريكا العظمى.. أحـــزان

الإمبراطورية

٥٠ - الطُّريقُ إلى استُويرُمَان

١٥- مدريون على القتال

٥٢ معاداة السامية الجديدة

٥٣- إيادة العالم الثالث

٥٤- بيولوچيا الخوف

هه- لغرّ اسمه الألم

۵۱- تعليم بلا دموع

∨ه− أحمد مستجير

٨٥- العين بالعين

۹۰– شاڤير

و٦- قصص الأشباح

71 - حزب الله

٣٢- الإنسان هو الحل

٦٣- السيارات المفخخة

۲۶- بلاکووټر

ه٦- حضارتهم وخلاصنا

٦٦- نحو الحرية،، تلسون منديلا

٧٧ - العهد

١٨ – مزرعة الحيرانات

٦٩- أطفال الإنترنت

٧٠- لعبة الملايين

٧١- تجارة الجنس

٧٢ - الأمريكي الساذج

٧٣- الأبرياء

٧٤- الشباب والجنس

٥٧- التربية من عام إلى عشرين عام

٧٦- فلورانس وإداورد

٧٧ - الجهاد في سبيل الحقيقة

۷۸- غاندی (۲)، رؤی، تأملات، اعترافات

٧٩ شرف البنت

٨٠- الزواج المحرم

۸۱– أنبياء مزيفون

٨٢- إمبراطورية العار

٨٢- اختطاف أمريكا

٨٤- شريعة الجستابق

ه۸− رومانسية العلم

٨٦ – احتفاء فلسطين

٨٧ – من هم إسرائيل

٨٨ - تالاتون كتاباً في كتاب

٨٩ اقتصاد الاحتيال البريء

٩٠ الله.. باذا؟

٩١- الأمراض المعدية

٩٢ - الطريق إلى بئر سبع

٩٢ مجمع الشيطان

٩٤ في ذكري المقاومة

ه٩- خطايا تحرير المرأة

٩٦- دساتير من ورق؟

٩٧ - صِبْنًا عِ المُلُوكَ

٩٨ - منتاعة الأكاذيب

٩٩- عندما تحكم الصين العالم

١٠٠- الحركة العامة للاقتصاد المصري

في نصف قرن

١٠١– رحلة السندباد

١٠٢- وجه أوياما الأبيض

١٠٢– تشي چيڤارا سيرة للنشء

١٠٤- أنا أقترض.. أنا موجود

ه١٠٠ قصة قيس بوك

١٠١- غواية الرجال

٧- ١- تأثير إيران ونفوذها في للنطقة

١٠٨- للعرفة في خدمة الهيمنة

٩٠٩- البيتار «سبيرة للنشء ٢»

• ١١ - أسامة بن لادن «سيرة للنشء ٤»

١١١- «كاليجولا» مسرحية من ٤ فصول

١١٢- المسلمون الافتراضيون

١١٢- القاعدة نهاية تنظيم، أم انطلاق تنظيمات؟

١١٤- مافيا إخفاء الأموال المنهوية

١١٥- الدولة الدينية في لليهودية

والمسيحية والإسلامية

١١٦ - مُرشد الوالدين

١١٧ – أجيال في خطر

١١٨- العرب... رود الفكر الاقتصادي

١١٩ - تركيا الأمة الغاضية

-١٢- انقراض العالم الثالث

١٢١ الثورة العربية والثورة المضادة
 أمريكية الصنع

الأقصبي ينهار

١٢٣ – مرشد المحتجين والثوار

١٢٤ - الإسلاموفوبيا

١٢٥ - مصر كما تريدها أمريكا

١٢٦- الدين ووظائفه السياسية

١٢٧ - خطياء المساجد؛ من الدُعوة إلى

التحريض.





المؤلف في سطور

جرايهام إى. فوار، هو نائب رئيس مجلس الاستخبارات الوطنية بوكالة الاستخبارات الأمريكية سابقا، وكبير الباحثين السياسيين الأسبق بمؤسسة RAND، ويشغل حاليا منصب الأستاذ المساعد لعلم التاريخ بجامعة سيمون فريزر، وقد ألف فوار كتبا عديدة تناولت الشرق الأوسط، منها، "مستقبل الإسلام السياسي"، وقد أمضي قرابة العقدين يحيا ويعمل في ربوع العالم الإسلامي.

٧	***************************************
44	الجزءالأول
	هرطقات وقوى سلطوية
49	النصل الأول: الإسلام والملل الإبراهيمية
٥٧	النصل الثاني: السلطة -الهرطقة- وتطور المسيحية
٧٧	الغمل الثالث: بيزنطة وروما قطبا المسيحية المتعاديان
	الغصل الرابع: الإسلام والمسيحية الشرقية
119	الفعل الذامس؛ الحروب الصليبية وسيسان
	الغصل الحادس؛ أصداء مشتركة : الإصلاح البروتستانتي والإسلام
۲۷۲	الجزءالثاني
	الحدود الحضارية للإسلام
17.1	النصل النابع: روما 'الثالثة': روسيا والإرث الأرثوذكسي
7-7	النصل النامن: روسيا والإسادم: بيزنطة ما زالت تحيا!!
177	الغصل التامع: المسلمون في الغرب مواطنون نوو ولاء أم طابور خامس؟
ודיו	النصل العاشر: الإسلام والهند
71	النعل العادى عشر: الإسلام والصين

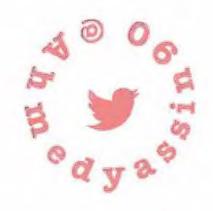
447

الجزءالثالث

الإسلام والعالم المعاصر

	النعل الثاني عشر: الكواونيالية - القوميات - الإسلام والصراع من
799	أجِل التحري عبيبي عبيبي المستحد المستحدد المستحد
771	الغصل الثالث عشر: الحرب - المقاومة - الجهاد - الإرماب
	الفعل الرابع عشر: ما العمل؟ نحو سياسة جديدة للتعامل مع العالم
ToV	الإسلامي
317	المؤلف في سطور سيسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسسس





تصوير أحمد باهبن تويتر @Ahmedyassin90

